سلسلة نصوص تراثية للباحثين (٥٨٨)

إنكم إذا مثلهم

في مصنفات العقيدة والتفسير

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٤هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام https://t.me/dralhoshan

"يعطهم؛ لما علم أنهم لا يهتدون أبدا، وهو التوفيق، فهذا يرد على من لا يجعل الهدى إلا بيانا؛ إذ قد بين لهم ذلك.

* * *

قوله تعالى: (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

وقوله - عز وجل -: (بشر المنافقين) بكذا.

البشارة المطلقة المرسلة لا تكون إلا بالخير خاصة، وأما إذا كانت مقيدة مفسرة فإنها تجوز في الشر؛ كقوله - تعالى -: (بشر المنافقين بأن لهم) كذا، وكذلك قوله - تعالى -: (فبشرهم بعذاب أليم)، وفي القرآن كثير، ما ذكرها في الشر إلا مفسرة مقيدة.

وقوله - عز وجل -: (بشر المنافقين) - يدل هذا على أن الآية الأولى في أهل النفاق والمراءاة، علي ما ذكرنا من التأويل؛ لأنه لم يسبق فيما تقدم ذكر لهم سوى قوله - تعالى -: (آمنوا آمنوا بالله ورسوله). ويحتمل على الابتداء والانتناف على غير ذكر تقدم، وذلك جائز في القرآن كثير.

ثم فسر المنافقين فقال: (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين)

ثم يحتمل قوله - تعالى -: (يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) قولا وفعلا:

أما القول: كقولهم: (إنا معكم إنما نحن مستهزئون)، وغيره من الآيات.

وأما الفعل: فكانوا يمنعون المؤمنين أن يغزوهم؛ كقوله - تعالى -: (وإن منكم لمن ليبطئن)، وكقوله: (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم)، وكقوله - تعالى -: (فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين)، كانوا يمنعون أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين عن أن يغزوهم ويقاتلوهم؛ فهم - وإن كانوا يرون." (١)

"من أنفسهم الموافقة للمؤمنين في الظاهر -فإنهم كانوا في الحقيقة- معهم؛ فهذا - والله أعلم - تأويل قوله: (يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين).

وقوله - عز وجل -: (أيبتغون عندهم العزة).

قيل: قوله - تعالى -: (أيبتغون) على طرح الألف وأنها زائدة، أي: يبتغون بذلك من عندهم العزة.

ثم يحتمل قوله - تعالى -: (أيبتغون عندهم العزة) وجهين:

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور المَاتُرِيدي ٣/٣٩٠

يحتمل: العزة: المنعة والنصرة، وكانوا يطلبون بذلك النصرة والقدرة عند الكافرين.
ويحتمل: ليتعززوا بذلك.
والأصل: أن حرف الاستفهام كله من الله – له حق الإيجاب، على ما يقتضي جوابه من حقيقة الاستفهام؛ إذ الله عالم لا يخفى عليه شيء يستفهم، جل عن ذلك.
وقوله – عز وجل –: (فإن العزة لله جميعا)
أي: والنصرة والقدرة، كله لله، من عنده يكون، وبه يتعزز في الدنيا والآخرة، ليس من عند أولئك الذين يطلبون منهم.

وقوله – عز وجل –: (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ... (١٤٠)
قال بعضهم: قوله – تعالى –: (وقد نزل عليكم في الكتاب) – هو ما ذكر في سورة الأنعام، وهو قوله – تعالى –: (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره)، ثم قال: (وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء)؛ لأنه نهاهم – عز وجل – عن القعود معهم إذا خاضوا في طعن القرآن وآيات الله؛ فأخبر أن ليس لهم من حسابهم من شيء إذا قعدوا.
ثم قال في هذه الآية: (فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم): نهاهم – عز وجل – عن القعود معهم، وأخبر أنهم إذا فعلوا ذلك يكونوا مثلهم؛ فهو – والله أعلم – على النسخ: نسخ هذا الأول.
ويحتمل أن يكون قوله – تعالى –: (وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء)." (١)
"يشبه أن يكون قوله: (يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم) أن يكون، أي: يكفرون بها ويستهزئون بها؛ كما قال في سورة النساء: (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها)، فيكون خوضهم في الآيات الكفر بها والاستهزاء بها، ويكون قوله – تعالى –: (فأعرض عنهم)، أي: لا تقعد معهم؛ كما قال: (فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم).
وقوله – عز وجل –: (فأعرض عنهم).
يحتمل: النهي عن القعود معهم على ما ذكرنا من قوله: (فلا تقعدوا معهم).
ويحتمل الإعراض: الصفح عنهم وترك المجازاة لمساويهم؛ كقوله – تعالى –: (فاصفح عنهم وقل سلام)؛ أو كقوله تعالى: (فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا)، وفيه الأمر بالتبليغ فينهى عن القعود معهم والأمر بالتبليغ.
وقوله – عز وجل –: (وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) ومعناه – والله أعلم –: أن الشيطان إذا أنساك القعود معهم فلا تقعد بعد ذكر الذكرى، ومعنى النهي بعد ما أنساه الشيطان، أي: لا تكن بالمحل الذي يجد الشيطان إليك سبيلا في ذلك.

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور المَاتُرِيدي ٣٩١/٣

وقوله – عز وجل –: (وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون (٦٩)
قيل فيه رخصه الجلوس معهم؛ وهو كقوله: (ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين)، ثم نسخ ذلك بقوله – تعالى –: (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره)، وكان النهي عن مجالستهم ليس للجلوس نفسه، ولكن ما ذكرنا من خوضهم في آيات الله بالاستهزاء بها والكفر بها هو الذي كان يحملهم على ذلك، ليس ألا يجوز أن تجالسهم، وكذلك ما نهانا أن نسبهم ليس ألا يجوز لنا أن نسبهم، ولكن لما كان سبنا إياهم هو الذي يحملهم على سب الله.." (١)

"عزا إذا غلبه. (فإن العزة لله جميعا) أي الغلبة والقوة لله. قال ابن عباس: (يبتغون عندهم) يريد عند بني قينقاع، فإن ابن أبي كان يواليهم.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٤٠ الى ١٤١]

وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

قوله تعالى: (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها) الخطاب لجميع من أظهر الإيمان من محق ومنافق، لأنه إذا أظهر الإيمان فقد لزمه أن يمتثل أوامر كتاب الله. فالمنزل قوله تعالى: (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره «١»). وكان المنافقين يجلسون إلى أحبار اليهود فيسخرون من القرآن. وقرأ عاصم ويعقوب (وقد نزل) بفتح النون والزاي وشدها، لتقدم اسم الله جل جلاله في قوله تعالى: (فإن العزة لله جميعا). وقرأ حميد كذلك، إلا أنه خفف الزاي. الباقون (نزل) غير مسمى الفاعل. (أن إذا سمعتم آيات الله) موضع (أن إذا سمعتم) على قراءة عاصم ويعقوب نصب بوقوع الفعل عليه. وفي قراءة الباقين رفع، لكونه اسم ما لم يسم فاعله. (يكفر بها) أي إذا سمعتم الكفر والاستهزاء بآيات الله، فأوقع السماع

---

(١). راجع ج ٧ ص ١٢." (٢)

"على الآيات، والمراد سماع الكفر والاستهزاء، كما تقول: سمعت عبد الله يلام، أي سمعت اللوم في عبد الله. قوله تعالى: (فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره) أي غير الكفر. (إنكم إذا مثلهم) فدل بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر، لأن من لم يجتنبهم فقد رضي فعلهم، والرضا بالكفر كفر، قال الله عز وجل: (إنكم

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور المَاتُرِيدي ١١٩/٤

(٢) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٤١٧/٥

إذا مثلهم). فكل من جلس في مجلس «١» معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية. وقد روي عن عمر بن عبد العزيز [رضي الله عنه «٢»] أنه أخذ قوما يشربون الخمر، فقيل له عن أحد الحاضرين: إنه صائم، فحمل عليه الأدب وقرأ هذه الآية (إنكم إذا مثلهم) أي إن الرضا بالمعصية معصية، ولهذا يؤاخذ الفاعل والراضي بعقوبة المعاصي حتى يهلكوا بأجمعهم. وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات، ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر من المقارنة، كما قال:

فكل قرين بالمقارن يقتدي

وقد تقدم «٣». وإذا ثبت تجنب أصحاب المعاصي كما بينا فتجنب أهل البدع والأهواء أولى. وقال الكلبي: قوله تعالى (فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره) نسخ بقوله تعالى: (وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء «٤»). وقال عامة المفسرين: هي محكمة. وروى جويبر عن الضحاك قال: دخل في هذه الآية كل محدث في الدين مبتدع إلى يوم القيامة. قوله تعالى: (إن الله جامع المنافقين) الأصل (جامع) بالتنوين فحذف استخفافا، فإنه بمعنى يجمع. (الذين يتربصون بكم) يعني المنافقين، أي ينتظرون بكم الدوائر.

---

(١). في ج: موضع.

(٢). من ج وط.

(٣). راجع ص ١٩٤ من هذا الجزء.

(٤). راجع ج ٦ ص ٤٣١." (١)

"وقوته ورزقه ويقولون الخير من الله والشر من إبليس (. قال: فيكفرون بالله ثم يقرءون على ذلك كتاب الله، فيكفرون بالقرآن بعد الإيمان والمعرفة؟ قال: (فما تلقى أمتي منهم من العداوة والبغضاء والجدال أولئك زنادقة هذه الأمة). وذكر الحديث. ومضى في" النساء" وهذه السورة النهي عن مجالسة أهل البدع والأهواء، وأن من جالسهم حكمه حكمهم فقال:" وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا «١» " الآية. ثم بين في سورة" النساء" وهي مدنية عقوبة من فعل ذلك وخالف ما أمر الله به فقال:" وقد نزل عليكم في الكتاب" الآية «٢». فألحق من جالسهم بهم. وقد ذهب إلى هذا جماعة من أئمة هذه الأمة وحكم بموجب هذه الآيات في مجالس «٣» أهل البدع على المعاشرة والمخالطة منهم أحمد بن حنبل والأوزاعي وابن المبارك فإنهم قالوا في رجل شأنه مجالسة أهل البدع قالوا: ينهى عن مجالستهم، فإن انتهى وإلا ألحق بهم، يعنون في الحكم. وقد حمل عمر بن عبد العزيز الحد على مجالس شربة الخمر، وتلا" إنكم إذا مثلهم". قيل له «٤»: فإنه يقول إني أجالسهم لأباينهم وأرد عليهم. قال «٥» ينهى عن مجالستهم، فإن لم ينته ألحق بهم.

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٤١٨/٥

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٥٤ الى ١٥٥]

ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون (١٥٤) وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون (١٥٥)

قول تعالى: (ثم آتينا موسى الكتاب) مفعولان. (تماما) مفعول من أجله أو مصدر. (على الذي أحسن) قرئ بالنصب والرفع. فمن رفع- وهي قراءة يحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق- فعلى تقدير: تماما على الذي هو أحسن. قال المهدوي: وفيه بعد من أجل حذف المبتدأ العائد على الذي. وحكى سيبويه عن الخليل أنه سمع" ما أنا بالذي قائل لك شيئا". ومن نصب فعلى أنه فعل ماضي داخل في الصلة، هذا قول البصريين. وأجاز الكسائي والفراء

---

(١). راجع ص ١٢ من هذا الجزء.

(٢). راجع ج ٥ ص ٤١٧.

(٣). في ك: مجالسه.

(٤). كذا في ك. وفي ب وج وز وى: قيل لهم. قالوا.

(٥). كذا في ك. وفي ب وج وز وى: قيل لهم. قالوا.." [(١)]

"وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)

(وقد نزل عليكم في الكتاب) الخطاب لجميع من أظهر الإيمان من مؤمن ومنافق لأن من أظهر الإيمان فقد لزمه أن يمتثل ما أنزل الله، وقيل: إنه خطاب للمنافقين فقط كما يفيده التشديد والتوبيخ، والكتاب هو القرآن والذي أنزله الله عليهم في الكتاب هو قوله تعالى (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره) وهذا نزل بمكة لأنه قد كان جماعة من الداخلين في الإسلام يقعدون مع المشركين واليهود حال سخريتهم بالقرآن واستهزائهم به فنهوا عن ذلك.

ثم إن أحبار اليهود بالمدينة كانوا يفعلون مثل فعل المشركين، وكان المنافقون يجلسون إليهم ويخوضون معهم في الاستهزاء بالقرآن فنهى الله المؤمنين عن القعود معهم بقوله (أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها) أي إذا سمعتم الكفر والاستهزاء بآيات الله، فأوقع السماع على الآيات، والمراد سماع الكفر والاستهزاء.

(فلا تقعدوا معهم) ما داموا كذلك (حتى) غاية للنهي (يخوضوا في حديث غيره) أي حديث الكفر والاستهزاء.

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٤٢/٧

وفي هذه الآية باعتبار عموم لفظها الذي هو المعتبر دون خصوص السبب دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التنقص والاستهزاء للأدلة الشرعية، كما يقع كثيرا من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء." (١)

"الرجال بالكتاب والسنة، ولم يبق في أيديهم سوى قال إمام مذهبنا كذا، وقال فلان من أتباعه بكذا، وإذا سمعوا من يستدل على تلك المسئلة بآية قرآنية أو بحديث نبوي سخروا منه ولم يرفعوا إلى ما قاله رأسا، ولا بالوا به بالة وظنوا أنه قد جاء بأمر فظيع وخطب شنيع، وخالف مذهب إمامهم الذي نزلوه منزلة معلم الشرائع.

بل بالغوا في ذلك حتى جعلوا رأيه القائل، واجتهاده الذي هو عن منهج الحق مائل، مقدما على الله وعلى كتابه وعلى رسوله فإنا لله وإنا إليه راجعون، ما صنعت هذه المذاهب بأهلها، والأئمة الذين انتسب هؤلاء المقلدة إليهم برآء من فعلهم فإنهم قد صرحوا في مؤلفاتهم بالنهي عن تقليدهم كما أوضح الشوكاني ذلك في القول المفيد وأدب الطلب، اللهم انفعنا بما علمتنا واجعلنا من المتقيدين بالكتاب والسنة، وباعد بيننا وبين آراء الرجال المبنية على شفا جرف هار، يا مجيب السائلين.

قال ابن عباس: دخل في هذه الآية كل محدث في الدين وكل مبتدع إلى يوم القيامة.

(إنكم إذا مثلهم) مستأنفة سيقت لتعليل النهي أي أنكم إن فعلتم ذلك وقعدتم معهم ولم تنتهوا فأنتم مثلهم في الكفر واستتباع العذاب (١)، قيل

---

(١) روى الإمام أحمد ٢/ ١٤٨ بترتيب الساعاتي، والترمذي ٤/ ٢٠ وحسنه، والنسائي ١/ ١٩٨ من حديث جابر أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر " وهو حديث صحيح. قال ابن حجر: أخرجه النسائي من حديث جابر مرفوعا وإسناده جيد، قلت: وليس في النسائي الشطر الثاني من الحديث، وأخرجه الترمذي من وجه آخر بسند فيه ضعف، وأبو داود في " سننه " ٣/ ٤٧٧ عن ابن عمر بسند فيه انقطاع، وأحمد ١/ ٢١٠ عن عمر- بسند فيه مجهول. وفي " القرطبي " ٥٢٢/ ٤١٧! فكل من جلس مجلس معصية، ولم ينكر عليهم أن يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكر عليهم، فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية.." (٢)

"تكرر منهم الارتداد، وعهد منهم ازدياد الكفر، والإصرار عليه يستبعد منهم أن يحدثوا ما يستحقون به المغفرة ويستوجبون اللطف، من إيمان صحيح ثابت، يرضاه الله؛ لأن قلوب أولئك الذين هذا ديدنهم قلوب ضربت بالكفر، ومرنت على الردة، حيث كان الإيمان أهون شيء عندهم، وأدونه حيث يبدو لهم فيه كرة بعد أخرى ".

اللهم هبنا إيمانا ثابتا وقلوبا مخلصة نقية من أخلاط الريب، إنك سميع الدعاء.

* * *

(بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٦٨/٣

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٦٩/٣

لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

* * *." (١)

"وعلى ذلك يكون ضمير الخطاب للمؤمنين وضمير الغيبة للمنافقين والكافرين.

وقد بين سبحانه أن القعود مع الأشرار، وسماع كلمات الكفر والاستهزاء، يجعل المؤمن كالكافر والمنافق، ولذا قال سبحانه: (إنكم إذا مثلهم) أي إنكم أيها المؤمنون إن استمعتم إلى الكفار والمنافقين وهم يعلنون الكفر بآيات الله تعالى وجحودها تكونون مثلهم في الاستهانة بكتاب الله تعالى ورسالة الرسول الأمين، والاستهانة بالأحكام الإسلامية، وقد رأينا ذلك عيانا، فإن أولئك الذين يجالسون الفرنجة ويقرءون ما يكتبون عن الإسلام، ويثيرون السخرية على أحكامه تسري إليهم العدوى، ولقد سمعنا بعض هؤلاء ممن يتسمى باسم إسلامي، وهو من أسرة إسلامية، يتهكم على قوله تعالى: (للذكر مثل حظ الأنثيين. . .)، فلعنه الله تعالى، ولعنة الله على كل من لا يؤمن بسلامة هذه القضية، ولعنة الله على كل من ينكر ميراث القرآن أو يهون من شأنه.

وإن الآية يستفاد منها فوائد: أولها أن الاستهزاء بالحقائق القرآنية لا يقدم عليه مؤمن. وثانيها أن الاستماع إلى الكفر بها والاستهزاء يجعل السامع كالمتكلم؛ لأن السكوت لا يخلو من رضا ولو كان جزئيا، ثالثها أن الشر يسري من القائل إلى السامع كما يسرى السم في الجسد، وكما يجري الشيطان في النفس.

وقد أكد سبحانه النهي عن مجالسة المنافقين بقوله تعالت كلماته: (إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا) أي أنه إذا كان المنافقون يطلبون العزة من الكافرين، ويطلبون الولاء والنصرة منهم ويحاولون بذلك أن يجتمعوا على النبي - صلى الله عليه وسلم -، فإن الله سبحانه وتعالى جامعهم في الذل والهوان، لا في العز والاستمكان، إنه جامعهم في جهنم جميعا بلا استثناء قط؛ لأنهم تحدوا الله ورسوله، ولأنهم جحدوا بآيات الله تعالى وسخروا منها، ولأن كلمة الكفر تجمعهم وتفرقهم في النوع لا في الأصل. فإن الكفار قسمان: قسم أعلن الكفر." (٢)

"العقل والإدراك، ويلهون لأنه عبث يحبثون به، ولا غاية له عند أهل الفكر والمنطق، ولا على أن يفسر الدين بما هم عليه من عبادة الأوثان.

ويرد على ذلك التفسير أن هذا ليس جديرا بأن يسمى دينا، ولو كان مضافا إليهم.

ورأى بعض المفسرين أن المراد من دينهم الإسلام؛ لأنه الدين الذي جاء إليهم، وهم مخاطبون به، ومكلفون أن يتبعوه، فهو دينهم الذي جاء به رسول منهم، وهو الذي ارتضاه لهم أن يكون دينا، وقد اتخذوا ذلك الدين لعبا ولهوا، إذ لم يفهموا ما

---

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١٩٠٧/٤

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١٩١٢/٤

هم عليه، ومعنى اتخاذه لعبا ولهوا أنهم سخروا بمن اتبعه، وتهكموا على أهله، وأخذوا يخوضون فيه لعبا في مجالسهم، ولهوا عن الحق، يزكي ذلك قوله تعالى: (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره. . .). وقال تعالى: (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠).

وإن هذا اللعب وذلك اللهو وتعابثهم بالمؤمنين سببه هو غرورهم بالحياة الدنيا، وفهمهم لها أنها غاية الوجود ونهايته، ولذلك قال تعالى عاطفا على قوله تعالى: (اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا). أي خدعتهم هذه الحياة، وما اتخذوه فيها من مباهج غير ملتفتين للحياة الآخرة، ولا مؤمنين بها، ولا بالبعث والنشور، (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون).

خدعوا بالحياة الدنيا، فكان منهم ما كان من العبث بالحقائق الدينية والسخرية بأهلها، ولذا أمر الله تعالى نبيه – وإن ذلك فيه معنى التهديد لهم – بأن يتركهم في غيهم حتى يفاجئوا بمآلهم، ولكن مع ذلك أمر الله تعالى نبيه." (١)

" لأنهما فى حكم شيء واحد وقوله تعالى : **إنكم إذا مثلهم تعليل** للنهى غير داخل تحت التنزيل و إذا ملغاة لأن شرط عملها النصب فى الفعل أن تكون فى صدر الكلام فلذا لم يجيء بعدها فعل و مثل خبر عن ضمير الجمع وصح مع إفراده لأنه الأصل مصدر فيستوى فيه الواحد المذكر وغيره وقيل : لأنه كالمصدر فى الوقوع على القليل والكثير أولأنه مضاف لجمع فيعم وقد يطابق ماقبله كقوله تعالى : ثم لايكونوا أمثالكم والجمهور على رفعه وقرىء شاذا بالنصب فقيل : إنه منصوب على الظرفية لأن معنى قولك : زيد مثل عمرو فى أنه حال فى مثله وقيل : إنه إذا أضيف الى مبنى اكتسب البناء ولايختص ذلك بما المصدرية كما توهم بل يكون فيها مثل مثل ماأنكم تنطقون وفى غيرها كقوله : فأصبحوا قد أعاد الله نعمتهم اذهم قريش وإذ ما مثلهم بشر وابن مالك يشترط لاكتساب البناء أن لايقبل المضاف للتثنية واجمع كدون وغير وبين ولم يصحح ذلك فى مثل وأعربه حالا من الضمير المستتر فى حق فى قوله تعالى : انه لحق مثل ما أنكم تنطقون وقوله تعالى إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا تعليل لكونهم مثلهم فى الكفر ببيان ما يستلزمه من شركتهم لهم فى العذاب والمراد من المنافقين إما المخاطبون وأقيم المظهر مقام المضمر تسجيلا لنفاقهم وتعليلا للحكم بمأخذ الاشتقاق وإما للجنس وهم داخلون دخولا أوليا وتقديمهم لتشديد الوعيد على المخاطبين وانتصابه على الحال طرز مامر واستشكل كون الخطاب للمنافقين بأنهم مثل للكافرين فى الكفر من غير سببية القعود معهم فلا وجه لترتيب الجزاء على الشرط والعدول عن كون المماثلة فى الكفر إلى المماثلة فى المجاهرة به لايحسن معه كون جملة إن الله الخ تعليلا لكونهم مثلهم بتلك المماثلة بالطريق الذي ذكر وأيضا الذين نهوا عن مجالسة الكافرين والمستهزئين بمكة هم المؤنون المخلصون لاالمنافقون لأن نجم النفاق إنما ظهر بالمدينة فكيف يذكر المنافقون فيها بنهى نزل فى مكة قبل أن يكونوا

وأجيب عن هذا بأنه إن سلم أن المنزل على النبي صلى الله عليه و سلم وان خوطب به خاصة منزل على الأمة مخلصهم زمنافقهم إلى قيام الساعة صح دخول المنافقين وإن لم يكونوا وقت النزول وإن لم يسلم ذلك فان ادعى الاقتصار

---

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٢٥٠٠/٥

على النبي صلى الله عليه و سلم لم يدخل المؤمنون المخلصون أيضا وإن ادعى دخولهم فقط دون المنافقين الذين هم منؤنون ظاهرا فلا دليل عليه كيف جميع الأحكام متعلقة بالمؤمنين كيف كانوا ولسنا مكافين بأن نشق على قلوب العباد بل لنا الظاهر والله تعالى يتولى السرائر على أنه قد قام الدليل على أن الأحكام الشرعية التى كانت صدر الاسلام ولم تنسخ مخاطب بها من نطق بالكلمة الطيبة وبلغته قبل يوم الساعة فقد قال الله تعالى : لأنذركم به ومن بلغ ولهذه الدغدغة قال بعض المحققين : إن المقصود من الخطاب هنا المؤمنون الصادقون والمراد بمن يكفر ويستهزىء أعم من المنافقين والكافرين وضمير معهم للمفهوم من الفعلين ويؤيد ذلك مانقل عن الواحدى أنه قال : كان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود فيسخرون من القرآن فنهى الله تعالى عن مجالستهم والمراد من المماثلة فى الإثم لأنهم قادرون على الاعراض والانكار لاعاجزون كما فى مكة أو فى الكفر على معنى إن رضيتم بذلك وهو مبنى على أن الرضا بكفر الغير كفر من غير تفصيل وهى رواية عن أبي حنيفة رضى الله تعالى عنه عثر عليها صاحب الذخيرة ." (١)

"قال ابن كثير : والإعراض هو : كتمان الشهادة وتركها . قال تعالى ؟ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ؟ ، قال النبي – صلى الله عليه وسلم – : « خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها » . ولهذا توعدهم الله بقوله : ؟ فإن الله كان بما تعملون خبيرا ؟ . والله أعلم .

* * *

الدرس الثامن والستون

؟ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا (١٣٦) إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١) إن." (٢)

"قوله عز وجل : ؟ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١) ؟ .

قوله : ؟ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث

(١) روح المعاني، ١٧٣/٥

(٢) توفيق الرحمن / فيصل آل مبارك، ٨٢/٢

غيره إنكم إذا مثلهم ؟ يشير إلى قوله في سورة الأنعام : ؟ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ؟ . وعن هشام بن عرفة قال : أخذ عمر بن عبد العزيز قوما على شراب فضربهم وفيهم صائم فقالوا : إن هذا صائم ، ؟ فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم ؟ .." (١)

"يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رجع فيه ، ثم عاد فيه ، ثم رجع واستمر على ضلالة وازداد حتى مات ، فإنه لا توبة بعد موته ، ولا يغفر الله له ، ولا يجعل له مما هو فيه فرجاً ولا مخرجاً ولا طريقاً إلى الهدى ، ولهذا قال : ﴿ لَّمْ يَكُنِ الله لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً ﴾ قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس ، في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ازدادوا كُفْراً ﴾ قال : تمادوا على كفرهم حتى ماتوا . وعن علي B أنه قال : يستتاب المرتد ثلاثاً ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازدادوا كُفْراً لَّمْ يَكُنِ الله لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً ﴾ ، ثم قال : ﴿ بَشِّرِ المنافقين بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ ، يعني أن المنافقين من هذه الصفة فإنهم آمنوا ثم كفروا ، فطبع على قلوبهم ، ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة ، ويقولون لهم إذا خلوا بهم ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة : ١٤] أي بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة قال الله تعالى منكراً عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العزة ﴾ ثم أخبر الله تعالى بأن العزة كلها له وحده لا شريك له ولمن جعلها له كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العزة فَلِلَّهِ العزة جَمِيعاً ﴾ [فاطر : ١٠] وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ولكن المنافقين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨] ، والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله ، والإقبال على عبوديته والانتظام في جملة عباده المؤمنين ، الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكتاب أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حتى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ ﴾ ، أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ، ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها ، وأقررتموهم على ذلك فقد شاركتموهم في الذي هم فيه . فلهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ ﴾ في المأثم كما جاء في الحديث : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر » ، والذي أحيل عليه في هذه الآية من النهي في ذلك ، هو قوله تعالى في سورة الأنعام وهي مكية : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الذين يَخُوضُونَ في آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [الأنعام : ٦٨] الآية . قال مقاتل بن حيان : نَسَخَتْ هذه الآية التي في سورة الأنعام ، يعني نسخ قوله : ﴿ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ ﴾ ، لقوله : ﴿ وَمَا عَلَى الذين يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ولكن ذكرى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ٦٩] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الله جَامِعُ المنافقين والكافرين فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً ﴾ ، أي كما أشركوهم في الكفر ، كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبداً ، ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال والقيود والأغلال وشراب الحميم والغسلين .." (٢)

---

(١) توفيق الرحمن / فيصل آل مبارك، ٨٦/٢

(٢) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير، ص/٥٦٧

"يقول تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ ﴾ أي بالقرآن الذي جئتهم به والهدى والبيان ﴿ قَوْمُكَ ﴾ يعني قريشاً ، ﴿ وَهُوَ الحق ﴾ أي الذي ليس وراءه حق ، ﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ ، أي لست عليكم بحفيظ ، ولست بموكل بكم كقوله : ﴿ وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] ، أي إنما عليَّ البلاغ وعليكم السمع والطاعة ، فمن اتبعني سعد في الدنيا والآخرة ، ومن خالفني فقد شقي في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال : ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ قال ابن عباس : أي لكل نبأ حقيقة ، أي لكل خبر وقوع ولو بعد حين ، كما قال : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : ٨٨] وقال : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد : ٣٨] ، وهذا تهديد ووعيد أكيد ، ولهذا قال بعده : ﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الذين يَخُوضُونَ في آيَاتِنَا ﴾ أي بالتكذيب والاستهزاء ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حتى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ أي حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشيطان ﴾ ، والمراد بذلك كل فرد فرد من آحاد الأمة ، أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها ، فإن جلس أحد معهم ناسياً ﴿ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذكرى ﴾ بعد التذكر ﴿ مَعَ القوم الظالمين ﴾ ، ولهذا ورد في الحديث : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » وقال السدي في قوله : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشيطان ﴾ ، قال : إن نسيت فذكرت ﴿ فَلاَ تَقْعُدْ ﴾ معهم ، وكذا قال مقاتل بن حيان ، وهذه الآية هي المشار إليها في قوله : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكتاب أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حتى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٠] الآية ، أي إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك فقد ساويتموهم فيما هم فيه ، وقوله : ﴿ وَمَا عَلَى الذين يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ أي إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك فقد برئوا من عهدتهم وتخلصوا من إثمهم ، قال ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ، قوله : ﴿ وَمَا عَلَى الذين يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ قال : ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك ، أي إذا تجنبتم وأعرضت عنهم ، وقال آخرون : بل معناه : وإن جلسوا معهم فليس عليهم من حسابهم من شيء ، وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية وهي قوله : ﴿ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٠] ، قاله مجاهد والسدي وابن جريج وغيرهم . وعلى قولهم يكون قوله : ﴿ ولكن ذكرى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذٍ تذكيراً لهم عما هم فيه لعلهم يتقون ذلك ولا يعودون إليه .." (١)

"وقال صلى الله عليه وسلم إنما الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم إني صائم // حديث الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائما الحديث أخرجاه من حديث أبي هريرة // وجاء في الخبر أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا أن تتلفا فبعثتا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذناه في الإفطار فأرسل إليهما قدحا وقال صلى الله عليه وسلم قل لهما قيئا فيه ما أكلتما فقاءت إحداهما نصفه دما عبيطا ولحما غريضا وقاءت الأخرى مثل ذلك حتى ملأتاه فعجب الناس من ذلك فقال صلى الله عليه وسلم هتان صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله تعالى عليهما قعدت إحداهما إلى الأخرى فجعلتا يغتابان الناس فهذا ما أكلتا من لحومهم // حديث إن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير، ص/٧٤٦

عليه وسلم الحديث في الغيبة للصائم أخرجه أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث بسند فيه مجهول //

الثالث كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه لأن كل ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه ولذلك سوى الله عز وجل بين المستمع وآكل السحت فقال تعالى سماعون للكذب أكالون للسحت وقال عز وجل لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت فالسكوت على الغيبة حرام وقال **تعالى إنكم إذا مثلهم ولذلك** قال صلى الله عليه وسلم المغتاب والمستمع شريكان في لإثم // حديث المغتاب والمستمع شريكان في الإثم غريب وللطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة //

الرابع كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل عن المكاره وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار." (١)

"فصل

قال الجصاص :

وقوله تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾ الآية.

فيه نهي عن اتخاذ الكافرين أولياء ؛ لأنه جزم الفعل ، فهو إذا نهي وليس بخبر.

قال ابن عباس نهى الله تعالى المؤمنين بهذه الآية أن يلاطفوا الكفار ؛ ونظيرها من الآي قوله تعالى : ﴿ لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ﴾ وقال تعالى : ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ﴾ الآية.

وقال تعالى ﴿ فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ وقال تعالى : ﴿ فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم ﴾** ، وقال تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾ وقال تعالى : ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ وقال تعالى : ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾.." (٢)

"(إن الذين آمنوا ثم كفروا . ثم آمنوا ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا . بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أيبتغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعا . وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره **. إنكم إذا مثلهم** . إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا . الذين يتربصون بكم ، فإن كان لكم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟ فالله ، يحكم بينكم يوم القيامة ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلا . مذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا

---

(١) جامع لطائف التفسير، ٤١٤/٣

(٢) جامع لطائف التفسير، ٢٩٢/١٢

؟ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيرا). . [١٣٧ - ١٤٥] . .
(١) ".

"فأمر - سبحانه وتعالى - بالإعراض عن سماع هذا القول، ونهى عن القعود مع قائليه قال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ﴾ [سورة النساء: ١٤٠]. فجعل سبحانه المستمع لهذا الحديث مثل قائله فكيف سبحانه يمدح مستمع كل قول، وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) ﴾ [سورة المؤمنون: ١-٣]. وقال تعالى في وصف عباده: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [سورة الفرقان: ٧٢]. أي أكرموا أنفسهم عن استماعه، فإذا كان الله - سبحانه وتعالى - قد أثنى على من أعرض عن اللغو ومر به كريماً، فأكرم نفسه عن استماعه، فكيف يجوز أن يقال: إن الألف واللام للاستغراق، وينسب إلى الله سبحانه، أنه مدح مستمع كل قول، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) ﴾ [سورة الإسراء: ٣٦]. فقد أخبر سبحانه أنه يسأل العبد عن سمعه وبصره وفؤاده ونهاه أن يقفو أي يتبع ما ليس به علم.

وإذا كان السمع والبصر والكلام والفؤاد منقسماً إلى ما يؤمر به وينهى عنه والعبد مسؤول عن ذلك كله فكيف يجوز أن يقال: كل قول في العالم فالعبد ممدوح على استماعه ونظير هذا أن يقال: كل مرئي في العالم فالعبد ممدوح على النظر إليه لقوله: ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [سورة يونس: ١٠١] وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٥].." (٢)

---

(١) جامع لطائف التفسير، ١٩/٣٣٠
(٢) دراسة ترجيحات الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان، ص/١٦

بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) ﴾ ... ١٥٠

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) ﴾ ... ١٥١

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢) ﴾ ... ١٥٢." (١)

" ١٤٠ - ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب ﴾ الخطاب لجميع من أظهر الإيمان من مؤمن ومنافق لأن من أظهر الإيمان فقد لزمه أن يمتثل ما أنزله الله وقيل : إنه خطاب للمنافقين فقط كما يفيده التشديد والتوبيخ وقرأ عاصم ويعقوب ﴿ نزل ﴾ بفتح النون والزاي وتشديدها وفاعله ضمير راجع إلى اسم الله تعالى في قوله ﴿ فإن العزة لله جميعا ﴾ وقرأ حميد بتخفيف الزاي مفتوحة مع فتح النون وقرأ الباقون بضم النون مع كسر الزاي مشددة على البناء للمجهول وقوله ﴿ أن إذا سمعتم آيات الله ﴾ في محل نصب على القراءة الأولى على أنه مفعول نزل وفي محل رفع على القراءة الثانية على أنه فاعل وفي محل رفع على أنه مفعول ما لم يسم فاعله على القراءة الثالثة وأن هي المخففة من الثقيلة والتقدير أنه إذا سمعتم آيات الله والكتاب : هو القرآن وقوله ﴿ يكفر بها ويستهزأ بها ﴾ حالان : أي إذا سمعتم الكفر والاتسهزاء بآيات الله فأوقع السماع على الآيات والمراد سماع الكفر والاستهزاء وقوله ﴿ فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ أي : أنزل عليكم في الكتاب أنكم عند هذا السماع للكفر والاستهزاء بآيات الله لا تقعدوا معهم ما داموا كذلك حتى يخوضوا في حديث غير حديث الكفر والاستهزاء بها والذي أنزل الله عليهم الكتاب هو قوله تعالى ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ وقد كان جماعة من الداخلين في الإسلام يقعدون مع المشركين واليهود حال سخريتهم بالقرآن واستهزائهم به فنهوا عن ذلك

وفي هذه الآية باعتبار عموم لفظها الذي هو المعتبر دون خصوص السبب دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التنقص والاستهزاء للأدلة الشرعية كما يقع كثيرا من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء الرجال بالكتاب والسنة ولم يبق في أيديهم سوى قال إمام مذهبنا كذا وقال فلان من أتباعه بكذا وإذا سمعوا من يستدل على تلك المسألة بآية قرآنية أو بحديث نبوي سخروا منه ولم يرفعوا إلى ما قاله رأسا ولا بالوا به بالة وظنوا أنه قد جاء بأمر فظيع وخطب شنيع وخالف مذهب إمامهم الذي نزلوه منزلة معلم الشرائع بل بالغوا في ذلك حتى جعلوا رأيه الفائل واجتهاده الذي هو عن منهج الحق مائل مقدما على الله وعلى كتابه وعلى رسوله فإنا لله وإنا إليه راجعون ما صنعت هذه المذاهب بأهلها والأئمة الذين انتسب هؤلاء المقلدة إليهم برآء من فعلهم فإنهم قد صرحوا في مؤلفاتهم بالنهي عن تقليدهم كما أوضحنا ذلك في رسالتنا المسماة ب [القول المفيد في حكم التقليد] وفي مؤلفنا المسمى ب [أدب الطلب ومنتهى الأرب] اللهم انفعنا بما علمتنا واجعلنا من المقتدين بالكتاب والسنة وباعد بيننا وبين آراء الرجال المبنية على شفا جرف هار يا مجيب السائلين

---

(١) دراسة ترجيحات الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان، ص/١٩

قوله ﴿ إنكم إذا مثلهم ﴾ تعليل للنهي : أي إنكم إن فعلتم ذلك ولم تنتهوا فأنتم مثلهم في الكفر قيل : وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر كما في قول القائل :

(وكل قرين بالمقارن يقتدي)

وهذه الآية محكمة عند جميع أهل العلم إلا ما يروى عن الكلبي فإنه قال : هي منسوخة بقوله تعالى ﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾ وهو مردود فإن من التقوى اجتناب مجالس هؤلاء الذين يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها قوله ﴿ إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ﴾ هذا تعليل لكونهم مثلهم في الكفر قيل : وهم القاعدون والمقعود إليهم عند من جعل الخطاب موجها إلى المنافقين ." (١)

" قوله ١٤١ - ﴿ الذين يتربصون بكم ﴾ أي : ينتظرون بكم ما يتجدد ويحدث لكم من خير أو شر والموصول في محل نصب على أنه صفة للمنافقين أو بدل منهم فقط دون الكافرين لأن التربص المذكور هو من المنافقين دون الكافرين ويجوز أن يكون في محل نصب على الذم ﴿ فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم ﴾ هذه الجملة والجملة التي بعدها حكاية لتربصهم : أي إن حصل لكم فتح من الله بالنصر على من يخالفكم من الكفار ﴿ قالوا ﴾ لكم ﴿ ألم نكن معكم ﴾ في الاتصاف بظاهر الإسلام والتزام أحكامه والمظاهرة والتسويد وتكثير العدد ﴿ وإن كان للكافرين نصيب ﴾ من الغلب لكم والظفر بكم ﴿ قالوا ﴾ للكافرين ﴿ ألم نستحوذ عليكم ﴾ أي : ألم نقهركم ونغلبكم ونتمكن منكم ولكن أبقينا عليكم وقيل المعنى : إنهم قالوا للكفار الذين ظفروا بالمسلمين ألم نستحوذ عليكم حتى هابكم المسلمون وخذلناهم عنكم ؟ والأول أولى فإن معنى الاستحواذ : الغلب يقال استحوذ على كذا : أي غلب عليه ومنه قوله تعالى ﴿ استحوذ عليهم الشيطان ﴾ ولا يصح أن يقال : ألم نغلبكم حتى هابكم المسلمون ولكن المعنى : ألم نغلبكم يا معشر الكافرين ونتمكن منكم فتركناكم وأبقينا عليكم حتى حصل لكم هذا الظفر بالمسلمين ﴿ ونمنعكم من المؤمنين ﴾ بتخذيلهم وتثبيطهم عنكم حتى ضعفت قلوبهم عن الدفع لكم وعجزوا عن الانتصاف منكم والمراد أنهم يميلون مع من له الغلب والظفر من الطائفتين ويظهرون لهم أنهم كانوا معهم على الطائفة المغلوبة وهذا شأن المنافقين أبعدهم الله وشأن من حذا حذوهم من أهل الإسلام من التظهر لكل طائفة بأنه معها على الأخرى والميل إلى من معه الحظ من الدنيا في مال أو جاه فيلقاه بالتملق والتودد والخضوع والذلة ويلقى من لاحظ له من الدنيا بالشدة والغلظة وسوء الخلق ويزدري به ويكافحه بكل مكروه فقبح الله أخلاق أهل النفاق وأبعدها قوله ﴿ فالله يحكم بينكم يوم القيامة ﴾ بما انطوت عليه ضمائرهم من النفاق والبغض للحق وأهله ففي هذا اليوم تنكشف الحقائق وتظهر الضمائر وإن حقنوا في الدنيا دماءهم وحفظوا أموالهم بالتكلم بكلمة الإسلام نفاقا ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾ هذا في يوم القيامة إذا كان المراد بالسبيل النصر والغلب أو في الدنيا إن كان المراد به الحجة قال ابن عطية : قال جميع أهل التأويل : إن المراد بذلك يوم القيامة قال ابن العربي : وهذا ضعيف لعدم فائدة الخبر فيه وسببه توهم من توهم أن آخر الكلام يرجع إلى أوله يعني قوله ﴿ فالله يحكم بينكم يوم القيامة ﴾ وذلك يسقط فائدته إذ يكون تكرارا هذا معنى كلامه وقيل المعنى : إن الله لا يجعل للكافرين سبيلا على المؤمنين يمحو

(١) فتح القدير، ٧٩٤/١

به دولتهم ويذهب آثارهم ويستبيح بيضتهم كما يفيده الحديث الثابت في الصحيح [وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا] وقيل : إنه سبحانه لا يجعل للكافرين سبيلا على المؤمنين ما داموا عاملين بالحق غير راضين بالباطل ولا تاركين للنهي عن المنكر كما قال تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ قال ابن العربي : وهذا نفيس جدا وقيل : إن الله لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا شرعا فإن وجد فبخلاف الشرع هذا خلاصة ما قاله أهل العلم في هذه الآية وهي صالحة للاحتجاج بها على كثير من المسائل

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ﴾ الآية قال : هم اليهود والنصارى آمنت اليهود بالتوراة ثم كفرت وآمنت النصارى بالإنجيل ثم كفرت وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عنه في الآية قال : هؤلاء اليهود آمنوا بالتوراة ثم كفروا ثم ذكر النصارى فقال ﴿ ثم آمنوا ثم كفروا ﴾ يقول : آمنا بالإنجيل ثم كفروا ﴿ ثم ازدادوا كفرا ﴾ بمحمد صلى الله عليه و سلم وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في الآية قال : هؤلاء المنافقون آمنوا مرتين ثم كفروا مرتين ثم ازدادوا كفرا بعد ذلك وأخرج ابن أبي حاتم عن عباس في قوله ﴿ ثم ازدادوا كفرا ﴾ قال : تموا على كفرهم حتى ماتوا وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي وائل قال : إن الرجل ليتكلم في المجلس بالكلمة من الكذب ليضحك بها جلساءه فيسخط الله عليهم جميعا فذكروا ذلك لإبراهيم النخعي فقال : صدق أبو وائل أو ليس ذلك في كتاب الله ؟ ﴿ فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : أنزل في سورة الأنعام ﴿ حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ ثم ينزل التشديد في سورة النساء ﴿ إنكم إذا مثلهم ﴾ وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير أن الله جامع المنافقين من أهل المدينة والكافرين من أهل مكة الذين خاضوا واستهزأوا بالقرآن في جهنم جميعا وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ الذين يتربصون بكم ﴾ قال : هم المنافقون يتربصون بالمؤمنين ﴿ فإن كان لكم فتح من الله ﴾ إن أصاب المسلمين من عدوهم غنيمة قال المنافقون ﴿ ألم نكن ﴾ قد كنا ﴿ معكم ﴾ فأعطونا من الغنيمة مثل ما تأخذون ﴿ وإن كان للكافرين نصيب ﴾ يصيبونه من المسلمين قال المنافقون للكفار ﴿ ألم نستحوذ عليكم ﴾ ألم نبين لكم أنا على أما أنتم عليه قد كنا نثبطهم عنكم وأخرج ابن جرير عن السدي ﴿ ألم نستحوذ عليكم ﴾ قال : نغلب عليكم وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الشعب والحاكم وصححه عن علي أنه قيل له : أرأيت هذه الآية ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾ وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون فقال : ادنه ادنه ثم قال ﴿ فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾ وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : في الآخرة وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس نحوه وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبي مالك نحوه أيضا وأخرج ابن جرير عن السدي ﴿ سبيلا ﴾ قال : حجة ." (١)

" وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا

(١) فتح القدير، ١/٧٩٥

قوله تعالى وقد نزل عليكم في الكتاب وقرأ عاصم ويعقوب نزل بفتح النون والزاي قال المفسرون الذي نزل عليهم في النهي عن مجالستهم قوله في الأنعام ٦٨ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم وكان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود فيسخرون من القرآن ويكذبون به فنهى الله المسلمين عن مجالستهم وآيات الله هي القرآن والمعنى إذا سمعتم الكفر بآيات الله والاستهزاء بها فلا تقعدوا معهم حتى يأخذوا في حديث غير الكفر والاستهزاء إنكم إن جالستموهم على ما هم عليه من ذلك فأنتم مثلهم وفي ماذا تقع المماثلة فيه قولان

أحدهما في العصيان والثاني في الرضى بحالهم لأن مجالس الكافر غير كافر وقد نبهت الآية على التحذير من مجالسة العصاة قال إبراهيم النخعي إن ." (١)

"وعلى ذلك يكون ضمير الخطاب للمؤمنين وضمير الغيبة للمنافقين والكافرين.

وقد بين سبحانه أن القعود مع الأشرار ، وسماع كلمات الكفر والاستهزاء ،

يجعل المؤمن كالكافر والمنافق ، ولذا قال سبحانه :

(إنكم إذا مثلهم @ أى إنكم أيها المؤمنون إن استمعتم إلى الكفار والمنافقين

وهم يعلنون الكفر بآيات الله تعالى وجحودها تكونون مثلهم فى الاستهانة بكتاب الله تعالى ورسالة الرسول الأمين ، والاستهانة بالأحكام الإسلامية ، وقد رأينا ذلك عيانا ، فإن أولئك الذين يجالسون الفرنجة ويقرءون ما يكتبون عن الإسلام ، ويثيرون السخرية على أحكامه تسرى إليهم العدوى ، ولقد سمعنا بعض هؤلاء ممن يتسمى باسم إسلامى ، وهو من أسرة إسلامية ، يتهكم على قوله تعالى : (للذكر مثل حظ الأنثيين... @لأ أ النساء ، فلعنه الله تعالى ، ولعنة الله على كل من لا يؤمن بسلامة هذه القضية ، ولعنة الله على كل من ينكر ميراث القرآن أو يهون من شأنه.

وإن الآية يستفاد منها فوائد : أولها أن الاستهزاء بالحقائق القرآنية لا يقدم عليه مؤمن. وثانيها أن الاستماع إلى الكفر بها والاستهزاء يجعل السامع كالمتكلم ؟ لأن السكوت لا يخلو من رضا ولو كان جزئيا ، ثالثها أن الشر يسرى من القائل إلى السامع كما يسرى السم فى الجسد ، وكما يجرى الشيطان فى النفس.

وقد أكد سبحانه النهى عن مجالسة المنافقين بقوله تعالت كلماته :

@يو إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا@و أى أنه إذا كان النافقون يطلبون العزة من الكافرين ، ويطلبون الولاء والنصرة منهم ويحاولون بذلك أن يجتمعوا على النبى (صلى الله عليه وسلم) لمج@ا ، فإن الله سبحانه وتعالى جامعهم فى الذل والهوان ، لا فى العز والاستمكان ، إنه جامعهم فى جهنم جميعا بلا استثناء قط ؟ لأنهم تحدوا الله ورسوله ، ولأنهم جحدوا بآيات الله تعالى وسخروا منها ، ولأن كلمة الكفر تجمعهم وتفرقهم فى النوع لا فى الأصل. فإن الكفار قسمان : قسم أعلن الكفر." (٢)

(١) زاد المسير، ٢/٢٢٨

(٢) زهرة التفاسير، ص/١٩١٢

"العقل والإدراك ، ويلهون لأنه عبث يعبثون به ، ولا غاية له عند أهل الفكر والمنطق ، ولا على أن يفسر الدين بما هم عليه من عبادة الاوثان.

ويرد على ذلك التفسير أن هذا ليس جديرا بأن يسمى دينا ، ولو كان مضافا إليهم.

ورأى بعض المفسرين أن المراد من دينهم الإسلام ؟ لأنه الدين الذى جاء إليهم ، وهم مخاطبون به ، ومكلفون أن يتبعوه ، فهو دينهم الذى جاء به رسول منهم ، وهو الذى ارتضاه لهم أن يكون دينا ، وقد اتخذوا ذلك الدين لعبا ولهوا ، إذ لم يفهموا ما هم عليه ، ومعنى اتخاذه لعبا ولهوا أنهم سخروا بمن اتبعه ، وتهكموا على أهله ، وأخذوا يخوضون فيه لعبا فى مجالسهم ، ولهوا عن الحق ، يزكى ذلك قوله تعالى : (وإذا رأيت الذين يخو فون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره... ١١ لأنحام ، . وقمال تحالى : (وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم ايات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا أ النساء ، .

وإن هذا اللعب وذلك اللهو وتعابثهم بالمؤمنين سببه هو غرورهم بالحياة الدنيا ، وفهمهم لها أنها غاية الوجود ونهايته ، ولذلك قال تعالى عاطفا على قوله تعالى : (تخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا. أى خدعتهم هذه الحياة ، وما اتخذوه فيها من مباهج غير ملتفتين للحياة الآخرة ، ولا مؤمنين بها ، ولا بالبعث والنشور ، (وما الحياة الدنيا إلا لدبئ ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أ الاءنعام ، .

خدعوا بالحياة الدنيا ، فكان منهم ما كان من العبث بالحقائق الدينية والسخرية بأهلها ، ولذا أمر الله تعالى نبيه – وإن ذلك فيه معنى التهديد لهم – بأن يتركهم فى غيهم حتى يفاجئوا بمآلهم ، ولكن مع ذلك أمر الله تعالى نبيه." (١)

"التحذير من مجاورة ومجالسة أهل الظلم

قال تعالى: ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ [النساء:١٤٠]: وهذا أصل في الكتاب العزيز وفي ديننا بصفة عامة، ألا وهو أن أهل الظلم ينبغي ألا يجاوروا ولا يساكنوا والأدلة على هذا متعددة، قال الله تعالى: ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾ [هود:١١٣]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر)، وقد (أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإخراج المخنثين من البيوت).

وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر قاتل التسعة والتسعين نفسا، ثم أتمهم بشخص فكان المجموع مائة، فذكر أن العالم أفتاه أن يترك أرضه أرض السوء.

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بنفي البكر من الزناة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (خذوا عني! خذوا عني! قد جعل الله لهن سبيلا: البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم) فالشاهد: أن السنة في الزناة الأبكار أن يغربوا وينفوا من البلاد سنة.

---

(١) زهرة التفاسير، ص/٢٥٥٠

وأيضا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها، ثم إن زنت فليجلدها، ثم إن زنت فليجلدها ولا يثرب، فإن عادت فليبعها وولو بضفير) أي: بضفير شعر، وذلك ليتخلص منها.

فهذه النصوص كلها تضع لنا أصلا؛ وهو البعد عن مجالسة أهل الظلم، والحرص على مجالسة أهل الصلاح، فإن أهل الصلاح لا يشقى بهم جليسهم، وأهل الفساد قال الله سبحانه: ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ [الأنفال:٢٥] أي: لا تنزل بالمصيبة على الظالمين فحسب بل تعم.

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: (يغزو جيش الكعبة، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم، قالت عائشة : يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم يا رسول الله؟! قال: يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة) الحديث.

فكل هذه النصوص تؤصل لنا أصلا قويا وهو: أن الشخص ينبغي أن يحترز أشد الاحتراز من مجالسة أهل الظلم والفسق ولا يجلس معهم إلا بقدر، ويؤيد هذا الباب أيضا بقوله تعالى: ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ [النور:٣] ويتأيد هذا الأصل أيضا بما ورد من أنه: (كان النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فقالت امرأة لناقتها: شأ لعنك الله -أي: امشي لعنك الله- فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تصحبنا ناقة ملعونة) ورد النبي صلى الله عليه وسلم الناقة، وأيضا في هذا الباب من الطرف ما يكاد يكون خفيا كقول الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام موصيا ولده إسماعيل (غير عتبة بابك).

فكل هذه النصوص تدل على أصل ثابت في شريعتنا، وهو أن الشخص لا ينبغي أن يوالي الكفار وأهل الظلم، فإنه يلحقه من موالاتهم ومجالستهم نار وعذاب، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾ [هود:١١٣] إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك فهذه الضرورة تقدر بقدرها، وإذا انتهت فلا معنى للجلوس، قال الله جل ذكره: ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ [النساء:١٤٠]، وإذا لم تفعلوا وتتركوا المجلس: ﴿ **إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ﴾ [النساء:١٤٠] عياذا بالله.

فالآية تصور الواقع الذي نعيشه: أقوام يلتمسون من الكفار العزة، ويطيرون إليهم، ويستبشرون بمقابلتهم، فرب العزة يقول: ﴿ إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ﴾ [النساء:١٤٠].." (١)

"[وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم] أى وإن كثيرا من الكفار المجادلين ، ليضلون الناس بتحريم الحلال وتحليل الحرام ، بغير شرع من الله ، بل بمجرد الأهواء والشهوات

[إن ربك هو أعلم بالمعتدين] أى المجاوزين الحد في الإعتداء ، فيحللون ويحرمون بدون دليل شرعي من كتاب أو سنة ، وفيه وعيد شديد ، وتهديد أكيد ، لمن اعتدى على حدود الله

(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي، ٩/٢١

[وذروا ظاهر الإثم وباطنه] أى اتركوا المعاصي ظاهرها وباطنها ، وسرها وعلانيتها ، قال مجاهد : هي المعصية في السر والعلانية ، وقال السدي : ظاهره الزنى مع البغايا وباطنه الزنى مع الصدائق والأخدان

[إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون] أى يكسبون الإثم والمعاصي ويأتون ما حرم الله ، سيلقون في الآخرة جزاء ما كانوا يكتسبون

[ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه] أى لا تأكلوا أيها المؤمنون مما ذبح لغير الله ، أو ذكر اسم غير الله عليه ، كالذي يذبح للأوثان

[وإنه لفسق] أى لأن الأكل منه لمعصية وخروج عن طاعة الله

[وأن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم] أى وإن الشياطين ليوسوسون إلى المشركين أوليائهم في الضلال ، لمجادلة المؤمنين بالباطل ، في قولهم : أتأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتل الله ؟ يعني الميتة

[وأن أطعتموهم إنكم لمشركون] أى وإن أطعتم هؤلاء المشركين في استحلال الحرام ، وساعدتموهم على أباطيلهم ، **إنكم إذا مثلهم** ، قال الزمخشري : لأن من اتبع غير الله تعالى في دينه ، فقد أشرك به ، ومن حق ذي البصيرة في دينه ألا يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه كيفما كان ، للتشديد العظيم

[أو من كان ميتا فأحييناه] قال أبو حيان : لما تقدم ذكر المؤمنين والكافرين ، مثل تعالى بأن شبه المؤمن بالحي الذي له نور يتصرف به كيفما سلك ، والكافر بالمتخبط في الظلمات المستقر فيها ، ليظهر الفرق بين الفريقين) والمعنى : أو من كان بمنزلة الميت ، أعمى القلب بالكفر فأحيا الله قلبه بالإيمان ، وأنقذه من الضلالة بالقرآن

[وجعلنا له نورا يمشي به في الناس] أى وجعلنا له مع تلك الهداية النور العظيم الوضاء ، الذي يتأمل به الأشياء ، فيميز به بين الحق والباطل

[كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها] أى كمن هو يتخبط في ظلمات الكفر والضلالة ، لا يعرف المنقذ ولا المخلص ؟ قال البيضاوي : وهو مثل لمن بقي في الضلالة لا يفارقها بحال

[كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون] أى وكما بقي هذا في الظلمات يتخبط فيها ، كذلك حسنا للكافرين وزينا لهم ، ما كانوا يعملون من الشرك والمعاصي

[وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها] أى وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها ، كذلك جعلنا في كل بلدة مجرميها من الأكابر والعظماء ليفسدوا فيها ، قال ابن الجوزي : وإنما جعل الأكابر فساق كل قرية ، لأنهم أقرب إلى الكفر ، بما أعطوا من الرياسة والسعة

[وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون] أى وما يدرون أن وبال هذا المكر يحيق بهم

[وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله] أى وإذا جاءت هؤلاء المشركين حجة قاطعة ، وبرهان ساطع ، على صدق محمد (ص) قالوا لن نصدق برسالته ، حتى نعطى من المعجزات مثل ما أعطي رسل الله ، قال في البحر : وإنما قالوا ذلك على سبيل التهكم والاستهزاء ، ولو كانوا موقنين غير معاندين لأتبعوا رسل الله تعالى ، وروي أن

أبا جهل قال : زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يوحى إليه ! والله لا نرضى به ولا نتبعه أبدا ، إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه ! ! فنزلت الآية

(١) ".

"" صفحة رقم ٥٠٧ "

أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا "

(القراآت)

يصلحا (من الإصلاح : عاصم وعلي وحمزة وخلف .

الباقون .

) يصالحا (من التصالح وإدعام التاء في الصاد) إن يشأ (حيث كان بغير همز : الأعشى وأوقيه وورش من طريق الأصفهاني وحمزة في الوقف .

) وإن تلوا (بواو واحدة : ابن عامر وحمزة .

الباقون بالواوين) نزل (و) أنزل (كلاهما على ما لم يسم فاعله من التنزيل والإنزال : ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والباقون : (نزل (و) أنزل (مبنيين للفاعل من التنزيل والإنزال أيضا .

) وقد نزل (مشددا مبنيا للفاعل : عاصم ويعقوب .

الباقون مبنيا للمفعول .

الوقوف : (في النساء (ط) فيهن (لا للعطف أي الله والمتلو يفتيكم) الولدان (لا للعطف أيضا أي في يتامى النساء وفي المستضعفين وفي أن تقوموا) بالقسط (ط) عليما (ه) صلحا (ط) خير (ط) الشح (ط) خبيرا (ه) كالمعلقة (ط) رحيما (ه) سعته (ط) حكيما (ه) وما في الأرض (ط) أن اتقوا الله (ط) وما في الأرض (ط) حميدا (ه) وما في الأرض (ط) وكيلا (ه) بآخرين (ط) قديرا (ه) والآخرة (ط) بصيرا (ه) والأقربين (ج لابتداء الشرط مع اتفاق المعنى) أن تعدلوا (ج لذلك) خبيرا (ه) من قبل (ط) بعيدا (ه) سبيلا (ه) أليما (ه لا لأن

---

(١) صفوة التفاسير . للصابوني، ٢٧٤/١

(الذين) صفة المنافقون وإن كان يحتمل النصب والرفع على الذم) المؤمنين (ط) جميعا (هـ) غيره (ج لأن ما بعد كالتعليل .." (١)

"ج ١ ، ص : ٢٣٥

الذين يتكرر منهم الكفر بعد الإيمان مرات ، ثم ماتوا على الكفر. أو المعنى إن الذين أظهروا الإسلام ثم كفروا بكون باطنهم على خلاف ظاهرهم ، ثم آمنوا بألسنتهم فكلما لقوا جمعا من المسلمين قالوا : إنا مؤمنون وإنما أظهروا الإيمان لتجري عليهم أحكام المؤمنين ، ثم كفروا فإذا دخلوا على شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون. ثم ازدادوا كفرا باجتهادهم في استخراج أنواع المكر في حق المسلمين وبموتهم على الكفر لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) فإن كل من كان كثير الانتقال من الإسلام إلى الكفر لم يكن للإسلام في قلبه عظم فلا يتوب عن الكفر حتى يموت عليه بشر المنافقين أي أنذرهم بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أي فإن المنافقين يوالون اليهود ويقول بعض المنافقين :

لبعض لا يتم أمر محمد فتولوا اليهود فيقولون : إن العزة لهم أيبتغون أي أيطلب المنافقون عندهم العزة أي عند اليهود القوة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) أي إن القدرة الكاملة لله وكل من سواه فبإقداره صار قادرا وبإعزازه صار عزيزا. فالعزة الحاصلة للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين لم تحصل إلا من عند الله تعالى فكان الأمر عند التحقيق أن العزة جميعا لله وقد نزل عليكم يا معشر المنافقين في الكتاب أي القرآن في سورة الأنعام قبل هذا بمكة أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها أي أنه إذا سمعتم آيات الله مكفورا بها ومستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره أي الكفر والاستهزاء. وذلك قوله تعالى : وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم [الأنعام : ٦٨] الآية وهذا نزل بمكة لأن المشركين كانوا يخوضون في القرآن ويستهزئون في مجالسهم ، ثم إن أحبار اليهود بالمدينة كانوا يفعلون مثل فعل المشركين والقاعدون معهم والموافقون لهم على ذلك الكلام المنافقون فقال تعالى مخاطبا للمنافقين :

وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها أي إذا سمعتم آيات الله حال ما يكفر بها ويستهزأ بها إنكم إذا مثلهم أي إنكم أيها المنافقون مثل أولئك الأحبار في الكفر ، قال أهل العلم : هذا يدل على أن من رضي بالكفر فهو كافر ومن رضي بمنكر يراه وخالط أهله ، وإن لم يباشر كان في الإثم بمنزلة المباشرة أما إذا كان ساخطا لقولهم وإنما جلس على سبيل التقية والخوف فالأمر ليس كذلك. فالمنافقون الذين كانوا يجالسون اليهود وكانوا يطعنون في الرسول والقرآن هم كافرون مثل أولئك اليهود. أما المسلمون الذين كانوا بمكة يجالسون الكفار الذين كانوا يطعنون في القرآن فإنهم كانوا باقين على الإيمان فهم كانوا يجالسون الكفار عند الضرورة بخلاف المنافقين فإنهم كانوا يجالسون اليهود مع الاختيار إن الله جامع المنافقين أي منافقي أهل المدينة عبد الله بن أبي وأصحابه والكافرين أي كفار أهل مكة أبي جهل وأصحابه وكفار أهل المدينة كعب وأصحابه في جهنم جميعا (١٤٠) أي كما أنهم اجتمعوا على الاستهزاء بآيات الله في الدنيا فكذلك

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ٥٠٧/٢

يجتمعون في عذاب جهنم يوم القيامة

الذين يتربصون بكم." (١)

"٩٠- وروي عن أبي يوسف رحمه الله أنه كان يقول: دَعُوا الخصومات في الدين، والمِراءَ فيه، وارْضَوْا لأنفسكم ما رضي السلفُ الصالح لأنفسهم، فإنّهم [٥٦أ] بعلمٍ وقفوا، وببَصرٍ نافذ كَفُّوا، وإنّهم كانوا على كشف الأمور أقوى، وبفضلٍ لو كان فيه أحرى، لأنّهم السابقون(١)

---

(١) أخرج ابن أبي العوام في فضائل أبي حنيفة وأصحابه (كما في عقيدة الإسلام والإمام الماتريدي لأبي الخير ٢٣٦-٢٣٧) عن أبي يوسف أنه قال: "ذروا الخصومةَ في الدين، والمِراءَ فيه والجِدالَ، فإن الدين واضح بَيّنٌ، قد فرض الله عز وجل فرائضه، وشرع سننه، وحدّ حدوده، وأحلّ حلاله، وحرّم حرامه، فقال ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتْممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ (المائدة، ٣)، فأحِلُّوا حلال القرآن، وحرِّموا حرامه، واعمَلوا بمحكمه، وآمِنوا بالمتشابه، واعتبِروا بالأمثال فيه. فلو كانت الخصومة في الدين تقوى عند الله لسبق عليها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأصحابُه بعده. فهل اختصموا في الدين، أو تنازَعوا فيه؟ وقد اختصموا في الفقه، وتكلَّموا فيه، واختلفوا في الفرائض والصلاة والحجّ والطلاق والحلال والحرام، ولم يَختصموا في الدين، ولم يتنازعوا فيه. فاقتصِروا على تقوى الله وطاعته. والْزَمُوا ما جرتْ به السنة، وكُفِيتُم فيه المؤنة. ودَعُوا ما أحدث المُحدِثون من التنازع في الدين والجِدالَ فيه والمِراءَ، فإنّ لزوم السنة عصمةٌ بإذن الله تعالى لمن لزمها، والذي سنَّها كان أعلمَ بما في خلافها من الخطأ والزلل. وقد أنزل الله عز وجل في كتابه ﴿ وإذا رأيت الذين يَخوضون في آياتنا فأعرِض عنهم حتى يَخوضوا في حديث غيره ﴾ (الأنعام، ٦٨)، ولو شاء أنزل في ذلك جِدالا وحِجاجا، ولكنه أبى ذلك ونَهاهم فقال ﴿ فلا تقعُدوا معهم حتى يَخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم** ﴾ (النساء، ١٤٠)، وقال ﴿ فإن حاجُّوك فقل أسلمتُ وجهي لله ومن اتَّبَعَنِ ﴾ (آل عمران، ٢٠)، ولم يقل: وحاجّهم".

قال الأوزاعي: اصبر نفسك على السنة، وقِفْ حيث وقف القوم، وقل بِما قالوا، وكُفَّ عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح، فانه يسعك ما وسعهم (تلبيس إبليس ١٦).." (٢)

"نيل المرام من تفسير آيات الأحكام ، ص : ٢١٦

و لّما كانوا لا يستطيعون ذلك ، ولو حرصوا عليه وبالغوا فيه ، نهاهم الله عز وجل أن يميلوا كُلَّ الْمَيْلِ لأن ترك ذلك ، وتجنب الجور كل الجور في وسعهم ، وداخل تحت طاقتهم ، فلا يجوز لهم أن يميلوا إلى إحداهن عن الأخرى كل الميل ، كما قال : فَتَذَرُوها : أي الأخرى ، كَالْمُعَلَّقَةِ التي ليست ذات زوج ، ولا مطلقة يشبهها بالشيء الذي هو معلق غير مستقر على شيء ، لا في الأرض ولا في السماء «١».

[الآية الخامسة والثلاثون]

---

(١) مراح لبيد لكشف معنى القرآن مجيد، ١/٢٣٥

(٢) الاعتقاد - صاعد النيسابوري، ص/١٧٣

وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَيُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَالْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً (١٤٠).

وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ : الخطاب لجميع من أظهر الإيمان من مؤمن ومنافق لأن من أظهر الإيمان فقد لزمه أن يمتثل ما أنزل الله.

وقيل : إنه خطاب للمنافقين فقط ، كما يفيده التشديد والتوبيخ.

أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَيُسْتَهْزَأُ بِها : أي إذا سمعتم الكفر والاستهزاء بآيات الله تعالى.

فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ : أي مع المستهزئين ما داموا كذلك.

حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ أي غير حديث الكفر والاستهزاء بها ، والذي أنزله الله عليهم في الكتاب هو قوله : وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ [الأنعام : ٦٨].

وقد كان جماعة بمكة من الداخلين في الإسلام يقعدون مع المشركين واليهود ، حال سخريتهم بالقرآن ، واستهزائهم به ، فنهوا عن ذلك «٢».

قال ابن عباس : دخل في هذه الآية كل محدث ومبتدع في الدين إلى يوم القيامة.

---

(١) انظر : الزجاج (٢/ ١٢٩) ، والطبري (٥/ ٢٠١) ، والنكت (١/ ٤٢٧) ، وزاد المسير (٢/ ٢٢٠) ، والقرطبي (٥/ ٤١٣) ، وفتح القدير (١/ ٥٢١ ، ٥٢٣).

(٢) انظر : الطبري (٥/ ٣٢٩ ، ٣٣٠) ، والقرطبي (٥/ ٤١٧ ، ٤١٨) ، والدرر للسيوطي (٢/ ٧١٨).." [1]

"[١٤٠] ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب ﴾ ، قرأ عاصم ويعقوب (نزل) بفتح النون والزاي ، أي : نزل الله ، وقرأ الآخرون (نزل) بضم النون وكسر الزاي ، أي : عليكم يا معشر المسلمين ﴿ أن إذا سمعتم آيات الله ﴾ يعني القرآن ﴿ يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم ﴾ يعني : مع الذين يستهزؤون ، ﴿ حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ ، أي : يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ، وهذا إشارة إلى ما أنزل الله في سورة الأنعام ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ ، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما : دخل في هذه الآية كل محدث في الدين وكل مبتدع إلى يوم القيامة ، ﴿ إنكم إذا مثلهم ﴾ أي : إن قعدتم عندهم وهم يخوضون ويستهزءون ورضيتم به فأنتم كفار مثلهم ، وإن خاضوا في حديث غيره فلا بأس بالقعود معهم مع الكراهة ، وقال الحسن : لا يجوز القعود معهم وإن خاضوا في حديث غيره ، لقوله تعالى : ﴿ وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد." [2]

"القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون ﴾ [٦٩]

---

(١) نيل المرام . موافقا للمطبوع، ص/٢١٦

(٢) مختصر تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل، ٢/٢٦٠

﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾ أي : وما يلزم المتقين الذين يجالسونهم شيء عما يحاسبون عليه من حوضهم ﴿ ولكن ذكرى ﴾ أي : ولكن أمروا بالإعراض عنهم ، ليكون ذكرى لضعفاء المسلمين ، لئلا يقع شيء من مطاعن المستهزئين في قلوبهم ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أي : يبلغ مبلغ التوقي من شبهاتهم ، بالجلوس مع علمائه بدلهم .

تنبيهان :

الأول – ما ذكرناه في معنى الآية ، هو ما قرره المهايمي رحمه الله تعالى . وقيل : المعنى : ولكن على المتقين أن يذكروهم ذكرى إذا سمعوهم يخوضون ، بالقيام عنهم ، وإظهار الكراهة لهم وموعظتهم ، لعلهم يتقون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم ، فلا يعودون إليه ، وجوزوا أن يكون الضمير : ﴿ للذين يتقون ﴾ ، أي : يذكرونهم رجاء أن يثبتوا على تقواهم ، أو يزدادوها . انتهى .

وما ذكرناه أسد وأوجه .

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ، قال في الآية : أي : ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك . أي : إذا تجنبتهم ، وأعرضت عنهم . وعليه فالموصول كناية عن النبي صلى الله عليه وسلم . التفت به تعظيما وتكريما .

الثاني – قال السيوطي في " الإكليل " : قد يستدل بقوله تعالى : ﴿ وما على الذين يتقون ﴾ . . الخ على أن من جالس أهل المنكر ، وهو غير راض بفعلهم ، فلا إثم عليه . لكن آية النساء تدل على أنه آثم ، ما لم يفارقهم ، لأنه قال : ﴿ **إنكم إذا مثلهم** ﴾ [النساء : ١٤٠] . أي : إن قعدتم فأنتم مثلهم في الإثم ، وهي متأخرة . فيحتمل أن تكون ناسخة لهذه كما ذهب إليه قوم منهم السدي . أقول : المنفي في الآية هو لحوق شيء من وبال الخائضين ، وإثم كفرهم لمجالسيهم المتقين ، فلا ينافي ذلك لحوق وبال المجالسة على انفرادها ، وهو ما أفادته آية النساء . فالمثلية إذن في مطلق الإثم ، وإن تباين (ما صدقه) فيهما ، إذ لا قائل بأن مطلق مجالستهم ردة وكفر . نعم ! لو قيل بأن المثلية محمولة على ما إذا حصل الرضا بشأن مجالستهم ، فلا إشكال إذن . وبالجملة فاستدلال " الإكليل " واه ، ولذا عبر بـ (قد) ، ودعوى النسخ أوهى . فتأمل !." (١)

"القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ [٦٨]

﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون ﴾ أي : بالطعن والاستهزاء ﴿ في آياتنا ﴾ أي : المنسوبة إلى مقام عظمتنا ، التي حقها أن تعظم بما يناسب عظمتنا . والموصول كناية عن مشركي مكة ، فقد كان ديدنهم ذلك ﴿ فأعرض عنهم ﴾ أي : فلا تجالسهم ، وقم عنهم ﴿ حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ أي : حتى يأخذوا في كلام آخر ، غير ما كانوا فيه من الخوض في آياتنا . ﴿ وإما ينسينك الشيطان ﴾ بأن يشغلك فتنسى النهي عن مجالستهم ﴿ فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ أي : إن ينسينك الشيطان ، فجلست معهم ، فلا تؤاخذ به ، لكن إذا ذكرت النهي ، فلا تقعد معهم ، لأنهم ظالمون بالطعن

---

(١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، /

في الكلام المعجز ، عنادا .
وفي الحديث : [(١)]- رواه الطبراني عن ثوبان مرفوعا . وإسناده صحيح – وهذه الآية هي المشار إليها في قوله تعالى : ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم** ﴾ الآية . لأن في حضور المنكر مع إمكان التباعد عنه ، مشاركة لصاحبه .
فوائد :
قال السيوطي في " الإكليل " : في هذه الآية وجوب اجتناب مجالس الملحدين ، وأهل اللغو ، ويستدل بها على أن الناسي غير مكلف ، وأنه إذا ذكر عاد إليه التكليف ، فيعفى عما ارتكبه في حال نسيانه . ويندرج تحت ذلك مسائل كثيرة في العبادات والتعليقات . انتهى .
وقال الرازي : ومن الحشوية من استدل بهذه الآية في النهي عن الاستدلال والمناظرة في ذات الله تعالى وصفاته . قال : لأن ذلك خوض في آيات الله ، والخوض في آيات الله حرام بدليل هذه الآية .
والجواب عنه : أن المراد من الخوض في الآية الشروع في الطعن والاستهزاء . فسقط هذا الاستدلال – والله أعلم – .
وقال بعض مفسري الزيدية – ثمرة الآية أحكام :
الأول –وجوب الإعراض عن مجالس المستهزئين بآيات الله أو بحججه أو برسله ، وأن لا يقعد معهم ، لأن في القعود إظهار عدم الكراهة ، وذلك لأن التكليف عام لنا ، ولرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما يجب الإعراض ، وترك الجلوس معهم ، إذا لم يطمع في قبولهم ، فإذا انقطع طمعه إذا ، فلا فائدة في دعائهم . ويجب القيام عن مجالسهم إذا عرف أن قيامه يكون سببا في ترك الخوض ، وأنهم إنما يفعلونه مغايظة للواقف ، إذ كان وقوفه يوهم عدم الكراهة .
الحكم الثاني – جواز مجالسة الكفار ، مع عدم الخوض ، لأنه إنما أمرنا بالإعراض مع الخوض . وأيضا فقد قال تعالى : ﴿ حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ . قال الحاكم : والآية تدل أيضا على المنع من مجالسة الظلمة والفسقة ، إذا أظهروا المنكرات ، وتدل على إباحة الدخول عليهم لغرض ، كما يباح للتذكير . وفي الآية أيضا دلالة على وجوب الإنكار ، لأن الإعراض إنكار . قال : وتدل على أن التقية من الأنبياء والأئمة بإظهارهم المنكر لا تجوز ، خلاف الإمامية ، وتدل على جواز النسيان على الأنبياء .
الحكم الثالث – أن الناسي مرفوع عنه الحرج ، فإن قيل : النسيان فعل الله ، فلم أضيف إلى الشيطان ؟ أجيب : بأن السبب من الشيطان ، وهو الوسوسة والإعراض عن الذكر ، فأضيف إليك لذلك . كما أن من ألقى غيره في النار فمات ، يقال ، إنه القاتل ، وإن كان الإحراق فعل الله ، واختلف في النسيان ما هو ؟ فقال الحاكم : هو معنى يحدثه الله في القلب . وقال أبو هاشم وأصحابه : ليس بمعنى ، وإنما هو زوال العلم الضروري الذي جرت العادة بحصوله . انتهى .." (٢)

---

(١) إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه

(٢) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، /

"القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ﴾ [١٤٠]

﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب ﴾ قال المفسرون : إن المشركين بمكة كانوا في مجالسهم يخوضون في ذكر القرآن ويستهزئون به ، فنهى الله تعالى المسلمين عن القعود معهم بقوله : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ [الأنعام : ٦٨] ، وهذه الآية من سورة الأنعام وهي مكية ، فامتنع المسلمون عن القعود معهم ، ولما قدموا المدينة كانوا يجلسون مع اليهود والمنافقين ، وكان اليهود يستهزئون بالقرآن ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب ﴾ يعني في سورة الأنعام .

﴿ أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ﴾ يعني يجحد بها .

﴿ ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ وفيها دلالة على أن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن خوطب به خاصة ، منزل على الأمة وأن مدار الإعراض عنهم ، هو العلم بخوضهم في الآيات ، ولذلك عبر عن ذلك تارة بالرؤية وأخرى بالسماع ، وأن المراد بالإعراض إظهار المخالفة بالقيام عن مجالسهم ، لا الإعراض بالقلب أو بالوجه فقط .

﴿ إنكم إذا مثلهم ﴾ أي : إذا قعدتم معهم دل على رضاكم بالكفر بالآيات والاستهزاء بها ، فتكونون مثلهم في الكفر واستتباع العذاب ، فاجتماعكم بهم ههنا سبب اجتماعكم في جهنم ، كما قال : ﴿ إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ﴾ لأنهم لما شاركوهم في الكفر ، واجتمعوا على الاستهزاء بالآيات في الدنيا ، جمعهم الله في عذاب جهنم يوم القيامة .

تنبيه :

قال بعض مفسري الزيدية : اعلم أنه لا خلاف في تحريم القعود والمخالطة ، إذا كان ذلك يوهم بأن القاعد راض ، ولا خلاف أنه يحرم إذا خشي الافتتان ، ولا خلاف أنه يجوز القعود للتنكير عليهم والدفع لهم .

قال الحاكم : ولذلك يحضر العلماء مع أهل الضلالة يناظرونهم ، ولهم بذلك الثواب العظيم ، وأما إذا خلا عما ذكرنا ، وكان لا يوهم بالرضا ولا يفتتن ولا ينكر عليهم ، فاختلف العلماء في ذلك ، فمنهم من أوجب المثل ، لظاهر الآية .

قال الحاكم : روي أن قوما أخذوا على شراب في عهد عمر بن عبد العزيز ، فأمر بضربهم الحد ، فقيل : فيهم صائم ، فتلا قوله تعالى : ﴿ فلا تقعدوا معهم ﴾ إلى قوله : ﴿ إنكم إذا مثلهم ﴾ وهذا أيضا ظاهر حديث : [(١)].

وقال أبو علي وأبو هاشم : إن أنكر بقلبه لم يجب عليه أكثر من ذلك ، وجاز له القعود ، يعني مع عجزه عن الإنكار باليد أو باللسان ، وعدم تأثير ذلك .

أقول : ما قالاه مخالف لظاهر الآية ، فلا عبرة به .

---

(١) لا يحل لعين ترى الله يعصى ، فتطرف حتى تغير وتنتقل

وقال القاضي والحاكم : أما لو كان له حق في تلك البقعة ، فله أن لا يفارق ، كمن يحضر الجنائز مع النوح ، أو الولائم ، فيسمع المنكر فيسعه أن يقعد ، والنكير على قدر الإمكان واجب عليه .

وعن الحسن : لو تركنا الحق للباطل لبطل الشرع ، وقد كان خرج إلى جنازة ، خرجت النساء فيها فلم يرجع ، ورجع ابن سيرين . انتهى .

أقول : من له حق في البقعة ، فعليه أن يفارق كغيره ، إذ ليس في مفارقته ضياع حقه ، وعموم الآية يشمله ، ولا تخصيص إلا بمخصص ، والمسألة المقيس عليها غير ما نحن فيه ، على ما فيها من الخلاف ، كما حكى ، ولا قياس مع النص ، وقد حكى الحاكم أقوالا كلها ترجع إلى تخصيص الآية ، ولا مستند فيها إلا الرأي ، والاحتمال ، فلذا أعرضنا عنها .

قال أبو علي : تحريم القعود في المجلس لما فيه من الإيهام ، فإذا أظهر الكراهة جاز القعود في مكان آخر ، وإن قرب ، وإما إذا خاضوا في حديث غيره ، جاز القعود ، بمفهوم الآية ثم إن الآية محكمة عند الجمهور .

وروي عن الكلبي ، أنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾ [الأنعام : ٦٩] ، وهو مردود ، فإن من التقوى اجتناب مجالس هؤلاء الذين يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها .

قال الحاكم : دلت الآية على أن الراضي بالاستهزاء بالرسول والدين ، كافر ، لأنه تعالى قال : **﴿ إنكم إذا مثلهم ﴾** ودلت على أن الرضا بالكفر كفر .

وقال السمرقندي : في هذه الآية دليل على أن من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم ، فيكون معهم في الوزر سواء ، وينبغي أن ينكر عليهم ، إذا تكلموا بالمعصية أو عملوا بها ، فإن لم يقدر أن ينكر عليهم ينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية .

وروى ابن جرير عن الضحاك أنه قال : دخل في هذه الآية كل محدث في الدين ، وكل مبتدع إلى يوم القيامة .

وقال في " فتح البيان " : وفي هذه الآية باعتبار عموم لفظها الذي هو المعتبر دون خصوص السبب ، دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التنقيص والاستهزاء ، للدلالة الشرعية ، كما يقع كثيرا من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء الرجال بالكتاب والسنة ، ولم يبق في أيديهم سوى (قال إمام مذهبنا : كذا) و (قال فلان من أتباعه بكذا) أو إذا سمعوا من يستدل على تلك المسألة بآية قرآنية أو بحديث نبوي ، سخروا منه ، ولم يرفعوا إلى ما قاله رأسا ، ولا بالوا به بالة ، وظنوا أنه قد جاء بأمر فظيع وخطب شنيع ، وخالف مذهب إمامهم الذي نزلوه منزلة معلم الشرائع ، مع أن الأئمة ، الذين انتسب هؤلاء المقلدة إليهم ، برءاء من فعلهم ، فإنهم قد صرحوا في مؤلفاتهم بالنهي عن تقليدهم . انتهى .

وفي " الإكليل " : قال ابن الفرس ، واستدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب اجتناب أهل المعاصي والأهواء ، وفي هذه الآية أصل لما يفعله المصنفون من الإحالة على ما ذكر في مكان آخر ، والتنبيه عليه . انتهى .

وقوله تعالى :." (١)

---

(١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، /

"القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إلى فرعون وملأه فاستكبروا وكانوا قوما عالين فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون فكذبوهما فكانوا من المهلكين ﴾ [٤٦ – ٤٨] .

﴿ إلى فرعون وملأه فاستكبروا ﴾ أي : عن الانقياد وإرسال بني إسرائيل مع موسى لأرض كنعان ، وتحريرهم من تلك العبودية لهم : ﴿ وكانوا قوما عالين ﴾ أي : متمردين : ﴿ فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون فكذبوهما فكانوا من المهلكين ﴾ أي : المغرقين في البحر .

فائدة :

قال الزمخشري : البشر يكون واحدا وجمعا : ﴿ بشرا سويا ﴾ [١٧] ، ﴿ لبشرين ﴾ [٤٧] ، ﴿ فإما ترين من البشر ﴾ [٢٦] ، ومثل وغير يوصف بهما الاثنان والجمع والمذكر والمؤنث : ﴿ إنكم إذا مثلهم ﴾ [النساء : ١٤٠] ، ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ [الطلاق : ١٢] ، ويقال أيضا : هما مثلاه وهم أمثاله : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ [الأعراف : ١٩٤] .." (١)

"القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ [٣] .

﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ . لما أمر الله بعقوبة الزانيين ، حرم مناكحتهما على المؤمنين ، هجرا لهما ولما معهما من الذنوب كقوله : ﴿ والرجز فاهجر ﴾ [المدثر : ٥] ، وجعل مجالس فاعل ذلك المنكر ، مثله بقوله : ﴿ إنكم إذا مثلهم ﴾ [النساء : ١٤٠] ، وهو زوج له قال تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ [الصافات : ٢٢] ، أي : عشراءهم وأشباههم . ولهذا يقال : المستمع شريك المغتاب ، ورفع إلى عمر بن عبد العزيز قوم يشربون الخمر . وكان فيهم جليس لهم صائم ، فقال ابدءوا به في الجلد ألم يسمع قول الله تعالى : ﴿ فلا تقعدوا معهم ﴾ [النساء : ١٤٠] ، فإذا كان هذا في المجالسة والعشرة العارضة حين فعلهم المنكر ، يكون مجالسهم مثلا لهم ، فكيف بالعشرة الدائمة : والزوج يقال له : العشير . كما في الحديث (٢) وأخبر أنه لا يفعل ذلك إلا زان أو مشرك . أما المشرك فلا إيمان له يزجره عن الفواحش ومجامعة أهلها . وأما الزاني ففجوره يدعوه إلى ذلك ، وإن لم يكن مشركا . وفيها دليل على أن الزاني ليس بمؤمن مطلق الإيمان . وإن لم يكن مشركا كما في الصحيح (٣) وذلك أنه أخبر أنه لا ينكح الزانية إلا زان أو مشرك . ثم قال تعالى : ﴿ وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ فعلم أن الإيمان يمنع منه . وأن فاعله إما مشرك وإما زان ، ليس من المؤمنين الذين يمنعهم إيمانهم من ذلك . وذلك أن المزاناة فيها فساد فراش الرجل وفي مناكحتها معاشرة الفاجرة دائما . والله قد أمر بهجر السوء وأهله ما داموا عليه . وهذا موجود في الزاني . فإنه إن لم يفسد

---

(١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، /

(٢) ويكفرن العشير

(٣) لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن

فراش امرأته كان قرين سوء لها ، كما قال الشعبي : من زوج كريمته من فاسق ، فقد قطع رحمها . وهذا مما يدخل المرأة ضرارا في دينها ودنياها . فنكاح الزانية أشد من جهة الفراش . ونكاح الزاني أشد من جهة أنه السيد المالك الحاكم . فتبقى المرأة الحرة العفيفة في أسر الفاجر الزاني الذي يقصر في حقوقها ، ويعتدي عليها ، ولهذا اتفقوا على اعتبار الكفاءة في الدين ، وعلى ثبوت الفسخ بفوات هذه الكفاءة . واختلفوا في صحة النكاح بدون ذلك . فإن من نكح زانية فقد رضي لنفسه بالقيادة والدياثة . ومن نكحت زانيا فهو لا يحصن ماءه ، بل يضعه فيها وفي غيرها من البغايا . فهي بمنزلة المتخذة خدنا . فإن مقصود النكاح حفظ الماء في المرأة . وهذا لا يحفظ ماءه . والله سبحانه شرط في الرجال أن يكونوا محصنين غير مسافحين ، فقال : ﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ﴾ [النساء : ٢٤] ، وهذا مما لا ينبغي إغفاله . فإن القرآن قد قصه وبينه بيانا مفروضا . كما قال تعالى : ﴿ سورة أنزلناها وفرضناها ﴾ فأما تحريم نكاح الزانية فقد تكلم فيه الفقهاء . وفيه آثار عن السلف . وليس مع من أباحه ما يعتمد عليه ، وقد ادعى بعضهم أنها منسوخة بقوله : ﴿ والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم ﴾ [النساء : ٢٤] ، وزعموا أن البغي من المحصنات . وتلك حجة عليهم ، فإن أقل ما في الإحصان العفة . وإذا اشترط فيه الحرية ، فذاك تكميل للعفة والإحصان . ومن حرم نكاح الأمة لئلا يرق ولده ، فكيف يبيح البغي الذي يلحق به من ليس بولده ؟ وأين فساد فراشه من رق ولده ؟ وكذلك من زعم أن النكاح هنا هو الوطء وهذا حجة عليهم . فمن وطئ زانية أو مشركة بنكاح ، فهو زان . وكذلك من وطئها زان . فإن ذم الزاني بفعله الذي هو الزنى . حتى لو استكرهها أو استدخلت ذكره وهو نائم كانت العقوبة للزاني دون قرينه . والمقصود أن الآية تدل على أن الزاني لا يتزوج إلا زانية أو مشركة . وأن ذلك حرام على المؤمنين . وليس هذا مجرد كونه فاجرا، بل لخصوصية كونه زانيا . وكذلك في المرأة . ليس بمجرد فجورها ، بل لخصوص زناها ، بدليل أنه جعل المرأة زانية إذا تزوجت زانيا كما جعله زانيا إذا تزوج زانية . وهذا إذا كانا مسلمين يعتقدان تحريم الزنى . وإلا إن كانا مشركين ، فينبغي أن يعلم ذلك . ومضمونه أن الزاني لا يجوز إنكاحه حتى يتوب . وذلك يوافق اشتراطه الإحصان ، والمرأة الزانية لا تحصن فرجها . ولهذا يجب عليه نفي الولد الذي ليس منه . فمن نكح زانية فهو زان ، أي : تزوجها . ومن نكحت زانيا فهي زانية ، أي : تزوجته . فإن كثيرا من الزناة قصروا أنفسهم على الزواني ، فتكون خدنا له لا يأتي غيرها ، فإن الرجل إذا كان زانيا لا يعف امرأته فتتشوق إلى غيره فتزني كما هو الغالب على نساء الزاني ومن يلوط بالصبيان . فإن نساءهم يزنين ليقضين أربهن وليراغمن أزواجهن . ولهذا يقال : عفوا تعف نساؤكم . وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم . فكما تدين تدان ، والجزاء من جنس العمل ، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها . فإن الرجل إذا رضي أن ينكح زانية ، رضي بأن تزني امرأته . والله سبحانه قد جعل بين الزوجين مودة ورحمة . فأحدهما يحب لنفسه ما يحب للآخر . فإذا رضيت المرأة أن تنكح زانيا فقد رضيت عمله ، وكذلك الرجل . ومن رضي بالزنى فهو بمنزلة الزاني ، فإن أصل الفعل هو الإرادة . ولهذا في الأثر : من غاب من معصية فرضيها كان كمن شهدها . وفي الحديث : (١)وأعظم الخلة خلة الزوجين . وأيضا ، فإن الله تعالى جعل في نفوس بني آدم من الغيرة ما هو معروف فيستعظم الرجل أن يطأ الرجل امرأته ، أعظم من غيرته على نفسه أن يزني .

---

(١) المرء على دين خليله

فإذا لم يكره أن تكون زوجته بغيا وهو ديوثا ، كيف يكره أن يكون هو زانيا ؟ ولهذا لم يوجد من هو ديوث أو قواد يعف عن الزنى ، فإن الزنى له شهوة في نفسه . والديوث له شهوة في زنى غيره . فإذا لم يكن معه إيمان يكره من زوجته ذلك ، كيف يكون معه إيمان يمنعه من الزنى ؟ فمن استحل أن يترك امرأته تزني ، استحل أعظم الزنى . ومن أعان على ذلك فهو كالزاني . ومن أقر عليه ، ما إمكان تغييره ، فقد رضيه . ومن تزوج غير تائبة فقد رضي أن تزني . إذ لا يمكنه منعها . فإن كيدهن عظيم . ولهذا جاز له ، إذا أتت بفاحشة مبينة ، أن يعضلها لتفتدي . لأنها بزناها طلبت الاختلاع منه وتعرضت لإفساد نكاحه . فإنه لا يمكنه المقام معها حتى تتوب . ولا يسقط المهر بمجرد زناها . كما دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم للملاعن لما قال مالي ، قال : [1]، وإن كنت كاذبا عليها فذاك أبعد وأبعد لك منها ؛ لأنها إذا زنت قد تتوب . لكن زناها يبيح إعضالها حتى تفتدي إن اختارت فراقه ، أو تتوب . وفي الغالب أن الرجل لا يزني بغير امرأته ، إلا إذا أعجبه ذلك الغير . فلا يزال بما يعجبه ، فتبقى امرأته بمنزلة المعلقة . لا هي أيم ولا ذات زوج . فيدعوها ذلك إلى الزنى ، ويكون الباعث لها مقابلة زوجها على وجه القصاص . فإذا كان من العادين لم يكن قد أحصن نفسه . وأيضا فإن داعية الزاني تشتغل بما يختاره من البغايا ، فلا تبقى داعيته إلى الحلال تامة ، ولا غيرته كافية في إحصانه المرأة ، فتكون عنده كالزانية المتخذة خدنا ، وهذه معان شريفة لا ينبغي إهمالها . وعلى هذا ، فالمساحقة زانية ، كما في الحديث : [2]والذي يعمل عمل قوم لوط زان ، فلا ينكح إلا زانية أو مشركة . ولهذا يكثر في نساء اللوطي من تزني ، وربما زنت بمن يتلوط به مراغمة له وقضاء لوطرها . وكذلك المتزوجة بمخنث ينكح كما تنكح ، هي متزوجة بزان ، بل هو أسوأ الشخصين حالا . فإنه مع الزنى صار ملعونا على نفسه للتخنيث ، غير اللعنة التي تصيبه بعمل قوم لوط . فإن النبي صلى الله عليه وسلم لعن من يعمل عمل قوم لوط . وفي الصحيح أنه لعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء . وكيف يجوز لها أن تتزوج بمخنث قد انتقلت شهوته إلى دبره ؟ فهو يؤتى كما تؤتى المرأة . وتضعف داعيته من أمامه كما تضعف داعية الزاني بغير امرأته عنها . فإذا لم يكن له غيرة على نفسه ، ضعفت غيرته على امرأته وغيرها . ولهذا يوجد من كان مخنثا ليس له كبير غيرة على ولده ومملوكه ومن يكفله ، والمرأة إذا رضيت بالمخنث واللوطي ، كانت على دينه ، فتكون زانية ، وأبلغ . فإن تمكين المرأة من نفسها أسهل من تمكين الرجل من نفسه . فإذا رضيت ذلك من زوجها رضيته من نفسها .

ولفظ الآية : ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴾ يتناول هذا كله بطريق عموم اللفظ ، أو بطريق التنبيه . وفحوى الخطاب الذي هو أقوى من مدلول اللفظ . وأدنى من ذلك أن يكون بطريق القياس ، كما بيناه في حد اللوطي وغيره . انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله . وكله تأييد لما ذهب إليه الإمام أحمد من أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي ، ما دامت كذلك ، فإن تابت صح العقد عليها ، وإلا فلا . وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة . لقوله تعالى : ﴿ وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ كما فضله تقي الدين .

---

(١) لا مال لك عندها إن كنت صادقا فهو بما استحللت من فرجها

(٢) زنى النساء سحاقهن

وقد روى هنا الحافظ ابن كثير آثارا مرفوعة وموقوفة ، كلها مؤكدة لهذا . ثم قال بعدها : فأما الحديث الذي رواه النسائي عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن عندي امرأة من أحب الناس إلي ، وهي لا تمنع يد لامس . قال : [1]قال : لا صبر لي عنها . قال : [2]. فقال النسائي : هذا الحديث غير ثابت . وعبد الكريم أحد رواته ضعيف الحديث ليس بالقوي . وقال الإمام أحمد : هو حديث منكر . وقال ابن قتيبة : إنما أراد أنها سخية لا تمنع سائلا . وحكاه النسائي في سننه عن بعضهم . فقال : وقيل : سخية تعطي . ورد هذا بأنه لو كان المراد لقال : لا ترد يد ملتمس . وقيل : المراد أن سجيتها لا ترد يد لامس ، لا أن المراد أن هذا واقع منها ، وأنها تفعل الفاحشة . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأذن في مصاحبة من هذه صفتها ، فإن زوجها والحالة هذه يكون ديوثا ، وقد تقدم الوعيد على ذلك . ولكن لما كانت سجيتها هكذا ليس فيها ممانعة ولا مخالفة لمن أرادها لو خلا بها أحد ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بفراقها . فلما ذكر أنه يحبها أباح البقاء معها . لأن محبته لها محققة . ووقوع الفاحشة منها متوهم ، فلا يصار إلى الضرر العاجل للتوهم الآجل . والله أعلم . انتهى .

لطيفة :

سر تقديم الزانية في الآية الأولى والزاني في الثانية : أن الأولى في حكم الزنى والأصل فيه المرأة لما يبدو منها من الإيماض والإطماع . والثانية في نكاح الزناة إذا وقع ذلك على الصحة . والأصل في النكاح الذكور ، وهم المبتدئون بالخطبة ، فلم يسند إلا لهم ، لهذا وإن كان الغرض من الآية تنفير الأعفاء من الذكور والإناث ، من مناكحة الزناة ذكورا وإناثا ، زجرا لهم عن الفاحشة ، ولذلك قرن الزنى والشرك . ومن ثم كره مالك رحمه الله مناكحة المشهورين بالفاحشة ، وقد نقل أصحابه الإجماع في المذهب على أن للمرأة أو لمن قام من أوليائها فسخ نكاح الفاسق . ومالك أبعد الناس من اعتبار الكفاءة إلا في الدين . وأما في النسب فقد بلغه أنهم فرقوا بين عربية ومولى ، فاستعظمه وتلا : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [الحجرات : ١٣] ، انتهى كلام الناصر في " الانتصاف " ومراد السلف بالكراهة ، ما تعرف بالكراهة التحريمية . فيقرب بذلك مذهب المالكية .

ثم بين تعالى حكم جلد القاذف للمحصنة ، وهي الحرة البالغة العفيفة ، بقوله سبحانه وتعالى :." [3]

"القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ [٢] .

﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ شروع في تفصيل ما ذكر من الآيات البينات وبيان أحكامها . أي : كل من زنى من الرجال والنساء ، فأقيموا عليه هذا الحد . وهو أن يجلد ، أي : يضرب على جلده مائة جلدة ،

---

(١) طلقها

(٢) استمتع بها

(٣) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، /

عقوبة لما صنع : ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ﴾ أي : رقة ورحمة في طاعته فيما أمركم به ، من إقامة الحد عليهما ، على ما ألزمكم به : ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ أي : تصدقون بالله ربكم وباليوم الآخر ، وأنكم مبعوثون لحشر القيامة وللثواب والعقاب . فإن من كان بذلك مصدقا ، فإنه لا يخالف الله في أمره ونهيه ، خوف عقابه على معاصيه : ﴿ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ أي : وليحضر جلدهما طائفة من أهل الإيمان بالله ورسوله ، قال ابن جرير : العرب تسمي الواحد فما زاد طائفة .

قال ابن تيمية عليه الرحمة : فأمر تعالى بعقوبتهما بحضور طائفة من المؤمنين . وذلك بشهادته على نفسه أو شهادة المؤمنين عليه . لأن المعصية إذا ظهرت كانت عقوبتها ظاهرة . كما في الأثر : من أذنب سرا فليتب سرا . ومن أذنب علانية فليتب علانية ، وليس من الستر الذي يحبه الله ، كما في الحديث : (١)فإذا أعلنت أعلنت عقوبتها بحسب العدل الممكن . ولهذا لم يكن للمعلن بالبدع والفجور غيبة . كما روي عن الحسن وغيره ، لأنه لما أعلن استحق العقوبة . وأدناها أن يذم عليها لينزجر ويكف الناس عنه وعن مخالطته . ولو لم يذكر إلا بما فيه لاغتر به الناس . فإذا ذكر انكف وانكف غيره عن ذلك وعن صحبته . قال الحسن : أترغبون عن ذكر الفاجر ؟ اذكروا بما فيه كي يحذره الناس . والفجور : اسم جامع لكل متجاهر بمعصية أو كلام قبيح ، يدل السامع له على فجور قلب قائله . ولهذا استحق الهجرة ، إذا أعلن ببدعة أو معصية ، أو فجور أو تهتك أو مخالطة لمن هذا حاله . بهذا لا يبالي بطعن الناس عليه . فإن هجره نوع تعزير له . فإذا أعلن السيئات ، أعلن هجره ، وإذا أسر أسر هجره ، إذ الهجرة هي الهجرة على السيئات وهجرة السيئات ، كقوله : ﴿ والرجز فاهجر ﴾ [المدثر : ٥] ، وقوله : ﴿ واهجرهم هجرا جميلا ﴾ [المزمل : ١٠] ، وقوله : ﴿ فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم** ﴾ [النساء : [في المطبوع : ٤٠] ١٤٠] ، وقد روي عن عمر ؛ أن ابنه عبد الرحمن لما شرب الخمر بمصر وذهب به أخوه إلى أميرها عمرو بن العاص ليحده ، جلده سرا ، فبعث إليه عمر ينكر عليه . ولم يعتد بذلك حتى أرسل إلى ابنه ، فأقدمه المدينة وجلده علانية ، وعاش ابنه مدة ثم مرض ثم مات ولم يمت من الجلد ، ولا ضربه بعد الموت ، كما يزعمه الكذابون .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ﴾ نهى تعالى عما يأمر به الشيطان في العقوبات عموما وفي الفواحش خصوصا . فإن هذا الباب مبناه على المحبة والشهوة ، والرأفة التي يزينها الشيطان بانعطاف القلوب على أهل الفواحش ، حتى يدخل كثير من الناس بسبب هذه الآفة في الدياثة ، إذا رأى من يهوى بعض المتصلين به ، أو يعاشره عشرة منكرة ولو كان ولده ، رق به وظن أن هذا من رحمة الخلق . وإنما ذلك دياثة ومهانة وعدم دين وإعانة على الإثم والعدوان . وترك للتناهي عن المنكر . وتدخل النفس به في القيادة التي هي أعظم من الدياثة كما دخلت عجوز السوء مع قومها ، في استحسان ما كانوا يتعاطونه من إتيان الذكران والمعاونة لهم على ذلك ، وكانت في الظاهر مسلمة على دين زوجها لوط ، وفي الباطن منافقة على دين قومها . لا تقلي عملهم كما قلاه لوط . وكما فعل النسوة بيوسف . فإنهن أعن امرأة العزيز على ما دعته إلى من فعل الفاحشة معها ولهذا قال : ﴿ رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ [يوسف : ٣٣] ،

---

(١) إن الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها . فإذا أعلنت ولم تنكر ، ضرت العامة

وذلك بعد قولهن : ﴿ إنا لنراها في ضلال مبين ﴾ [يوسف : ٣٠] ولا ريب أن محبة الفواحش مرض في القلب . فإن الشهوة توجب السكر كما قال تعالى : ﴿ إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ [الحجر : ٧٢] ، وفي الصحيحين ومن حديث أبي هريرة : (١)الخ فكثير من الناس يكون مقصوده بعض هذه الأنواع كالنظر والاستمتاع والمخاطبة . ومنهم من يرتقي إلى المس والمباشرة . ومنهم من يقبل وينظر . وكل ذلك حرام . وقد نهانا الله سبحانه أن تأخذنا بالزناة رأفة ، بل نقيم عليهم الحد ، فكيف بما دونه من هجر ؟ ونهي وتوبيخ وغير ذلك ؟ بل ينبغي شنآن الفاسقين وقلاهم على ما يتمتع به الإنسان من أنواع الزنى المذكورة في الحديث . والمحب ، وإن كان يحب النظر والاستمتاع بصورة المحبوب وكلامه ، فليس دواؤه في ذلك ، لأنه مريض . والمريض إذا اشتهى ما يضره أو جزع من تناول الدواء الكريه ، فأخذتنا به رأفة ، فقد أعناه على ما يهلكه ويضره وقال تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ، أي : فيها الشفاء والبرء من ذلك . بل الرأفة به أن يعان على شرب الدواء وإن كان كريها ، مثل الصلاة وما فيها من الأذكار والدعوات وأن يحمى عما يزيد علته . ولا يظن أنه إذا استمتع بمحرم يسكن بلاؤه . بل ذلك يوجب له زيادة في البلاء . فإنه وإن سكن ما به عقيب استمتاعه ، أعقبه ذلك مرضا عظيما لا يتخلص منه ، بل الواجب دفع أعظم الضررين باحتمال أدناهما قبل استحكام الداء . ومن المعلوم أن ألم العلاج النافع أيسر من ألم المرض الباقي . وبهذا يتبين أن العقوبات الشرعية أدوية نافعة . وهي من رأفة الله بعباده ، الداخلة في قوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [١٠٧] ، فمن ترك هذه الرحمة النافعة ، لرأفة بالمريض ، فهو الذي أعان على عذابه ، وإن كان لا يريد إلا الخير ، إذ هو في ذلك جاهل أحمق ، كما يفعله بعض النساء بمرضاهن وبمن يربينهن من أولادهن في ترك تأديبهم على ما يأتونه من الشر ويتركونه من الخير . ومن الناس من تأخذه الرأفة بهم لمشاركته لهم في ذلك المرض وبرودة القلب والدياثة . وهو في ذلك من أظلم الناس وأديثهم في حق نفسه ونظرائه . وهو بمنزلة جماعة مرضى قد وصف لهم الطبيب ما ينفعهم ، فوجد كبيرهم مرارته ، فترك شربه . ونهى عن سقيه للباقين . ومنهم من تأخذه الرأفة لكون أحد الزانين محبوبا له . إما لقرابة أو مودة أو إحسان ، أو لما يرجوه منه ، أو لما في العذاب من الألم الذي يوجب رقة القلب . ويتأول (٢) . وليس كما قال . بل ذلك وضع الشيء في غير موضعه . بل قد ورد (٣) فمن لم يكن مبغضا للفواحش كارها لها ولأهلها ، ولا يغضب عند رؤيتها وسماعها ، لم يكن مريدا للعقوبة عليها . فيبقى العذاب عليها يوجب ألم قلبه ، قال تعالى : ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ﴾ الآية . في دين الله هو طاعته وطاعة رسوله . المبني على محبته ومحبة رسوله ، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . فإن الرأفة والرحمة يحبهما الله ما لم تكن مضيعة لدين الله . فالرحمة مأمور بها بخلاف الرأفة في دين الله . والشيطان يريد من الإنسان الإسراف في أموره كلها . فإنه إن رآه مائلا إلى الرحمة ، زين له الرحمة حتى لا يبغض ما أبغضه الله ، ولا يغار ، وإن رآه مائلا إلى الشدة ، زين له الشدة في غير ذات الله ، فيزيد في الذم والبغض والعقاب على ما يحبه . ويترك من اللين والصلة والإحسان والبر ما

---

(١) العينان تزنيان

(٢) إنما يرحم الله من عباده الرحماء

(٣) لا يدخل الجنة ديوث

يأمر الله به . فالأول مذنب والثاني مسرف . فليقولا جميعا : ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ﴾ [آل عمران : ١٤٧] الآية . وقوله : ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ فالمؤمن بذلك يفعل ما يحبه الله ، وينهى عما يبغضه الله . ومن لم يؤمن بالله واليوم الآخر فإنه يتبع هواه ، فتارة تغلب عليه الشدة : ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ [القصص : ٥٠] ، والنظر والمباشرة ، وإن كان بعضه من اللمم ، فإن دوام ذلك وما يتصل به ، من المعاشرة والمباشرة قد تكون أعظم بكثير من فساد زنى لا إصرار فيه . بل قد ينتهي النظر والمباشرة بالرجل إلى الشرك . كما قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ﴾ [البقرة : ١٦٥] الآية . ولهذا لا يكون عشق الصور إلا من ضعف محبة الله وضعف الإيمان . والله تعالى إنما ذكره عن امرأة العزيز المشركة وعن قوم لوط . وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم الحدود فيما رواه أبو داود من حديث ابن عمر : (١). فالشافع في الحدود مضاد لله في أمره . فلا يجوز أن يأخذ المؤمن رأفة بأهل البدع والفجور والمعاصي ، وجماع ذلك كله قوله : ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ [المائدة : ٥٤] ، وقوله : ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ [الفتح : ٢٩] ، فإن هذه الكبائر كلها من شعب الكفر كما في الصحاح : (٢)الخ . ففيهم من نقص الإيمان ما يوجب زوال الرأفة بهم . ولا منافاة بين كون الواحد يحب من وجه ويبغض من وجه، ويثاب من وجه ويعاقب من وجه . خلافا للخوارج والمعتزلة . ولهذا جاء في السنة أن من أقيم عليه الحد ، يرحم من وجه آخر ، فيحسن إليه ويدعى له . وهذا الجانب أغلب في الشريعة ، كما في صفة الرب سبحانه وتعالى . ففي الصحيح : (٣)وقال : ﴿ نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ [الحجر : ٤٩ – ٥٠] ، وقال : ﴿ اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ﴾ [المائدة : ٩٨] ، فجعل الرحمة صفة مذكورة في أسمائه . وأما العذاب والعقاب فجعلهما من مفعولاته . ومن هذا ما أمر الله تعالى به من الغلظة على الكفار والمنافقين . وقال تعالى : ﴿ واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم ﴾ [النساء : ١٥] الآية ، وفي الحديث بيان السبيل الذي جعله الله لهن وهو جلد مائة وتغريب عام في البكر ، وفي الثيب الرجم لكن الذي في الحديث الجلد والنفي للبكر من الرجال وأما الآية ففيها ذكر الإمساك في البيوت للنساء إلى الموت ، والسبيل للنساء خاصة . ومن الفقهاء من لا يوجب مع الحد تغريبا ، ومنهم من يفرق بين الرجل والمرأة . كما أن أكثرهم لا يوجبون الجلد مع الرجم . ومنهم من يوجبها جميعا . كما فعل بشراحة الهمدانية ، حيث جلدها ثم رجمها . وقال : جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة نبيه . رواه البخاري . والله سبحانه ذكر في سورة النساء ما يختص بهن من العقوبة . ثم ذكر ما يعم الصنفين فقال : ﴿ واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيما ﴾ [النساء : ١٦] ، فإن الأذى يتناول الصنفين . وأما الإمساك فيختص بالنساء ، لأن المرأة يجب أن تصان بما لا يجب مثله في الرجال ولهذا خصت بالاحتجاب وترك الزينة وترك التبرج ، لأن ظهورها يسبب الفتنة ، والرجال قوامون عليهن ، وقوله : ﴿ فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ﴾ [النساء : ١٥] ، دل على شيئين

(١) من حالت شفاعته دون حد من حدود الله ، فقد ضاد الله في أمره . ومن خاصم في باطل ، وهو يعلم ، لم يزل في سخط لله حتى ينزع ومن قال في مسلم ما ليس فيه ، حبس في ردعة الخبال حتى يخرج مما قال

(٢) لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن

(٣) إن رحمتي تغلب غضبي

: على نصاب الشهادة وعلى أن الشهداء على نسائنا منا . وهذا لا نزاع فيه . وأما شهادة الكفار بعضهم على بعض ففيها روايتان عن أحمد . الثانية أنها تقبل . اختارها أبو الخطاب . وهو قول أبي حنيفة . وهو أشبه بالكتاب والسنة . وقوله صلى الله عليه وسلم : (١)فمفهومه جواز شهادة أهل الملة الواحدة بعضهم على بعض . ولكن فيه : أن المؤمنين تقبل شهادتهم على من سواهم ، لقوله تعالى : ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، وفي آخر الحج مثلها وفي البخاري من حديث أبي سعيد : يدعى نوح ، الحديث وكذلك فيهما من حديث أنس ، شهادتهم على الجنازتين خيرا وشرا ، فقال : (٢)الحديث . ولهذا لما كان أهل السنة والجماعة لم يشوبوا الإسلام بغيره ، كانت شهادتهم مقبولة على سائر فرق الأمة ، بخلاف أهل البدع والأهواء ، كالخوارج والروافض ، فإن بينهم من العداوة والظلم ما يخرجهم عن هذه الحقيقة التي جعلها الله لأهل السنة ، قال فيهم : (٣)واستدل من جوز شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض بهذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم ﴾ [المائدة : ١٠٦] الآية ، قالوا : دلت على قبول شهادتهم على المسلمين . ففيه تنبيه على قبول شهادة بعضهم على بعض بطريق الأولى . ثم نسخ الظاهر لا يوجب نسخ الفحوى ، والتنبيه على الأقوى . كما نص عليه أحمد وغيره من أئمة الحديث الموافقين للسلف . ولهذا يجوز في الشهادة للضرورة ما لا يجوز في غيرها . كما تقبل شهادة النساء فيما لا يطلع عليه الرجال . حتى نص أحمد على قبول شهادتين في الحدود التي تكون في مجامعهن الخاصة . فالكفار الذين لا يختلط بهم المسلمون أولى ، والله أمرنا أن نحكم بينهم ، والنبي صلى الله عليه وسلم رجم الزانيين من اليهود ، ومن غير سماع إقرار منهم ولا شهادة مسلم . ولولا قبول شهادة بعضهم على بعض لم يجز ذلك . وفي تولي بعضهم مال بعض ، نزاع ، فهل يتولى الكافر العدل في دينه ، مال ولده الكافر ؟ على قولين والصواب المقطوع به أن بعضهم أولى ببعض وقد مضت السنة بذلك وسنة خلفائه . وقوله تعالى : ﴿ فآذوهما ﴾ أمر بالأذى مطلقا ، ولم يذكر صفته ولا قدره . ولفظ الأذى يستعمل في الأقوال كثيرا . كقوله : ﴿ لن يضروكم إلا أذى ﴾ [آل عمران : ١١١] ، والإعراض هو الإمساك عن الإيذاء . فالمذنب لا يزال يؤذي وينهى ويوبخ إلا أن يتوب . وأدنى ذلك هجره . فلا يكلم بالكلام الطيب . وهذه محكمة فمن أتى الفاحشة وجب إيذاؤه بالكلام الزاجر إلى أن يتوب . وليس ذلك محدودا بقدر ولا صفة . إلا ما يكون زاجرا له داعيا إلى حصول المقصود ، وهو توبته وصلاحه . وعلقه تعالى على التوبة والإصلاح ، فإذا لم يوجدا ، فلا يجوز أن يكون الأمر بالإعراض موجودا . فأما من تاب بترك الفاحشة ولم يصلح ، فتنازعوا : هل من شرط التوبة صلاح العمل ؟ على قولين . وهذه تشبه قوله : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ [التوبة : ٥] ، فعلق تخلية سبيلهم على التوبة والعمل الصالح . مع أنهم إذا تكلموا بالشهادتين وجب الكف عنهم . ثم إن صلوا وزكوا ، وإلا عوقبوا على ترك الفعل . لأن الشارع في التوبة شرع الكف عن أذاه . ويكون الأمر فيه موقوفا على التمام . وكذلك التائب من الفاحشة . وهذه الآية مما يستدل به على التعزير بالأذى . والأذى ، وإن كان كثيرا يستعمل في الكلام ، فليس مختصا

(١) لا تجوز شهادة أهل ملة على ملة ، إلا أمتي

(٢) أنتم شهداء الله في أرضه

(٣) يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين

به . كقوله لمن بصق في القبلة : [(١)]، وكذا قوله في حق فاطمة : [(٢)]وقوله لمن أكل البصل : [(٣)]وهل يكون من توبته اعترافه بالذنب ؟ فإذا ثبت الذنب بإقراره فجحد وكذب الشهود أو ثبت بشهادة شهود . فيه نزاع . فذكر أحمد أنه لا توبة لمن جحد . واستدل بقصة علي بن أبي طالب : أنه أتى بجماعة ممن شهد عليهم بالزندقة ، فاعترف منهم ناس فتابوا . فقبل توبتهم . وجحد جماعة فقتلهم . وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة : [(٤)]. فمن أذنب سرا فليتب سرا ، كما في الحديث : [(٥)]الخ ، وفي الصحيح [(٦)] الحديث . فإذا ظهر من العبد الذنب فلا بد من ظهور التوبة . ومع الجحود لا تظهر التوبة . فإن الجاحد يزعم أنه غير مذنب . ولهذا كان السلف يستعملون ذلك فيمن أظهر بدعة أو فجورا ، فإن هذا أظهر حال الضالين ، وهذا أظهر حال المغضوب عليهم . ومن أذاه منعه ، مع القدرة ، من الإمامة والحكم والفتيا والرواية والشهادة . وأما بدون القدرة ، فليفعل المقدور عليه . ولم يعلق الأذية على استشهاد أربعة ، وليس هذا من حمل المطلق على المقيد . لأن ذلك لا بد أن يكون فيه الحكم واحدا ، مثل الإعتاق . فإذا كان متفقا في الجنس دون النوع كإطلاق الأيدي في التيمم ، وتقييدها إلى المرافق في الوضوء ، فلا يحمل . ولم يحمل الصحابة والتابعون المطلق على المقيد في قوله تعالى : ﴿ وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ﴾ [النساء : ٢٣] ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ﴾ [النساء : ٢٢] ، قالوا : الشرط في الربائب خاصة . قالوا : أبهموا ما أبهم الله . والمبهم هو المطلق . والمشروط فيه هو المقيد . لكن تنازعوا : هل الموت كالدخول ؟ على قولين . وذلك لأن الحكم مختلف ، والقيد ليس متساويا في الأعيان . فإن تحريم جنس ، ليس مثل تحريم جنس يخالفه . كما أن تحريم الدم والميتة ولحم الخنزير ، لما كان أجناسا ، فليس تقييد الدم بالمسفوح موجبا تقييد الميتة والخنزير أن يكون مسفوحا . وهنا القيد قيد الربيبة بدخول أمها .

والدخول بالأم لا يوجد مثله في حليلة الأب وأم المرأة . إذ بالدخول في الحليلة ، بها نفسها . وفي أم المرأة ببنتها . وكذلك المسلمون لم يحملوا المطلق على المقيد في نصاب الشهادة . بل لما ذكر الله في آية الدين : ﴿ فرجل وامرأتان ﴾ [البقرة : ٢٨٢] [في المطبوع : رجلا وامرأتان] ، وفي الرجعة : ﴿ رجلين ﴾ [البقرة : ٢٨٢] [في المطبوع : الطلاق : ٢] ، أقروا كلا منهما على حاله . لأن سبب الحكم مختلف وهو المال والبضع . كما أن إقامة الحد في الفاحشة والقذف بها اعتبر فيه أربعة ، فلا يقاس بذلك عقود الأثمان والأبضاع ، وذكر في حد القذف ثلاثة أحكام : جلد ثمانين ، وترك قبول شهادتهم أبدا ﴿ وأكثرهم فاسقون ﴾ [التوبة : ٨] : ﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾ [٥] الآية، والتوبة لا ترفع الجلد إذا طلبه المقذوف ، وترفع الفسق بلا تردد . والأكثر قالوا : ترفع المنع من قبول الشهادة . وإذا اشتهر

---

(١) إنك قد آذيت الله ورسوله

(٢) ويؤذيني ما آذاها

(٣) إن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم

(٤) فإن العبد إذا اعترف ثم تاب ، تاب الله عليه

(٥) ومن ابتلي بشيء من هذه القاذورات فليستتر

(٦) كل أمتي معافى إلا المجاهرون

عن شخص الفاحشة لم يرجم ، كما في الصحيح : [1]فجاءت به على النعت المكروه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : [2]فقيل لابن عباس : هذه التي قال فيها : [3]فقال : لا . تلك امرأة كانت تلعن السوء في الإسلام ، فقد أخبر أنه لا يرجم أحدا إلا ببينة ، ولو ظهر على الشخص السوء . ودل الحديث على أن الشبه له تأثير في ذلك ، ولم تكن بينة . وكذلك ثبت عنه في الجنازة لما أثنوا عليها شرا ، والأخرى خيرا . فقال : [4]وفي المسند عنه أنه قال : [5]قالوا يا رسول الله ! وبم ذاك ؟ قال بالثناء الحسن وبالثناء السيء فقد جعل الاستفاضة حجة وبينة في هذه الأحكام . ولم يجعلها حجة في الرجم . وكذلك تقبل شهادة أهل الكتاب على المسلمين في الوصية في السفر . وكذلك تقبل شهادة الصبيان في الجراح إذا أدوها قبل التفرق ، في إحدى الروايتين . وإذا شهد شاهد أنه رأى الرجل والمرأة أو الصبي في لحاف ، أو بيت مرحاض ، أو محلولي السراويل ، ويوجد مع ذلك ما يدل على ذلك ، من وجود اللحاف فقد خرج عن العادة إلى مكانهما أو يكون مع أحدهما أو معهما ضوء قد أظهره ، فرآه فأطفأه فإن إطفاءه دليل على استخفائه بما يفعل . فإن لم يكن ما يستخفي به إلا ما شهد به الشاهد ، كان ذلك من أعظم البيان على ما شهد به فهذا باب عظيم النفع في الدين . وهو مما جاءت الشريعة التي أهملها كثير من القضاة والمتفقهة ، زاعمين أنه لا يعاقب أحد إلا بشهود عاينوا ، أو إقرار مسموع . وهذا خلاف ما تواترت به السنة وسنة الخلفاء الراشدين . وما فطرت عليه القلوب التي تعرف المعروف وتنكر المنكر . ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ [الحجرات : ٦] الآية . ففيها دلالات : إحداها أنه لم يأمر بالتبين عند مجيء كل فاسق بكل نبأ ؛ إذ من الأنباء ما ينهى فيه عن التبين . ومنه ما يباح فيه ترك التبين . ومن الأنباء ما يتضمن العقوبة لبعض الناس ، لأنه علل بخشية الإصابة ، بجهالة . فلو كان كل ما أصيب بنبأ كذلك ، لم تحصل التفرقة بين العدل والفاسق . بل هذه دلالة واحدة على أن الإصابة بنبأ كذلك لم تحصل التفرقة بين العدل والفاسق ، بل هذه دلالة واحدة على أن الإصابة بنبأ العدل الواحد لا ينهى عنه مطلقا . وذلك يدل على قبول شهادة العدل الواحد في جنس العقوبات . فإن سبب نزول الآية يدل على ذلك . فإنها نزلت بإخبار واحد . أن قوما قد حاربوا بالردة أو نقض العهد . وفيه أيضا أنه متى اقترن بخبر الفاسق دليل آخر يدل على صدقه فقد استبان الأمر وزال الأمر بالتثبت . فيجوز إصابة القوم إذا . فكيف خبر العدل مع دلالة أخرى ؟ ولهذا كان أصح القولين ، أن مثل هذا لوث في القسامة فإذا انضاف أيمان المقسمين صار ذلك بينة تبيح دم المقسم عليه . وقوله : ﴿ بجهالة ﴾ جعل المحذور هو الإصابة لقوم بلا علم . فمتى أصيبوا بعلم زال المحذور . وهذا هو المناط الذي دل عليه القرآن كما قال : ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ [الزخرف : ٨٦] ، وقال : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ [الإسراء : ٣٦] ، وأيضا علل بخوف الندم وهو إنما يحصل على

(١) إن جاءت به يشبه الزوج فقد كذب عليها وإن جاءت به يشبه الرجل الذي رماها به ، فقد صدق عليها

(٢) لولا الأيمان لكان لي ولها شأن

(٣) لو كنت راجما أحدا بغير بينة لرجمتها

(٤) أنتم شهداء الله في أرضه

(٥) يوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار

عقوبة البريء من الذنب كما في السنن : [١]فإذا حصل عنده علم أنه لم يعاقب إلا مذنبا ، فإنه لا يندم ولا يكون فيه خطأ . وقد ذكر الشافعي وأحمد أن التغريب جاء في السنة في موضعين : أحدهما الزنى ، والثاني المخنث ، فيما روت أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها مخنث وهو يقول لعبد الله أخيها : إن فتح الله لكم الطائف غدا ، أدلك على ابنة غيلان . فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [٢]. أخرجاه ، وفي لفظ [٣] وفي رواية : [٤]وقال ابن جريج : هو هيت . وقال غيره : هنب . وقيل : ماتع . وذكر بعضهم أنهم ثلاثة : نهم وهيت وماتع . ولم يكونوا يرمون بالفاحشة الكبرى . إنما كان تخنيثهم لينا في القول ، وخضابا في الأيدي والأرجل ، ولعبا كلعب النساء . وفي السنن : أنه أمر بمخنث فنفي إلى النقيع . فإذ كان الله أمر بإخراج هؤلاء من البيوت ، فمعلوم أن الذي يمكن الرجال من نفسه ، شر من هؤلاء : وهو أحق بالنفي . فإن المخنث فيه فساد للرجال والنساء . لأنه إذا تشبه بالنساء ، فقد يعاشرنه وهو رجل ، فيفسدهن . ولأنها إذا رأت الرجل يتخنث فقد تترجل وتعاشر الصنفين . وقد تختار مجامعة النساء كما يختار هو مجامعة الرجال . وأما إفساده للرجال فهو أن يمكنهم من الفعل به ، بمشاهدته وعشقه فإذا خرج إلى بلد ووجد هناك من يفعل به ، فهنا يكون نفيه بحسبه في مكان ليس معه غيره فيه . وإن خيف خروجه ، قيد ؛ إذ هذا هو معنى نفيه . ولهذا تنازع العلماء في نفي المحارب : هل هو طرده بحيث لا يأوي إلى بلد ، أو حبسه ، أو بحسب ما يراه الإمام من هذا وهذا ؟ فعن أحمد ثلاث روايات : الثالثة أعدل وأحسن . فإن نفيه بحيث لا يأوي إلى بلد لا يمكن ، لتفرق الرعية واختلافهم واختلاف هممهم . وحسبه قد لا يمكن لأنه يحتاج إلى مؤونة . وروي أن هنبا لما اشتكى الجوع أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخل المدينة من الجمعة إلى الجمعة يسأل ما يقيته ، والذي جاءت به الشريعة من النفي هو نوع من الهجرة وليس كنفي الثلاثة الذين خلفوا ، ولا هجرهم . فإنه لم يمنعهم من مشاهد الناس وحضور مجامعهم في الصلاة وغيرها . وذلك أن الله خلق الآدميين محتاجين إلى معاونة بعضهم بعضا . فمن كانت مخالطته تضر ، استحق الإخراج من بينهم ، لأنه مضرة بلا مصلحة . فإن الصبي إذا رأى صبيا يفعل شيئا تشبه به . والاجتماع بالزناة واللوطية [في المطبوع : اللوظية] : فيه أعظم الفساد والضرر على الرجال والنساء والصبيان . فيجب أن يعاقب [في المطبوع : يعقب] اللوطي والزاني بما فيه تقريعه وإبعاده . وجماع الهجرة هي هجرة السيئات وأهلها . وكذلك هجران الدعاء إلى البدع وهجران الفساق وهجران من يخالط هؤلاء كلهم ويعاونهم . وكذلك من يترك الجهاد الذي لا مصلحة لهم بدونه فإنه يعاقب بهجرهم له ، لما لم يخاطبهم في البر . فمن لم يهجر هؤلاء كان تاركا للمأمور فاعلا للمحذور . فهذا ترك المأمور من الاجتماع . وهذا فعل المحذور منه . فعوقب كل منهما بما يناسب جرمه . وما جاءت به الشريعة من المأمورات والعقوبات والكفارات وغير ذلك ، يفعل بحسب الاستطاعة . فإن لم يقدر المسلم على جهاد جميع المشركين ، جاهد من يقدر على جهاده . وإذا لم يقدر على عقوبة جميع المعتدين ، عاقب من يقدر على عقوبته . فإذا لم يكن النفي والحبس عن جميع الناس ، كان النفي والحبس

---

(١) ادرأوا الحدود بالشبهات . فإن الإمام ، أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة

(٢) أخرجوهم من بيوتكم

(٣) لا يدخل هؤلاء عليكم

(٤) أرى هذا يعرف مثل هذا . لا يدخلن عليكم بعد اليوم

على حسب القدرة . ويكون هو المأمور به ، فالقليل من الخير ، خير من تركه . ودفع بعض الشر خير من تركه كله . وكذلك المتشبهة بالرجال تحبس . كحالها إذا زنت فإن جنس الحبس مما شرع في جنس الفاحشة . ومما يدخل في هذا : أن عمر نفى نصر بن حجاج من المدينة إلى البصرة ، لما شبب به النساء . وكان أولا قد أمر بأخذ شعره ليزيل جماله الفاتن ، فلما رآه من أحسن الناس وجنتين ، غمه ذلك فنفاه إلى البصرة . فهذا لم يصدر منه ذنب يعاقب عليه ، لكن كان في النساء من يفتتن به ، فأمر بإزالة جماله الفاتن . فإن انتقاله من وطنه مما يضعف همته وبدنه ويعلم أنه معاقب . وهذا من باب التفريق بين الذين يخاف عليهم الفاحشة والعشق قبل وقوعه . وليس من باب المعاقبة . وقد كان عمر ينفي في الخمر إلى خبير ، زيادة في عقوبة شاربها . ومن أقوى ما يهيج الفاحشة . إنشاد أشعار الذين في قلوبهم مرض من العشق ومحبة الفواحش ، وإن كان القلب في عاقبة ، جعل فيه مرضا ، كما قال بعض السلف : الغناء رقية الزنى . ورقية الحية هي التي تستخرج بها الحية من جحرها . ورقية [في المطبوع : وقية] العين والحمة ورقية الزنى . أي : تدعو إليه وتخرج من الرجل الأمر الخبيث . كما أن الخمر أم الخبائث . قال ابن مسعود : الغناء ينبت النفاق في القلب ، كما ينبت الماء البقل . وقال تعالى : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ [الإسراء : ٦٤] ، واستفزازه إياهم بصوته يكون بالغناء ، كما قاله من قاله من السلف ، وبغيره من الأصوات كالنياحة وغير ذلك . فإن هذه الأصوات توجب انزعاج القلوب والنفوس الخبيثة إلى ذلك ، وتوجب حركتها السريعة واضطرابها . حتى يبقى الشيطان يلعب بهؤلاء أعظم من لعب الصبيان بالكرة . والنفس متحركة . فإن سكنت فبإذن الله ، وإلا فهي لا تزال متحركة . وشبهها بعضهم بكرة على مستوى أملس ، لا تزال تتحرك عليه . وفي الحديث المرفوع : (١)وفي الحديث الآخر : (٢)وفي البخاري عن ابن عمر : كانت يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم : (٣)ولمسلم عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (٤)وفي الترمذي : كان صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول : (٥)قيل : يا رسول الله ! آمنا بك وبما جئت به . فهل تخاف علينا ؟ فقال : (٦)انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله .

تنبيه :

قال السيوطي في " الإكليل " : في قوله تعالى : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا ﴾ الآية ، وجوب الحد على الزاني والزانية ، وأنه مائة جلدة . أي : في البكر كما بينته السنة . واستدل بعمومه من أوجب المائة على العبد والذمي وعلى المحصن ، ثم يرجم . فأخرج أحمد عن علي أنه أتى بمحصنة فجلدها يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة ، ثم قال : جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . واستدل الخوارج بالآية على أن حد المحصي الجلد دون الرجم . قالوا : لأنه ليس في

---

(١) القلب أشد تقلبا من القدر إذا استجمعت غليانا

(٢) مثل القلب مثل ريشة بفلاة من الأرض ، تحركها الريح

(٣) لا ومقلب القلوب

(٤) اللهم مصرف القلوب ، صرف قلوبنا إلى طاعتك

(٥) يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك

(٦) نعم . القلوب بين إصبعين من أصابع الله عز وجل يقلبها كيف يشاء

كتاب الله . واستدل أبو حنيفة بها على أنه لا تغريب ، إذ لم يذكره . وفي الآية رد على من قال : إن العبد إذا زنى بحرة يرجم . وبأمة يجلد . وعلى من قال : لا تحد العاقلة إذا زنى بها مجنون ، والكبيرة إذا زنى بها صبي ، أو عكسه ، لا يحد . وعلى من قال : لا حد على الزاني بحربية أو بمسلمة في بلاد الحرب أو في عسكر أهل البغي . أو بنصرانية مطلقا . أو بأمة امرأته . أو محرم . أو من استدخلت ذكر نائم . واستدل بعمومها من أوجبه على المكره والزاني بأمة ولده والميتة .

قال ابن الفرس : ويستدل بقوله : ﴿ فاجلدوا ﴾ على أنه يجرد عن ثيابه . لأن الجلد يقتضي مباشرة البدن . وبقوله : ﴿ مائة جلدة ﴾ على أنه لا يكتفي بالضرب بها مجموعة ضربة واحدة ، صحيحا كان أو مريضا . وفي قوله تعالى : ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة ﴾ الحث على إقامة الحدود والنهي عن تعطيلها . وأنه لا يجوز العفو عنها للإمام ولا لغيره ، وفيه رد على من أجاز للسيد العفو . فاستدل بالآية من قال : إن ضرب الزنى أشد من ضرب القذف والشرب . وفي قوله تعالى : ﴿ وليشهد عذابهما ﴾ الخ ، استحباب حضور جمع ، عند جلدها . وأقله أربعة عدد شهود الزنى . وقيل عشرة ، وقيل ثلاثة وقيل : اثنان . انتهى .

وتقدم عن ابن جرير أن العاطفة تصدق بالواحد ، لغة . فتذكر . وقوله تعالى :." (١)

"ولهذا كان مستحقا للهجر إذا أعلن بدعة أو معصية أو فجورا أو تهتكا،أو مخالطة لمن هذا حاله بحيث لا يبالى بطعن الناس عليه، فإن/ هجره نوع تعزير له،فإذا أعلن السئات أعلن هجره،وإذا أسر أسر هجره، إذ الهجرة هى الهجرة على السيئات،وهجرة السيئات هجرة ما نهى الله عنه،كما قال تعالى : ﴿ والرجز فاهجر ﴾ [المدثر : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ واهجرهم هجرا جميلا ﴾ [المزمل : ١٠] ، وقال : ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم ﴾ [النساء : ١٤٠] .

وقد روى عن عمر بن الخطاب : أن ابنه عبد الرحمن لما شرب الخمر بمصر، وذهب به أخوه إلى أمير مصر عمرو بن العاص ليجلده الحد، جلده الحد سرا، وكان الناس يجلدون علانية، فبعث عمر بن الخطاب إلى عمرو ينكر عليه ذلك، ولم يعتد عمر بذلك الجلد حتى أرسل إلى ابنه فأقدمه المدينة فجلده الحد علانية، ولم ير الوجوب سقط بالحد الأول، وعاش ابنه بعد ذلك مدة ثم مرض ومات، ولم يمت من ذلك الجلد، ولا ضربه بعد الموت، كما يزعمه الكذابون .

". (٢)

"وشبهها بعضهم بكرة على مستوى أملس لا تزال تتحرك عليه،وفى الحديث المرفوع : (القلب أشد تقلبا من القدر إذا استجمعت غليانا) ، وفى الحديث الآخر : (مثل القلب مثل ريشة بفلاة من الأرض تحركها الريح) ، وفى صحيح البخارى عن سالم عن ابن عمر قال : كانت يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا ومقلب القلوب) ، وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : (اللهم مصرف القلوب اصرف قلوبنا إلى طاعتك) ، وفى الترمذى / عن أبى سفيان قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول : (يا مقلب القلوب ثبت

---

(١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، /

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٣/٤٤٥

قلبي على دينك) قال : فقلت : يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا ؟ قال : (نعم، القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء) .

وقوله تعالى : ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ [النور : ٣] ، لما أمر الله ـ تعالى ـ بعقوبة الزانيين حرم مناكحتهما على المؤمنين هجرا لهما، ولما معهما من الذنوب والسيئات .

كما قال تعالى : ﴿ والرجز فاهجر ﴾ [المدثر : ٥] ، وجعل مجالس فاعل ذلك المنكر مثله بقوله تعالى : ﴿ **إنكم إذا مثلهم** ﴾ [النساء : ١٤٠] ، وهو زوج له، وقد قال تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ [الصافات : ٢٢] أى : عشراءهم وقرناءهم وأشباههم ونظراءهم؛ ولهذا يقال : المستمع شريك المغتاب .

ورفع إلى عمر بن عبد العزيز قوم يشربون الخمر، وكان فيهم جليس لهم صائم فقال : ابدؤوا به فى الجلد، ألم تسمع الله يقول : ﴿ فلا تقعدوا معهم ﴾ [النساء : ١٤٠] ، فإذا كان هذا فى المجالسة والعشرة العارضة حين فعلهم للمنكر يكون مجالسهم مثلا لهم، فكيف بالعشرة الدائمة ؟

". (١)

"لطائف الإشارات ، ج ١ ، ص : ٣٧٤

و يقال يا أيها الذين آمنوا باستعمال أدلة العقول آمنوا إذا أنختم بعقوة الوصول ، واستمكنت منكم حيره البديهة «١» وغلبات الذهول «٢» ثم أفقتم عن تلك الغيبة فآمنوا أن الذي كان غالبا عليكم كان شاهد الحق لا حقيقة الذات «٣» فإن الصمدية منزهة متقدسة عن كل قرب وبعد ، ووصل وفصل.

قوله جل ذكره :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٧ الى ١٣٨]

إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم و لا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨)

الذين تبدلت بهم الأحوال فقاموا وسقطوا ثم انتعشوا ثم ختم بالسوء أحوالهم ، أولئك الذين قصمتهم «٤» سطوة العزة حكما ، وأدركتهم شقاوة القسمة خاتمة وحالا - فالحق سبحانه لا يهديهم لقصد ، ولا يدلهم على رشد ، فبشرهم بالفرقة الأبدية ، وأخبرهم بالعقوبة السرمدية.

قوله جل ذكره :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٩ الى ١٤٠]

الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أ يبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) و قد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها و يستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين و الكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٤٧٠/٣

(١) الحيرة بديهة ترد على قلوب العارفين عند تأملهم وحضورهم وتفكرهم تحجبهم عن التأمل والفكرة ، وقال الواسطي : حيرة البديهة أجل من سكون التولي عن الحيرة (اللمع ص ٤٢١).

(

٢) الغلبات عند قوة الرغبة والانفلات من دواعى الهوى والنفوس ، عند قوة رغبة الطالب إذا لاح له أعلام المزيد فى حال طلبه المطلوب ، فلو ظن أن مطلوبه وراء بحر سبحه أو فى تيه سلكه بالهجوم عند غلبات الإرادة وقوة سلطان المطالبة عليه (اللمع ص ٤١٧).

(٣) هذا تنبيه هام وخطير يدحض به المضللين والأدعياء ، أولئك الذين شن عليهم القشيري هجومه العنيف فى مستهل «رسالته» والذين أساءوا إلى التصوف وأهله.

(٤) القصم : الكسر. حكى عن الزقاق أنه قال : لو أن المعاصي كانت شيئا اخترته لنفسى ما أجزتنى ذلك لأن ذلك يشيهنى ، وإنما قصم ظهرى حين سبق لى منه ذلك. (اللمع ص ٤٣٤). [.....]."[١]

"لطائف الإشارات ، ج ١ ، ص : ٣٧٦

قوله : «إنكم إذا مثلهم» : أوضح برهان على سريرة (....) «١» صحبة من يقارنه «٢» وعشرة من يخادنه فالشكل مقيد بشكله ، والفرع منتشر عن أصله.

قوله جل ذكره :

[سورة النساء (٤) : آية ١٤١]

الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا أ لم نكن معكم و إن كان للكافرين نصيب قالوا أ لم نستحوذ عليكم و نمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة و لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

لما عدموا الإخلاص فى الحقيقة ، وما ذقوا فيما استشعروا من العقيدة ، امتازوا «٣» عن المسلمين فى الحكم ، وباينوا الكافرين فى الاسم ، وواجب على أهل الحق التحرز عنهم والتحفظ منهم ، ثم ضمن لهم - سبحانه - جميل الكفاية بقوله : «ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا» «٤» وهذا على العموم فإن وبال كيدهم إليهم مصروف ، وجزاء مكرهم عليهم موقوف ، والحق - من قبل الحق سبحانه - منصور أهله ، والباطل - بنصر الحق سبحانه - مجتث أصله.

قوله جل ذكره :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٤٢ الى ١٤٣]

إن المنافقين يخادعون الله و هو خادعهم و إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس و لا يذكرون الله إلا قليلا (١٤٢) مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء و من يضلل الله فلن تجد له سبيلا (١٤٣)

---

(١) لطائف الإشارات موافقا للمطبوع، ١/٣٧٤

(١) مشتبهة ولا بد أنها كلمة بمعنى (المرء) أو (الشخص) ... ونحوهما.

(٢) يقارنه هنا معناها أن يكون له قرين.

(٣) امتازوا هنا معناها افترقوا بعلامات مخصوصة.

(٤) قال على رضى الله عنه لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا يوم القيامة حين يحكم الله بينهم ، فلا يكون للكافرين سبيل إلى حجة. ويرى غيره أن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا فى الدنيا فلن يستطيعوا عليهم نصرا بالكلية ، ولكن قد يحصل لهم ظفر فى بعض الأحيان على بعض الناس ولكن العاقبة للمتقين فى الدنيا والآخرة. (ابن كثير ص ٥٦٧)." [1]

" صفحة رقم ٣٣٥

أي لأنه المفصل لشريعتكم لشريعتكم المتكفل بما تحتاجون إليه من الأحكام والمواعظ وجميع ما يصلحكم ، وهو القرآن الواصل إليكم بواسطة أشرف الخلق) والكتاب الذي أنزل) أي أوجد إنزاله ومضى ؛ ولما لم يكن إنزاله مستغرقا للزمان الماضي بين المراد بقوله : (من قبل (من الإنجيل والزبور والتوراة وغيرها لأن رسولكم بلغكم ذلك فلا يحصل الإيمان إلا بتصديقه في كل ما يقوله .

ولما كان المؤمن الذي الخطاب معه عالما بأن التنزيل والإنزال لا يكون إلا من الله بنيا للمفعول في قراءة ابن كثير وأبي عمروا وابن عامر للعمل بالفاعل ، وصرحت قراءة الباقين به .

ولما كان التقدير : فمن آمن بذلك فقد اهتدى وآمن قطعا بالملائكة واليوم الآخر وغير ذلك من كل ما دعا إليه الكتاب والرسول ، عطف عليه قوله : (ومن يكفر) أي يوجد الكفر ويجدده وقتا من الأوقات) بالله وملائكته وكتبه) أي التي أنزلها على أنبيائه بواشطة مائكته أو بغير واسطة) ورسله) أي من الملائكة والبشر ، فكان الإيمان بالترقي للاحتياج إليه ، وكان الكفر بالتدلي للاجتراء عليه .

ولما كان الإيمان بالبعث – وإن كان أظهر شيء – مما لا تستقل به العقول فلا تصل إليه إلا بالرسل ، ذكره بعدهم فقال : (واليوم الآخر) أي الذي أخبرت به رسله ، وقضت به العقول الصحيحة وإن كانت لا تستقل بإدراكه قبل تنبيه الرسل لها عليه ، وهو روح الوجود وسره وقوامه وعماده ، فيه تكشف الحقائق وتجمع الخلائق ، ويظهر شمول العلم وتمام القدرة ويبسط ظل العدل وتجتني ثمرات الفضل) فقد ضل (وأبلغ في التأكيد لكثرة المكذبين فقال : (ضلالا بعيدا) أي لا حيلة في رجوعه معه .

النساء : (١٣٧ – ١٤١) إن الذين آمنوا. .. . .

) إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما الذين يتخذون الكافرين أوليآء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن**

(١) لطائف الإشارات موافقا للمطبوع، ٣٧٦/١

الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (( ). " (١)

"دينك وكرامته. إن المنافقين وحدهم هم الذين لا يبالون بإهانة الحق وتجريح رجاله " وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم... " . ومؤامرات المنافقين لاحقت الإسلام طوال أيام البعثة فلا عجب إذا تكرر الرد عليها وطال التصدى لها. ص _٠٦٧
عادت سورة النساء فى أواخرها للحديث عن أهل الكتاب فضمت جديدا لا غنى عنه! وأهل الكتاب يهود ونصارى. فأما اليهود فيرفضون عيسى ومحمدا معا، يقولون عن عيسى إنه أتى لغير رشدة، فهو زنيم وأمه بغى!! وأما محمد فهو أعرابى ادعى الوحى ولا صلة له به! وأما النصارى فيرون محمدا مقطوع العلاقة بالسماء ويذكرونه بنعوت سيئة... هل هؤلاء المكذبون لرسل الله يوصفون بأنهم مؤمنون بالله وكتبه ورسله؟ تقول السورة الكريمة عن هؤلاء " إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا * والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما" . وبعد مناقشة لأهل الكتاب سنتأمل فيها بعد قليل قال الله لرسوله محمد " إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا " . إن الذى أوحى إلى هؤلاء أوحى إلى محمد، كلهم سفراء من الله إلى خلقه، كلفوا فبلغوا، ما خانوا و لا فرطوا. وإذا وصف محمد وحده بشيء فهو أنه أفصحهم بيانا وأشدهم بلاء وآصلهم فى إحياء الفطرة ومناشدة العقل..!! وتراثه الباقى لا يزال وسوف يبقى إلى قيام الساعة يؤسس اليقين، ويوقظ الغافلين ويسدد الخطى إلى رب العالمين. ولذلك قال الله فيه " لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون." (٢)

"المفردات في غريب القرآن ، ص : ٧١
تعالى : ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ [يوسف / ٧٠] ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ [الأعراف / ٤٤] ، وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ [الحج / ٢٧].

والأذين : المكان الذي يأتيه الأذان «١» ، والإِذنُ في الشيء : إعلام بإجازته والرخصة فيه ، نحو ، وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ [النساء / ٦٤] أي : بإرادته وأمره ، وقوله : وَما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ [آل عمران / ١٦٦] ، وقوله : وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ [البقرة / ١٠٢] ، وَلَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ [المجادلة / ١٠] قيل : معناه : بعلمه ، لكن بين العلم والإذن فرق ، فإنّ الإذن أخصّ ، ولا يكاد يستعمل إلا فيما فيه مشيئة به ، راضياً منه الفعل أم لم يرض به «٢» ، فإنّ قوله : وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ [يونس / ١٠٠] فمعلوم أنّ فيه

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٣٥/٢
(٢) نحو تفسير موضوعي، ٦٢/١

مشيئته وأمره ، وقوله : وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ [البقرة / ١٠٢] ففيه مشيئته من وجهٍ ، وهو أنه لا خلاف أنّ الله تعالى أوجد في الإنسان قوة فيها إمكان قبول الضرب من جهة من يظلمه فيضرّه ، ولم يجعله كالحجر الذي لا يوجعه الضرب ، ولا خلاف أنّ إيجاد هذا الإمكان من فعل الله ، فمن هذا الوجه يصح أن يقال : إنه بإذن الله ومشيئته يلحق الضرر من جهة الظالم ، ولبسط هذا الكلام كتاب غير هذا «٣».

والاستئذان : طلب الإذن ، قال تعالى : إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ [التوبة / ٤٥] ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ [النور / ٦٢]. و«إِذَنْ» جواب وجزاء ، ومعنى ذلك أنّه يقتضي جواباً أو تقدير جواب ، ويتضمن ما يصحبه من الكلام جزاءً ، ومتى صدّر به الكلام وتعقّبه فعل مضارع ينصبه لا محالة ، نحو : إذن أخرج ، ومتى تقدّمه كلام ثم تبعه فعل مضارع يجوز نصبه ورفعه «٤» أنا إذن أخرج وأخرج ، ومتى تأخّر عن الفعل أو لم يكن معه الفعل المضارع لم يعمل ، نحو : أنا أخرج إذن ، قال تعالى : **إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ** [النساء / ١٤٠].

أذي

الأذى : ما يصل إلى الحيوان من الضرر إمّا في نفسه أو جسمه أو تبعاته دنيوياً كان أو أخروياً ،

---

(١) انظر : المجمل ١ / ٩١ ، واللسان (أذن) ١٣ / ١٠.

(٢) في المخطوطة : ضامّه الفعل أم لم يضامه.

(٣) ومحل هذا كتب الكلام ، وتفاسير القرآن المطولة ، كشرح الفقه الأكبر للقاري ، وتفسير الرازي.

(٤) قال ابن مالك في ألفيته :

ونصبوا بإذن المستقبلا إن صدّرت والفعل بعد موصلا

أو قبله اليمين وانصب وارفعا إذا إذن من بعد عطفٍ وقعا." (١)

"أنا إذن أخرج وأخرج، ومتى تأخر عن الفعل أو لم يكن معه الفعل المضارع لم يعمل، نحو: أنا أخرج إذن، قال تعالى: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء/١٤٠].

أذى

- الأذى: ما يصل إلى الحيوان من الضرر إما في نفسه أو جسمه أو تبعاته دنيويا كان أو أخرويا، قال تعالى: ﴿لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ [البقرة/٢٦٤]، قوله تعالى: ﴿فآذوهما﴾ [النساء/١٦] إشارة إلى الضرب، ونحو ذلك في سورة التوبة: ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون: هو أذن﴾ [التوبة/٦١]، ﴿والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾ [التوبة/٦١]، و ﴿لا تكونوا كالذين آذوا موسى﴾ [الأحزاب/٦٩]، ﴿وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾ [الأنعام/٣٤]، وقال: ﴿لم تؤذونني﴾ [الصف/٥]، وقوله: ﴿يسألونك عن المحيض قل: هو أذى﴾ [البقرة/٢٢٢]، فسمى ذلك أذى باعتبار

---

(١) مفردات القرآن . للراغب . نسخة محققة، ص/٧١

الشرع وباعتبار الطب على حسب ما يذكره أصحاب هذه الصناعة.

يقال: آذيته أو أذيته إيذاءا وأذية وأذى، ومنه: الأذي، وهو الموج المؤذي لركاب البحر.

إذا

- يعبر به عن كل زمان مستقبل، وقد يضمن معنى الشرط فيجزم به، وذلك في الشعر أكثر، و (إذ) يعبر به عن الزمان الماضي، ولا يجازى به إلا إذا ضم إليه (ما) نحو:

*إذ ما أتيت على الرسول فقل له *

* (الشطر للصحابي العباس بن مرداس من قصيدة قالها في غزوة حنين يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم، وعجزه: *حقا عليك إذا اطمأن المجلس*

والبيت في شواهد سيبويه ٤٣٢/١؛ وشرح الأبيات لابن السيرافي ٩٣/٢؛ والمقتضب ٤٦/٢؛ والروض الأنف ٢٩٨/٢؛ وخزانة الأدب ٢٩/٩).

أرب

". (١)

" أخرج ابن المنذر وابن جرير عن أبي وائل قال : إن الرجل ليتكلم في المجلس بالكلمة الكذب يضحك بها جلساءه فيسخط الله عليهم جميعا فذكر ذلك لإبراهيم النخعي فقال : صدق أبو وائل أو ليس ذلك في كتاب الله فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : أنزل في سورة الأنعام حتى يخوضوا في حديث غيره الأنعام الآية ٦٨ ثم نزل التشديد في سورة **النساء إنكم إذا مثلهم**

وأخرج ابن المنذر عن السدي في الآية قال : كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في رسول الله والقرآن فشتموه واستهزؤوا به فأمر الله أن لا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره

وأخرج عن سعيد بن جبير أن الله جامع المنافقين من أهل المدينة والمشركين من أهل مكة الذين خاضوا واستهزؤوا بالقرآن في جهنم جميعا

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد الذين يتربصون بكم قال : هم المنافقون يتربصون بالمؤمنين فإن كان لكم فتح من الله إن أصاب المسلمون من عدوهم غنيمة قال المنافقون ألم نكن معكم قد كنا معكم فأعطونا من الغنيمة مثل ما تأخذون وإن كان للكافرين نصيب يصيبونه من المسلمين قال المنافقون للكفار ألم نستحوذ عليكم ألم نبين لكم أنا على ما أنتم عليه قد نثبطهم عنكم

(١) مفردات ألفاظ القرآن . نسخة محققة، ٢٥/١

وأخرج ابن جرير عن السدي ألم نستحوذ عليكم قال : نغلب عليكم

أخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن علي أنه قيل له : أرأيت هذه الآية ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا وهم يقاتلونا فيظهرون ويقتلون ؟ فقال : ادنه ادنه ثم قال : فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا

واخرج ابن جرير عن علي ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا قال في الآخرة

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا قال : ذاك يوم القيامة ." (١)

" إلى **قوله إنكم إذا مثلهم نسخ** قوله وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء الآية

وأخرج الفريابي وأبو نصر السجزي في الابانة عن مجاهد في قوله وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا قال : هم أهل الكتاب نهى أن يقعد معهم إذا سمعهم يقولون في القرآن غير الحق

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي وائل قال : إن الرجل ليتكلم بالكلمة من الكذب ليضحك بها جلساءه فيسخط الله عليه فذكر ذلك لإبراهيم النخعي فقال : صدق أو ليس ذلك في كتاب الله وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم

الآية

وأخرج أبو الشيخ عن مقاتل قال : كان المشركون بمكة إذا سمعوا القرآن من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم خاضوا واستهزؤوا فقال المسلمين : لا يصلح لنا مجالستهم نخاف أن نخرج حين نسمع قولهم ونجالسهم فلا نعيب عليهم فأنزل الله في ذلك وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم

الآية

وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا الآية

قال : نسختها هذه الآية التي في سورة النساء وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها النساء الآية١٤٠ الآية

ثم أنزل بعد ذلك فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم التوبة الآية ٥

وأخرج النحاس في ناسخه عن ابن عباس في قوله وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء قال : هذه مكية نسخت بالمدينة بقوله وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها النساء الآية ١٤٠ الآية

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن مجاهد وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء أن قعدوا ولكن لا تقعد

---

(١) الدر المنثور، ٧١٨/٢

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : لما هاجر المسلمون إلى المدينة جعل المنافقون يجالسونهم فإذا سمعوا القرآن خاضوا واستهزؤوا كفعل المشركين بمكة فقال ." (١)

"﴿بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما * الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا * وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا * الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾

قوله تعالى: " بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما "

٦١٥٣- حدثنا عصام بن رواد، ثنا آدم، ثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، قوله: " عذابا أليما " ، قال:"الأليم الموجع في القرآن كله"، وكذلك فسره ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والضحاك بن مزاحم ، وقتادة ، وأبو مالك ، وأبو عمران الجوني ، ومقاتل بن حيان

قوله تعالى: " الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين " ." (٢)

"٦١٥٨- قرأت على محمد بن الفضل، ثنا محمد بن علي، أنبأ محمد بن مزاحم، عن بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان، قوله: " أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها " ، فنسخت هذه الآية التي في الأنعام ، فكان هذا الذي أنزل بالمدينة وخوفهم، فقال: إن قعدتم ورضيتم بخوضهم واستهزائهم بالقرآن فإنكم إذا مثلهم".

قوله تعالى: " فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره "

٦١٥٩- حدثنا أبي، ثنا عبد الرحمن بن محمد بن سلام الطرسوسي، ثنا يزيد بن هارون، أنبأ العوام بن حوشب، عن إبراهيم التيمي، عن أبي وائل، قال:"إن الرجل ليتكلم بالكلمة من الكذب ليضحك بها القوم فيسخط الله عليه، فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي ، فقال: صدق، أليس الله تعالى يقول: " إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره " ".

قوله تعالى: " **إنكم إذا مثلهم** " ." (٣)

"٦١٦٠- حدثنا أبو سعيد الأشج، ثنا ابن إدريس، عن العلاء بن المنهال، عن هشام بن عروة، "أن عمر بن عبد العزيز ، أخذ قوما يشربون، فضربهم وفيهم رجل صالح، فقيل: إنه صائم، فتلا: " فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره، إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا " ".

٦١٦١- قرأت على محمد بن الفضل، ثنا محمد بن علي، أنبأ محمد بن مزاحم، عن بكير بن معروف، عن مقاتل بن

---

(١) الدر المنثور، ٢٩٣/٣

(٢) تفسير ابن أبي حاتم، ٤٠١/٤

(٣) تفسير ابن أبي حاتم، ٤٠٣/٤

حيان، فقال:"إن قعدتم ورضيتم بخوضهم واستهزائهم بالقرآن فإنكم إذا مثلهم".

قوله تعالى: " إن الله جامع المنافقين "

٦١٦٢- وبه عن مقاتل، قوله: " إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا " ، قال:"إن الله جامع المنافقين من أهل المدينة والمشركين من أهل مكة، الذين خاضوا واستهزءوا بالقرآن في جهنم جميعا".

قوله تعالى: " الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم "

٦١٦٣- حدثنا أبي، ثنا عبد العزيز بن المغيرة، ثنا يزيد بن زريع، ثنا سعيد، عن قتادة، يعني قوله: " الذين يتربصون بكم، فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم " ، قال:"هم المنافقون".

قوله تعالى: " وإن كان للكافرين نصيب " ." (١)

"فذكر ذلك لإبراهيم النخعي فقال : صدق أبو وائل أو ليس ذلك في كتاب الله ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾.

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : أنزل في سورة الأنعام (حتى يخوضوا في حديث غيره) (الأنعام الآية ٦٨) ثم نزل التشديد في سورة النساء ﴿إنكم إذا مثلهم﴾.

وأخرج ابن المنذر عن السدي في الآية قال : كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في رسول الله والقرآن فشتموه واستهزؤوا به فأمر الله أن لا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره.

وأخرج عن سعيد بن جبير أن الله جامع المنافقين من أهل المدينة والمشركين من أهل مكة الذين خاضوا واستهزؤوا بالقرآن في جهنم جميعا.

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن مجاهد ﴿الذين يتربصون بكم﴾ قال : هم المنافقون يتربصون بالمؤمنين ﴿فإن كان لكم فتح من الله﴾ إن أصاب المسلمون من عدوهم غنيمة قال المنافقون ﴿ألم نكن معكم﴾ قد كنا معكم فأعطونا من الغنيمة مثل ما تأخذون ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ يصيبونه من المسلمين قال المنافقون للكفار ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ ألم نبين لكم أنا على ما أنتم عليه قد نثبطهم عنكم." (٢)

"المشركون يجلسون إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحبون أن يسمعوا منه فإذا سمعوا استهزؤوا فنزلت ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾ الآية ، قال : فجعلوا إذا استهزؤوا قام فحذروا وقالوا : لا تستهزؤوا فيقوم فذلك قوله ﴿لعلهم يتقون﴾ أن يخوضوا فيقوم ونزل ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ أن تقعد معهم ولكن لا تقعد ثم نسخ قوله بالمدينة ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم﴾ النساء الآية ١٤٠

إلى قوله ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ نسخ قوله ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ الآية.

وأخرج الفريابي وأبو نصر السجزي في الابانة عن مجاهد في قوله ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾ قال : هم أهل

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، ٤/٤٠٤

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، ٥/٧٩

الكتاب نهى أن يقعد معهم إذا سمعهم يقولون في القرآن غير الحق.

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن أبي وائل قال : إن الرجل ليتكلم بالكلمة من الكذب ليضحك بها جلساءه فيسخط الله عليه فذكر ذلك لإبراهيم النخعي فقال : صدق أو ليس ذلك في كتاب الله ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾ الآية.

وأخرج أبو الشيخ عن مقاتل قال : كان المشركون بمكة إذا سمعوا القرآن من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خاضوا واستهزؤوا فقال المسلمين : لا يصلح لنا مجالستهم نخاف أن نخرج حين نسمع قولهم ونجالسهم فلا نعيب عليهم." (١)

" ١٤١١٤٢ – النساء وأخرى بالسماع وأن المراد بالإعراض إظهار المخالفة بالقيام عن مجالسهم لا الإعراض بالقلب أو بالوجه فقط والضمير في معهم للكفرة المدلول عليهم بقوله تعالى يكفر بها ويستهزأ بها

إنكم إذا مثلهم جملة مستأنفة سيقت لتعليل النهى غير داخلة تحت التنزيل وإذن ملغاة عن العمل لوقوعها بين المبتدأ والخبر أى لا تقعدوا معهم في ذلك الوقت إنكم إن فعلتموه كنتم مثلهم في الكفر واستتباع العذاب وإفراد المثل لأنه كالمصدر أو للاستغناء بالإضافة إلى الجمع وقرئ شاذا مثلهم بالفتح لإضافته إلى غير متمكن كما في قوله تعالى مثل ماانكم تنطقون وقيل هو منصوب علىالظرفية اى في مثل حالهم

وقوله تعالى إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا تعليل لكونهم مثلهم في الكفر ببيان ما يستلزمه من شركتهم لهم في العذاب والمراد بالمنافقين إما المخاطبون وقد وضع موضع ضميرهم المظهر تسجيلا بنفاقهم وتعليلا للحكم بمأخذ الاشتقاق وإما الجنس وهم داخلون تحته دخولا أوليا وتقديم المنافقين على الكافرين لتشديد الوعيد على المخاطبين ونصب جميعا مثل ما قبله

الذين يتربصون بكم تلوين للخطاب وتوجيه له إلى المؤمنين بتعديد بعض آخر من جنايات المنافقين وقبائحهم وهو إما بدل من الذين يتخذون أو صفة للمنافقين فقط إذ هم المتربصون دون الكافرين أو موفوع او منصوب على الذم أى ينتظرون أمركم وما يحدث لكم من ظفر أو إخفاق والفاء في قوله تعالى

فإن كان لكم فتح من الله لترتيب مضمونه على ما قبلها فإن حكاية تربصهم مستتبعة لحاية ما يقع بعد ذلك كما ان نفس التربص يستدعى شيئا ينتظر المتربص وقوعه

قالوا أى لكم

ألم نكن معكم أى مظاهرين لكم فأسهموا لنا في الغنيمة

وإن كان للكافرين نصيب من الحرب فإنها سجال

قالوا أى للكفرة

ألم نستحوذ عليكم أى الم نغلبكم ونتمكن من قتالكم وأسركم فابقينا عليكم

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، ٨٩/٦

ويمنعكم من المؤمنين بأن ثبطناهم عنكم وخيلنا لهم ما ضعفت به قلوبهم ومرضوا في قتالكم وتوانينا في مظاهرتهم وإلا لكنتم نهبة للنوائب فهاتوا نصيبا لنا مما أصبتم وتسمية ظفر المسلمين فتحا وما للكافرين نصيبا لتعظيم شأن المسلمين وتخسيس حظ الكافرين وقرئ ونمنعكم بإضمار أن

فالله يحكم بينكم يوم القيامة حكما يليق بشأن كل منكم من الثواب والعقاب وأما في الدنيا فقد أجرى على من تفوه بكلمة الإسلام حكمه ولم يضع السيف على من تكلم بها نفاقا

ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا حينئذ كما قد يجعل ذلك في الدنيا بطريق الابتلاء والاستدراج أو في الدنيا على ان المراد بالسبيل الحجة

إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم كلام مبتدأ سيق لبيان طرف ." (١)

"" صفحة رقم ٢٦٩ "

والضمير في معهم للكفرة المدلول عليهم بقوله يكفر بها ويستهزأ بها) **إنكم إذا مثلهم** (في الإثم لأنكم قادرون على الإعراض عنهم والإنكار عليهم أو الكفر إن رضيتم بذلك أو لأن الذين يقاعدون الخائضين في القرآن من الأحبار كانوا منافقين ويدل عليه) إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (يعني القاعدين والمقعود معهم وإذا ملغاة لوقوعها بين الاسم والخبر ولذلك لم يذكر بعدها الفعل وإفراد مثلهم لأنه كالمصدر أو للاستغناء بالإضافة إلى الجمع وقرئ بالفتح على البناء لإضافته إلى مبني كقوله تعالى) مثل ما أنكم تنطقون)

النساء : (١٤١) الذين يتربصون بكم . . . . .

) الذين يتربصون بكم (ينتظرون وقوع أمر بكم وهو بدل من الذين يتخذون أو صفة للمنافقين والكافرين أو ذم مرفوع أو منصوب أو مبتدأ خبره) فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم (مظاهرين لهم فاسهموا لنا مما غنمتم) وإن كان للكافرين نصيب (من الحرب فإنها سجال) قالوا ألم نستحوذ عليكم (أي قالوا للكفرة ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم فأبقينا عليكم والاستحواذ الاستيلاء وكان القياس أن يقال استحاذ يستحيذ استحاذة فجاءت على الأصل) ونمنعكم من المؤمنين (بأن خذلناهم بتخييل ما ضعفت به قلوبهم وتوانينا في مظاهرتهم فأشركونا فيما أصبتم وإنما سمي ظفر المسلمين فتحا وظفر الكافرين نصيبا لخسة حظهم فإنه مقصور على أمر دنيوي سريع الزوال) فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (حينئذ أو في الدنيا والمراد بالسبيل الحجة واحتج به أصحابنا على فساد شراء الكافر المسلم والحنفية على حصول البينونة بنفس الارتداد وهو ضعيف لأنه لا ينفي أن يكون إذا عاد إلى الإيمان قبل مضي العدة." (٢)

"٦٦٦ حدثنا سعيد قال : نا عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، قال أنزلت في سودة وأشباهها : " وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا " قال : ذلك أن سودة بنت زمعة قد أسنت ففرقت أن يفارقها

---

(١) تفسير أبي السعود، ٢٤٥/٢

(٢) تفسير البيضاوى . ، ٢٦٩/٢

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضنت بمكانها منه ، وعرفت من حب رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة ، ومنزلتها منه ، فوهبت يومها من رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها ، فقبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم *

٦٦٧ حدثنا سعيد قال : نا فضيل بن عياض ، عن هشام بن حسان ، عن ابن سيرين قال : سألت عبيدة عن قوله عز وجل : ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم قال : " فأومى بيده إلى صدره فقال : في الحب والمجامعة " *

٦٦٨ حدثنا سعيد قال : نا محمد بن فضيل بن غزوان ، عن عبيد المكتب ، عن إبراهيم قال : " إن الرجل ليجلس في المجلس ، فيتكلم بالكلمة ، فيرضى الله عز وجل بها ، فتصيبه الرحمة ، فتعم من حوله ، وإن الرجل ليجلس في المجلس ، فيتكلم بالكلمة ، فيسخط الله بها ، فيصيبه السخط ، فيعم من حوله " حدثنا سعيد قال : نا محمد بن فضيل ، عن حجاج بن دينار ، عن عامر بن شقيق ، عن أبي وائل نحوا من هذا ، وزاد فيه : وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم** *

٦٦٩ حدثنا سعيد قال : نا سفيان ، عن محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي ، عن أبيه ، عن جده ، عن بلال بن الحارث قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله عز وجل ، ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ، ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، فيكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه " *." (١)

"على الآيات، والمراد سماع الكفر والاستهزاء، كما تقول: سمعت عبد الله يلام، أي سمعت اللوم في عبد الله.

قوله تعالى: (فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره) أي غير الكفر.

(انكم إذا مثلهم) فدل بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر، لان من لم يجتنبهم فقد رضي فعلهم، والرضا بالكفر كفر، قال الله عزوجل: (إنكم إذا مثلهم).

فكل من جلس في مجلس (١) معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية.

وقد روي عن عمر بن عبد العزيز [رضى الله عنه (٢)] أنه أخذ قوما يشربون الخمر، فقيل له عن أحد الحاضرين: إنه صائم، فحمل عليه الادب وقرأ هذه الآية (إنكم إذا مثلهم) أي إن الرضا بالمعصية معصية، ولهذا يؤاخذ الفاعل والراضي بعقوبة المعاصي حتى يهلكوا بأجمعهم.

وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات، ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر من المقارنة، كما قال: * فكل قرين بالمقارن يقتدي * وقد تقدم (٣).

وإذا ثبت تجنب أصحاب المعاصي كما بينا فتجنب أهل البدع والاهواء أولى.

وقال الكلبي: قوله تعالى (فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره) نسخ بقوله تعالى: (وما على الذين يتقون من

---

(١) التفسير من سنن سعيد بن منصور، ص/١٠٧

حسابهم من شئ (٤)).

وقال عامة المفسرين: هي محكمة.

وروى جويبر عن الضحاك قال: دخل في هذه الآية كل محدث في الدين مبتدع إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: (ان الله جامع المنافقين) الاصل (جامع) بالتنوين فحذف استخفافا،

فإنه بمعنى يجمع.

(الذين يتربصون بكم) يعني المنافقين، أي ينتظرون بكم الدوائر.

---

(١) في ج: موضع.

(٢) من ج وط.

(٣) راجع ص ١٩٤ من هذا الجزء.

(٤) راجع ج ٦ ص ٤٣١ (*)."[١]

"وقوته ورزقه ويقولون الخير من الله والشر من إبليس).

قال: فيكفرون بالله ثم يقرءون على ذلك كتاب الله، فيكفرون بالقرآن بعد الإيمان و المعرفة ؟ قال: (فما تلقى أمتي منهم من العداوة والبغضاء والجدال أولئك زنادقة هذه الأمة).

وذكر الحديث.

ومضى في " النساء " وهذه السورة النهي عن مجالسة أهل البدع والأهواء، وأن من جالسهم حكمه حكمهم فقال: " وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا (١) " الآية.

ثم بين في سورة " النساء " وهي مدنية عقوبة من فعل ذلك وخالف ما أمر الله به فقال: " وقد نزل عليكم في الكتاب " الآية (٢).

فألحق من جالسهم بهم.

وقد ذهب إلى هذا جماعة من أئمة هذه الأمة وحكم بموجب هذه الآيات في مجالس (٣) أهل البدع على المعاشرة والمخالطة منهم أحمد بن حنبل والأوزاعي وابن المبارك فإنهم قالوا في رجل شأنه مجالسة أهل البدع قالوا: ينهي عن مجالستهم، فإن انتهى وإلا ألحق بهم، يعنون في الحكم.

وقد حمل عمر بن عبد العزيز الحد على مجالس شربة الخمر، وتلا " **إنكم إذا مثلهم** ".

قيل له (٤): فإنه يقول إني أجالسهم لأباينهم وأرد عليهم.

قال (٤)

ينهى عن مجالستهم، فإن لم ينته ألحق بهم.

---

(١) تفسير القرطبي، ٥/٤١٨

قوله تعالى: ثم ءاتينا موسى الكتب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل شئ وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون (١٥٤) وهذا كتب أنزلنه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون (١٥٥) قول تعالى: (ثم آتينا موسى الكتاب) مفعولان.

(تماما) مفعول من أجله أو مصدر.

(على الذين أحسن) قرئ بالنصب والرفع.

فمن رفع - وهي قراءة يحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق - فعلى تقدير: تماما على الذي هو أحسن.

قال المهدوي: وفيه بعد من أجل حذف المبتدأ العائد على الذي.

وحكى سيبويه عن الخليل أنه سمع " ما أنا بالذي قائل لك شيئا ".

ومن نصب فعلى أنه فعل ماضي داخل في الصلة، هذا قول البصريين.

وأجاز الكسائي والفراء

---

(١) راجع ص ١٢ من هذا الجزء.

(٢) راجع ج ٥ ص ٤١٧.

(٣) في ك: مجالسه.

(٤) كذا في ك.

وفي ب وج وز وى: قيل لهم.

قالوا.

(*)."[(١)]

"﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) ﴾

وقد نزل عليكم -أيها المؤمنون- في كتاب ربكم أنه إذا سمعتم الكفر بآيات الله والاستهزاء بها فلا تجلسوا مع الكافرين والمستهزئين، إلا إذا أخذوا في حديث غير حديث الكفر والاستهزاء بآيات الله. إنكم إذا جالستموهم، وهم على ما هم عليه، فأنتم مثلهم؛ لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها. إن الله تعالى جامع المنافقين والكافرين في نار جهنم جميعا، يلقون فيها سوء العذاب.." [(٢)]

"ج ١ ، ص : ٤٤٢

المنافقون وصفاتهم [سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٧ الى ١٤٣]

إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن

---

(١) تفسير القرطبي، ١٤٢/٧

(٢) التفسير الميسر، ١٣٨/٢

لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا (١٤٢) مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (١٤٣)." (١)

"وقرأ الجمهور : وقد نزل مشددا مبنيا للمفعول. وقرأ عاصم : نزل مشددا مبنيا للفاعل. وقرأ أبو حيوة وحميد : نزل مخففا مبنيا للفاعل. وقرأ النخعي : أنزل بالهمزة مبنيا للمفعول ، ومحل أن رفع أو نصب على حسب العامل ، فنصب على قراءة عاصم ، ورفع على الفاعل على قراءة أبي حيوة وحميد ، وعلى المفعول الذي لم يسم فاعله على قراءة الباقين. وإن هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف وتقديره : ذلك أنه إذا سمعتم. وما قدره أبو البقاء من قوله : أنكم إذا سمعتم ، ليس بجيد ، لأنها إذا خففت إن لم تعمل في ضمير إلا إذا كان ضمير أمر ، وشأن محذوف ، وإعمالها في غيره ضرورة نحو قوله :

فلو أنك في يوم الرخاء سألتنيطلاقك لم أبخل وأنت صديق

وخبر إن هي الجملة من إذا وجوابها. ومثال وقوع جملة الشرط خبرا لأن المخففة من الثقيلة قول الشاعر :

فعلمت أن من تتقوه فإنهجزر لخامعة وفرخ عقاب

ويكفر بها في موضع نصب على الحال ، والضمير في معهم عائد على المحذوف الذي دل عليه قوله : يكفر بها ويستهزأ أي : فلا تقعدوا مع الكافرين المستهزئين ، وحتى غاية لترك القعود معهم. ومفهوم الغاية أنهم إذا خاضوا في غير الكفر والاستهزاء ارتفع النهي ، فجاز لهم أن يقعدوا معهم. والضمير عائد على ما دل عليه المعنى أي : في حديث غير حديثهم الذي هو كفر واستهزاء. ويحتمل أن يفرد الضمير ، وإن كان عائدا على الكفر وعلى الاستهزاء المفهومين من قوله : يكفر بها ويستهزأ بها ، لأنهما راجعان إلى معنى واحد ، ولأنه أجرى الضمير مجرى اسم الإشارة في كونه لمفرد ، وإن كان المراد به اثنين.

﴿إنكم إذا مثلهم﴾ حكم تعالى بأنهم إذا قعدوا معهم وهم يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها ، وهم قادرون على الإنكار مثلهم في الكفر ، لأنهم يكونون راضين بالكفر ، والرضا بالكفر كفر. والخطاب في أنكم على الخلاف السابق أهو للمنافقين ؟ أم للمؤمنين ؟ ولم يحكم تعالى على المسلمين الذين كانوا يجالسون الخائضين من المشركين بمكة بأنهم مثل المشركين ، لعجز المسلمين إذ ذاك عن الإنكار بخلاف المدينة ، فإن الإسلام كان الغالب فيها والأعلى ، فهم قادرون على الإنكار ، والسامع للذم شريك للقائل ، وما أحسن ما قال الشاعر :

---

(١) التفسير الواضح ـ موافقا للمطبوع، ١/٤٤٢

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٣٥٧
وسمعك صن عن سماع القبيحكصون اللسان عن النطق به
قال ابن عطية : وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات ، ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر من المقارنة
٣٧٤
كقول الشاعر :
عن المرء لا تسئل وسل عن قرينهفكل قرين بالمقارن يقتدى
وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه أخذ قوما يشربون الخمر فقيل له عن أحد الحاضرين : إنه صائم فحمل عليه الأدب ، وقرأ : إنكم إذا مثلهم. ومن ذهب إلى أن معنى قوله : **إنكم إذا مثلهم** ، إن خضتم كخوضهم ووافقتموهم على ذلك فأنتم كفار مثلهم ، قوله تنبو عنه دلالة الكلام. وإنما المعنى ما قدمناه من أنكم إذا قعدتم معهم مثلهم.
وإذا هنا توسطت بين الاسم والخبر ، وأفرد مثل ، لأن المعنى أن عصيانكم مثل عصيانهم ، فالمعنى على المصدر كقوله : ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ وقد جمع في قوله : ﴿ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ وفي قوله : ﴿وحور عين * كأمثال اللؤلوا المكنون﴾ والإفراد والمطابقة في التثنية أو الجمع جائزان. وقرىء شاذا مثلهم بفتح اللام ، فخرجه البصريون على أنه مبني لإضافته إلى مبني كقوله : لحق مثل ما أنكم تنطقون على قراءة من فتح اللام ، والكوفيون يجيزون في مثل أن ينتصب محلا وهو الظرف ، فيجوز عندهم زيد مثلك بالنصب أي : في مثل حالك. فعلى قولهم يكون انتصاب مثلهم على المحل ، وهو الظرف.
﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا﴾ لما اتخذوهم في الدنيا أولياء جمع بينهم في الآخرة في النار ، والمرء مع من أحب ، وهذا توعد منه تعالى تأكد به التحذير من مجالستهم ومخالطتهم.
". (١)

"﴿وإذا رأيت الذين يخوضون فى ءاياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيرها﴾ هذا خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه المؤمنون لأن علة النهي وهو سماع الخوض في آيات الله يشمله وإياهم. وقيل : هو خاص بتوحيده لأن قيامه عنهم كان يشق عليهم وفراقه على مغاضبه والمؤمنون عندهم ليسوا كهو. وقيل : خطاب للسامع والذين يخوضون المشركون أو اليهود أو أصحاب الأهواء ثلاثة أقوال ، ورأيت هنا بصرية ولذلك تعدت إلى واحد ولا بد من تقدير حال محذوفة أي ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون فى ءاياتنا﴾ وهم خائضون فيها أي وإذا رأيتهم ملتبسين بهذه الحالة. وقيل : ﴿رأيت﴾ علمية لأن الخوض في الآيات ليس مما يدرك بحاسة البصر وهذا فيه بعد لأنه يلزم من ذلك حذف المفعول الثاني من باب علمت فيكون التقدير ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون فى ءاياتنا﴾ خائضين فيها وحذفه اقتصارا لا يجوز وحذفه اختصارا عزيز جدا حتى أن بعض النحويين منعه والخوض في الآيات كناية عن الاستهزاء بها والطعن فيها. وكانت قريش في أنديتها تفعل ذلك ﴿فأعرض عنهم﴾ أي لا تجالسهم وقم عنهم وليس إعراضا بالقلب وحده بينه وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم** ، وقد

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٣/٣٠٤

تقدم من قول المفسرين في هذه الآية أن قوله : وقد نزل عليكم في الكتاب : أن الذي نزل في الكتاب هو قوله : ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون﴾ الآية و﴿حتى يخوضوا ﴾ غاية الإعراض عنهم أي فلا بأس أن تجالسهم والضمير في ﴿غيرها ﴾ قال الحوفي عائد إلى الخوض كما قال الشاعر :

إذ نهى السفيه جرى إليهوخالف والسفيه إلى خلاف

أي جرى إلى السفه. وقال أبو البقاء : إنما ذكر الهاء لأنه أعادها على معنى الآيات ولأنها حديث وقول :

﴿وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ أي إن شغلك

١٥٢

بوسوسته حتى تنسى النهي عن مجالستهم فلا تقعد معهم بعد الذكرى أي ذكرك النهي. قال الزمخشري : ويجوز أن يراد وإن كان الشيطان ينسيك قبل النهي قبح مجالسة المستهزئين لأنها مما تنكره العقول فلا تقعد بعد الذكرى أي بعد إن ذكرناك قبحها ونبهناك عليه معهم ؛ انتهى. وهو خلاف ظاهر الشرط لأنه قد نهي عن القعود معهم قبل ثم عطف على الشرط السابق هذا الشرط فكله مستقبل وما أحسن مجيء الشرط الأول بإذا التي هي للمحقق لأن كونهم يخوضون في الآيات محقق ومجيء الشرط الثاني ب"أن" لأن إن لغير المحقق وجاء ﴿مع القوم الظالمين﴾ تنبيها على علة الخوض في الآيات والطعن فيها وأن سبب ذلك ظلمهم وهو مجاوزة الحد ووضع الأشياء غير مواضعها. قال ابن عطية : وأما شرط ويلزمها النون الثقيلة في الأغلب وقد لا تلزم كما قال الشاعر :

جزء : ٤ رقم الصفحة : ١٤٣

أما يصبك عدو في مناوأة

إلى غير ذلك من الأمثلة ؛ انتهى. وهذه المسألة فيها خلاف ، ذهب بعض النحويين إلى أنها إذا زيدت بعد إن ما لزمت نون التوكيد ولا يجوز حذفها إلا ضرورة وذهب بعضهم إلى أنها لا تلزم وإنه يجوز في الكلام وتقييده الثقيلة ليس بجيد بل الصواب النون المؤكدة سواء كانت ثقيلة أم خفيفة وكأنه نظر إلى مواردها في القرآن وكونها لم تجيء فيها بعد أما إلا الثقيلة. وقرأ ابن عامر ﴿ينسينك﴾ مشددا عداه بالتضعيف وعداه الجمهور بالهمزة. وقال ابن عطية : وقد ذكر القراءتين إلا أن التشديد أكثر مبالغة ؛ انتهى. وليس كما ذكر لا فرق بين تضعيف التعدية والهمزة ومفعول ﴿ينسينك﴾ الثاني محذوف تقديره ﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ نهينا إياك عن القعود معهم والذكرى مصدر ذكر جاء على فعلى وألفه للتأنيث ولم يجيء مصدر على فعلى غيره.

﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ ﴿الذين يتقون﴾ هم المؤمنون والضمير في ﴿حسابهم﴾ عائد على المستهزئين الخائضين في الآيات. وروي أن المؤمنين قالوا : لما نزلت فلا تقعدوا معهم لا يمكننا طواف ولا عبادة في الحرم فنزلت ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ فأبيح لهم قدر ما يحتاج إليه من التصرف بينهم في العبادة ونحوها ، والظاهر أن حكم الرسول موافق لحكم غيره لاندراجه في قوله : ﴿وما على الذين يتقون﴾ أمر هو صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم حتى إن عرض نسيان وذكر فلا تقعد معهم. وقيل : للمتقين وهو رأسهم أي ما عليكم من حسابهم من شيء.

﴿ولـاكن ذكرى ﴾ أي ولكن عليكم أن تذكروهم ذكرى إذا سمعتموهم يخوضون بأن تقوموا عنهم وتظهروا كراهة فعلهم وتعظوهم.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ١٤٣

(١) ".

"" صفحة رقم ٣٧٥ "

الكافرين أوليآء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم ءايات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾)

النساء : (١٢٧) ويستفتونك في النساء . . . . .

الشح : قال ابن فارس البخل مع الحرص . وتشاح الرجلان في الأمر لا يريدان أن يفوتهما ، وهو بضم الشين وكسرها . وقال ابن عطية : الشح الضبط على المعتقدات والإرادة ، ففي الهمم والأموال ونحو ذلك مما أفرط فيه ، وفيه بعض المذمة . وما صار إلى حيز الحقوق الشرعية وما تقتضيه المروءة فهو البخل ، وهو رذيلة . لكنها قد تكون في المؤمن ومنه الحديث : (قيل : يا رسول الله ، أيكون المؤمن بخيلا ؟ قال : نعم) وأما الشح ففي كل أحد ، ويدل عليه : (وأحضرت الأنفس الشح) و (من يوق شح نفسه) لكل نفس شحا وقول النبي عليه السلام : (أن تصدق وأنت صحيح شحيح) ولم يرد به واحدا بعينه ، وليس بحمد أن يقال هنا إن تصدق وأنت صحيح بخيل .

المعلقة : هي التي ليست مطلقة ولا ذات بعل . قال الرجل : هل هي إلا خطة ، أو تعليق ، أو صلف ، أو بين ذاك تعليق . وفي حديث أم زرع : زوجي العشنق إن انطق أطلق ، وإن أسكت أعلق) شبهت المرأة بالشيء المعلق من شيء ، لأنه لا على الأرض استقر ، ولا على ما علق منه . وفي المثل : أرض من المركب بالتعليق .

الخوض : الاقتحام في الشيء تقول : خضت الماء خوضا وخياضا ، وخضت الغمرات اقتحمتها ، وخاضه بالسيف حرك سيفه في المضروب ، وتخاوضوا في الحديث تفاوضوا فيه ، والمخاضة موضع الخوض . قال الشاعر وهو عبد الله بن شبرمة :

إذا شالت الجوزاء والنجم طالع

فكل مخاضات الفرات معابر

والخوضة بفتح الخاء اللؤلؤة ، واختاض بمعنى خاض وتخوض ، تكلف الخوض . الاستحواذ : الاستيلاء والتغلب." (٢)

"" صفحة رقم ٣٩٠ "

ويكفر بها في موضع نصب على الحال ، والضمير في معهم عائد على المحذوف الذي دل عليه قوله : يكفر بها ويستهزأ

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ١٢٢/٤

(٢) تفسير البحر المحيط . (الكتب العلمية)، ٣٧٥/٣

أي : فلا تقعدوا مع الكافرين المستهزئين ، وحتى غاية لترك القعود معهم . ومفهوم الغاية أنهم إذا خاضوا في غير الكفر والاستهزاء ارتفع النهي ، فجاز لهم أن يقعدوا معهم . والضمير عائد على ما دل عليه المعنى أي : في حديث غير حديثهم الذي هو كفر واستهزاء . ويحتمل أن يفرد الضمير ، وإن كان عائدا على الكفر وعلى الاستهزاء المفهومين من قوله : يكفر بها ويستهزأ بها ، لأنهما راجعان إلى معنى واحد ، ولأنه أجرى الضمير مجرى اسم الإشارة في كونه لمفرد ، وإن كان المراد به اثنين .

(**إنكم إذا مثلهم** (حكم تعالى بأنهم إذا قعدوا معهم وهم يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها ، وهم قادرون على الإنكار مثلهم في الكفر ، لأنهم يكونون راضين بالكفر ، والرضا بالكفر كفر . والخطاب في أنكم على الخلاف السابق أهو للمنافقين ؟ أم للمؤمنين ؟ ولم يحكم تعالى على المسلمين الذين كانوا يجالسون الخائضين من المشركين بمكة بأنهم مثل المشركين ، لعجز المسلمين إذ ذاك عن الإنكار بخلاف المدينة ، فإن الإسلام كان الغالب فيها والأعلى ، فهم قادرون على الإنكار ، والسامع للذم شريك للقائل ، وما أحسن ما قال الشاعر : وسمعك صن عن سماع القبيح

كصون اللسان عن النطق به

قال ابن عطية : وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات ، ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر من المقارنة كقول الشاعر : عن المرء لا تسئل وسل عن قرينه

فكل قرين بالمقارن يقتدى

وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه أخذ قوما يشربون الخمر فقيل له عن أحد الحاضرين : إنه صائم فحمل عليه الأدب ، وقرأ : **إنكم إذا مثلهم** . ومن ذهب إلى أن معنى قوله : **إنكم إذا مثلهم** ، إن خضتم كخوضهم ووافقتموهم على ذلك فأنتم كفار مثلهم ، قوله تنبو عنه دلالة الكلام . وإنما المعنى ما قدمناه من أنكم إذا قعدتم معهم مثلهم .

وإذا هنا توسطت بين الاسم والخبر ، وأفرد مثل ، لأن المعنى أن عصيانكم مثل عصيانهم ، فالمعنى على المصدر كقوله :) أنؤمن لبشرين مثلنا (وقد جمع في قوله :) ثم لا يكونوا أمثالكم (وفي قوله :) حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون (والإفراد والمطابقة في التثنية أو الجمع جائزان . وقرىء شاذا مثلهم بفتح اللام ، فخرجه البصريون على أنه مبني لإضافته إلى مبني كقوله : لحق مثل ما أنكم تنطقون على قراءة من فتح اللام ، والكوفيون يجيزون في مثل أن ينتصب محلا وهو الظرف ، فيجوز عندهم زيد مثلك بالنصب أي : في مثل حالك . فعلى قولهم يكون انتصاب مثلهم على المحل ، وهو الظرف .

(إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا (لما اتخذوهم في الدنيا أولياء جمع بينهم في الآخرة في النار ، والمرء مع من أحب ، وهذا توعد منه تعالى تأكد به التحذير من مجالستهم ومخالطتهم .

النساء : (١٤١) الذين يتربصون بكم . . . . .

(الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم (المعنى الذين ينتظرون بكم ما يتجدد من الأحوال من ظفر لكم أو بكم ، فإن كان لكم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم مظاهرين . والمعنى : فاسهموا لنا بحكم إننا مؤمنون ، وإن كان للكافرين أي اليهود نصيب ، أي : نيل من المؤمنين قالوا : ألم نستحوذ

عليكم ، أي : ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم وأسركم ، وأبقينا عليكم ، ونمنعكم من المؤمنين بأن ثبطناهم عنكم ، فاسهموا لنا بحكم أننا نواليكم فلا نؤذيكم ، ولا نترك أحدا يؤذيكم . قيل : المعنى أن الكفار واليهود هموا بالدخول في الإسلام فحذرهم المنافقون عن ذلك ، وبالغوا في تنفيرهم سيضعف أمر الرسول ، فمنوا عليهم عند حصول نصيب لهم بأنهم قد أرشدوهم لهذه المصالح ، فيكون التقدير : ونمنعكم من اتباع المؤمنين والدخول في دينهم فاسهموا لنا . وقيل : المعنى ألم." (١)

"" صفحة رقم ١٥٧ "

بالإيمان على سبيل القهر والاستيلاء .

الأنعام : (٦٨) وإذا رأيت الذين . . . . .

(وإذا رأيت الذين يخوضون فىءاياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره (هذا خطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم)) ويدخل فيه المؤمنون لأن علة النهي وهو سماع الخوض في آيات الله يشمله وإياهم . وقيل : هو خاص بتوحيده لأن قيامه عنهم كان يشق عليهم وفراقه على مغاضبه والمؤمنون عندهم ليسوا كهو . وقيل : خطاب للسامع والذين يخوضون المشركون أو اليهود أو أصحاب الأهواء ثلاثة أقوال ، ورأيت هنا بصرية ولذلك تعدت إلى واحد ولا بد من تقدير حال محذوفة أي) وإذا رأيت الذين يخوضون فىءاياتنا (وهم خائضون فيها أي وإذا رأيتهم ملتبسين بهذه الحالة . وقيل :) رأيت (علمية لأن الخوض في الآيات ليس مما يدرك بحاسة البصر وهذا فيه بعد لأنه يلزم من ذلك حذف المفعول الثاني من باب علمت فيكون التقدير) وإذا رأيت الذين يخوضون فىءاياتنا (خائضين فيها وحذفه اقتصارا لا يجوز وحذفه اختصارا عزيز جدا حتى أن بعض النحويين منعه والخوض في الآيات كناية عن الاستهزاء بها والطعن فيها . وكانت قريش في أنديتها تفعل ذلك) فأعرض عنهم (أي لا تجالسهم وقم عنهم وليس إعراضا بالقلب وحده بينه وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم** ، وقد تقدم من قول المفسرين في هذه الآية أن قوله : وقد نزل عليكم في الكتاب : أن الذي نزل في الكتاب هو قوله :) وإذا رأيت الذين يخوضون (الآية و) حتى يخوضوا (غاية الإعراض عنهم أي فلا بأس أن تجالسهم والضمير في) غيره (قال الحوفي عائد إلى الخوض كما قال الشاعر : إذ نهى السفيه جرى إليه

وخالف والسفيه إلى خلاف

أي جرى إلى السفه . وقال أبو البقاء : إنما ذكر الهاء لأنه أعادها على معنى الآيات ولأنها حديث وقول :

) وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين (أي إن شغلك بوسوسته حتى تنسى النهي عن مجالستهم فلا تقعد معهم بعد الذكرى أي ذكرك النهي . قال الزمخشري : ويجوز أن يراد وإن كان الشيطان ينسيك قبل النهي قبح مجالسة المستهزئين لأنها مما تنكره العقول فلا تقعد بعد الذكرى أي بعد إن ذكرناك قبحها ونبهناك عليه معهم ؛ انتهى . وهو خلاف ظاهر الشرط لأنه قد نهي عن القعود معهم قبل ثم عطف على الشرط السابق هذا الشرط فكله مستقبل وما

(١) تفسير البحر المحيط . (الكتب العلمية)، ٣/٣٩٠

أحسن مجيء الشرط الأول بإذا التي هي للمحقق لأن كونهم يخوضون في الآيات محقق ومجيء الشرط الثاني ب (أن) لأن إن لغير المحقق وجاء) مع القوم الظالمين (تنبيها على علة الخوض في الآيات والطعن فيها وأن سبب ذلك ظلمهم وهو مجاوزة الحد ووضع الأشياء غير مواضعها . قال ابن عطية : وأما شرط ويلزمها النون الثقيلة في الأغلب وقد لا تلزم كما قال الشاعر :

أما يصبك عدو في مناوأة

إلى غير ذلك من الأمثلة ؛ انتهى . وهذه المسألة فيها خلاف ، ذهب بعض النحويين إلى أنها إذا زيدت بعد إن ما لزمت نون التوكيد ولا يجوز حذفها إلا ضرورة وذهب بعضهم إلى أنها لا تلزم وإنه يجوز في الكلام وتقييده الثقيلة ليس بجيد بل الصواب النون المؤكدة سواء كانت ثقيلة أم خفيفة وكأنه نظر إلى مواردها في القرآن وكونها لم تجيء فيها بعد أما إلا الثقيلة . وقرأ ابن عامر) ينسينك (مشددا عداه بالتضعيف وعداه الجمهور بالهمزة . وقال ابن عطية." (١)

"﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا (١٣٦) ﴾

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه. كما يقول المؤمن في كل صلاة: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة: ٦] أي: بصرنا فيه، وزدنا هدى، وثبتنا عليه. فأمرهم بالإيمان به وبرسوله، كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقوله: ﴿ والكتاب الذي نزل على رسوله ﴾ يعني: القرآن ﴿ والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة، وقال في القرآن: ﴿ نزل ﴾ ؛ لأنه نزل مفرقا منجما على الوقائع، بحسب ما يحتاج إليه العباد إليه في معادهم ومعاشهم، وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة؛ ولهذا قال: ﴿ والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ ثم قال ﴿ ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾ أي: فقد خرج عن طريق الهدى، وبعد عن القصد كل البعد.

﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره** **إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) ﴾

يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رجع عنه، ثم عاد فيه ثم رجع، واستمر على ضلاله (١) وازداد حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته، ولا يغفر الله له، ولا يجعل له مما هو فيه فرجا ولا مخرجا، ولا طريقا إلى الهدى؛ ولهذا قال: ﴿ لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا ﴾

---

(١) تفسير البحر المحيط . (الكتب العلمية)، ٤/١٥٧

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا حفص بن جميع، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ ثم ازدادوا كفرا ﴾ قال: تموا (٢) على كفرهم حتى ماتوا. وكذا قال مجاهد.

وروى ابن أبي حاتم من طريق جابر المعلى، عن عامر الشعبي، عن علي، رضي الله عنه، أنه قال: يستتاب المرتد، ثلاثا، ثم تلا هذه الآية: ﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا ﴾

---

(١) في أ: "ضلالته".

(٢) في ر، أ: "تموا".." (١)

"ثم قال: ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما ﴾ يعني: أن المنافقين من هذه الصفة فإنهم آمنوا ثم كفروا، فطبع على قلوبهم، ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة، يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة، ويقولون لهم إذا خلوا بهم: إنما نحن معكم، إنما نحن مستهزئون. أي بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة. قال الله تعالى منكرا عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين: ﴿ أيبتغون عندهم العزة ﴾ ؟

ثم أخبر تعالى بأن العزة كلها لله وحده لا شريك له، ولمن جعلها له. كما قال في الآية الأخرى: ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ [المنافقون: ٨].

والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله، والالتجاء إلى عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

ويناسب أن يذكر (١) هاهنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

حدثنا حسين بن محمد، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن حميد الكندي، عن عبادة بن نسي، عن أبي ريحانه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من انتسب إلى تسعة آباء كفار، يريد بهم عزا وفخرا، فهو عاشرهم في النار".

تفرد به أحمد (٢) وأبو ريحانة هذا هو أزدي، ويقال: أنصاري. اسمه (٣) شمعون بالمعجمة، فيما قاله البخاري، وقال غيره: بالمهملة، والله (٤) أعلم.

وقوله [تعالى] (٥) ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم** ﴾ أي: إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم، ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها، وأقررتموهم على ذلك، فقد شاركتموهم في الذي هم فيه. فلهذا قال تعالى: ﴿ **إنكم إذا مثلهم** ﴾ [أي] (٦) في المأثم، كما جاء في الحديث: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر" (٧) .

والذي أحيل عليه في هذه الآية من النهي في (٨) ذلك، هو قوله تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم [حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة، ٤٣٤/٢

الظالمين] (٩) ﴾ [الأنعام: ٦٨] قال مقاتل بن حيان: نسخت هذه الآية التي في الأنعام. يعني نسخ قوله: ﴿ **إنكم إذا مثلهم** ﴾ لقوله ﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون ﴾ [الأنعام: ٦٩].

(١) في ر: "ومناسب أن ذكر".

(٢) المسند (١٣٣/٤) قال الهيثمي في المجمع (٨٥/٨): "رجال أحمد ثقات".

(٣) في ر، أ: "واسمه".

(٤) في ر، أ: "فالله".

(٥) زيادة من ر، أ.

(٦) زيادة من ر، أ.

(٧) رواه الترمذي في سننه برقم (٢٨٠١) من حديث جابر، وفي إسناده ليث بن أبي سليم ضعيف، ورواه أحمد في المسند (٢٠/١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي إسناده مجهول، ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٩١/١١) من حديث عبد الله ابن عباس، وفي إسناده يحي بن أبي سليمان وهو ضعيف.

(٨) في ر: "عن".

(٩) زيادة من : ر ، أ ، وفي هـ: "الآية".." (١)

"﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ [ص: ٨٨]، وقال ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ [الرعد: ٣٧].

وهذا تهديد ووعيد أكيد؛ ولهذا قال بعده: ﴿ وسوف تعلمون ﴾

ثم قال: ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا ﴾ أي: بالتكذيب والاستهزاء ﴿ فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ أي: حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه (١) من التكذيب، ﴿ وإما ينسينك الشيطان ﴾ والمراد بهذا كل فرد، فرد من آحاد الأمة، ألا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها، فإن جلس أحد معهم ناسيا ﴿ فلا تقعد بعد الذكرى ﴾ بعد التذكر ﴿ مع القوم الظالمين ﴾

ولهذا ورد في الحديث: "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه" (٢)

وقال السدي، عن أبي مالك وسعيد بن جبير في قوله: ﴿ وإما ينسينك الشيطان ﴾ قال: إن نسيت فذكرت، فلا تجلس معهم. وكذا قال مقاتل بن حيان.

وهذه الآية هي المشار إليها في قوله: ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم** ﴾ الآية [النساء: ١٤٠] أي: إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك، فقد ساويتموهم في الذي هم فيه.

وقوله: ﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾ أي: إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك، فقد برئوا من

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة، ٤٣٥/٢

عهدهم، وتخلصوا من إثمهم.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن السدي، عن أبي مالك وسعيد بن جبير، قوله: ﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾ قال: ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك، أي: إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم.

وقال آخرون: بل معناه: وإن جلسوا معهم، فليس عليهم من حسابهم من شيء. وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية، وهي قوله: ﴿ **إنكم إذا مثلهم** ﴾ [النساء: ١٤٠]. قاله مجاهد، والسدي، وابن جريج، وغيرهم. وعلى قولهم، يكون قوله: ﴿ ولكن ذكرى لعلهم يتقون ﴾ أي: ولكن أمرناكم (٣) بالإعراض عنهم حينئذ تذكيرا لهم عما هم فيه؛ لعلهم يتقون ذلك، ولا يعودون إليه.

---

(١) في أ: "قبله".

(٢) رواه ابن ماجه في السنن برقم (٢٠٤٣) من حديث أيوب بن سويد عن أبي بكر الهذلي عن شهر عن أبي ذر الغفاري، رضي الله عنه. وقال البوصيري في الزوائد (١٣٠/٢): "إسناده ضعيف".

(٣) في أ: "أمرناهم".." (١)

"ولو عاد ضررها عليك، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه ولو عادت مضرته عليك، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجا ومخرجا من كل أمر يضيق عليه. وقوله: ﴿أو الوالدين والأقربين﴾ أي وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تراعهم فيها بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم، فإن الحق حاكم على كل أحد.

وقوله: ﴿إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما﴾ أي لا ترعاه لغناه ولا تشفق عليه لفقره، الله يتولاهما بل هو أولى بهما منك وأعلم بما فيه صلاحهما. وقوله: ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ أي فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان، كما قال تعالى: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ ، ومن هذا القبيل قول عبد الله بن رواحة لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم، فقال: والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلي، ولأنتم أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير وما يحملني حبي إياه، وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض، وسيأتي الحديث مسندا في سورة المائدة أن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿وإن تلووا أو تعرضوا﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف: تلووا، أي تحرفوا الشهادة وتغيروها، واللي هو التحريف وتعمد الكذب، قال تعالى: ﴿وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ الآية، والإعراض هو كتمان الشهادة وتركها، قال تعالى: ﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم "خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها" ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾ أي وسيجازيكم بذلك.

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة، ٢٧٨/٣

﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه، كما يقول المؤمن في كل صلاة ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أي بصرنا فيه وزدنا هدى وثبتنا عليه، فأمرهم بالإيمان به وبرسوله، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله﴾. وقوله: ﴿والكتاب الذي نزل على رسوله﴾ يعني القرآن، ﴿والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة، وقال في القرآن: نزل لأنه نزل مفرقا منجما على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم، وأما الكتب المتقدمة، فكانت تنزل جملة واحدة، لهذا قال تعالى: ﴿والكتاب الذي أنزل من قبل﴾، ثم قال تعالى: ﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا﴾ أي فقد خرج عن طريق الهدى وبعد عن القصد كل البعد.

(

﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا قد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن." (١)

"الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾

يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان، ثم رجع عنه، ثم عاد فيه، ثم رجع واستمر على ضلاله وازداد حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته ولا يغفر الله له ولا يجعل له مما هو فيه فرجا ولا مخرجا ولا طريقا إلى الهدى، ولهذا قال: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا حفص بن جميع عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ثم ازدادوا كفرا﴾ قال: تمادوا على كفرهم حتى ماتوا، وكذا قال مجاهد. وروى ابن أبي حاتم من طريق جابر المعلى عن عامر الشعبي، عن علي رضي الله عنه، أنه قال: يستتاب المرتد ثلاثا، ثم تلا هذه الآية ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا﴾ ، ثم قال: ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما﴾ يعني أن المنافقين من هذه الصفة، فإنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم، ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة، ويقولون لهم إذا خلوا بهم: إنما نحن معكم، إنما نحن مستهزئون، أي بالمؤمنين، في إظهارنا لهم الموافقة، قال الله تعالى منكرا عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين ﴿أيبتغون عندهم العزة﴾، ثم أخبر الله تعالى بأن العزة كلها له وحده لا شريك له ولمن جعلها له، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعا﴾. وقال تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ ، والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله والإقبال على عبوديته والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم

(١) تفسير ابن كثير / دار الفكر، ١/٦٩٨

النصرة في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، ويناسب هنا أن نذكر الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا أبو بكر بن عياش بن حميد الكندي، عن عبادة بن نسيء، عن أبي ريحانه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من انتسب إلى تسعة آباء كفار يريد بهم عزا وفخرا، فهو عاشرهم في النار" تفرد به أحمد، وأبو ريحانة هذا هو أزدي، ويقال أنصاري، واسمه شمعون، بالمعجمة، فيما قاله البخاري، وقال غيره: بالمهملة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ ، أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها وأقررتموهم على ذلك، فقد شاركتموهم في الذي هم فيه، فلهذا قال تعالى: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ في المأثم، كما جاء في الحديث "من كان يؤمن بالله واليوم الأخر، فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر" والذي أحيل عليه في هذه الآية من النهي في ذلك هو قوله تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾ الآية، قال مقاتل بن حيان: نسخت هذه الآية التي في سورة الأنعام، يعني نسخ قوله: ﴿إنكم إذا مثلهم – لقوله – وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون﴾. وقوله: ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ أي كما أشركوهم في الكفر كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبدا ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال والقيود والأغلال وشراب الحميم والغسلين لا الزلال.

﴿الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله." (١)

"وقوله: ﴿أو يلبسكم شيعا﴾ يعني يجعلكم متلبسين شيعا فرقا متخالفين. وقال الوالبي عن ابن عباس: يعني الأهواء، وكذا قال مجاهد وغير واحد، وقد ورد في الحديث المروي من طرق عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة" وقوله تعالى: ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعني يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل. وقوله تعالى: ﴿انظر كيف نصرف الآيات﴾ أي نبينها ونوضحها مرة ونفسرها، ﴿لعلهم يفقهون﴾ أي يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه. قال زيد بن أسلم: لما نزلت ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم﴾ الآية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيف" قالوا ونحن ونشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، قال "نعم" فقال بعضهم: لا يكون هذا أبدا أن يقتل بعضنا بعضا ونحن مسلمون، فنزلت ﴿انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون﴾ رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

﴿وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون﴾

(١) تفسير ابن كثير / دار الفكر، ١/٦٩٩

يقول تعالى: ﴿وكذب به﴾ أي بالقرآن الذي جئتهم به، والهدى والبيان، ﴿ قومك﴾ يعني قريشا ﴿وهو الحق﴾ أي الذي ليس وراءه حق ﴿قل لست عليكم بوكيل﴾ أي لست عليكم بحفيظ، ولست بموكل بكم، كقوله: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ أي إنما علي البلاغ، وعليكم السمع والطاعة، فمن اتبعني سعد في الدنيا والآخرة، ومن خالفني فقد شقي في الدنيا والآخرة، ولهذا قال ﴿لكل نبأ مستقر﴾ قال ابن عباس وغير واحد: أي لكل نبأ حقيقة، أي لكل خبر وقوع، ولو بعد حين، كما قال ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ وقال ﴿لكل أجل كتاب﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد، ولهذا قال بعده ﴿وسوف تعلمون﴾. وقوله: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾ أي بالتكذيب والاستهزاء، ﴿فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ أي حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب، ﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ والمراد بذلك كل فرد، من آحاد الأمة، أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها، فإن جلس أحد معهم ناسيا، ﴿فلا تقعد بعد الذكرى﴾ بعد التذكر ﴿مع القوم الظالمين﴾ ولهذا ورد في الحديث "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه". وقال السدي عن أبي مالك وسعيد بن جبير في قوله: ﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ قال: أن نسيت فذكرت ﴿فلا تقعد﴾ معهم، وكذا قال مقاتل بن حيان، وهذه الآية هي المشار إليها في قوله: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ الآية أي إنكم إذا جلستم معهم، وأقررتموهم على ذلك، فقد ساويتموهم فيما هم فيه، وقوله: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ أي إذا تجنبوهم، فلم يجلسوا معهم في ذلك، فقد برئوا من عهدتهم وتخلصوا من إثمهم، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن." (١)

"إسرائيل، عن السدي، عن أبي مالك، عن سعيد بن جبير، قوله: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون﴾ قال: ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك، أي إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم، وقال آخرون: بل معناه وإن جلسوا معهم، فليس عليهم من حسابهم من شيء، وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية، وهي قوله: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ قاله مجاهد والسدي وابن جريج وغيرهم. وعلى قولهم يكون قوله: ﴿ولكن ذكرى لعلهم يتقون﴾ أي ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم، حينئذ تذكيرا لهم عما هم فيه، لعلهم يتقون ذلك ولا يعودون إليه.

﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منهآ أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾ يقول تعالى: ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا﴾ أي دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلا فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم، ولهذا قال وذكر به، أي ذكر الناس بهذا القرآن، وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم، يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿أن تبسل نفس بما كسبت﴾ أي لئلا تبسل، قال الضحاك عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة، والحسن والسدي: تبسل تسلم، وقال الوالبي عن ابن عباس: تفتضح. وقال قتادة: تحبس، وقال مرة وابن زيد: تؤاخذ، وقال الكلبي: تجزى، وكل هذه الأقوال والعبارات متقاربة في المعنى، وحاصلها الإسلام للهلكة، والحبس عن الخير والارتهان عن درك المطلوب،

(١) تفسير ابن كثير / دار الفكر، ١٧٦/٢

كقوله: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين﴾ وقوله: ﴿ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع﴾ وقوله: ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾ أي ولو بذلت كل مبذول ما قبل منها، كقوله: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا﴾ الآية، وكذا قال ههنا ﴿أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾.

﴿قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل أن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾

قال السدي: قال المشركون للمسلمين: اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد، فأنزل الله عز وجل ﴿قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا﴾ أي في الكفر ﴿بعد إذ هدانا الله﴾ فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض، يقول: مثلكم أن كفرتم بعد إيمانكم، كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق، فضل الطريق، فحيرته الشياطين، واستهوته في الأرض وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه إليهم." (١)

"والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله والإقبال على عبوديته والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ويناسب هنا أن نذكر الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد حدثنا أبو بكر بن عياش عن حميد الكندي عن عبادة بن نسي عن أبي ريحانه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من انتسب إلى تسعة آباء كفار يريد بهم عزا وفخرا فهو عاشرهم في النار " تفرد به أحمد وأبو ريحانة هذا هو أزدي ويقال أنصاري واسمه شمعون بالمعجمة فيما قاله البخاري وقال غيره بالمهملة والله أعلم .

وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)

وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا

وقوله " وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم** " أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها وأقررتموهم على ذلك فقد شاركتموهم في الذي هم فيه فلهذا قال تعالى " **إنكم إذا مثلهم**

---

(١) تفسير ابن كثير / دار الفكر، ١٧٧/٢

" في المأثم كما جاء في الحديث " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا
@@@٣١٤." (١)

"يجلس على مائدة يدار عليها الخمر " والذي أحيل عليه في هذه الآية من النهي في ذلك هو قوله تعالى في سورة الأنعام وهي مكية " وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا " فأعرض عنهم الآية قال مقاتل بن حيان : نسخت هذه الآية التي في سورة الأنعام يعني نسخ قوله" **إنكم إذا مثلهم لقوله** وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء " ولكن ذكرى لعلهم يتقون وقوله إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا أي كما أشركوهم في الكفر كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبدا ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال والقيود والأغلال وشراب الحميم والغسلين لا الزلال .

الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا

يخبر تعالى عن المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء بمعنى ينتظرون زوال دولتهم وظهور الكفرة عليهم وذهاب ملتهم " فإن كان لكم فتح من الله " أي نصر وتأييد وظفر وغنيمة " قالوا ألم نكن معكم " أي يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة " وإن كان للكافرين نصيب أي إدالة على المؤمنين " في بعض الأحيان كما وقع يوم أحد فإن الرسل تبتلى ثم يكون لها العاقبة قالوا " ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين"
@@@٣١٥." (٢)

"" قول ثان" قال ابن جرير وابن أبي حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب سمعت خلاد بن سليمان يقول سمعت عامر بن عبد الرحمن يقول إن ابن عباس كان يقول في هذه الآية " قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم " فأئمة السوء " أو من تحت أرجلكم " فخدم السوء وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس " عذاب من فوقكم " يعني أمراءكم" أو من تحت أرجلكم " يعني عبيدكم وسفلتكم وحكى ابن أبي حاتم عن أبي سنان وعمرو بن هانئ نحو ذلك.

قال ابن جرير : وهذا القول وإن كان له وجه صحيح لكن الأول أظهر وأقوى وهو كما قال ابن جرير رحمه الله ويشهد له بالصحة قوله تعالى " أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير " وفي الحديث " ليكونن في هذه الأمة قذف وخسف ومسخ " وذلك مذكور مع نظائره في أمارات الساعة وأشراطها وظهور الآيات قبل يوم القيامة وستأتي في موضعها إن شاء الله تعالى وقوله " أو يلبسكم شيعا "

---

(١) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، ٣١٣/٤

(٢) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، ٣١٤/٤

يعني يجعلكم ملتبسين شيعا فرقا متخالفين .
قال الوالبي عن ابن عباس يعني الأهواء وكذا قال مجاهد وغير واحد وقد ورد في الحديث المروي من طرق عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال " وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة " .
وقوله تعالى " ويذيق بعضكم بأس بعض " قال ابن عباس وغير واحد يعني يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل.
وقوله تعالى " انظر كيف نصرف الآيات " أي نبينها ونوضحها مرة ونفسرها " لعلهم يفقهون " أي يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه.
قال زيد بن أسلم لما نزلت " قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم " الآية .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيف " قالوا ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله قال" نعم " فقال بعضهم لا يكون هذا أبدا أن يقتل بعضنا بعضا ونحن مسلمون فنزلت " انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون " رواه ابن أبي حاتم وابن جرير .
وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل (٦٦)
وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل

يقول تعالى " وكذب به " أي بالقرآن الذي جئتهم به والهدى والبيان " قومك " يعني قريشا " وهو الحق " أي الذي ليس وراءه حق " قل لست عليكم بوكيل " أي لست عليكم بحفيظ ولست بموكل بكم كقوله " وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " أي إنما علي البلاغ وعليكم السمع والطاعة فمن اتبعني سعد في الدنيا والآخرة ومن خالفني فقد شقي في الدنيا والآخرة .
لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون (٦٧)
لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون

ولهذا قال" لكل نبأ مستقر " قال ابن عباس وغير واحد أي لكل نبأ حقيقة أي لكل خبر وقوع ولو بعد حين كما قال " ولتعلمن نبأه بعد حين " وقال " لكل أجل كتاب " وهذا تهديد ووعيد أكيد ولهذا قال بعده" وسوف تعلمون " .
وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين (٦٨)
وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين

وقوله" وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا " أي بالتكذيب والاستهزاء " فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره " أي

حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب " وإما ينسينك الشيطان " والمراد بذلك كل فرد من آحاد الأمة أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها فإن جلس أحد معهم ناسيا " فلا تقعد بعد الذكرى" بعد التذكر " مع القوم الظالمين " ولهذا ورد في الحديث " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " .

وقال السدي عن أبي مالك وسعيد بن جبير في قوله " وإما ينسينك الشيطان " قال إن نسيت فذكرت " فلا تقعد " معهم وكذا قال مقاتل بن حيان وهذه الآية هي المشار إليها في قوله " وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم** " الآية.

أي إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك فقد ساويتموهم فيما هم فيه .

وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون (٦٩)

وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون

وقوله " وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء " أي إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك فقد برئوا من عهدتهم وتخلصوا من إثمهم قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عبد الله بن موسى عن إسرائيل عن السدي عن أبي مالك عن سعيد بن جبير .

قوله " وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء " قال ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك أي إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم وقال آخرون بل معناه وإن جلسوا معهم فليس عليهم من حسابهم من شيء وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية وهي قوله " **إنكم إذا مثلهم** " قاله مجاهد والسدي وابن جريج وغيرهم.

وعلى قولهم يكون قوله " ولكن ذكرى لهم لعلهم يتقون " أي ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذ تذكيرا لهم عما هم فيه لعلهم يتقون ذلك ولا يعودون إليه .

وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون (٧٠)

وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون

يقول تعالى " وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا " أي دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلا فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم ولهذا قال وذكر به أي ذكر الناس بهذا القرآن وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة وقوله تعالى " أن تبسل نفس بما كسبت " أي لئلا تبسل قال الضحاك عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن والسدي تبسل تسلم

وقال الوالبي عن ابن عباس تفتضح .

وقال قتادة تحبس وقال مرة وابن زيد تؤاخذ .

وقال الكلبي تجزى وكل هذه الأقوال والعبارات متقاربة في المعنى وحاصلها الإسلام للهلكة والحبس عن الخير والارتهان عن

درك المطلوب كقوله " كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين " وقوله " ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع " أي لا قريب ولا أحد يشفع فيها كقوله " من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون " وقوله " وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها " أي ولو بذلت كل مبذول ما قبل منها كقوله " إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا " الآية .

وكذا قال ههنا " أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون " .

قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين (٧١)

قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين

قال السدي قال المشركون للمسلمين اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد فأنزل الله عز وجل " قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا " أي في الكفر " بعد إذ هدانا الله " فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض يقول مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق فضل الطريق فحيرته الشياطين واستهوته في الأرض وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه إليهم يقولون ائتنا فإنا على الطريق فأبى أن يأتيهم فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق والطريق هو الإسلام .

رواه ابن جرير وقال قتادة" استهوته الشياطين في الأرض " أضلته في الأرض يعني استهوته سيرته كقوله " تهوي إليهم " وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله " قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا " الآية .

هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها والدعاة الذين يدعون إلى هدى الله عز وجل كمثل رجل ضل عن طريق تائها إذ ناداه مناد يا فلان بن فلان هلم إلى الطريق وله أصحاب يدعونه يا فلان هلم إلى الطريق فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق وهذه الداعية التي تدعو في البرية من الغيلان يقول مثل من يعبد هذه الآلهة من دون الله فإنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت فيستقبل الندامة والهلكة وقوله "كالذي استهوته الشياطين في الأرض " هم الغيلان " يدعونه" باسمه واسم أبيه وجده فيتبعها وهو يرى أنه في شيء فيصبح وقد رمته في هلكة وربما أكلته أو تلقيه في مضلة من الأرض يهلك فيها عطشا فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تعبد من دون الله عز وجل رواه ابن جرير وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد" كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران " قال رجل حيران يدعوه أصحابه إلى الطريق وذلك مثل من يضل بعد أن هدي وقال العوفي عن ابن عباس قوله "كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب " هو الذي لا يستجيب لهدى الله وهو رجل أطاع الشيطان وعمل في الأرض بالمعصية وحاد عن الحق وضل عنه وله أصحاب يدعونه إلى الهدى ويزعمون أن الذي يأمرونه به هدى يقول الله ذلك لأوليائهم من الإنس " إن الهدى هدى الله" والضلال ما يدعو إليه الجن .

رواه ابن جرير ثم قال وهذا يقتضي أن أصحابه يدعونه إلى الضلال ويزعمون أنه هدى قال : وهذا خلاف ظاهر الآية فإن

الله أخبر أنهم يدعونه إلى الهدى فغير جائز أن يكون ضلالا وقد أخبر الله أنه هدى وهو كما قال ابن جرير فإن السياق يقتضي أن هذا الذي استهوته الشياطين في الأرض حيران وهو منصوب على الحال أي في حال حيرته وضلاله وجهله وجه المحجة وله أصحاب على المحجة سائرون فجعلوا يدعونه إليهم وإلى الذهاب معهم على الطريقة المثلى وتقدير الكلام فيأبى عليهم ولا يلتفت إليهم ولو شاء الله لهداه ولرد به إلى الطريق ولهذا قال " قل إن هدى الله هو الهدى "كما قال " ومن يهد الله فما له من مضل " وقال " إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين " وقوله " وأمرنا لنسلم لرب العالمين" أي نخلص له العبادة وحده لا شريك له .

وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون (٧٢)

وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون

" وأن أقيموا الصلاة واتقوه " أي وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه في جميع الأحوال " وهو الذي إليه تحشرون " أي يوم القيامة .

وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير (٧٣)

وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير

" وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق " أي بالعدل فهو خالقهما ومالكهما والمدبر لهما ولمن فيهما وقوله " ويوم يقول كن فيكون " يعني يوم القيامة الذي يقول الله كن فيكون عن أمره كلمح البصر أو هو أقرب ويوم منصوب إما على العطف على قوله واتقوه وتقديره واتقوا يوم يقول كن فيكون إما على قوله " خلق السموات والأرض " أي وخلق يوم يقول كن فيكون فذكر بدء الخلق وإعادته وهذا مناسب إما على إضمار فعل تقديره واذكر يوم يقول كن فيكون وقوله " قوله الحق وله الملك " جملتان محلهما الجر على أنهما صفتان لرب العالمين وقوله" ويوم ينفخ في الصور " يحتمل أن يكون بدلا من قوله " ويوم يقول كن فيكون يوم ينفخ في الصور " ويحتمل أن يكون ظرفا لقوله " وله الملك يوم ينفخ في الصور " كقوله " لمن الملك اليوم لله الواحد القهار " وكقوله " الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا " وما أشبه ذلك واختلف المفسرون في قوله " يوم ينفخ في الصور" فقال بعضهم المراد بالصور هنا جمع صورة أي يوم ينفخ فيها فتحيا .

قال ابن جرير كما يقال سور لسور البلد وهو جمع سورة والصحيح أن المراد بالصور القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام قال ابن جرير والصواب عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ .

رواه مسلم في صحيحه وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا سليمان التيمي عن أسلم العجلي عن بشر بن شغاف عن عبد الله بن عمرو قال : قال أعرابي يا رسول الله ما الصور ؟ قال قرن ينفخ فيه .." (١)

"" قال ابن عباس وغير واحد أي لكل نبأ حقيقة أي لكل خبر وقوع ولو بعد حين كما قال " ولتعلمن نبأه بعد حين " وقال " لكل أجل كتاب " وهذا تهديد ووعيد أكيد ولهذا قال بعده" وسوف تعلمون " .

وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين (٦٨)

وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين

وقوله" وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا " أي بالتكذيب والاستهزاء " فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره " أي حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب " وإما ينسينك الشيطان " والمراد بذلك كل فرد من آحاد الأمة أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها فإن جلس أحد معهم ناسيا " فلا تقعد بعد الذكرى" بعد التذكر " مع القوم الظالمين " ولهذا ورد في الحديث " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " .

وقال السدي عن أبي مالك وسعيد بن جبير في قوله " وإما ينسينك الشيطان " قال إن نسيت فذكرت " فلا تقعد " معهم وكذا قال مقاتل بن حيان وهذه الآية هي المشار إليها في قوله " وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم** " الآية.

أي إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك فقد ساويتموهم فيما هم فيه .

وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون (٦٩)

وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون

وقوله " وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء " أي إذا تجنبوهم فلم يجلسوا
٧٨@@@." (٢)

"معهم في ذلك فقد برئوا من عهدتهم وتخلصوا من إثمهم قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عبد الله بن موسى عن إسرائيل عن السدي عن أبي مالك عن سعيد بن جبير .

قوله " وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء " قال ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك أي إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم وقال آخرون بل معناه وإن جلسوا معهم فليس عليهم من حسابهم من شيء وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية وهي قوله " **إنكم إذا مثلهم** " قاله مجاهد والسدي وابن جريج وغيرهم.

---

(١) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، ٥/٤٤١

(٢) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، ٦/٧٧

وعلى قولهم يكون قوله " ولكن ذكرى لهم لعلهم يتقون " أي ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذ تذكيرا لهم عما هم فيه لعلهم يتقون ذلك ولا يعودون إليه .

وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون (٧٠)

وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون

يقول تعالى " وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا " أي دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلا فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم ولهذا قال وذكر به أي ذكر الناس بهذا القرآن وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة وقوله تعالى " أن تبسل نفس بما كسبت " أي لئلا تبسل قال الضحاك عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن والسدي تبسل تسلم

وقال الوالبي عن ابن عباس تفتضح .

وقال قتادة تحبس وقال مرة وابن زيد تؤاخذ .

وقال الكلبي تجزى

٧٩@@@." [1]

"التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ج ٣ ، ص : ٣٤٧

استمع إلى السورة الكريمة وهي تحكي كل ذلك بأسلوبها الحكيم فتقول :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٧ الى ١٤٧]

إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا (١٤٢) مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (١٤٣) يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا (١٤٤) إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار

(١) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، ٧٨/٦

ولن تجد لهم نصيرا (١٤٥) إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما (١٤٦)

ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما (١٤٧)." [1]

"التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ج ٣ ، ص : ٣٥٢

ثم نهى - سبحانه - المسلمين عن مخالطة الكافرين بآيات الله والمستهزئين بها فقال : وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره.

أى : وقد نزل الله عليكم - أيها المؤمنون - في كتابه المحكم أنكم إذا سمعتم آيات الله يكفر بها الكافرون ، ويستهزئ بها المستهزئون ، فعليكم في هذه الأحوال أن تتركوا مجالسهم ، وأن تعرضوا عنهم حتى يتكلموا في حديث آخر سوى الكفر بآيات الله والاستهزاء بها.

قال صاحب الكشاف : والمراد بالمنزل عليهم في الكتاب : هو ما نزل عليهم في مكة من قوله - تعالى - : وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره « ١ ». وذلك أن المشركين كانوا يخوضون في ذكر القرآن في مجالسهم فيستهزءون به ، فنهى - سبحانه - المسلمين عن القعود معهم ماداموا خائضين فيه.

وكان أحبار اليهود بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين ، فنهوا أن يقعدوا معهم كما نهوا - قبل ذلك - عن مجالسة المشركين بمكة « ٢ ».

وأن في قوله أن إذا سمعتم تفسيرية ، لأن نزل تضمن معنى القول دون حروفه.

وجعلها بعضهم مخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن مقدر أى أنه إذا سمعتم. وقدره بعضهم ضمير المخاطبين أى أنكم إذا سمعتم ، وخبرهما جملة الشرط والجزاء.

وقوله يكفر بها ويستهزأ بها جملتان في موضع الحال من الآيات.

وأضاف - سبحانه - الآيات إليه ، لتهويل أمرها ، والتشنيع على من كفر أو استهزأ بها.

والضمير في قوله معهم يعود إلى الكافرين والمستهزئين المدلول عليهم بقوله : يكفر بها ويستهزأ بها فكأنه قيل : لا تقعدوا - أيها المؤمنون - مع الكافرين بآيات الله والمستهزئين بها.

والضمير في قوله غيره يعود إلى تحدثهم بالكفر والاستهزاء أى : حتى يخوضوا في حديث سوى حديثهم المتعلق بالكفر بآيات الله والاستهزاء بها.

وقوله إنكم إذا مثلهم تعليل للنهى عن القعود معهم.

أى : - أيها المؤمنون - إن استمعتم إلى الكفار والمنافقين وهم يعلنون الكفر بآيات الله - تعالى - والاستهزاء بها ، كنتم معهم في الاستهانة بآيات الله وشركاء لهم في آثامهم ، لأن

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ٣٤٧/٣

(١) سورة الأنعام الآية ٦٨.

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٧٨.." (١)

"التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ج ٣ ، ص : ٣٥٣

الراضي بالكفر بآيات الله وبالاستهزاء بها. يكون بعيدا عن حقيقة الإيمان ، ومستحقا للعقوبة من الله – تعالى – قال صاحب الكشاف ، فإن قلت : لم يكونون مثلهم بالمجالسة إليهم في وقت الخوض؟

قلت : لأنهم إذا لم ينكروا عليهم كانوا راضين. والراضي بالكفر كافر فإن قلت : فهلا كان المسلمون بمكة – حين كانوا يجالسون الخائضين من المشركين – منافقين؟ قلت : لأنهم كانوا لا ينكرون لعجزهم. وهؤلاء لم ينكروا مع قدرتهم فكان ترك الإنكار لرضاهم « ١ ».

وقال القرطبي : فدل بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر ، لأن من لم يتجنبهم فقد رضى فعلهم ، والرضا بالكفر كفر. قال الله – تعالى – إنكم إذا مثلهم.

فكل من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء. وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها ، فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية. وقد روى عن عمر بن عبد العزيز أنه أخذ قوما يشربون الخمر ، فقيل له عن أحد الحاضرين : إنه صائم. فحمل عليه الأدب وقرأ عليه هذه **الآية إنكم إذا مثلهم أى** أن الرضا بالمعصية معصية. ولهذا يؤاخذ الفاعل والراضي بعقوبة العاصي حتى يهلكوا جميعا. وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر من المقارنة « ٢ » ».

ثم ختم – سبحانه – الآية الكريمة بالوعيد الشديد للكافرين والمنافقين فقال : إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا لأن هذين الفريقين كما اجتمعوا في الدنيا على الكفر بآيات الله والاستهزاء بها والتواصي بالشرور والآثام ، فسيجمعهم الله جميعا في جهنم يوم القيامة ، بسبب ما قدمت أيديهم من جرائم ومنكرات.

فأنت ترى أن الآية الكريمة تنهى المؤمنين عن مجالسة الكافرين بآيات الله والمستهزئين بها ، لأن أول الشر سماع الشر ، ولأن أول مراتب ضعف الإيمان أن تفتر حماسة المؤمن في الدفاع عن الحق الذي آمن به.

ومن علامات المؤمن الصادق أنه متى سمع استهزاء بتعاليم دينه فعليه إما أن ينبرى للدفاع عن هذه التعاليم بشجاعة وحماسة وقولة تدمغ الباطل وأهله وتفضح كل معتد أثيم .. وإما أن يقاطع المجالس التي لا يحترم فيها دين الله. أما السكوت عن ذلك باسم التغاضى أو التسامح أو المرونة. أو بغير ذلك من الأسماء ، فهذا أول مراتب النفاق الذي يؤدى إلى خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ٣/٣٥٢

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٨٨

(٢) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٤١٨.." [١]

"التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ج ٥ ، ص : ٩٩

هذا وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة أحكاما من أهمها ما يأتى :

١ - وجوب الإعراض عن مجالسة المستهزئين بآيات الله أو برسله ، وأن لا يقعد لأن في القعود إظهار عدم الكراهة ، وذلك لأن التكليف عام لنا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال القرطبي : من خاض في آيات الله تركت مجالسته وهجرته ، مؤمنا كان أو كافرا ، وقد منع أصحابنا الدخول إلى أرض العدو ودخول كنائسهم وبيعهم ، وكذلك منعوا مجالسة الكفار وأهل البدع. فقد قال بعض أهل البدع لأبى عمران النخعي : اسمع منى كلمة فأعرض عنه وقال : ولا نصف كلمة.

وروى الحاكم عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من وقر صاحب بدعة فقد أعانه على هدم الإسلام » « ١ ».

وقال صاحب المنار : وسبب هذا النهى أن الإقبال على الخائضين والقعود معهم أقل ما فيه أنه إقرار لهم على خوضهم وإغراء لهم بالتمادى فيه وأكبره أنه رضاء به ومشاركة فيه والمشاركة في الكفر والاستهزاء كفر ظاهر لا يقترفه باختياره إلا منافق مراء أو كافر مجاهر قال - تعالى - وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا »

.

٢ - جواز مجالسة الكفار مع عدم الخوض. لأنه إنما أمرنا بالإعراض في حالة الخوض ، وأيضا فقد قال - تعالى - حتى يخوضوا في حديث غيره.

قال بعض العلماء : « وحتى غاية الإعراض ، لأنه إعراض فيه توقيف دعوتهم زمانا أو جبته رعاية المصلحة ، فإذا زال موجب ذلك عادت محاولة هدايتهم وإرشادهم إلى أصلها لأنها تمحضت للمصلحة » « ٣ ».

٣ - استدل بهذه الآية على أن الناسي غير مكلف ، وأنه إذا ذكر عاد إليه التكليف فيعفى عما ارتكبه حال نسيانه ففي الحديث الشريف « إن الله رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ». رواه الطبراني عن ثوبان مرفوعا وإسناده صحيح.

٤ - قال القرطبي : قال بعضهم إن الخطاب في الآية للنبي صلى الله عليه وسلم والمقصود أمته ، ذهبوا إلى

---

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ١٣.

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ٣/٣٥٣

(٢) تفسير المنار ج ٧ ص ٥٠٦.

(٣) تفسير التحرير والتنوير ج ٧ ص ٢٨٨ للشيخ الفاضل بن عاشور.." (١)

"لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً. وَإِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ. وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ ، لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ، وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلَّا قَلِيلًا»..٨١ - ٨٣) .. «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا. ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ، ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا. بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً. الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ. أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ؟ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً. وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَيُسْتَهْزَأُ بِها ، فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ. إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ. إِنَّ اللَّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَالْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً. الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ، فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قالُوا : أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟ وَإِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ قالُوا : أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَاللَّهُ ، يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا. إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ ، وَإِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى يُراؤُنَ النَّاسَ ، وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا. مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ ، لا إِلى هؤُلاءِ وَلا إِلى هؤُلاءِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا. يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ. أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً مُبِيناً؟ إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ، وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً» .. (١٣٧ - ١٤٥) ..

وفي قطاع الجهاد - وفي غيره من القطاعات الأخرى في السورة - نلتقي بالحرب المشبوبة على الجماعة المسلمة ، وعلى العقيدة الإسلامية ، والقيادة الإسلامية كذلك ، من أهل الكتاب - وبخاصة اليهود - وحلفائهم من المنافقين في المدينة ، والمشركين في مكة ، وما حولهما .. وهي الحرب التي التقينا بها في سورة البقرة ، وفي سورة آل عمران ، من قبل .. ونلتقي كذلك بالمنهج الرباني. وهو يأخذ بيد الجماعة المسلمة السائرة بين الأشواك الخبيثة ، والأحابيل الماكرة ، يقودها ، ويوجهها ، ويحذرها ، ويكشف لها طبيعة أعدائها ، وطبيعة المعركة التي تخوضها ، وطبيعة الأرض التي تدور فيها المعركة ، وزواياها وجوانبها الخبيثة.

ومن علامات الإعجاز في هذا القرآن ، أن هذه النصوص التي نزلت لتواجه معركة معينة ، ما تزال هي بذاتها تصور طبيعة المعركة الدائمة المتجددة بين الجماعة المسلمة في كل مكان ، وعلى توالي الأجيال ، وبين أعدائها التقليديين الذين ما يزالون هم هم ، وما تزال حوافزهم هي هي في أصلها ، وإن اختلفت أشكالها وظواهرها وأسبابها القريبة ، وما تزال أهدافهم هي هي في طبيعتها وإن اختلفت أدواتها ووسائلها ، وما تزال زلزلة العقيدة ، وزعزعة الصف ، والتشكيك في القيادة الربانية ، هي الأهداف التي تصوب إليها طلقاتهم الماكرة ، للوصول من ورائها إلى الاستيلاء على مقاليد الجماعة المسلمة ، والتصرف في." (٢)

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ٥/٩٩

(٢) المفصل في موضوعات سور القرآن، ص/٢١٧

"عليه الأدب وقرأ هذه الآية " **إنكم إذا مثلهم** " وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر من المقارنة وهذا المعنى كقول الشاعر

(عن المرء لا تسأل وسل عن قرينة

فكل قرين بالمقارن يقتدي) " الطويل "

ثم توعد تعالى المنافقين والكافرين بجمعهم في جهنم فتأكد بذلك النهي والحذر من مجالسهم وخلطتهم

قوله تعالى

سورة النساء ١٤١ ١٤٢ ١٤٣

" الذين " صفة للمنافقين و " يتربصون " معناه ينتظرون دور الدوائر عليكم فإن كان فتح للمؤمنين ادعوا فيه النصيب بحكم ما يظهرونه من الإيمان وإن كان للكافرين نيل من المؤمنين ادعوا فيه النصيب بحكم ما يبطنونه من موالاة الكفار وهذا حال المنافقين و " نستحوذ " معناه نغلب على أمركم ونحطكم ونحسم أمركم ومنه قول العجاج في صفة ثور وبقر

(يحوذهن وله حوذي

) " الرجز "

أي يغلبهن على أمرهن ويغلب الثيران عليهن ويروي يحوزهن بالزاي ومن اللفظة قول لبيد في صفة عير وأتن

(إذا اجتمعت وأحوذ جانبيها

وأوردها على عوج طوال)

أحوذ جانبيها قهرها وغلب عليها

وقوله تعالى " استحوذ عليهم الشيطان " معناه غلب عليهم وشذ هذا الفعل في أن لم تعل واوه بل استعملت على الأصل وقرأ أبي بن كعب ومنعناكم من المؤمنين وقرأ ابن أبي عبلة ونمنعكم بفتح العين على الصرف ثم سلى وأنس المؤمنين بما وعدهم به في قوله " فالله يحكم بينكم يوم القيامة " أي وبينهم وينصفكم من جميعهم وبقوله " ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا " وقال يسيع الحضرمي كنت عند علي بن أبي طالب فقال له رجل يا أمير المؤمنين أرأيت قول الله تعالى " ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا "كيف ذلك وهم يقاتلوننا ويظهرون علينا أحيانا فقال علي رضي الله عنه معنى ذلك يوم القيامة يكون الحكم وبهذا قال جميع أهل التأويل

١٢٧

". (١)

"" " صفحة رقم ٧٧ " "

فالجواب : أن القدرة الكاملة لله ، وكل من سواه فبإقداره صار قادرا ، وبإعزازه صار عزيزا ، فالعزة الحاصلة للرسول وللمؤمنين لم تحصل إلا من الله – تعالى – ، فكان الأمر عند التحقيق : أن العزة لله جميعا .

---

(١) المحرر الوجيز . ، ١٤٨/٢

(وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (

قرأ الجماعة : " نزل " مبنيا للمفعول ، وعاصم ويعقوب قرآه " نزل " مبنيا للفاعل ، وأبو حيوة وحميد : " نزل " مخففا مبنيا للفاعل ، والنخعي : " أنزل " بالهمزة مبنيا للمفعول .

والقائم مقام الفاعل في قراءة الجماعة والنخعي ، هو " أن " وما في حيزها ، أي : وقد نزل عليكم المنع من مجالستهم عند سماعكم الكفر بالآيات ، والاستهزاء بها .

وأما في قراءة عاصم : ف " أن " مع ما بعدها في محل نصب مفعولا به ب " نزل " ، والفاعل ضمير الله - تعالى - كما تقدم .

وأما في قراءة أبي حيوة وحميد : فمحلها رفع بالفاعلية ل " نزل " مخففا ، فمحلها : إما نصب على قراءة عاصم ، أو رفع على قراءة غيره ، ولكن الرفع مختلف .

فصل

قال المفسرون : المعنى : وقد نزل عليكم يا معشر المؤمنين ،) أن إذا سمعتم آيات الله (يعني : القرآن) يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم (يعني : مع المستهزئين) حتى يخوضوا في حديث غيره (، وذلك أن المشركين كانوا يخوضون في مجالستهم في ذكر القرآن ، يستهزئون به ، فأنزل الله - تعالى -) وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ([الأنعام : ٦٨] وهذه الآية نزلت في مكة .

ثم إن أحبار اليهود بالمدينة ، كانوا يفعلون فعل المشركين ، وكان المنافقون يقعدون معهم ، ويوافقونهم على ذلك ، فقال - تعالى - مخاطبا لهم : " أنه قد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها " والمعنى : إذا سمعتم الكفر بآيات الله والاستهزاء بها ، لكنه أوقع فعل السماع على الآية ، والمراد بها : سماع الاستهزاء .." (١)

"" " صفحة رقم ٧٩ " "

إما لأن الكفر والاستهزاء شيء واحد في المعنى :

وإما لإجراء الضمير مجرى اسم الإشارة ، نحو : (عوان بين ذ الك ([البقرة : ٦٨] . وقوله : [الرجز]

١٨٩٠ - كأنه في الجلد توليع البهق

وقد تقدم تحقيقه في البقرة ، و " حتى " : غاية للنهي ، والمعنى : أنه يجوز مجالستهم عند خوضهم في غير الكفر والاستهزاء .

قال الضحاك : عن ابن عباس : دخل في هذه الآية كل محدث في الدين ، وكل مبتدع إلى يوم القيامة .

قوله : (إنكم إذا مثلهم (" إذا " هنا : ملغاة ؛ لوقوعها بين مبتدأ وخبر ، والجمهور على رفع اللام في " مثلهم " على خبر الابتداء ، وقرئ شاذا بفتحها ، وفيها تخريجان :

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، ٧/٧٧

أحدهما : - وهو قول البصريين - أنه خبر أيضا ، وإنما فتح لإضافته إلى غير متمكن ؛ كقوله - تعالى - : (إنه لحق مثل مآ أنكم تنطقون ([الذاريات : ٢٣] بفتح اللام ، وقول الفرزدق : [البسيط]

١٨٩١ - . . . .

. . . . . وإذ ما مثلهم بشر

في أحد الأوجه .

والثاني : - وهو قول الكوفيين - إن " مثل " يجوز نصبها على المحل ، أي : الظرف ، ويجيزون : " زيد مثلك " بالنصب على المحل أي : زيد في مثل حالك ، وأفرد " مثل " هنا ، وإن أخبر به عن جمع ولم يطابق به كما طابق ما قبله في قوله : (ثم لا يكونو ا أمثالكم ([محمد : ٣٨] ، وقوله : (وحور عين كأمثال ([الواقعة : ٢٢ ، ٢٣] .

قال أبو البقاء وغيره : لأنه قصد به هنا المصدر ، فوحد كما وحد في قوله : (أنؤمن لبشرين مثلنا ([المؤمنون : ٤٧] .

وتحرير المعنى : أن التقدير : إن عصيانكم مثل عصيانهم ، إلا أن تقدير المصدرية في قوله : " لبشرين مثلنا " قلق .." (١)

"" صفحة رقم ٤٠١ "

المنافقين بأن لهم عذابا أليما الذين يتخذون الكافرين أوليآء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم ءايات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (٢

النساء : (١٣٦) يا أيها الذين . . . . .

) يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله (الآية .

الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس : نزلت هذه الآية في عبد الله بن سلام وأسد وأسيد ابني كعب وثعلبة بن قيس بن كعب وسلام ابن اخت عبد الله بن سلام ، وسلامة بن أخيه ويامين ابن يامين ، فهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب . أتوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقالوا : يا رسول الله إنا نؤمن بك وبكتابك ، وبموسى والتوراة ، وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسل ، فقال لهم النبي (صلى الله عليه وسلم) (بل آمنوا بالله ورسوله محمد وبكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله) فقالوا : لا نفعل ، فأنزل الله تعالى) يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ( ) والكتاب الذي نزل على رسوله (يعني القرآن) والكتاب الذي أنزل من قبل (يعني الكتب المتقدمة التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب المتقدمة) ومن يكفر بالله (إلى قوله) ضل ضلالا بعيدا (يعني خطأ خطأ بعيدا ، فلما نزلت هذه الآية ، قالوا : يا رسول الله فإنا نؤمن بالله ورسوله وبالقرآن وبكل رسول وكتاب كان قبل القرآن والملائكة واليوم الآخر لانفرق بين أحد منهم كما فعلت اليهود والنصارى ، ونحن له مسلمون فدخلوا في الإسلام .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، ٧٩/٧

وقال الضحاك : هي في اليهود والنصارى ، ومعنى الآية : يا أيها الذين آمنوا بموسى والتوراة وعيسى والإنجيل آمنوا بمحمد والقرآن .

وقيل : إنه ورد في اليهود خاصة ، والمعنى : يا أيها الذين آمنوا في وجه النهار آمنوا في آخر النهار ، وذلك قوله تعالى) وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار (الآية .

وقال (أبو العالية) وجمع من المفسرين : هذه الآية خطاب للمؤمنين وتأويله : يا أيها الذين آمنوا آمنوا أي أقيموا واثبتوا على الإيمان ، وكقوله لنبيه (صلى الله عليه وسلم) (فإعلم إنه لا إلاه إلا الله) أي اثبت على ما أنت عليه وكقوله) وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم (."[1]

"" صفحة رقم ٤٠٣ "

وقال الشاعر :

وخيل قد دلفت لها بخيل

تحية بينهم ضرب وجمع

ثم وصف المنافقين فقال

النساء : (١٣٩) الذين يتخذون الكافرين . . . . .

) الذين يتخذون الكافرين أولياء (أنصارا وبطانة) من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة (يعني الرفد والمعونة والظهور على محمد وأصحابه .

وقال الزجاج : العزة يعني المنعة والشدة والغلبة مأخوذ من قولهم : أرض عزاز أي صلبة لايفيد عليها شيء ويقال : إستعز على المريض إشتد وجعه ، وقولهم يعز علي أي يشتد ، وقولهم إذا عز الشيء لم يوجد فتأويله قد اشتد وجود وصف إن وجد) فإن العزة لله جميعا (أي القدرة لله جميعا وهو سيد الأرباب . ثم قال

النساء : (١٤٠) وقد نزل عليكم . . . . .

) وقد نزل عليكم (يا معشر المسلمين بمكة) في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله (يعني القرآن) يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره (أي يأخذوا في حديث غير الإستهزاء بمحمد وأصحابه والقرآن .

وذلك إن المنافقين كانوا يجلسون إلى أحبار اليهود فيستهزئون بالقرآن ويكذبون به ويحرفونه عن مواضعه فنهى الله تعالى المسلمين عن مجالستهم ومخالطتهم ، والذي نزل في الكتاب قوله تعالى) وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم (الآية .

الضحاك عن ابن عباس : ودخل في هذه الآية كل محدث في الدين ، وكل مبتدع إلى يوم القيامة .

الكلبي عن أبي صالح : صح هذا القول بقوله عز وجل وما على الذين يتقون الشرك والاستهزاء من حسابهم من شيء ولكن ذكرى أي ذكروهم وعظوهم بالقرآن لعلهم يتقون الاستهزاء بمحمد والقرآن) **إنكم إذا مثلهم** (إذا قعدتم عندهم

(١) الكشف والبيان . ، ٤٠١/٣

فأنتم إذا مثلهم) إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ٢)
النساء : (١٤١) الذين يتربصون بكم . . . . .
) الذين يتربصون بكم (أي ينتظرون بكم الدوائر يعني المنافقين) فإن كان لكم فتح من الله (يعني النصر والغنيمة) قالوا ألم نكن معكم (على دينكم فأعطونا من الغنيمة) وإن كان للكافرين نصيب (يعني دولة وظهورا على المسلمين) قالوا (يعني المنافقين) ألم نستحوذ عليكم (ألم نخبركم بعزيمة محمد (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ونطلعكم على سرهم .
وقال أهل اللغة : ألم نستحوذ عليكم ويغلب عليكم قال : إستحوذ أي غلب .
وفي الحديث كان عمر أحوذنا أي غالب أمرنا في الحق .
وقال العجاج : يحوذهن وله حوذى .
(كما يحوذ الفئة) الكمي." (١)

"وهذا من جملة الأسباب الداعية لترتيب هذا التفسير على حسب النزول ، وقد يطلق على كل سورة من القرآن لفظ كتاب كما تقدم أول سورة هود في ج ٢ ، وكرر لفظ الكتاب كثيرا في القرآن العظيم وخاصة أوائل السور المبدوءة بالحروف المقطعة وهو لفظ محبوب لكل كتاب ، وفيه قال :
نعم الأنيس إذا خلوت كتاب تلهو به إن فاتك الأحباب
لا مفشيا سرا إذا استودعته وتنال فيه حكمة وصواب
فالسعيد الذي يتخذه رفيقا ليله ونهاره حضره وسفره ويغتني عن أصحاب السوء ومجالس اللهو المؤديين لسوء العاقبة وقبح السمعة ، إذ قل أن تجد صديقا صادقا ومجلسا سارا.
ثم بين هذا المنزل المشار إليه في قوله عز قوله «أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم» إذا قعدتم معهم حينما يخوضون بآيات الله ، لأنكم تعدون راضين بهم وبما يخوضون فيه ، وإلا لما جلستم معهم إذ الراضي بالشيء كفاعله فتصيروا منافقين اخوان الكافرين ويكون لكم ما لهم عند الله «إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا» (١٤٠) لاجتماعهم على الكفر أنزل الله هذه الآية في النهي عن مجالسة المنافقين في المدينة ، كما أنزل آيات الأنعام المذكورة في النهي عن مجالسة الكافرين في مكة ، والغاية واحدة ، ولذلك جاءت مؤكدة لها ومعطوفة عليها في المعنى.
وتدل هذه الآية على أن من رضي بالكفر فهو كافر ، ومن رضي بمنكر كان كمن فعله فينبغي للعاقل أن يبتعد عن أهل الأهواء والغواة ، لأن مخالطتهم لا تخلو عن الإثم.
وقد بينا ما يتعلق في هذا البحث هناك فراجعه.." (٢)

---

(١) الكشف والبيان . ، ٤٠٣/٣
(٢) بيان المعاني، ٢٥١/١

"بيان المعاني ، ج ٥ ، ص : ٦١٨
و لهذا صحت الإشارة إليها لانها متقدمة في النزول على هذه كما ألمعنا إليه هناك ، وإلا لما صحت الإشارة إليها ، تدبر.
وهذا من جملة الأسباب الداعية لترتيب هذا التفسير على حسب النزول ، وقد يطلق على كل سورة من القرآن لفظ كتاب كما تقدم أول سورة هود في ج ٢ ، وكرر لفظ الكتاب كثيرا في القرآن العظيم وخاصة أوائل السور المبدوءة بالحروف المقطعة وهو لفظ محبوب لكل كتاب ، وفيه قال :
نعم الأنيس إذا خلوت كتاب تلهو به إن فاتك الأحباب
لا مفشيا سرا إذا استودعته وتنال فيه حكمة وصواب
فالسعيد الذي يتخذه رفيقا ليله ونهاره حضره وسفره ويغتني عن أصحاب السوء ومجالس اللهو المؤديين لسوء العاقبة وقبح السمعة ، إذ قل أن تجد صديقا صادقا ومجلسا سارا.
ثم بين هذا المنزل المشار إليه في قوله عز قوله «أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم» إذا قعدتم معهم حينما يخوضون بآيات الله ، لأنكم تعدون راضين بهم وبما يخوضون فيه ، وإلا لما جلستم معهم إذ الراضي بالشيء كفاعله فتصيروا منافقين اخوان الكافرين ويكون لكم ما لهم عند الله «إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا» (١٤٠) لاجتماعهم على الكفر أنزل الله هذه الآية في النهي عن مجالسة المنافقين في المدينة ، كما أنزل آيات الأنعام المذكورة في النهي عن مجالسة الكافرين في مكة ، والغاية واحدة ، ولذلك جاءت مؤكدة لها ومعطوفة عليها في المعنى.
وتدل هذه الآية على أن من رضي بالكفر فهو كافر ، ومن رضي بمنكر كان كمن فعله فينبغي للعاقل أن يبتعد عن أهل الأهواء والغواة ، لأن مخالطتهم لا تخلو عن الإثم.
وقد بينا ما يتعلق في هذا البحث هناك فراجعه.
ثم وصف الله المنافقين بوصف آخر فقال «الذين يتربصون بكم» الحوادث والدوائر لشدة حقدهم عليكم وحسدهم لكم «فإن كان لكم فتح» نصر وظفر وغنيمة «من الله قالوا أ لم نكن معكم» في الغزو فأعطونا نصيبنا ، إذ لا هم لهم إلا الدنيا ، فهم مهمو كون بها أبدا «وإن كان." (١)
"٣٧٤
جميعا) يعني الظفر والنصر كله من الله تعالى وهذا كما قال في آية أخرى " ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين " المنافقون ٨
سورة النساء ١٤٠
ثم قال عز وجل " وقد نزل عليكم في الكتاب " وذلك أن المشركين بمكة كانوا يستهزئون بالقرآن فنهى الله تعالى المسلمين عن القعود معهم وهو قوله " وإذا رأيت الذين يخوضون في ءاياتنا فأعرض عنهم " إلى قوله " فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظلمين " الأنعام ٦٨ فامتنع المسلمون عن القعود معهم فلما قدموا المدينة كانوا يجلسون مع اليهود والمنافقين وكان اليهود

(١) بيان المعاني، ٦١٨/٥

يستهزئون بالقرآن فنزل " فقد نزل عليكم في الكتاب " يعني في سورة الأنعام " أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها " يعني يجحد بها " ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم " يعني فلا تجلسوا معهم " حتى يخوضوا في حديث غيره " يعني حتى يأخذوا في كلام آخر

ثم قال " إنكم إذا مثلهم " يعني لو جلستم معهم كنتم معهم في الوزر وفي هذه الآية دليل أن من جلس في مجلس المعصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية أو عملوا بها فإن لم يقدر بأن ينكر عليهم ينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية وروى جويبر عن الضحاك أنه قال دخل في هذه الآية كل محدث في الدين وكل مبتدع إلى يوم القيامة قرأ عاصم " وقد نزل عليكم " بنصب النون والزاي وقرأ الباقون بضم النون وكسر الزاي على معنى فعل ما لم يسم فاعله

ثم قال تعالى " إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا " يعني إذا ماتوا على كفرهم ونفاقهم فبدأ بالمنافقين لأنهم أشد من الكفار وجعل مأواهم جميعا النار وقال الكلبي رواية في قوله تعالى " فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره " نسخ بقوله تعالى " وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء " الأنعام ٦٩ وقال عامة المفسرين إنها محكمة وليست بمنسوخة

سورة النساء ١٤١ – ١٤٣." (١)

"و لله العزة و لرسوله و للمؤمنين و لكن المنافقين لا يعلمون » (٨ : المنافقون).

الآية : (١٤٠) [سورة النساء (٤) : آية ١٤٠]

و قد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها و يستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين و الكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)

التفسير : للنفاق مداخل كثيرة إلى القلوب ، فهو يتدسس إلى الإنسان فى خفاء ، ويتحسس مواطن الضعف منه فينفذ إليها ، حتى يتمكن منها ، وإذا المرء وقد عشش فيه النفاق ، ثم باض وأفرخ ، وإذا هو فى المنافقين ، لا يملك دفع هذا الداء الذي جثم على صدره.

لهذا كان الإسلام حريصا على أن ينبه المسلمين إلى هذا الخطر ، ويحذرهم من أن يلموا به ، أو يحوموا حوله ، حتى لا تصيبهم عدواه ، فيتعذر شفاؤهم منه ..

التفسير القرآني للقرآن ، ج ٣ ، ص : ٩٣٧

و فى طب الأجسام ، أن الوقاية خير من العلاج ، وهى فى طب الأرواح أوجب وألزم.

وقوله تعالى : « و قد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها و يستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره » . هو تنبيه للمسلمين من داء النفاق أن ينفذ إليهم إذا هم جلسوا مجلسا مع أعداء الله من المنافقين الكافرين ، ثم ذكرت فى هذا المجلس آيات الله على لسان هؤلاء المنافقين الكافرين ، فى معرض الاستهزاء والسخرية ، ثم لم

---

(١) بحر العلوم ، ٣٧٤/١

يكن من المسلمين إنكار لهذا المنكر ودفع له باليد أو اللسان . وذلك بأن يكونوا فى حال ضعف لا يقدرون معه على مواجهة هؤلاء المجتمعين على المنكر.!." (١)

"و قوله تعالى : « فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره » هو نهى للمسلمين عن الجلوس فى هذا المجلس القائم على تلك الصفة ، وليس نهيا عاما مطلقا على تجنب الجلوس مع المنافقين والكافرين ، ففى ذلك إعنات للمؤمنين ، فقد تستدعى أحوالهم أن يكونوا بحيث لا منصرف لهم عن الحياة مع هذه الجماعة ، وتبادل المنافع معها! على أن من السلامة لدين المؤمن أن يتجنب مجالس هؤلاء القوم ما استطاع ، فإذا مست هذه المجالس دينه بما يسوء ، كان أمرا لازما عليه أن يتحول عن هذه المجالس فى الحال ، ولا يخلط نفسه بها ، وإلا حمل وزره من الإثم الذي يتعاطاه فيها أهل النفاق والكفر .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « **إنكم إذا مثلهم** » أي لا فرق بينكم أيها المؤمنون وبين هؤلاء الأثمة ، الذين يهزءون بآيات الله ويسخرون منها ، إذا أنتم استمتعتم إلى هذا المنكر ولم تنكروه ..

وفى قوله تعالى : « إن الله جامع المنافقين و الكافرين في جهنم جميعا » تهديد ووعيد بهذا المصير المشئوم الذي ينتظر الكافرين والمنافقين ، ومن يلوذ بالكافرين والمنافقين ، ويركن إليهم ، ويستمع للزور الذي يدور بينهم.

التفسير القرآني للقرآن ، ج ٣ ، ص : ٩٣٩

الآية : (١٤١) [سورة النساء (٤) : آية ١٤١]

الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا أ لم نكن معكم و إن كان للكافرين نصيب قالوا أ لم نستحوذ عليكم و نمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة و لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

التفسير : وجه آخر من وجوه النفاق .. وما أكثرها ..." (٢)

"قال القرطبي رحمه الله: ومضى في النساء وهذه السورة النهي عن مجالسة أهل البدع والأهواء، وأن من جالسهم حكمه حكمهم فقال: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

ثم بيَّن في سورة النساء عقوبة من فعل ذلك وخالف ما أمر الله به، فقال: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ **غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ** اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (٢) .

فألحق من جالسهم بهم، وقد ذهب إلى هذا جماعة من أئمة هذه الأمة، وحكم بموجب هذه الآيات في مجالس أهل البدع على المعاشرة والمخالطة منهم: أحمد بن حنبل، والأوزاعي، وابن المبارك، فإنهم قالوا في رجل شأنه مجالسة أهل البدع، قالوا: ينهى عن مجالستهم فإن انتهى وإلا ألحق بهم، يعنون في الحكم (٣) .

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، ٤٣١/٢

(٢) التفسير القرآني للقرآن، ٤٣٣/٢

اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لِمَا اختلِف فيه من الحق بإذنك، أنت تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم...

* * *

خاتمة البحث

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٠.

(٣) كما في تفسيره الجامع لأحكام القرآن ٧/١٤٠.." [1]

"قال صاحب الكشاف : والمراد بالمنزل عليهم فى الكتاب : هو ما نزل عليهم فى مكة من قوله – تعالى – : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الذين يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حتى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ وذلك أن المشركين كانوا يخوضون فى ذكر القرآن فى مجالسهم فيستهزئون به ، فنهى – سبحانه – المسلمين عن القعود معهم ما داموا خائضين فيه .

وكان أحبار اليهود بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين ، فنهوا أن يقعدوا معهم كما نهوا – قبل ذلك – عن مجالسة المشركين بمكة .

وأن فى قوله ﴿ إِذَا سَمِعْتُمْ ﴾ تفسيرية ، لأن ﴿ نَزَّلَ ﴾ تضمن معنى القول دون حروفه . وجعلها بعضهم مخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن مقدر أى أنه إذا سمعتم . وقدره بعضهم ضمير المخاطبين أى أنكم إذا سمعتم ، وخبرها جملة الشرط والجزاء .

وقوله ﴿ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ﴾ جملتان فى موضع الحال من الآيات .

وأضاف – سبحانه – الآيات إليه ، لتهويل أمرها ، والتشنيع على من كفر أو استهزأ بها . والضمير فى قوله ﴿ مَعَهُمْ ﴾ يعود إلى الكافرين والمستهزئين المدلول عليهم بقوله : ﴿ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ ﴾ فكأنه قيل : لا تقعدوا – أيها المؤمنون – مع الكافرين بآيات الله والمستهزئين بها .

والضمير فى قوله ﴿ غَيْرِهِ ﴾ يعود إلى تحدثهم بالكفر والاستهزاء أى : حتى يخوضوا فى حديث سوى حديثهم المتعلق بالكفر بآيات الله والاستهزاء بها .

وقوله ﴿ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ ﴾ تعليل للنهى عن القعود معهم .

أى : أيها المؤمنون – إن استمعتم إلى الكفار والمنافقين وهم يعلنون الكفر بآيات الله – تالى – والاستهزاء بها ، كنتم معهم فى الاستهانة بآيات الله وشركاء لهم فى آثامهم ، لأن الراضى بالكفر بآيات الله وبالاستهزاء بها . يكون بعيدا عن حقيقة

---

(١) الوصايا العشر في آخر سورة الأنعام، ص/٣٣

الإيمان ، ومستحقا للعقوبة من الله – تعالى – .

قال صاحب الكشاف ، فإن قلت : لم يكونوا مثلهم بالمجالسة فى وقت الخوض؟ قلت : لأنهم إذا لم ينكروا عليهم كانوا راضين . والراضى بالكفر كافر فإن قلت : فهلا كان المسلمون بمكة – حين كانوا يجالسون الخائضين من المشركين – منافقين؟ قلت : لأنهم كانوا لا ينكرون لعجزهم . وهؤلاء لم ينكروا مع قدرتهم فكان ترك الإنكار لرضاهم .

وقال القرطبي : فدل بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصى إذا ظهر منهم منكر ، لأن من لم يتجنبهم فقد رضى فعلهم ، والرضا بالكفر كفر . قال الله – تعالى – ﴿ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ ﴾ . فكل من جلس فى مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم فى الوزر سواء . وينبغى أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها ، فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغى أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية .." (١)

"وقد روى عن عمر بن عبد العزيز أنه أخذ قوما يشربون الخمر ، فقيل له عن أحد الحاضرين : إنه صائم . فحمل عليه الأدب وقرأ عليه هذه الآية ﴿ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ ﴾ أى أن الرضا بالمعصية معصية . ولهذا يؤاخذ الفاعل والراضى بعقوبة العاصى حتى يهكلوا جميعا . وهذه المماثلة ليست فى جميع الصفات ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر من المقارنة .

ثم ختم – سبحانه – الآية الكريمة بالوعيد الشديد للكافرين والمنافقين فقال : ﴿ إِنَّ الله جَامِعُ المنافقين والكافرين فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً ﴾ لأن هذين الفريقين كما اجتمعوا فى الدنيا على الكفر بآيات الله والاستهزاء بها والتواصى بالشرور والآثام ، فسيجمعهم الله جميعاً فى جهنم يوم القيامة ، بسبب ما قدمت أيدهم من جرائم ومنكرات .

فأنت ترى أن الآية الكريمة تنهى المؤمنين عن مجالسة الكافرين بآيات الله والمستهزئين بها ، لأن أول الشر سماع الشر ، ولأن أول مراتب ضعف الإيمان أن تفتر حماسة المؤمن فى الدفاع عن الحق الذى آمن به .

ومن علامات المؤمن الصادق أنه متى سمع استهزاء بتعاليم دينه فعليه إما أن ينبرى للدفاع عن هذه التعاليم بشجاعة وحماسة وقوله تدمغ الباطل وأهله وتفضح كل معمتد أثيم . . وإما أن يقاطع المحالس التى لا يحترم فيها دين الله . أما السكوت عن ذلك باسم التغاضى أو التسامح أو المرونة . أو بغير ذلك من الأسماء ، فهذا أو مراتب النفاق الذى يؤدى إلى خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

ثم ذكر – سبحانه – بعد ذلك سمة أخرى من أبرز سمات المنافقين . وهى أنهم كانوا يلقون المسلمين بوجه ويلقون الكفر بوجه آخر . أى أنهم يحاولون أن يمسكوا العصا من وسطها حتى يأكلوا من كل مائدة . استمع إلى القرآن وهو يصور ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول : ﴿ الذين يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ الله قالوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قالوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِّنَ المؤمنين ﴾ .

وقوله : ﴿ يَتَرَبَّصُونَ ﴾ من التربص بمعنى الانتظار وترقب الحوادث . يقال : تربص به إذا انتظره مع ترقب وملاحظة .

وقوله : ﴿ نَسْتَحْوِذْ ﴾ من الاستحواذ بمعنى الغلبة والتمكن والاستيلاء ، يقال : استحوذ فلان على فلان أى : غلب عليه وتمكن منه . ومنه قوله – تعالى – ﴿ استحوذ عَلَيْهِمُ الشيطان فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ الله ﴾ والمعنى : إن من صفات هؤلاء المنافقين

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي، ص/١١٠٦

– أيها المؤمنون – أنهم يتربصون بكم . أى : ينتظرون بترقب وملاحظة ما يحث لكم من خير أو شر ، أو من نصر أو هزيمة ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللهِ ﴾ أى : من نصر وظفر على أعدائكم ﴿ قالوا ﴾ على سبيل التقرب إليكم ﴿ أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ ﴾ فى الجهاد وغيره فاعطونا نصيبا من الخير الذى أصبتموه . ﴿ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ ﴾ أى حظ من النصر عليكم – لأن الحرب سجال – ﴿ قالوا ﴾ لهم – أيضا – على سبيل التقرب إليهم ﴿ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ المؤمنين ﴾ أى : ألم نتمكن من قتلكم وأسركم ولكنا لم نفعل ذلك ، بل أحطناكم بحمايتنا ورعايتنا ومنعنا المؤمنين من النصر عليكم بسبب تخذيلنا لهم ، وجسسنا على أحوالهم .." (١)

"فإن قيل : النسيان فعل الله فلم أضيف إلى الشيطان؟ أجيب بأن السبب من الشيطان وهو الوسوسة والإعراض عن الذكر فأضيف إليه لذلك ، كما أن من ألقى غيره فى النار فمات يقال : إنه القاتل وإن كان الإحراق فعل الله .

هذا وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة أحكاما من أهمها ما يأتى :

١ – وجوب الإعراض عن مجالسة المستهزئين بآيات الله أو برسله ، وأن لا يقعد لأن فى القعود إظهار عدم الكراهة ، وذلك لأن التكليف عام لنا ولرسوله A .

قال القرطبى : من خاض فى آيات الله تركت مجالسته وهجرته ، مؤمنا كان أو كافراً ، وقد منع أصحابنا الدخول إلى أرض العدو ودخول كنائسهم وبيعهم ، وكذلك منعوا مجالسة الكفار وأهل البدع . فقد قال بعض أهل البدع لأبى عمران النخعى : اسمع منى كلمة فأعرض عنه وقال : ولا نصف كلمة .

وروى الحاكم عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : قال رسول الله A " من وقر صاحب بدعة فقد أعانه على هدم الإسلام " .

وقال صاحب المنار : وسبب هذا النهى أن الإقبال على الخائضين والقعود معهم أقل ما فيه أنه إقرار لهم على خوضهم وإغراء لهم بالتمادى فيه وأكبره أنه رضاء به ومشاركة فيه والمشاركة فى الكفر والاستهزاء كفر ظاهر لا يقترفه باختياره إلا منافق مراء أو كافر مجاهر قال – تعالى – ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكتاب أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حتى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ الله جَامِعُ المنافقين والكافرين فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً ﴾ ٢ – جواز مجالسة الكفار مع عدم الخوض . لأنه إنما أمرنا بالإعراض فى حالة الخوض ، وأيضا فقد قال – تعالى – ﴿ حتى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ .

قال بعض العلماء : " حتى غاية الإعراض ، لأنه إعراض فيه توقيف دعوتهم زمانا أوجبته رعاية المصلحة ، فإذا زال موجب ذلك عادت محاولة هدايتهم وإرشادهم إلى أصلها لأنها تمحضت للمصحلة " .

٣ – استدل بهذه الآية على أن الناسى غير مكلف ، وأنه إذا ذكر عاد إليه التكليف فيعفى عما ارتكبه حال نسيانه ففى الحديث الشريف " إن الله رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " . رواه الطبرانى عن ثوبان مرفوعا وإسناده

(١) الوسيط لسيد طنطاوي، ص/١١٠٧

صحيح .

٤ – قال القرطبي : قال بعضهم إن الخطاب فى الآية للنبى A والمقصود أمته ، ذهبوا إلى ذلك لتبرئته A من النسيان .." [١]

" ﴿ وقد نزل عليكم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ في الكتاب ﴾ في القرآن ﴿ أن إذا سمعتم ﴾ الكفر بآيات الله والاستهزاء بها ﴿ فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث ﴾ غير الكفر والاستهزاء يعني : قوله في سورة الأنعام ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا ﴾ هذه كانت مما نزل عليهم في الكتاب وقوله : ﴿ **إنكم إذا مثلهم** ﴾ يعني : إن قعدتم معهم راضين بما يأتون من الكفر بالقرآن والاستهزاء به وذلك أن المنافقين كانوا يجلسون إلى أحبار اليهود فيسخرون من القرآن فنهى الله سبحانه المسلمين عن مجالستهم ﴿ إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ﴾ يريد : أنهم كما اجتمعوا على الاستهزاء بالآيات يجتمعون في جهنم على العذاب ." [٢]

"فاتخذتموهم أولياء ﴿ **إنكم إذا مثلهم** ﴾ كفار ، إذا جالستموهم على تلك الحال ، لأن من لم يجتنبهم ، فهو راض بفعلهم ، فالرضا بالكفر كفر.

وهذه الآية تدل على اجتناب أهل المعاصي إذ ظهر منهم منكر ، ومجانبة أهل الباطل من كل نوع من المبتدعة والقدرية وغيرهم إذا خاضوا في فسقهم.

وروى إبراهيم التيمي عن أبي وائل قال : إن الرجل ليتكلم بالكلمة في المجلس من الكذب ليضحك بها جلساؤه فيسخط الله عليهم.

وقال إبراهيم النخعي : إذ سمع هذا عن أبي وائل ، صدق أبو وائل ، أو ليس ذلك في كتاب الله D ﴿ أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا." [٣]

"في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ﴾ أي : يجمعهم بموالاة بعضهم بعضا فكلهم كافر.

قوله : ﴿ الذين يتربصون بكم ﴾ الآية.

في قراءة أبي : ومنعناكم في موضع : نمنعكم.

وأجاز الفراء : ونمنعكم بالنصب على الصرف.

ومعنى الآية : أنها صفة للمنفقين لأنهم كانوا يتربصون بالمؤمنين ، فإن كان فتح من الله جل وعز للمؤمنين ، قالوا للمؤمنين : ألم نمنعكم في جهادكم ، فطلبوا الفيء من الغنيمة ﴿ وإن كان للكافرين ﴾ ظفر على المؤمنين قالوا للكافرين ﴿ ألم نستحوذ عليكم ﴾ أي : نغلب عليكم حتى قهرتم المؤمنين ﴿ ونمنعكم ﴾ من المؤمنين ، أي : كنا عيونا لكم نأتيكم بالأخبار في السر ، ونخذل المؤمنين حتى غلبتموهم ﴿ فالله يحكم بينكم يوم القيامة ﴾ أي : بين المؤمنين والمنافقين ﴿ ولن يجعل الله

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي، ص/١٤٧٨

(٢) الوجيز للواحدي، ص/٢٩٦

(٣) الهداية الى بلوغ النهاية، ١٥٠٢/٢

للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾ أي : حجة يوم القيامة.
وهذا وعد من الله جل ذكره للمؤمنين يكون في القيامة فأما في الدنيا فقد يغلبون ويغلبون ، ودل على ذلك قوله ﴿ فالله يحكم بينكم يوم القيامة ﴾.
وقيل : معناه : لا يجعل الله الكافرين على المؤمنين سبيلا يوم القيامة في قتلهم لهم ، وسبيهم لذراريهم ، ذلك مباح للمؤمنين في الدنيا ، ولا درك عليهم في." (١)

" صفحة رقم ٥٣٦

(النساء : (١٣٦) يا أيها الذين . . . . .
" يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا " (قوله تعالى :) ياأيها الذين ءامنوا ءامنوا بالله ورسوله (فإن قيل فكيف قيل لهم) ءامنوا (وحكي عنهم أنهم آمنوا ؟ فعن ذلك ثلاثة أجوبة :
أحدها : يا أيها الذين آمنوا بمن قبل محمد من الأنبياء آمنوا بالله ورسوله ويكون ذلك خطابا ليهود والنصارى .
الثاني : معناه يا أيها الذين آمنوا بأفواههم أمنوا بقلوبكم ، وتكون خطابا للمنافقين .
والثالث : معناه يا أيها الذين آمنوا داوموا على إيمانكم ، ويكون هذا خطابا للمؤمنين ، وهذا قول الحسن .
(النساء : (١٣٧ - ١٤٠) إن الذين آمنوا . . . . .
" إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا " (قوله تعالى :) إن الذين ءامنوا ثم كفروا ثم ءامنوا ثم كفروا (فيه ثلاثة أقاويل : فيه ثلاثة أقاويل :
أحدها : أنهم آمنوا بموسى ثم كفروا بعبادة العجل ، ثم آمنوا بموسى بعد عوده ثم كفروا بعيسى ، ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليهم وسلم ، وهذا قول قتادة .." (٢)

"السؤال الثاني : في قوله ﴿لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ اللام للتأكيد فقوله ﴿لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ يفيد نفي التأكيد ، وهذا غير لائق بهذا الموضع إنما اللائق به تأكيد النفي ، فما الوجه فيه ؟
والجواب : أن نفي التأكيد إذا ذكر على سبيل التهكم كان المراد منه المبالغة في تأكيد النفي.
ثم قال تعالى : ﴿وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِي ﴾ قال أصحابنا : هذا يدل على أنه سبحانه وتعالى لم يهد الكافر إلى الإيمان خلافاً للمعتزلة ، وهم أجابوا عنه بأنه محمول على المنع من زيادة اللطف ، أو على أنه تعالى لا يهديه في الآخرة إلى الجنة.

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية، ١٥٠٣/٢
(٢) النكت والعيون . ، ٥٣٦/١

ثم قال تعالى : ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

واعلم أن من حمل الآية المتقدمة على المنافقين قال إنه تعالى بيّن أنه لا يغفر لهم كفرهم ولا يهديهم إلى الجنة ، ثم قال : وكما لا يوصلهم إلى دار الثواب فإنه مع ذلك يوصلهم إلى أعظم أنواع العقاب ، وهو المراد من قوله ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وقوله ﴿بَشِّرِ﴾ تهكم بهم ، والعرب تقول : تحيتك الضرب ، وعتابك السيف. ثم قال تعالى :

جزء : ١١ رقم الصفحة : ٢٤٤

٢٤٦

﴿الَّذِينَ﴾ : نصب على الذم ، بمعنى أريد الذين ، أو رفع بمعنى هم الذين ، واتفق المفسرون على أن المراد بالذين يتخذون : المنافقون ، وبالكافرين اليهود ، وكان المنافقون يوالونهم ويقول بعضهم لبعض : إن أمر محمد لا يتم ، فيقول اليهود بأن العزة والمنعة لهم.

ثم قال تعالى : ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ قال الواحدي : أصل العزة في اللغة الشدة ، ومنه قيل للأرض الصلبة الشديدة : غزاز ، ويقال : قد استعز المرض على المريض إذا اشتد مرضه وكاد يأن يهلك ، وعز الهم اشتد ، ومنه عز على أن يكون كذا بمعنى اشتد ، وعز الشيء إذا قل حتى لا يكاد يوجد لأنه اشتد مطلبه ، واعتز فلان بفلان إذا اشتد ظهره به ، وشاة عزوز التي يشتد حلبها ويصعب والعزة القوة منقولة من الشدة لتقارب معنييهما. والعزيز القوي المنيع بخلاف الذليل.

إذا عرفت هذا فنقول : إن المنافقين كانوا يطلبون العزة والقوة بسبب اتصالهم باليهود ، ثم إنه تعالى أبطل عليهم هذا الرأي بقوله ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ .

فإن قيل : هذا كالمناقض لقوله ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقين : ٨).

قلنا : القدرة الكاملة لله ، وكل من سواه فباقداره صار قادراً ، وبإعزازه صار عزيزاً ، فالعزة الحاصلة للرسول عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين لم تحصل إلا من الله تعالى ، فكان الأمر عند التحقيق أن العزة جميعاً لله. ثم قال تعالى :

جزء : ١١ رقم الصفحة : ٢٤٦

٢٤٦

قال المفسرون : إن المشركين كانوا في مجالسهم يخوضون في ذكر القرآن ويستهزئون به ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ (الأنعام : ٦٨) وهذه الآية نزلت بمكة ، ثم إن أحبار اليهود بالمدينة كانوا يفعلون مثل فعل المشركين ، والقاعدون معهم والموافقون لهم على ذلك الكلام هم المنافقون ، فقال تعالى مخاطباً للمنافقين إنه ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ والمعنى إذا سمعتم الكفر بآيات الله والاستهزاء بها ، ولكن أوقع فعل السماع على الآيات والمراد به سماع الاستهزاء. قال الكسائي : وهو كما يقال : سمعت عبدالله يلام. وعندي فيه وجه آخر وهو أن يكون المعنى : إذا سمعتم آيات الله حال ما يكفر بها ويستهزأ بها ، وعلى هذا التقدير فلا حاجة إلى ما قال الكسائي ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غير الكفر والاستهزاء.

ثم قال : ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ .

والمعنى : أيها المنافقون أنتم مثل أولئك الأحبار في الكفر. قال أهل العلم : هذا يدل على أن من رضي بالكفر فهو كافر

، ومن رضي بمنكر يراه وخالط أهله وإن يباشر كان في الإثم بمنزلة المباشر بدليل أنه تعالى ذكر لفظ المثل ههنا ، هذا إذا كان الجالس راضياً بذلك الجلوس ، فأما إذا كان ساخطاً لقولهم وإنما جلس على سبيل التقية والخوف فالأمر ليس كذلك ، ولهذه الدقيقة قلنا بأن المنافقين الذين كانوا يجالسون اليهود ، وكانوا يطعنون في القرآن والرسول كانوا كافرين مثل أولئك اليهود ، والمسلمون الذين كانوا بالمدينة كانوا بمكة يجالسون الكفار الذين كانوا يطعنون في القرآن فإنهم كانوا باقين على الإيمان ، والفرق أن المنافقين كانوا يجالسون اليهود مع الاختيار ، والمسلمين كانوا يجالسون الكفار عند الضرورة.

جزء : ١١ رقم الصفحة : ٢٤٦

ثم إنه تعالى حقق كون المنافقين مثل الكافرين في الكفر فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ . ". (١)

"ويمكن أيضاً أن يكون جمع أحدوثة مثل الأضحوكة والأعجوبة ، وهي ما يتحدث به الناس تلهياً وتعجباً.

ثم قال : ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ على وجه الدعاء والذم والتوبيخ ، ودل بذلك على أنهم كما أهلكوا عاجلاً فهلاكهم بالتعذيب آجلاً على التأبيد مترقب وذلك وعيد شديد.

القصة الرابعة . قصة موسى عليه السلام

جزء : ٢٣ رقم الصفحة : ٢٧٩

٢٨٠

اختلفوا في ﴿الايَاتِ ﴾ فقال ابن عباس رضي الله عنهما هي الآيات التسع وهي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفلاق البحر والسنون والنقص من الثمرات ، وقال الحسن قوله : ﴿بِاَايَاتِنَا﴾ أي بديننا واحتج بأن المراد بالآيات لو كانت هي المعجزات والسلطات المبين أيضاً هو المعجز فحينئذ يلزم عطف الشيء على نفسه والأقرب هو الأول لأن لفظ الآيات إذا ذكر في الرسل فالمراد منها المعجزات ، وأما الذي احتجوا به فالجواب : عنه من وجوه : أحدها : أن المراد بالسلطان المبين يجوز أن يكون أشرف معجزاته وهو العصا لأنه قد تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها حية وتلقفها ما أفكته السحرة وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها بها وكونها حارساً وشمعة وشجرة مثمرة ودلواً ورشاء ، فلأجل انفراد العصا بهذه الفضائل أفردت بالذكر كقوله جبريل وميكال وثانيها : يجوز أن يكون المراد بالآيات نفس تلك المعجزات وبالسلطان المبين كيفية دلالتها على الصدق ، وذلك لأنها وإن شاركت سائر آيات الأنبياء في كونها آيات فقد فارقتها في قوة دلالتها على قوة موسى عليه السلام وثالثها : أن يكون المراد بالسلطان المبين استيلاء موسى عليه السلام عليهم في الاستدلال على وجود الصانع وإثبات النبوة وأنه ما كان يقيم لهم قدراً ولا وزناً.

واعلم أن الآية تدل على أن معجزات موسى عليه السلام كانت معجزات هرون عليه السلام أيضاً ، وأن النبوة كما أنها مشتركة بينهما فكذلك المعجزات ، ثم إنه سبحانه حكى عن فرعون وقومه صفتهم ثم ذكر شبهتهم أما صفتهم فأمران أحدهما : الاستكبار والأنفة والثاني : أنهم كانوا قوماً عالين أي رفيعي الحال في أمور الدنيا ، ويحتمل الاقتدار بالكثرة والقوة

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- ، ص/١٥٧٧

وأما شبهتهم فهي / قولهم : ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ قال صاحب "الكشاف" لم يقل مثلينا كما قال : ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ (النساء : ١٤) ولم يقل أمثالهم وقال : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ (آل عمران : ١١٠) ولم يقل أخيار أمة كل ذلك لأن الإيجاز أحب إلى العرب من الإكثار والشبهة مبنية على أمرين : أحدهما : كونهما من البشر وقد تقدم الجواب عنه والثاني : أن قوم موسى وهرون كانوا كالخدم والعبيد لهم قال أبو عبيدة العرب تسمى كل من دان لملك عابداً له ويحتمل أن يقال إنه كان يدعي الإلهية فادعى أن الناس عباده وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة ثم بين سبحانه أنه لما خطرت هذه الشبهة ببالهم صرحوا بالتكذيب وهو المراد من قوله : ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ .

جزء : ٢٣ رقم الصفحة : ٢٨٠

ولما كان ذلك التكذيب كالعلة لكونهم من المهلكين لا جرم رتبه عليه بفاء التعقيب فقال وكانوا ممن حكم الله عليهم بالغرق فإن حصول الغرق لم يكن حاصلاً عقيب التكذيب ، إنما الحاصل عقيب التكذيب حكم الله تعالى بكونهم كذلك في الوقت اللائق به.

أما قوله : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فقال القاضي معناه أنه سبحانه خص موسى عليه السلام بالكتاب الذي هو التوراة لا لذلك التكذيب لكن لكي يهتدوا به فلما أصروا على الكفر مع البيان العظيم استحقوا أن يهلكوا ، واعترض صاحب "الكشاف" عليه فقال لا يجوز أن يرجع الضمير في لعلهم إلى فرعون وملائه لأن التوراة إنما أوتيها بنو إسرائيل بعد إغراق فرعون وملائه بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنا بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الاولَى ﴾ (القصص : ٤٣) بل المعنى الصحيح : ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يعملون بشرائعها ومواعظها فذكر موسى والمراد آل موسي كما يقال هاشم وثقيف والمراد قولهما.

القصة الخامسة . قصة عيسى وقصة مريم عليهما السلام

جزء : ٢٣ رقم الصفحة : ٢٨٠

٢٨٢

" (١).

"﴿إن الذين ءامنوا﴾ يعني : اليهود بموسى ﴿ثم كفروا﴾ بعبادتهم العجل ﴿ثم ءامنوا﴾ بعد عوده إليهم ﴿ثم كفروا﴾ بعيسى والإنجيل ﴿ثم ازدادوا كفرا﴾ بكفرهم بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وازداد كذا يجيء لازما ومتعديا يقال : ازددت مالا أي زدته لنفسي ومنه قوله تعالى : ﴿وازدادوا تسعا﴾ (الكهف : ٢٥) ﴿لم يكن الله﴾ مريدا ﴿ليغفر لهم﴾ أي ما داموا على كفرهم ﴿ولا ليهديهم سبي﴾ أي ولا ليوفقهم طريقا إلى الإسلام ولكن يخذلهم مجازاة لهم على كفرهم.

فإن قيل : إن الله لا يغفر كفر مرة فما الفائدة في قوله : ﴿ثم كفروا ثم ءامنوا ثم كفروا﴾ .

قيل : إن الكافر إذا آمن غفر له كفره فإذا كفر بعد إيمانه لم يغفر له الكفر الأول وهو مطالب بجميع كفرهم ﴿بشر المنافقين﴾ وضع بشر موضع انذر وأخبر تهكما بهم ﴿بأن لهم عذابا أليما﴾ أي : وجيعا يخلص ألمه ووجعه إلى قلوبهم وهذا

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- ، ص/٣٢٤٦

يدل على أن الآية نزلت في المنافقين وهم قد آمنوا في الظاهر وكفروا في السر مرة بعد أخرى ثم ازدادوا بالإصرار على النفاق وإفساد الأمر على المؤمنين

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٣٠٤

﴿الذين﴾ أي : هم الذين ﴿يتخذون الكافرين﴾ أي اليهود ﴿أوليآء﴾ أحباء في العون والنصرة ﴿من دون المؤمنين﴾ حال من فاعل يتخذون أي متجاوزين ولاية المؤمنين المخلصين وكانوا يوالونهم ويقول بعضهم لبعض لا يتم أمر محمد فتولوا اليهود ﴿أيبتغون عندهم العزة﴾ أي : أيطلبون بموالاة الكفرة القوة والغلبة وهم أذلاء في حكم الله تعالى : ﴿فإن العزة لله جميعا﴾ تعليل لما يفيده الاستفهام الإنكاري من بطلان رأيهم وخيبة رجائهم فإن انحصار جميع أفراد العزة في جنابه تعالى بحيث لا ينالها إلا أولياؤه الذين كتب لهم العزة والغلبة وقال : ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ (المنافقون : ٨) يقتضي بطلان التعزيز بغيره سبحانه واستحالة الانتفاع به.

قوله جميعا حال من المستكن في قوله تعالىلاعتماده على المبتدأ ﴿وقد نزل عليكم﴾ خطاب للمنافقين بطريق الالتفات والجملة حال من فاعل يتخذون.

قال المفسرون : إن مشركي مكة كانوا يخوضون في ذكر القرآن ويستهزئون به في مجالسهم فأنزل الله تعالى في سورة الأنعام وهي مكية ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون فى ءاياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره﴾ (الأنعام : ٦٨) ثم أن أحبار اليهود بالمدينة كانوا يفعلون ما فعله المشركون بمكة وكان المنافقون يقعدون معهم ويوافقونهم على ذلك الكلام الباطل فقال الله تعالى مخاطبا لهم ﴿وقد نزل عليكم﴾ أي والحال أنه تعالى قد نزل عليكم قبل هذا بمكة.

وفيه دلالة على أن المنزل على النبي عليه السلام وإن خوطب به خاصة منزل على العامة ﴿فى الكتاب﴾ أي : القرآن الكريم.

﴿أن﴾ مخففة أي : أن الشان ﴿وقد نزل عليكم فى﴾ فيه دلالة على أن مدار الإعراض عنهم هو العلم بخوضهم في آيات الله ولذلك يخبر عنه تارة بالرؤية وأخرى بالسماع ﴿يكفر بها ويستهزأ بها﴾ حالان من آيات الله أي

٣٠٤

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٣٠٤

مكفورا ومستهزءا بها في محل الرفع لقيامه مقام الفاعل والأصل يكفر بها أحد ويستهزىء.

﴿فلا تقعدوا﴾ جزاء الشرط ﴿معهم﴾ أي : الكفرة المدلول عليهم بقوله يكفر بها ويستهزأ بها ﴿حتى يخوضوا﴾ الخوض بالفارسية "در حديث شدن" ﴿فى حديث غيره﴾ أي غير القرآن وحتى غاية للنهي والمعنى أنه تجوز مجالستهم عند خوضهم وشروعهم في غير الكفر والاستهزاء.

وفيه دلالة على أن المراد بالإعراض عنهم إظهار المخالفة بالقيام عن مجالسهم لا الإعراض بالقلب أو بالوجه فقط ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ جملة مستأنفة سيقت لتعليل النهي غير داخلة تحت التنزيل وإذن ملغاة عن العمل لاعتماد ما بعدها على ما قبلها أي : لوقوعها بين المبتدأ والخبر أي لا تقعدوا معهم في ذلك الوقت إنكم إن فعلتموه كنتم مثلهم أي مثل اليهود في الكفر واستتباع العذاب فإن الرضى بالكفر كفر ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا﴾ يعني : القاعدين

والمقعود معهم وهو تعليم لكونهم مثلهم في الكفر بيانه ما يستلزمه من شركتهم لهم في العذاب.

واعلم أن الائتلاف ههنا نتيجة تعارف الأرواح هنالك لقوله عليه السلام : "الأرواح جنود مجندة" الحديث فمن تعارف أرواح الكافر والمنافق هناك يأتلفون ههنا ومن تناكر أرواحهم وأرواح المؤمنين يختلفون ههنا.

". (١)

" النساء ١٣٧ - ١٤١

عبدوا العجل ثم آمنوا بموسى من بعد عوده ثم كفروا بعيسى عليه السلام ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد صلى الله عليه و سلم لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا إلى النجاة أو إلى الجنة أو هم المنافقون آمنوا فى الظاهر وكفروا فى السر مرة بعد أخرى وازدياد الكفر منهم ثباتهم عليه إلى الموت يؤيده قوله بشر المنافقين أى أخبرهم ووضع بشر مكانه تهكما بهم بأن لهم عذابا اليما مؤلما الذين نصب على الذم أو رفع بمعنى اريد الذين أوهم الذين يتخذون الكافرين أولياءمن دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة كان المنافقون يوالون الكفرة يطلبون منهم المنعة والنصرة ويقولون لا يتم أمر محمد عليه السلام فإن العزة لله جميعا ولمن أعزه كالنبى عليه السلام والمؤمنين كما قال ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين وقد نزل عليكم بفتح النون عاصم وبضمها غيره فى الكتاب القرآن أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره حتى يشرعوا فى كلام غير الكفر والاستهزاء بالقرآن والخوض الشروع و أن مخففة من الثقيلة أى أنه إذا سمعتم أى نزل عليكم أن الشأن كذا والشأن ما أفادته الجملة بشرطها وجزائها و أن مع ما فى حيزها فى موضع الرفع بنزل أو فى موضع النصب بنزل والمنزل عليهم فى الكتاب هو ما نزل عليهم بمكة من قوله و إذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وذلك أن المشركين كانوا يخوضون فى ذكر القرآن فى مجالسهم فيستهزءون به فنهى المسلمون عن القعود معهم مادامو خائضين فيه وكان المنافقون بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين بمكة فنهوا أن يقعدوا معهم كما نهوا عن مجالسة المشركين **بمكة إنكم إذا مثلهم أى** فى الوزر إذا مكثتم معهم ولم يرد به التمثيل من كل وجه فإن خوض المنافقين فيه كفر ومكث هؤلاء معهم معصية أن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا لاجتماعهم فى الكفر والاستهزاء الذين بدل من الذين يتخذون أو صفة للمنافقين أو نصب على الذم منهم يتربصون بكم ينتظرون بكم ما يتجدد لكم من ظفر أو اخفاق فإن كان لكم فتح من الله نصرة وغنيمة قالوا ألم نكن معكم مظاهرين ." (٢)

"وقد تقدَّم تَحْقِيقُه في البقرة ، و " حتى " : غايةٌ للنَّهْي ، والمعنى : أنه يَجُوز مُجَالستهم عند خَوْضِهم في غير الكُفْر والاستِهْزَاء.

قال الضَّحاك : عن ابن عبَّاسٍ : دخل في هذه الآية كل مُحْدِث في الدِّين ، وكل مُبْتَدِع إلى يَوْم القِيَامَةِ.

قوله : ﴿إنكم إذاً مثلهم﴾ " إذاً " هنا : مُلغَاةٌ ؛ لوقوعها بين مُبْتَدأ وخبر ، والجمهور على رفعِ اللام في " مثلُهم " على خَبَرِ الابتداء ، وقرئ شاذاً بفتحها ، وفيها تَخْرِيجَان : أحدهما : - وهو قولُ البصْريّين - أنه خبر أيضاً ، وإنما فُتِح لإضافته

---

(١) تفسير روح البيان . ، ٢/٢٤٣

(٢) تفسير النسفي، ١/٢٥٥

إلى غير مُتَمَكِّن ؛ كقوله – تعالى – : ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات : ٢٣] بفتح اللاَّم ، وقول الفرَزْدَق :
[البسيط] ١٨٩١ – ....
.....
وإذْ مَا مِثْلَهُمْ بَشَرُ
جزء : ٧ رقم الصفحة : ٧٧
في أحدِ الأوجه.
والثَّاني : – وهو قولُ الكُوفيّين – إن " مِثْل " يَجُوز نصبها على المَحَلِّ ، أي : الظرف ، ويُجيزُون : " زيد مِثْلَك " بالنَّصب على المحلِّ أي : زيدٌ في مثل حالك ، وأفرد " مثل " هُنَا ، وإن أخْبَرَ به عن جَمْع ولم يُطابق به كما طابق ما قبله في قوله : ﴿ثُمَّ لاَ يَكُونُوا اْ أَمْثَالَكُم﴾ [محمد : ٣٨] ، وقوله : ﴿وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ﴾ [الواقعة : ٢٢ ، ٢٣].
قال أبُو البقاء وغيره : لأنه قصد به هُنَا المصدر ، فوحَّد كما وحَّد في قوله : ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون : ٤٧].
وتحرير المَعْنَى : أن التقدير : إنَّ عصيانكم مثل عصيانهم ، إلا أنَّ تقدير المصدريّة في قوله : " لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا " قلق.
٧٩
فصل في معنى الآية والمعنى : **أنكم إذاً مِثْلُهم** ، إن قعدْتُم عندهم وهُم يَخُوضُون ويَستهزِئُون ، ورضيتم بِهِ ، فأنتم كُفَّار مِثْلُهم ، وإن خَاضُوا في حَدِيث غَيْرِه ، فلا بأس بالقُعُود مَعَهم مع الكَرَاهَة.
قال الحَسَن : لا يجوز القُعُود معهم وإن خَاضُوا في حَدِيث غَيْره ؛ لقوله – تعالى – : ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام : ٦٨] والأكثرون على الأوَّل ، وآية الأنعام مَكِّية وهذه مَدَنِيَّة ، والمتأخِّر أوْلَى.
فصل قال بعض العُلَمَاء : هذا يدل على أنَّ من رَضِي بالكُفْرِ ، فهو كافِرٌ ، ومن رَضِيَ بمنكر يَرَاه ، وخالط أهْلَه وإن لَمْ يُبَاشِر ذلك ، كان في الإثْمِ بمَنْزِلة المُبَاشِر لهذه الآية ، وإن لم يَرْض وحَضَر خَوْفاً وتقية ، فلا.
قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾ أي : كما اجتمعوا على الاسْتِهْزَاء بآيَاتِ اللَّه في الدُّنْيا ، فكذلك يَجْتِمَعُون في العَذَاب يوم القِيَامَةِ ، وأراد : جامعٌ بالتنوين ؛ لأنَّه بعدما جَمَعَهُم حذف التَّنْوين ؛ استخفافاً من اللَّفْظ ، وهو مرادٌ في الحَقِيقَةِ.
جزء : ٧ رقم الصفحة : ٧٧
في : " الذين يتربَّصُون " : ستَّة أوجه : أحدُها : أنه بدلٌ من قوله : " الذين يتَّخِذُون " ، فيجيء فيه الأوْجُه المذْكُورة هناك.
الثاني : أنه نَعْتٌ للمنافِقِين على اللَّفْظِ ، فيكون مَجْرورَ المَحَلِّ.
الثالث : أنه تابعٌ لهم على المَوْضِع ، فيكونُ مَنْصُوبَ المَحَلِّ ، وقد تقرَّر أنَّ اسم الفاعل العامِل إذا أُضيفَ إلى مَعْمُوله ، جاز أن يُتْبَعَ مَعْمُولُه لفظاً وموضعاً ، تقول : " هذا ضاربُ هندٍ العاقلةِ والعاقلةَ " بجرِّ العاقلة ونصبها.
الرابع : أنه منصوبٌ على الشَّتْم.

الخامس : أنه خَبَر مبتدأ مُضْمَر ، أي : هُمُ الذين.

السادس : – وذكره أبو البقاء – أنه مُبْتَدأ ، والخبرُ قوله : ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ﴾ ،

٨٠

(١) ".

"" صفحة رقم ١٩١ "

تلهيا وتعجبا ، وهو المراد ههنا .

) ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بأاياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين (

المؤمنون : (٤٥) ثم أرسلنا موسى . . . . .

فإن قلت : ما المراد بالسلطان المبين ؟ قلت : يجوز أن تراد العصا ، لأنها كانت أم آيات موسى وأولاها ، وقد تعلقت بها معجزات شتى : من انقلابها حية ، وتلقفها ما أفكته السحرة ، وانفلاق البحر ، وانفجار العيون من الحجر بضربهما بها ، وكونها حارسا ، وشمعة ، وشجرة خضراء مثمرة ، ودلوا ورشاء . وجعلت كأنها ليست بعضها لما استبدت به من الفضل ، فلذلك عطفت عليها كقوله تعالى :) وجبريل وميكال ((البقرة : ٩٨) ويجوز أن تراد الآيات أنفسها ، أي : هي آيات وحجة بينة) عالين (متكبرين) إن فرعون علا فى الارض ((القصص : ٤) ،) لا يريدون علوا فى الارض ((القصص : ٨٣) أو متطاولين على الناس قاهرين بالبغي والظلم .

) فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون فكذبوهما فكانوا من المهلكين (

المؤمنون : (٤٧) فقالوا أنؤمن لبشرين . . . . .

البشر يكون واحدا وجمعا :) بشرا سويا ((مريم : ١٧) ،) لبشرين (،) فإما ترين من البشر ((مريم : ٢٦) و (مثل) و (غير) يوصف بهما : الاثنان ، والجمع ، والمذكر ، والمؤنث :) **إنكم إذا مثلهم** ((النساء : ١٤٠) ،) ومن الارض مثلهن ((الطلاق : ١٢) ويقال أيضا : هما مثلاه ، وهم أمثاله :) إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ((الأعراف : ١٩٤) .) وقومهما (يعني بني إسائيل ، كأنهم يعبدوننا خضوعا وتذللا . أو لأنه كان يدعي الإلاهية فادعى للناس العبادة ، وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة .

) ولقد ءاتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون (

المؤمنون : (٤٩) ولقد آتينا موسى . . . . .

) موسى الكتاب (أي قوم موسى التوراة) لعلهم (يعملون بشرائعها ومواعظها ، كما قال :) على خوف من فرعون وملئهم ((يونس : ٨٣) يريد آل فرعون ، وكما يقولون : هاشم ، وثقيف ، وتميم ، ويراد قومهم . ولا يجوز أن يرجع الضمير في) لعلهم (إلى فرعون وملئه ، لأن التوراة إنما أوتيها بنو إسرائيل بعد إغراق فرعون وملئه :) ولقد ءاتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى ((القصص : ٤٣) .

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٦٣٨

) وجعلنا ابن مريم وأمه ءاية وءاويناهمآ إلى ربوة ذات قرار ومعين (

المؤمنون : (٥٠) وجعلنا ابن مريم . . . . . .

فإن قلت : لو قيل آيتين هل كان يكون له وجه ؟ قلت : نعم ، لأن مريم ولدت من." (١)

"بآياتنا بالآيات التسع كاليد والعصا ، وهي المذكورة في سورة الأعراف وسلطان مبين حجة بينة واضحة ملزمة للخصم ، والمراد بالسلطان المبين : إما الآيات أنفسها ، أي هي آيات وحجة بينة ، وإما العصا لأنها كانت أم الآيات وأولاها ، وقد تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها حية ، وتلقفها ما أفكته السحرة ، وانفلاق البحر ، وانفجار العيون من الحجر ، بضربها بها ، وكونها حارسا ، وشمعة ، وشجرة خضراء مثمرة ، ودلوا ، ورشاء ، فجعلت كأنها ليست بعض الآيات ، لخصائصها ومزاياها وفضلها ، فلذلك عطف عليها ، كقوله تعالى : وجبريل وميكال [البقرة ٢/ ٩٨] عطفا على الملائكة ، مع أنهما منهم.

ومثل وغير : يوصف بهما الاثنان والجمع ، والمذكر والمؤنث ، كقوله تعالى : **إنكم إذا مثلهم** [النساء ٤/ ١٤٠] ومن الأرض مثلهن [الطلاق ٦٥/ ١٢]. ويقال أيضا : هما مثلاه ، وهم أمثاله ، كما قال تعالى : إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم [الأعراف ٧/ ١٩٤].

فاستكبروا عن الإيمان بالله وبالآيات ، والمتابعة عالين متكبرين قاهرين بني إسرائيل بالظلم أنؤمن لبشرين « ١ » مثلنا ثنى البشر لأنه يطلق للواحد ، كقوله تعالى :

---

(١) لفظ البشر يطلق على الواحد والجمع ، كما قال تعالى في إطلاقه على الواحد : فتمثل لها بشرا سويا [مريم ١٩/ ١٧] أنؤمن لبشرين [المؤمنون ٢٣/ ٤٧]. ومثال إطلاقه على الجمع قوله تعالى : فإما ترين من البشر أحدا [مريم ١٩/ ٢٦] وما هي إلا ذكرى للبشر [المدثر ٧٤/ ٣١]

ج ١٨ ، ص : ٥٠

بشرا سويا

]."(٢)

"إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم

---

(١) تفسير الكشاف ، ٣/١٩١

(٢) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، ١٨/٤٨

يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

ج ٥ ، ص : ٣١٨

الإعراب :

الذين يتخذون بدل أو نعت المنافقين.

فإن العزة لله جميعا : إنما قال : جميعا بالتذكير ، ولم يقل جمعاء بالتأنيث لأن العزة في معنى العز. وجميعا حال منصوب ، والتقدير : فإن العزة لله تعالى كائنة في حال اجتماعهما.

الذين يتربصون بدل من الذي قبله.

أن إذا سمعتم أن : مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي أنه ، وهي مع الفعل في تأويل المصدر مفعول : نزل ، على من قرأها بالفتح ، وفي موضع نائب فاعل على قراءة من قرأ نزل بضم النون والتشديد.." [1]

"٦- العزة أي الغلبة والقوة الحقيقية التامة لله عز وجل.

٧- يحرم الجلوس في مجالس الكفرة الذين يستهزئون بآيات الله (القرآن)

(١) دليل الإجماع قوله تعالى : قل للذين كفروا : إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف [الأنفال ٨/ ٣٨] و الحديث الذي رواه مسلم عن عمرو بن العاص بلفظ « أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله » .

(٢)

رواه أحمد وأبو داود عن عائشة بلفظ : « إنا لا نستعين بمشرك » .

ج ٥ ، ص : ٣٢٤

و الخطاب في قوله : وقد نزل عليكم في الكتاب .. عام لجميع من أظهر الإيمان من محق ومنافق لأنه إذا أظهر الإيمان ، فقد لزمه أن يمتثل أوامر كتاب الله. وكان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود ، فيسخرون من القرآن.

ودل قوله تعالى : فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره- أي غير **الكفر- إنكم إذا مثلهم على** وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر لأن من لم يجتنبهم فقد رضي فعلهم ، والرضا بالكفر كفر. قال الله عز وجل : **إنكم إذا مثلهم فكل** من جلس في مجلس معصية ، ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء ، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها ، فإن لم يقدر على النكير عليهم ، فينبغي أن يقوم عنهم ، حتى لا يكون من أهل هذه الآية. وإذا ثبت تجنب أصحاب المعاصي ، فتجنب أهل البدع والأهواء أولى.

٨- موقف المنافقين موقف ضعيف يستدعي العجب والسخرية والطرد من الجانبين : فإنهم كانوا يطمعون في غنائم المسلمين

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، ٥/٣١٤

متذرعين بأنهم مظاهرون لهم ومؤيدون جهادهم. وكذلك كانوا يطمعون في غنائم الكفار متذرعين بأنهم دافعوا عنهم وخذلوا عنهم المسلمين ، حتى هابهم المسلمون.." (١)

"و إن أنساك الشيطان أيها المسلم النهي والمنع ، فجلست مع الخائضين ناسيا ، فلا تقعد بعد التذكر مع القوم الظالمين أنفسهم بالتكذيب والاستهزاء.

والخطاب للرسول وكل سامع مسلم.

ويجوز وقوع النسيان على النبي بغير وسوسة الشيطان لقوله تعالى :

واذكر ربك إذا نسيت [الكهف ١٨/ ٢٤] وقد وقع النسيان من آدم عليه السلام : فنسي ولم نجد له عزما [طه ٢٠/ ١١٥] ومن موسى عليه السلام : قال : لا تؤاخذني بما نسيت [الكهف ١٨/ ٧٣] وثبت في الكتب الستة أن النبي صلى الله عليه وسلم سها في الصلاة وقال : « إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكروني » .

أما في تبليغ الوحي والدين المنزل من الله ، فإن الأنبياء معصومون عن نسيان شيء مما أمرهم الله بتبليغه من حلال أو حرام لقوله تعالى : لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه [القيامة ٧٥/ ١٦- ١٩].

وإنساء الشيطان للإنسان بعض الشيء ليس من قبيل التصرف فيه ، والسلطان عليه لقوله تعالى : إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون [النحل ١٦/ ٩٩- ١٠٠].

فإن تجنبوا مجالسة الخائضين ، فلا يحاسبون على خوضهم ، وبرئوا من عهدتهم ، وتخلصوا من إثمهم. وقال آخرون (مجاهد والسدي وابن جريج) : بل معناه : وإن جلسوا معهم ، فليس عليهم من حسابهم من شيء ، وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية وهي قوله : إنكم إذا مثلهم [٤/ ١٤٠].

ج ٧ ، ص : ٢٤٩." (٢)

"٥- المرتد يستتاب ثلاثة أيام وإلا قتل كفرا أخذا من قوله: ﴿ثم آمنوا ثم كفروا﴾ .

﴿بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما(١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا(١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا(١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا(١٤١)﴾

شرح الكلمات:

﴿بشر المنافقين﴾ : البشارة: الخير الذي تتأثر به بشرة من يلقى عليه خيرا كان أو شرا. والمنافق: من يبطن الكفر ويظهر

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، ٥/٣٢٠

(٢) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، ٧/٢٥٧

الإيمان تقية ليحفظ دمه وماله.

﴿أولياء﴾ : يوالونهم محبة ونصرة لهم على المؤمنين.

﴿العزة﴾ : الغلبة والمنعة.

﴿ويستهزأ بها﴾ : يذكونها استخفافا بها وإنكارا وجحودا لها.

﴿يخوضوا﴾ : يتكلموا في موضوع آخر من موضوعات الكلام.

﴿مثلهم﴾ : أي: في الكفر والإثم.

﴿يتربصون بكم﴾ : ينتظرون متى يحصل لكم انهزام أو إنكسار: فيعلنون عن كفرهم.

﴿نصيب﴾ : أي: من النصر وعبر عنه بالنصيب القليل لأن انتصارهم على المؤمنين نادر.." (١)

"ولكن ذكرى : أي موعظة لهم.

وذر الذين : أي اترك الكافرين.

لعبأ ولهوا : كونه لعبا لأنه لا يجنون منه فائدة قط، وكونه لهوا لأنهم يتلهون به وشغلهم عن الدين الحق الذي يكملهم ويسعدهم.

أن تبسل نفس: أي تسلم فتؤخذ فتحبس في جهنم.

كل عدل: العدل هنا: الفداء.

أبسلو: حبسوا في جنهم بما كسبوا من الشرك والمعاصي.

من حميم : الحميم الماء الشديد الحرارة الذي لا يطاق.

وعذاب أليم: أي شديد الألم والإيجاع وهو عذاب النار.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث مع أولئك العادلين المكذبين في!قول الله تعالى لرسوله ﴿وإذا رأيت١ الذين يخوضون في آياتنا﴾ يستهزئون بالآيات القرآنية ويسخرون مما دلت عليه من التوحيد والعذاب للكافرين ﴿فأعرض عنهم﴾ أي فصد عنهم وانصرف ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ وإن أنساك الشيطان نهينا هذا فجلست ثم ذكرت فقم ولا تقعد مع القوم الظالمين،وقوله تعالى: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ أي وليس على المؤمنين المتقين أنت وأصحابك يا رسولنا من تبعة ولا مسئولية ولكن إذا خاضوا في الباطل فقوموا ليكون ذلك ذكرى لهم فيكفون عن الخوض في آيات الله تعالى. وهذا كان بمكة قبل قوة الإسلام، ونزل بالمدينة النهي عن الجلوس مع الكافرين والمنافقين إذا خاضوا في آيات الله ومن جلس معهم يكون مثلهم وهو أمر عظيم قال تعالى: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى والثانية.

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري، ٥٥٧/١

١ الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأمته داخلة معه في هذا فمتى حصل لمؤمن أو مؤمنة مثل هذا تعين عليه أن يقوم احتجاجا وعدم رضا، وفي الآية دليل على أن مجالسة أهل الكبائر لا تجوز لاسيما في حال تلبسهم بالكبيرة، وهذه أقوال السلف في هذه المسألة قال ابن خويز منداد: من خاض في آيات الله تركت مجالسته وهجر مؤمنا كان أو كافرا قال القرطبي: منع أصحابنا الدخول على أرض العدو ودخول كنائسهم ومجالسة الكفار وأهل البدع وألا تعتقد مودتهم ولا يسمع كلامهم ولا مناظرتهم. قال الفضيل بن عياض من أحب صاحب بدعة أحبط الله عمله وأخرج نور الإيمان من قلبه.." (١)

"قوله تعالى: (والمهاجرين في سبيل الله)

وقوله تعالى: (والمهاجرين في سبيل الله) أشار تعالى إلى فضل مسطح رضي الله عنه وأرضاه، لأن مسطحا كان من المهاجرين، وفي هذه الآية الكريمة دليل لأهل السنة والجماعة على المعتزلة الذين يقولون إن ارتكاب الكبيرة يوجب إحباط العمل والعياذ بالله، ومذهب أهل السنة والجماعة: أن العمل يحبط بالكفر والشرك بالله عز وجل، كما أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك بقوله: ﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ [الزمر:٦٥] فالعمل والعياذ بالله يحبط بالكفر، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ [الفرقان:٢٣] فالكفر والشرك بالله عز وجل يوجب حبوط العمل، وذهاب ما فعله الإنسان من صالح القول والعمل، ولو أن إنسانا كان من أصلح العباد، وأتقاهم لله عز وجل وأكثرهم صلاحا واستقامة وكانت حياته كلها في تلك الطاعة والاستقامة، حتى إذا دنا أجله أشرك بالله –ولو بكلمة– فإن ذلك الشرك يوجب حبوط عمله كله، قولا كان أو فعلا أو اعتقادا، فيكون والعياذ بالله من الخاسرين، فلذلك كان من أعظم البلاء وأشد الرزية التي لا أعظم منها رزية: الشرك بالله، والكفر بالله تبارك وتعالى، ومن الشرك بالله: الاستغاثة بغير الله من دون الله، ومن الكفر بالله: الاستهزاء بالدين، وكل ذلك مما عمت به البلوى والعياذ بالله خاصة في هذا الزمان.

فالمقصود أن مذهب أهل السنة والجماعة أن العمل إنما يحبط بالكفر والشرك بالله.

ولا يشكل على هذا قوله تعالى: ﴿ ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ [الحجرات:٢] فقد خرج بعض العلماء ذلك على الوعيد كما اختاره صاحب الأضواء وغيره من أهل العلم رحمهم الله، وذهب المعتزلة إلى أن الإنسان إذا فعل كبيرة من الكبائر حبط عمله والعياذ بالله، ومثال ذلك لو أن إنسانا زنى أو سرق وكان على طاعة واستقامة فإن زناه وسرقته توجب حبوط عمله عند هؤلاء.

والحمد لله الذي وسع علينا ما ضيقه أهل الاعتزال، والحمد لله الذي رحم عباده حيث لم يجعل حبوط العمل بارتكاب الكبائر، إذ النصوص شاهدة على أن مرتكب الكبيرة لا يعتبر ممن حبط عمله، كما في هذه الآية الكريمة، ووجه الدلالة من هذه الآية الكريمة أن مسطحا قذف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها على خلاف: هل كان يقول ذلك، أو ينقل الكلام دون اعتقاد له، أو كان يحضر المجالس ويسمع ويرضى ولم يكن منكرا لذلك الأمر، وإن كان الذي ورد في الرواية التي في سبب النزول أنه رضي الله عنه وأرضاه كان فقط يسكت على ما يقال، وهذا يدل على أن من جلس

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري، ٧٥/٢

المجلس الذي يغتاب فيه المسلم أنه شريك للذي اغتاب والعياذ بالله في إثمه، وآخذ حكمه والعياذ بالله، ولذلك قال تعالى: ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم ﴾ [النساء:١٤٠].

فالمقصود: أن أصح الأقوال هو قول أهل السنة والجماعة من أن مرتكب الكبيرة لا يحبط عمله، وأنه على حالتين:

– إما أن يتوب في الدنيا فيتوب الله عز وجل عليه، قال الله عز وجل: ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ [طه:٨٢] ولم يفرق الله بين ذنب كبير ولا صغير، فالآية عامة.

– وإما أن يصر على الكبيرة إلى لقاء الله والعياذ بالله، فيوافي الله يوم القيامة بتلك الكبيرة غير تائب منها، فإن وافاه وحالته على ذلك فهو تحت رحمة الله ومشيئته؛ إن عذبه فبعدله، وإن عفا عنه فبرحمته، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة، ومنها قوله تبارك وتعالى: ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء:٤٨].." (١)

"من اعتصم بمخلوق فقد التجأ إلى غير مجير ، واستند إلى غير كهف ، وسقط في مهواة من الغلط بعيد قعرها ، شديد مكرها . أيبتغون العز عند الذي أصابه ذل التكوين؟! متى يكون له عز على التحقيق؟ ومن لا عز له يلزمه فكيف يكون له عز يتعدى إلى غيره؟

ويقال لا ندري أي حالتهم أقبح : طلب العز وهم في ذل القهر وأسر القبضة أم حسبان ذلك وتوهمه من غير الله؟

ويقال من طلب الشيء من غير وجهه فالإخفاق غاية جهده ، ومن رام الغنى في مواطن الفاقة فالإملاق قصارى كده .

ويقال لو هدوا بوجدان العز لما صرفت قصودهم إلى من ليس بيده شيء من الأمر .

قوله : ﴿ فإن العزة لله جميعا ﴾ العز على قسمين : عز قديم فهو لله وصفا ، وعز حادث يختص به سبحانه من يشاء فهو له – تعالى – ملكا ومنه لطفا .

قوله : ﴿ وقد نزل عليكم فى الكتاب ﴾ الآية : لا تجاوروا أرباب الوحشة فإن ظلمات أنفسهم تتعدى إلى قلوبكم عند استنشاقكم ما يردون من أنفاسهم ، فمن كان بوصف ما متحققا شاركه حاضروه فيه؛ فجليس من هو في أنس مستأنس ، وجليس من هو في ظلمة مستوحش .

ويقال هجران أعداء الحق فرض ، ومخالفة الأضداد ومفارقتهم دين ، والركون إلى أصحاب الغفلة قرع باب الفرقة .

قوله : ﴿ إنكم إذا مثلهم ﴾ : أوضح برهان على سريرة (. . . . .) صحبة من يقارنه وعشرة من يخادنه؛ فالشكل مقيد بشكله ، والفرع منتشر عن أصله .." (٢)

"﴿ ١٤٠ ، ١٤١ ﴾ ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ .

أي: وقد بيَّن الله لكم فيما أنزل عليكم حكمه الشرعي عند حضور مجالس الكفر والمعاصي ﴿ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ

---

(١) تفسير سورة النور، ٦/١٠

(٢) تفسير القشيري، ٢/٥٤

يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ﴾ أي: يستهان بها. وذلك أن الواجب على كل مكلف في آيات الله الإيمان بها وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا المقصود بإنزالها، وهو الذي خَلَق الله الخَلْق لأجله، فضد الإيمان الكفر بها، وضد تعظيمها الاستهزاء بها واحتقارها، ويدخل في ذلك مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم.

وكذلك المبتدعون على اختلاف أنواعهم، فإن احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات الله لأنها لا تدل إلا على حق، ولا تستلزم إلا صدقا، بل وكذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه، وتقتحم حدوده التي حدها لعباده ومنتهى هذا النهي عن القعود معهم ﴿ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ أي: غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها.

﴿ إِنَّكُمْ إِذًا ﴾ أي: إن قعدتم معهم في الحال المذكورة ﴿ مِثْلُهُمْ ﴾ لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها، والحاصل أن من حضر مجلسا يعصى الله به، فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم مع القدرة، أو القيام مع عدمها.

﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ كما اجتمعوا على الكفر والموالاة ولا ينفع الكافرين (١) مجرد كونهم في الظاهر مع المؤمنين كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ إلى آخر الآيات.

---

(١) في ب: المنافقين.." (١)

"

" صفحة رقم ٦١١

عباس نزلت في اليهود آمنوا بموسى ثم كفروا بعبادتهم العجل ثم بعد ذلك كفروا بعيسى والإنجيل ثم ازدادوا كفرا بمحمد (صلى الله عليه وسلم) والقرآن وقيل إنهم آمنوا بموسى ثم كفروا بعده ثم آمنوا بداود ثم كفروا بعيسى ثم ازدادوا كفرا بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، وقيل نزلت في المنافقين وذلك أنهم آمنوا ثم كفروا بعد الإيمان ثم آمنوا يعني بألسنتهم وهو إظهارهم الإيمان لتجري عليهم أحكام المؤمنين ثم ازدادوا كفرا يعني بموتهم على الكفر.

وقيل بذنوب أحدثوها في الكفر وقيل هم قوم آمنوا ثم ارتدوا إلى الكفر ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا يعني بموتهم عليه.

وذلك لأن من تكرر منه الإيمان بعد الكفر والكفر بعد الإيمان مرات كثيرة يدل على أنه لا وقع للإيمان في قلبه ، ومن كان كذلك لا يكون مؤمنا بالله إيمانا صحيحا وازديادهم الكفر هو استهزاؤهم وتلاعبهم بالإيمان ومثل هذا المتلاعب بالدين هل تقبل توبته أم لا ؟ حكي عن علي ابن أبي طالب أنه قال لا تقبل توبته بل يقتل وذهب أهل العلم إلى أن توبته مقبولة.

وقوله تعالى : (لم يكن الله ليغفر لهم (يعني ما أقاموا على الكفر وماتوا عليه وذلك لأن الله تعالى أخبر أنه يغفر الكفر إذا تاب منه بقوله قل للذين كفروا إن ينتهوا يعني عن الكفر يغفر لهم ما قد سلف يعني من كفرهم) ولا ليهديهم سبيلا (يعني طريق هدى وقيل لا يجعلهم بكفرهم مهتدين.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٢١٠

قوله تعالى : (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (يعني أخبرهم يا محمد وأنما وضع بشر مكان أخبر تهكما بهم وقيل البشارة كل خبر تتغير به بشرة الوجه ساراكان ذلك الخبر أو غير سار وقيل معناه اجعل موضع بشارتك لهم العذاب لأن العرب يقول تحيتك الضرب أي هذا بدل من تحيتك قال الشاعر :

وخيل قد دلفت لها بخيل

تحية بينهم ضرب وجيع

(

النساء : (١٣٩ - ١٤١) الذين يتخذون الكافرين...

" الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا " (ثم وصف الله تعالى المنافقين فقال تعالى : (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين (يعني يتخذون اليهود أولياء وأنصارا وبطانة من دون المؤمنين وذلك أن المنافقين كانوا يقولون إن محمدا لا يتم أمره فيوالون اليهود فقال الله تعالى ردا على المنافقين : (أيبتغون عندهم العزة (يعني يطلبون من اليهود العزة والمعونة والظهور على محمد (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه) فإن العزة لله جميعا (يعني فإن القوة والقدرة والغلبة لله جميعا وهو الذي يعز أولياءه وأهل طاعته كما قال تعالى : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ( ) وقد نزل عليكم (يا معشر المسلمين) في الكتاب (يعني القرآن) أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها (قال المفسرون الذي أنزل عليهم في النهي عن مجالستهم هو قوله تعالى في سورة الأنعام : (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره (" وهذا أنزله بمكة لأن المشركين كانوا يخوضون في القرآن ويستهزؤون به في مجالسهم ثم إن أحبار اليهود بالمدينة كانوا يفعلون مثل فعل المشركين وكان المنافقون يجلسون إليهم ويخوضون معهم في الاستهزاء بالقرآن فنهى الله المؤمنين عن القعود معهم بقوله : (فلا تقعدوا معهم." (١)

" صفحة رقم ٦١٢

حتى يخوضوا في حديث غيره (يعني يأخذوا في حديث آخر غير الاستهزاء بالقرآن وبمحمد (صلى الله عليه وسلم) قال ابن عباس دخل في هذه الآية كل محدث في الدين وكل مبتدع إلى يوم القيامة) **إنكم إذا مثلهم (** يعني أنكم يا أيها الجالسون مع المستهزئين بآيات الله إذا رضيتم بذلك فأنتم وهم في الكفر سواء.

قال العلماء وهذا يدل على أن من رضي بالكفر فهو كافر ومن رضي بمنكر أو خالط أهله كان في الإثم بمنزلتهم إذا رضي له وإن لم يباشره فإن جلس إليهم ، ولم يرض بفعلهم بل كان ساخط له وإنما جلس على سبيل التقية والخوف فالأمر فيه

---

(١) تفسير الخازن . ، ٦١١/١

أهون من المجالسة مع الرضا وإن جلس مع صاحب بدعة أو منكر ولم يخض في بدعته أو منكره فيجوز الجلوس معه مع الكراهة وقيل لا يجوز بحال والأول أصح) إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (أي إنهم اجتمعوا في الدنيا على الاستهزاء بآيات الله وكذلك يجمعهم في عذاب جهنم يوم القيامة قوله عز وجل : (الذين يتربصون بكم (نزلت في المنافقين والمعنى ينتظرون ما يحدث بكم من خير أو شر) فإن كان لكم فتح من الله (أي ظفر على عدوكم ، وغنيمة تنالونها منهم) قالوا (يعني المنافقين لكم) ألم نكن معكم (يعني في الوقعة والفتح فأعطونا من الغنيمة وقيل معناه ألم نكن على دينكم وفي الجهاد كنا معكم فاجعلوا لنا نصيبا من الغنيمة) وإن كان للكافرين نصيب (أي دولة وظهور على المسلمين) قالوا (يعني المنافقين للكفار) ألم نستحوذ عليكم (الاستحواذ هو الاستيلاء والغلبة يقال استحوذ فلان على فلان أي غلب عليه والمعنى أم نغلبكم ونتمكن منكم ومن قتالكم وأسركم ثم لم نفعل ذلك وقيل معناه ألم نغلبكم على رأيكم) ونمنعكم من المؤمنين (يعني في صلاتهم والدخول في دينهم وقيل معناه ألم ندفع المؤمنين بتخذيلهم عنكم ومراسلتنا إياكم بأخبارهم وأسرارهم فهاتوا نصيبا مما أصبتم منهم ومراد المنافقين إظهار المنة على الكفار.

فإن قلت لم سمي ظفر المؤمنين فتحا وسمي ظفر الكافرين نصيبا.

قلت تعظيما لشأن المؤمنين وتخسيسا لحظ الكافرين لأن ظفر المؤمنين أمر عظيم تفتح له أبواب السماء حتى ينزل النصر على المسلمين وأما ظفر الكفار فما هو إلا حظ دنيء ونصيب خسيس لا يبقى منه إلا ما نالوه ولهم في الآخرة العقوبة الشديدة على ذلك النصيب الذي نالوه من المسلمين) فالله يحكم بينكم يوم القيامة (يعني الفريقين فريق المؤمنين وفريق المنافقين والمعنى إنما وضع السيف عن المنافقين في الدنيا لا لأجل كرامتهم بل أخر عذابهم إلى يوم القيامة) ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (فيه قولان : أحدهما وهو قول علي بن أبي طالب وابن عباس أن المراد به يوم القيامة بدليل أنه عطف على قوله تعالى فالله يحكم بينكم يوم القيامة روي أن رجلا سأل علي بن أبي طالب عن هذه الآية : (وأن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (وهم يقتلوننا فقال ولن يجعل الله للكافرين يوم القيامة على المؤمنين سبيلا.

والقول الثاني." (١)

"النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا إنا أصبنا ذنوبا عظاما فلم يرد النبي صلى الله عليه وسلم عليهم شيئا فنزلت وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها عليهم (الآية ٥٤).

٢٦٧: ٦: ٧ سفين عن الحسن بن عبيد الله عن إبراهيم في قوله توفته رسلنا قال ملك الموت (الآية ٦١).

٢٦٨: ٧: ٨ سفين عن منصور عن إبراهيم قال أعوان ملك الموت ثم يقبضها ملك الموت منهم بعد.

٢٦٩: ٨: ١ حدثنا أبو حذيفة ثنا سفين عن السدي عن سعيد بن جبير

وأبي ملك فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى قال بعدان تذكر (الآية ٦٨).

---

(١) تفسير الخازن. ، ٦١٢/١

٢٧٠: ٩: ٢ سفين عن السدي عن سعيد بن جبير وأبي ملك وما على الذين يتقون من حسابهم من شئ ولكن ذكرى لعلهم يتقون قال مسآتهم لم (الآية ٦٩).

٢٧١: ١٠: ٣ سفين عن السدي عن سعيد بن جبير وأبي ملك قالا ثم نزلت وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزي حدثنا بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم.." (١)

"و مع أن الخطاب في الآية الأولى قد يكون منصرفا إلى النبي صلى الله عليه و سلم بقرينة ضمير المخاطب المفرد فإن نص الآية الثانية يسوغ القول بأن الحظر الذي احتوته الآية الأولى ليس خاصا بالنبي صلى الله عليه و سلم و إنما هو عام للمسلمين. و قد يكون من دعائم ذلك آية سورة النساء هذه: وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَ يُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ [١٤٠] حيث احتوت الآية إشارة إلى آيات الأنعام التي نحن في صددها.

و يلحظ أن النهي محدود بوقت الخوض و بمن يقترفونه، و هو المتسق مع مهمة الرسول صلى الله عليه و سلم و المؤمنين التبشيرية.

و لقد تكررت الآيات المكية التي فيها إشارة إلى خوض الكفار و المشركين و المنافقين منها آية في سورة المدثر التي سبق تفسيرها وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ (٤٥) و آية في سورة الطور الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) و آية في سورة الزخرف فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) و آية أخرى في سورة الأنعام ستأتي بعد قليل، حيث يبدو من هذا أن ذلك كان من ديدنهم و من جملة الصور التي كانوا يواجهون بها دعوة النبي صلى الله عليه و سلم و آيات القرآن، مع التنبيه إلى أن آية النساء التي أوردناها قد نزلت بخاصة في خوض المنافقين على ما يتبادر من سياقها، على ما سوف يشرح في مناسبته.

و لقد قال بعض المفسرين «١» إن آية النساء المذكورة قد نسخت هذه الآية و لسنا نرى في آية النساء نسخا بل نرى توكيدا. فآية الأنعام لم تسمح بالقعود مع

---

(١) انظر تفسير الخازن.

التفسير الحديث، ج ٤، ص: ١١١." (٢)

"يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْكِتابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلى رَسُولِهِ وَ الْكِتابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً (١٣٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (١٣٩) وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا

---

(١) تفسير الثوري، ص/١٠٨

(٢) التفسير الحديث، ص/٢٢٦٣

سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَ يُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَ الْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً (١٤٠)." (١)

"ثم قال تعالى

الذين يتخذون الكافرين أوليآء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا

الذين نصب على الذم بمعنى أريد الذين أو رفع بمعنى هم الذين واتفق المفسرون على أن المراد بالذين يتخذون المنافقون وبالكافرين اليهود وكان المنافقون يوالونهم ويقول بعضهم لبعض إن أمر محمد لا يتم فيقول اليهود بأن العزة والمنعة لهم

ثم قال تعالى أيبتغون عندهم العزة قال الواحدي أصل العزة في اللغة الشدة ومنه قيل للأرض الصلبة الشديدة غزاز ويقال قد استعز المرض على المريض إذا اشتد مرضه وكاد بأن يهلك وعز الهم اشتد ومنه عز على أن يكون كذا بمعنى اشتد وعز الشيء إذا قل حتى لا يكاد يوجد لأنه اشتد مطلبه واعتز فلان بفلان إذا اشتد ظهره به وشاة عزوز التي يشتد حلبها ويصعب والعزة القوة منقولة من الشدة لتقارب معنييهما والعزيز القوي المنيع بخلاف الذليل

إذا عرفت هذا فنقول إن المنافقين كانوا يطلبون العزة والقوة بسبب اتصالهم باليهود ثم إنه تعالى أبطل عليهم هذا الرأي بقوله فإن العزة لله جميعا

فإن قيل هذا كالمناقض لقوله ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (المنافقين ٨)

قلنا القدرة الكاملة لله وكل من سواه فباقداره صار قادرا وبإعزازه صار عزيزا فالعزة الحاصلة للرسول عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين لم تحصل إلا من الله تعالى فكان الأمر عند التحقيق أن العزة جميعا لله ثم قال تعالى

وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم ءايات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا

قال المفسرون إن المشركين كانوا في مجالسهم يخوضون في ذكر القرآن ويستهزئون به فأنزل الله تعالى وإذا رأيت الذين يخوضون فى ءاياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره (الأنعام ٦٨) وهذه الآية نزلت بمكة ثم إن أحبار اليهود بالمدينة كانوا يفعلون مثل فعل المشركين والقاعدون معهم والموافقون لهم على ذلك الكلام هم المنافقون فقال تعالى مخاطبا للمنافقين إنه قد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم ءايات الله يكفر بها ويستهزأ بها." (٢)

"اختلفوا في الايات فقال ابن عباس رضي الله عنهما هي الآيات التسع وهي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفلاق البحر والسنون والنقص من الثمرات وقال الحسن قوله بئاياتنا أي بديننا واحتج بأن المراد بالآيات لو كانت هي المعجزات والسلطات المبين أيضا هو المعجز فحينئذ يلزم عطف الشيء على نفسه والأقرب هو الأول لأن لفظ الآيات إذا ذكر في الرسل فالمراد منها المعجزات وأما الذي احتجوا به فالجواب عنه من وجوه أحدها أن المراد بالسلطان المبين يجوز أن يكون أشرف معجزاته وهو العصا لأنه قد تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها حية وتلقفها ما أفكته السحرة وانفلاق

---

(١) التفسير الحديث، ص/٤٩٩٣

(٢) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . ، ٦٤/١١

البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها بها وكونها حارسا وشمعة وشجرة مثمرة ودلوا ورشاء فلأجل انفراد العصا بهذه الفضائل أفردت بالذكر كقوله جبريل وميكال وثانيها يجوز أن يكون المراد بالآيات نفس تلك المعجزات وبالسلطان المبين كيفية دلالتها على الصدق وذلك لأنها وإن شاركت سائر آيات الأنبياء في كونها آيات فقد فارقتها في قوة دلالتها على قوة موسى عليه السلام وثالثها أن يكون المراد بالسلطان المبين استيلاء موسى عليه السلام عليهم في الاستدلال على وجود الصانع وإثبات النبوة وأنه ما كان يقيم لهم قدرا ولا وزنا

واعلم أن الآية تدل على أن معجزات موسى عليه السلام كانت معجزات هرون عليه السلام أيضا وأن النبوة كما أنها مشتركة بينهما فكذلك المعجزات ثم إنه سبحانه حكى عن فرعون وقومه صفتهم ثم ذكر شبهتهم أما صفتهم فأمران أحدهما الاستكبار والأنفة والثاني أنهم كانوا قوما عالين أي رفيعي الحال في أمور الدنيا ويحتمل الاقتدار بالكثرة والقوة وأما شبهتهم فهي قولهم أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون قال صاحب (الكشاف) لم يقل مثلينا كما قال إنكم إذا مثلهم (النساء ١٤) ولم يقل أمثالهم وقال كنتم خير أمة (آل عمران ١١٠) ولم يقل أخيار أمة كل ذلك لأن الإيجاز أحب إلى العرب من الإكثار والشبهة مبنية على أمرين أحدهما كونهما من البشر وقد تقدم الجواب عنه والثاني أن قوم موسى وهرون كانوا كالخدم والعبيد لهم قال أبو عبيدة العرب تسمى كل من دان للملك عابدا له ويحتمل أن يقال إنه كان يدعي الإلهية فادعى أن الناس عباده وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة ثم بين سبحانه أنه لما خطرت هذه الشبهة ببالهم صرحوا بالتكذيب وهو المراد من قوله فكذبوهما

ولما كان ذلك التكذيب كالعلة لكونهم من المهلكين لا جرم رتبه عليه بفاء التعقيب فقال وكانوا ممن حكم الله عليهم بالغرق فإن حصول الغرق لم يكن حاصلا عقيب التكذيب إنما الحاصل عقيب التكذيب حكم الله تعالى بكونهم كذلك في الوقت اللائق به

أما قوله ولقد ءاتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون فقال القاضي معناه أنه سبحانه خص موسى عليه السلام بالكتاب الذي هو التوراة لا لذلك التكذيب لكن لكي يهتدوا به فلما أصروا على الكفر مع البيان العظيم استحقوا أن يهلكوا واعترض صاحب (الكشاف) عليه فقال لا يجوز أن يرجع الضمير في لعلهم إلى فرعون وملائه لأن التوراة إنما أوتيها بنو إسرائيل بعد إغراق فرعون وملائه بدليل قوله تعالى ولقد ءاتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى (القصص ٤٣) بل المعنى الصحيح ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يعملون بشرائعها ومواعظها فذكر موسى والمراد آل موسي كما يقال هاشم وثقيف والمراد قومهما." (١)

"@ ٣٥٩ @ ^ (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . ، ٨٩/٢٣

١٣٧ – ^ (آمنوا) ! ٢ " بموسى " ٢ ! (ثم كفروا) ^ بعبادة العجل ^ (ثم آمنوا) ^ بموسى بعد عوده ^ (ثم كفروا) ! ٢ " بعيسى " ٢ ! (ثم ازدادوا كفرا) ^ بمحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين – أو المنافقون آمنوا ثم ارتدوا ثم آمنوا ، ثم ارتدوا ثم ماتوا على كفرهم ، أو قوم من أهل الكتاب قصدوا تشكيك المؤمنين فأظهروا الإيمان ثم الكفر ثم ازدادوا كفرا بثبوتهم عليه فيستتاب المرتد ثلاث مرات فإن عاد قتل بغير استتابة ، لأجل هذه الآية قاله علي – رضي الله تعالى عنه – ، أو يستتاب كلما ارتد عند الجمهور . ^ (الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)) ^ # ١٤١ – ^ (ألم نكن معكم) ^ فأعطونا من الغنيمة . ^ (نستحوذ) ^ نستولي عليكم بالنصر والمعونة . ^ (ونمنعكم من المؤمنين) ^ بالتخذيل عنكم ، أو ألم نبين لكم أنا على دينكم ، أو ألم نغلب عليكم ، أصل الاستحواذ : الغلبة . ^ (على المؤمنين سبيلا) ^ في الآخرة ، أو حجة . " (١).

"فإن قلت: إذا كان كذلك فهؤلاء القوم قد علم الله أنهم لا يؤمنون وأخبر بنفي أن يهديهم وأن يغفر لهم، فإذن لا فائدة في الطلب منهم أن يؤمنوا بعد هذا الكلام، فهل هم مخصوصون من آيات عموم الدعوة.

قلت: الأشخاص الذين علم الله أنهم لا يؤمنون، كأبي جهل، ولم يخبر نبيه بأنهم لا يؤمنون فهم مخاطبون بالإيمان مع عموم الأمة، لأن علم الله تعالى بعدم إيمانهم لم ينصب عليه أمارة، كما علم من مسالة التكليف بالمحال لعارض في أصول الفقه، وأما هؤلاء فلو كانوا معروفين بأعيانهم لكانت هذه الآية صارفة عن دعوتهم إلى الإيمان بعد، وإن لم يكونوا معروفين بأعيانهم فالقول فيهم كالقول فيمن علم الله عدم إيمانه ولم يخبر به، وليس ثمة ضابط يتحقق به أنهم دعوا بأعيانهم إلى الإيمان بعد هذه الآية ونحوها.

والنفي في قوله ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ أبلغ من: لا يغفر الله لهم، لأن أصل وضع هذه الصيغة للدلالة على أن اسم كان لم يجعل ليصدر منه خبرها، ولا شك أن الشيء الذي لم يجعل لشيء يكون نابيا عنه، لأنه ضد طبعه، ولقد أبدع النحاة في تسمية اللام، التي بعد كان المنفية لام الجحود.

[١٣٨,١٤١] ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ .

استئناف ابتدائي ناشيء عن وصف الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا، فإن أولئك كانوا مظهرين الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، وكان ثمة طائفة تبطن الكفر وهم أهل النفاق، ولما كان التظاهر بالإيمان ثم تعقيبه بالكفر ضربا

(١) تفسير العز بن عبد السلام ، ص/٢٣٥

من التهكم بالإسلام وأهله، جيء في جزاء عملهم بوعيد مناسب لتهكمهم بالمسلمين، فجاء به على طريقة التهكم إذ قال ﴿بشر المنافقين﴾ ، فإن البشارة هي الخبر بما يفرح المخبر به، وليس العذاب كذلك. وللعرب في التهكم أساليب كقول شقيق ابن سليك الأسدي:." (١)

"وهذا الحكم تدريج في تحريم موالاة المسلمين للكافرين، جعل مبدأ ذلك أن لا يحضروا مجالس كفرهم ليظهر التمايز بين المسلمين الخلص وبين المنافقين، ورخص لهم القعود معهم إذ خاضوا في حديث غير حديث الكفر، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الأيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾ [التوبة:٢٣، ٢٤].
وجعل جواب القعود معهم المنهي عنه أنهم إذا لم ينتهوا عن القعود معهم يكونون مثلهم في الاستخفاف بآيات الله إذ قال ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ فإن إذن حرف جواب وجزاء لكلام ملفوظ به أو مقدر. والمجازاة هنا لكلام مقدر دل عليه النهي عن القعود معهم؛ فإن التقدير: إن قعدتم معهم إذن إنكم مثلهم. ووقوع إذن جزاء لكلام مقدر شائع في كلام العرب كقول العنبري:
لو كنت من مازن لم تستبح إبلي

...

بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذن لقام بنصري معشر خشن

...

عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
قال المرزوقي في شرح الحماسة: وفائدة إذن هو أنه أخرج البيت الثاني مخرج جواب قائل له: ولو استباحوا ماذا كان يفعل بنو مازن؟ فقال: إذن لقام بنصري معشر خشن. قلت: ومنه قوله تعالى ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾ [العنكبوت:٤٨]. التقدير: فلو كنت تتلو وتخط إذن لارتاب المبطلون. فقد علم أن الجزاء في قوله ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ عن المنهي عنه لا عن النهي، كقول الراجز، وهو من شواهد اللغة والنحو:
لا تتركني فيهم شطيرا

...

إني إذن أهلك أو أطيرا
والظاهر أن فريقا من المؤمنين كانوا يجلسون هذه المجالس فلا يقدمون على تغيير هذا ولا يقومون عنهم تقية لهم فنهوا عن ذلك. وهذه المماثلة لهم خارجة مخرج التغليظ والتهديد والتخويف، ولا يصير المؤمن منافقا بجلوسه إلى المنافقين، وأريد

---

(١) التحرير والتنوير، ٤/٢٨٢

المماثلة في المعصية لا في مقدارها، أي أنكم تصيرون مثلهم في التلبس بالمعاصي.
وقوله ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ تحذير من أن يكونوا مثلهم، وإعلام بأن الفريقين سواء في عدواة المؤمنين، ووعيد للمنافقين بعدم جدوى." (١)

"والجمهور على أن هذه الآية ليست بمنسوخة.وعن ابن عباس والسدي: "أنها منسوخة بقوله تعالى في سورة النساء[١٤٠] ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ بناء على رأيهم أن قوله: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ أباح للمؤمنين القعود ولم يمنعه إلا على النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾ [الأنعام: ٦٨] كما تقدم آنفا.
[٧٠] ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾
عطف على جملة ﴿فأعرض عنهم﴾ [النساء: ٦٣] أو على جملة ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ [الأنعام: ٦٩] .وهذا حكم آخر غير حكم الإعراض عن الخائضين في آيات الله ولذلك عطف عليه.وأتي بموصول وصلة أخرى فليس ذلك إظهارا في مقام الإضمار.
و ﴿ذر﴾ فعل أمر.قيل: لم يرد له ماض ولا مصدر ولا اسم فاعل ولا اسم مفعول.فتصاريفه هذه مماثلة في الاستعمال استغناء عنها بأمثالها من مادة ترك تجنبا للثقل واستعملوا مضارعه والأمر منه.وجعله علماء التصريف مثالا واويا لأنهم وجدوه محذوف أحد الأصول، ووجدوه جاريا على نحو يعد ويرث فجزموا بأن المحذوف منه الفاء وأنها واو.وإنما حذفت في نحو ذر ودع مع أنها مفتوحة العين اتباعا للاستعمال، وهو حذف تخفيف لا حذف دفع ثقل، بخلاف حذف يعد ويرث.
ومعنى"ذر"اترك، أي لا تخالط.وهو هنا مجاز في عدم الاهتمام بهم وقلة الاكتراث باستهزائهم كقوله تعالى: ﴿ذرني ومن خلقت وحيدا﴾ [المدثر: ١١] وقوله: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث﴾ ، وقول طرفة:
فذرني وخلقي إنني لك شاكر ... ولو حل بيتي نائيا عند ضرغد
أي لا تبال بهم ولا تهتم بضلالهم المستمر ولا تشغل قلبك بهم فالتذكير بالقرآن شامل لهم، أو لا تعبأ بهم وذكرهم به، أي لا يصدك سوء استجابتهم عن إعادة تذكيرهم.." (٢)

"لمثل هذا الشرط هولو الامتناعية، فالتقدير: ولو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق.
وبقاء اللام في صدر الكلام الواقع بعد إذن دليل على أن المقدر شرط لو لأن اللام تلزم جواب لو ولأن غالب مواقع إذن أن تكون جواب لو فلذلك جاز حذف الشرط هنا لظهور تقديره.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٨٥/٤
(٢) التحرير والتنوير، ١٥٦/٦

وقد تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ في سورة النساء.

فقوله: ﴿إذا لذهب كل إله بما خلق﴾ استدلال على امتناع أن يكون مع الله آلهة.

وإنما لم يستدل على امتناع أن يتخذ الله ولدا لأن الاستدلال على ما بعده مغن عنه لأن ما بعده أعم منه وانتفاء الأعم يقتضي انتفاء الأخص فإنه لو كان لله ولدا لكان الأولاد آلهة لأن ولد كل موجود إنما يتكون على مثل ماهية أصله كما دل عليه قوله تعالى: ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ أي له.

والذهاب في قوله: ﴿لذهب كل إله﴾ مستعار للاستقلال بالمذهوب به وعدم مشاركة غيره له فيه. وبيان انتظام هذا الاستدلال أنه لو كان مع الله آلهة لاقتضى ذلك أن يكون الآلهة سواء في صفات الإلهية وتلك الصفات كمالات تامة فكان كل إله خالقا لمخلوقات لثبوت الموجودات الحادثة وهي مخلوقة، فلا جائز أن تتوارد الآلهة على مخلوق واحد لأن ذلك: إما لعجز عن الانفراد بخلق بعض المخلوقات وهذا لا ينافي إلهية، وإما تحصيل للحاصل وهو محال، فتعين أن ينفرد كل إله بطائفة من المخلوقات. ولنفرض أن تكون مخلوقات كل إله مساوية لمخلوقات غيره بناء على أن الحكمة تقتضي مقدارا معينا من المخلوقات يعلمها الإله الخالق لها؛ فتعين أن لا تكون للإله الذي لم يخلق طائفة من المخلوقات ربوبية على ما لم يخلقه وهذا يفضي إلى نقص في كل من الآلهة وهو يستلزم المحال لأن الإلهية تقتضي الكمال لا النقص. ولا جرم أن تلك المخلوقات ستكون بعد خلقها معرضة للزيادة والنقصان والقوة والضعف بحسب ما يحف بها عن عوارض الوجود التي لا تخلو عنها المخلوقات كما هو مشاهد في مخلوقات الله تعالى الواحد. ولا مناص عن ذلك لأن خالق المخلوقات أودع فيها خصائص ملازمة لها كما اقتضته حكمته، فتلك المخلوقات مظاهر لخصائصها لا محالة فلا جرم أن ذلك يقتضي تفوق مخلوقات بعض الآلهة على مخلوقات بعض آخر بعوارض من التصرفات والمقارنات لازمة لذلك، لا جرم يستلزم ذلك كله لازمين باطلين:." (١)

"القول في تأويل قوله : ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) ﴾

قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه:"بشر المنافقين"= الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ="وقد نزل عليكم في الكتاب"، يقول: أخبر من اتخذ من هؤلاء المنافقين الكفار أنصارا وأولياء بعد ما نزل عليهم من القرآن،"أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره"، يعني: بعد ما علموا نهي الله عن مجالسة الكفار الذين يكفرون بحجج الله وآي كتابه ويستهزئون بها="حتى يخوضوا في حديث غيره"، يعني بقوله:"يخوضوا"، يتحدثوا حديثا غيره="بأن لهم عذابا أليما". (١)

وقوله:"إنكم إذا مثلهم"، يعني: وقد نزل عليكم أنكم إن جالستم من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها وأنتم تسمعون، فأنتم مثله= يعني: فأنتم إن لم تقوموا عنهم في تلك الحال، مثلهم في فعلهم، لأنكم قد عصيتم الله بجلوسكم معهم وأنتم تسمعون آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها، كما عصوه باستهزائهم بآيات الله. فقد أتيتم من معصية الله نحو الذي أتوه منها، فأنتم إذا

---

(١) التحرير والتنوير، ٩٣/١٨

مثلهم في ركوبكم معصية الله، وإتيانكم ما نهاكم الله عنه.

* * *

---

(١) أراد أبو جعفر بهذه الفقرة أن يبين أن قوله في الآية الأولى: "بأن لهم عذابا أليما" ، مقدم ومعناه التأخير ، فلذلك قال في أول الكلام"بشر المنافقين" ثم استطرد في ذكر الآيتين بعدها ، ثم ختمها بختام الأولى.." [١]

"وفي هذه الآية، الدلالة الواضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع، من المبتدعة والفسقة، عند خوضهم في باطلهم.

* * *

وبنحو ذلك كان جماعة من الأئمة الماضين يقولون، (١) تأولا منهم هذه الآية أنه مراد بها النهي عن مشاهدة كل باطل عند خوض أهله فيه.

*ذكر من قال ذلك:

١٠٧٠٨- حدثني المثنى قال، حدثنا إسحاق قال، حدثنا يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب، عن إبراهيم التيمي، عن أبي وائل، قال: إن الرجل ليتكلم بالكلمة في المجلس من الكذب ليضحك بها جلساءه، فيسخط الله عليهم. قال: فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي، فقال: صدق أبو وائل، أو ليس ذلك في كتاب الله:"أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم"؟

١٠٧٠٩- حدثني المثنى قال، حدثنا إسحاق قال، حدثنا عبد الله بن إدريس، عن العلاء بن المنهال، عن هشام بن عروة قال: أخذ عمر بن عبد العزيز قوما على شراب فضربهم، وفيهم صائم، فقالوا: إن هذا صائم! فتلا"فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم".

١٠٧١٠- حدثني المثنى قال، حدثنا عبد الله بن صالح قال، حدثني معاوية، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله:"أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها"، وقوله:(ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) ، [سورة الأنعام: ١٥٣] ، وقوله:(أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) [سورة الشورى: ١٣] ، ونحو هذا من القرآن. قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف

---

(١) في المطبوعة: "كان جماعة من الأمة الماضية" ، والصواب من المخطوطة.." [٢]

"* ذكر من قال ذلك:

١٣٣٩٦ - حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال، حدثني حجاج، عن ابن جريج قال: كان المشركون يجلسون إلى النبي

---

(١) تفسير الطبري، ٩/٣٢٠

(٢) تفسير الطبري، ٩/٣٢١

صلى الله عليه وسلم يحبون أن يسمعوا منه، فإذا سمعوا استهزءوا، فنزلت:"وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره"، الآية، قال: فجعل إذا استهزءوا قام، فحذروا وقالوا لا تستهزءوا فيقوم! فذلك قوله:"لعلهم يتقون"، أن يخوضوا فيقوم، ونزل:" وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء"، إن قعدوا معهم، ولكن لا تقعدوا. ثم نسخ ذلك قوله بالمدينة: وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم** ، [سورة النساء: ١٤٠] ، فنسخ قوله:"وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء"، الآية.

١٣٣٩٧ - حدثني محمد بن الحسين قال، حدثنا أحمد بن المفضل قال، حدثنا أسباط، عن السدي قوله:" وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء"، يقول: من حساب الكفار من شيء ="ولكن ذكرى"، يقول: إذا ذكرت فقم ="لعلهم يتقون" مساءتكم، إذا رأوكم لا تجالسونهم استحيوا منكم، فكفوا عنكم. ثم نسخها الله بعد، فنهاهم أن يجلسوا معهم أبدا، قال: وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ، الآية .

١٣٣٩٨ - حدثني محمد بن عمرو قال، حدثنا أبو عاصم قال، حدثنا عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد:"وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء"، إن قعدوا، ولكن لا تقعد .

١٣٣٩٩- حدثني المثنى قال، حدثنا أبو حذيفة قال، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد ، مثله .." (١)

"في أكل الميتة وما حرم عليكم ربكم؛ كما:-

١٣٨٣٣- حدثني المثنى قال، حدثنا عبد الله بن صالح قال: حدثنا معاوية، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس:(وإن أطعتموهم)، يقول: وإن أطعتموهم في أكل ما نهيتكم عنه .

١٣٨٣٤- حدثني محمد بن الحسين قال، حدثنا أحمد بن مفضل قال، حدثنا أسباط، عن السدي:(وإن أطعتموهم)، فأكلتم الميتة .

* * *

وأما قوله:(إنكم لمشركون)، يعني: إنكم إذا مثلهم، إذ كان هؤلاء يأكلون الميتة استحلالا. فإذا أنتم أكلتموها كذلك، فقد صرتم مثلهم مشركين .

* * *

قال أبو جعفر: واختلف أهل العلم في هذه الآية، هل نسخ من حكمها شيء أم لا؟ فقال بعضهم: لم ينسخ منها شيء، وهي محكمة فيما عنيت به. وعلى هذا قول عامة أهل العلم . (١)

* * *

وروي عن الحسن البصري وعكرمة، ما:-

١٣٨٣٥- حدثنا به ابن حميد قال، حدثنا يحيى بن واضح، عن الحسين بن واقد، عن يزيد، عن عكرمة والحسن البصري

---

(١) تفسير الطبري، ١١/٤٤٠

قالا قال:(فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق)، فنسخ واستثنى من ذلك فقال:(وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم) [سورة المائدة: ٥] .

* * *

---

(١) انظر ((الناسخ والمنسوخ)) ، لأبي جعفر النحاس صلى الله عليه وسلم : ١٤٤ ، قال : ((وفي هذه السورة = يعني سورة الأنعام = شيء قد ذكره قوم هو عن الناسخ والمنسوخ بمعزل ، ولكنا نذكره ليكون الكتاب عام الفائدة ...)) ثم ذكر الآية ، وما قيل في ذلك ، إلى صلى الله عليه وسلم : ١٤٦ .." (١)

"جزء : ٢ رقم الصفحة : ١١٤

تذلل لمن تهوى لتكسب عزة

فكم عزة قد نالها المرء بالدل

وبالله التوفيق.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ١١٤

﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتا يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم...﴾

١١٥

قلت : ﴿أن﴾ مخفف : نافية ، فاعل نزل ، و ﴿يكفر﴾ و ﴿يستهزأ﴾ ، حالان من الآيات ، وضمير ﴿معهم﴾ : يعود على الكفار المفهوم من ﴿يكفر﴾ ، وضمير ﴿غيره﴾ ؛ يعود على الكفر والاستهزاء ، وهما شيء واحد.

يقول الحق جل جلاله : في التحذير من مجالسة أهل الكفر والمعاصي : ﴿وقد نزل عليكم﴾ يا معشر المسلمين في القرآن في سورة الأنعام ، أنه ﴿إذا سمعتم آيات الله﴾ حال كونها ﴿يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم﴾ بل قوموا عنهم ، إن لم تقدروا أن تنكروا عليهم ، والآية التي في سورة الإنعام قوله تعالى : " وإذا رأيت الذين يخوضون فيا آياتنا فأعرض عنهم حتا يخوضوا في حديث غيره " [الأنعام : ٦٨] الآية. فما داموا في الخوض فاعرضوا عنهم حتى يخوضوا في حديث غير الخوض ، فإن جلستم معهم في حال الخوض فإنكم ﴿إذا مثلهم﴾ في الإثم ، إن لم ترضوا ، أو في الكفر ، إن رضيتم بخوضهم.

نزلت في قوم من المنافقين كانوا يجلسون إلى أحبار اليهود ، فيسخرون من القرآن ، ويكذبون به ويحرفونه ، فنهى المسلمين عن مجالستهم ، قال ابن عباس : ودخل في هذه الآية كل محدث في الدين ومبتدع إلى يوم القيامة. هـ.

." (٢)

---

(١) تفسير الطبري، ١٢/٨٧

(٢) البحر المديد. ، ٢/١٦٥

"حين يترفع المؤمن على الباطل وأهله ، ويستعلي على المنكر وأتباعه ، وجنده وأنصاره ، امتثالاً لقوله سبحانه : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيكُمْ فِي الكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُم آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً ﴾ (١) .

ونجده كذلك إذا ظهر الانحراف في بعض أفراد أمة الإيمان أو جماعاته ، ولم تنفع معهم كل وسائل الإقناع الحكيمة الرشيدة ، فإن التعاطف مع هؤلاء إنما يكون بمحاصرتهم ، وتضييق الخناق عليهم ، ومقاطعتهم شفقة عليهم ، حتى يثوبوا إلى رشدهم امتثالاً لقوله – صلى الله عليه وسلم – : ((لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم في مجالسهم ، وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، فجلس رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وكان متكئاً فقال : لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً))(٢) . [قوله تأطروهم : أي تعطفوهم](٣) .

وقال صاحب اللسان : (رجل عطوف وعِطاف ، يحمي المنهزمين ، ... وربما عطفوا عدة ذَوْد على فصيل واحد فاحتلبوا ألبانهن على ذلك ليدرِرْن ، . . . والعطوف : المحبة لزوجها ، وامرأة عطيف : هينة لينة ذلول مطواع لا كِبْرَ لها .)(٤)

---

(١) من سورة النساء : (الآية / ١٤٠) .

(٢) رواه أبو داود : (٤٣٦٦) ، والترمذي : (٣٠٥٠) ، وابن ماجه : (٤٠٠٦) .

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر : (ج١ / ٥٣) .

(٤) ابن منظور : (ج٩ / ٢٤٩ ، ٢٥٠) .."[1]

"وعن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: (إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده .فقلت: يا رسول الله أما فيهم أناس صالحون؟ قال بلى. قلت :فكيف يصنع أولئك؟ قال : يصيبهم ما أصاب الناس ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان)(١).

والثانية :حال من سكت عن تغيير المنكر مداهنة لأهله وهو قادر على التغيير ،وهذا قد ارتكب إثماً بتقاعسه ومداهنته،فهو شريك في الإثم ،ولذا فهو مستحق للعقوبة في الآخرة،،وما يقع عليه في الدنيا والآخرة من العقاب إنما هو جزاء وفاق لمعصيته وعدم قيامه بواجب ألزمه الشارع به .

فقد استحق بنو إسرائيل اللعن لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،واللعن يقتضي استحقاق العقوبة في الآخرة، فدل ذلك على أن المداهن مع القدرة مستحق للعقوبة كفاعل المنكر.

ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم ... ﴾ (النساء:١٤٠)

فقد سوت هذه الآية في الحكم بين فاعل المنكر والساكت عنه إذا كان قادراً على التغيير ،قال القرطبي : ((فدل بهذا على

---

(١) دراسة أدبية لحديث نبوي شريف، ص/١٠

وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر ،لأن من لم يجتنبهم فقد رضي فعلهم والرضا بالكفر كفر قال الله عز وجل: ﴿ إنكم إذن مثلهم ﴾ ، فكل من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء))(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٩٤،٣٠٤/٦) والطبراني في الكبير (٣٢٥،٣٧٧/٢٣) .قال الهيثمي في المجمع (٢٦٨/٧): ((رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح)).

(٢) تفسير القرطبي (٤١٨/٥) .." [1]

"وننصح هذا الذي ذكرت عنه ما ذكرت بالابتعاد عن السخرية من الدين، فإن العمر قصير ولا يدري المرء متى تأتيه منيته، فليبادر إلى التوبة مما كان صدر منه، وليكثر من الاستغفار والأعمال الصالحة عسى الله أن يكفر عنه بذلك خطأه.

والله أعلم.

المفتي: ... مركز الفتوى

==============

حكم ترك صلاة واحدة تكاسلا

تاريخ ٣٠ ذو القعدة ١٤٢٥ / ١١-٠١-٢٠٠٥

السؤال

لقد قال بعض العلماء مثل الشيخ ابن باز أن من أخر صلاة عمدا حتى أدركته الصلاة التي تليها فإنه يعد في حكم تارك الصلاة وهو كافر، ولا يجب عليه قضاء تلك الصلاة، هل يعني أن هذا الكافر يجب عليه الغسل والنطق بالشهادتين من جديد، أم ماذا؟

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فتارك الصلاة كسلا لا جحودا مختلف فيه بين أهل العلم هل يكفر بتركه للصلاة أم لا، وانظر أقوال أهل العلم في ذلك في الفتوى رقم: ١٠٧٥٩، والفتوى رقم: ١٢٧٠٠.

ومن قال بكفره أجرى عليه أحكام المرتدين، ومن ذلك أن من ارتد عن الإسلام ثم رجع إليه يجب عليه النطق بالشهادتين وإذا كان كفره بإنكار معلوم من الدين بالضرورة لزمه مع النطق بالشهادتين الإقرار بما أنكره، قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله: لا بد في إسلام المرتد وغيره من الكفار من الشهادتين، ولو ضمنا على ما يأتي مطلقا عن التقييد بكونه غير مقر بإحداهما إذ المقر بإحداهما لم يقر بها ليأتي بالأخرى فإن كان كفره بإنكار شيء آخر مما لا ينافي الإقرار بهما أو بإحداهما ببادئ الرأي كمن خصص رسالة محمد بالعرب أو جحد فرضا أو تحريما فيلزمه مع الشهادتين الإقرار بما أنكر بأن يقر الأول بأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جميع الخلق أو يبرأ من كل دين يخالف الإسلام ويرجع الثاني عما

---

(١) االفوائد من حديث مثل القائم، ص/٣٧

اعتقده.

وأما الغسل عند الإسلام أو عند الرجوع إليه فمحل خلاف بين أهل العلم، فذهب المالكية في قول عندهم والحنابلة إلى وجوب الغسل على الكافر الأصلي، والمرتد إذا أسلم، لما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن ثمامة بن أثال رضي الله عنه أسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اذهبوا به إلى حائط بني فلان فمروه أن يغتسل. متفق عليه.

وعن قيس بن عاصم: أنه أسلم فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يغتسل بماء وسدر. رواه النسائي وغيره بإسناد صحيح، وروى ابن هشام في السيرة، والطبري في تاريخه: أن سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، حين أرادا الإسلام، سألا مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة، كيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الأمر؟ قالا: نغتسل، ونشهد شهادة الحق.و وهذا القول أحوط.

وذهب الحنفية والشافعية إلى استحبابه لا وجوبه، لعدم استفاضة النقل بالأمر به مع كثرة الداخلين في الإسلام.

والله أعلم.

المفتي: ... مركز الفتوى

=============

الضحك عند الاستهزاء بالدين

تاريخ ٠٣ ربيع الأول ١٤٢٦ / ١٢-٠٤-٢٠٠٥

السؤال

بالله عليكم أجيبوني بأسرع وقت بالله عليكم . هل من ارتد عن الدين وأراد الرجوع إلى الإسلام عليه الغسل لكي يعود إلى الإسلام ؟ وهل إذا أحد سخر من الدين أو من أنبياء الله وأضحكني بسخريته فحاولت كبت الضحكة ولم أستطع فهل أنا مرتد ؟ بالله عليكم أجيبوني بالله عليكم بالله عليكم أجيبوني بسرعة

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فإن الاغتسال ليس شرطا في صحة توبة المرتد كما سبق في الفتوى رقم: ٥٨٠٩٧.

أما الاستهزاء بالدين أو الأنبياء فهو كفر مخرج من الملة، كما سبق بيانه في الفتاوى ذات الأرقام التالية: ١٨٤٥، ٢٦١٩٣، ٤٨٧٩٠ فليرجع إليها، ولا يتجرأ على هذا الفعل إلا من كان قاسي القلب قد استحكمت غفلته لا يخاف الله ولا يراعي حدوده.

وعلى المسلم أن ينكر هذا المنكر العظيم ما استطاع، ولا يجوز له الجلوس مع من يتجرأ على هذا الفعل لقوله تعالى: وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم** ﴿النساء: ١٤٠﴾ قال ابن كثير رحمه الله: أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها وأقررتموهم على ذلك فقد شاركتموهم في الذي هم فيه، فلهذا قال **تعالى: إنكم إذا مثلهم في** المأثم. اهـ.

فيخشى أن يكون الضحك على مثل هذا الكفر وعدم نهي المستهزئ رضا وإقرارا وهو ينافي إنكار القلب الذي لا إيمان بعده كما في الحديث الذي رواه مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل، وراجع الفتوى ١٠٤٨ ، والفتوى رقم ٩٣٥٨ .

أما إذا كان الضحك هجم عليك رغما عنك أو ضحكت على هيئة وشكل المستهزئ أو كان القول ليس استهزاءا صريحا ولا تنقصا بالدين وبالأنبياء ففي هذه الحالة ليس كفرا ولكن يلحقك الإثم لعدم إنكارك عليه، فعدم الإنكار عليه فضلا عن الضحك أمارة على ضعف الإيمان، إذ لو كان الإيمان قويا لعظم عندك الإنكار والغضب لله عز وجل بما يكون له أكبر الأثر في منع الضحك، وراجع الفتوى رقم: ٣٧١٢٥، ٤٢٧١٤.

والله أعلم.

المفتي: ... مركز الفتوى

============

نفقة زوجة وابنة المرتد

تاريخ ٠٤ جمادي الثانية ١٤٢٦ / ١١-٠٧-٢٠٠٥

السؤال." (١)

"٦٥٧٥ - قوله (عبد الله بن عثمان)

هو عبدان ، وعبد الله شيخه هو ابن المبارك ، ويونس هو ابن يزيد .

قوله (إذا أنزل الله بقوم عذابا)

أي عقوبة لهم على سيئ أعمالهم .

قوله (أصاب العذاب من كان فيهم)

في رواية أبي النعمان عن ابن المبارك " أصاب به من بين أظهرهم " أخرجه الإسماعيلي ، والمراد من كان فيهم ممن ليس هو على رأيهم .

قوله (ثم بعثوا على أعمالهم)

أي بعث كل واحد منهم على حسب عمله إن كان صالحا فعقباه صالحة وإلا فسيئة ، فيكون ذلك العذاب طهرة للصالحين ونقمة على الفاسقين . وفي صحيح ابن حبان عن عائشة مرفوعا " إن الله إذا أنزل سطوته بأهل نقمته وفيهم الصالحون قبضوا معهم ثم بعثوا على نياتهم وأعمالهم " وأخرجه البيهقي في " الشعب " وله من طريق الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب عنها مرفوعا " إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله بأسه فيهم ، قيل : يا رسول الله وفيهم أهل طاعته ؟ قال : نعم ، ثم يبعثون إلى رحمة الله تعالى " قال ابن بطال : هذا الحديث يبين حديث زينب بنت جحش حيث قالت " أنهلك وفينا

---

(١) المفصل في شرح حديث من بدل دينه فاقتلوه، ١٣٢/٣

الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث " فيكون إهلاك الجميع عند ظهور المنكر والإعلان بالمعاصي . قلت : الذي يناسب كلامه الأخير حديث أبي بكر الصديق " سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب " أخرجه الأربعة وصححه ابن حبان ، وأما حديث ابن عمر في الباب وحديث زينب بنت جحش فمتناسبان ، وقد أخرجه مسلم عقبه ، ويجمعهما أن الهلاك يعم الطائع مع العاصي ، وزاد حديث ابن عمر أن الطائع عند البعث يجازى بعمله ، ومثله حديث عائشة مرفوعا " العجب أن ناسا من أمتي يؤمون هذا البيت حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم ، فقلنا : يا رسول الله إن الطريق قد تجمع الناس ، قال : نعم فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل يهلكون مهلكا واحدا ويصدرون مصادر شتى ، يبعثهم الله على نياتهم " أخرجه مسلم . وله من حديث أم سلمة نحوه ولفظه " فقلت يا رسول الله فكيف بمن كان كارها ؟ قال : يخسف به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته " وله من حديث جابر رفعه " يبعث كل عبد على ما مات عليه " وقال الداودي : معنى حديث ابن عمر أن الأمم التي تعذب على الكفر يكون بينهم أهل أسواقهم ومن ليس منهم فيصاب جميعهم بآجالهم ثم يبعثون على أعمالهم ، ويقال إذا أراد الله عذاب أمة أعقم نساءهم خمس عشرة سنة قبل أن يصابوا لئلا يصاب الولدان الذين لم يجر عليهم القلم انتهى . وهذا ليس له أصل وعموم حديث عائشة يرده ، وقد شوهدت السفينة ملأى من الرجال والنساء والأطفال تغرق فيهلكون جميعا ، ومثله الدار الكبيرة تحرق ، والرفقة الكثيرة تخرج عليها قطاع الطريق فيهلكون جميعا أو أكثرهم ، والبلد من بلاد المسلمين يهجمها الكفار فيبذلون السيف في أهلها ، وقد وقع ذلك من الخوارج قديما ثم من القرامطة ثم من الططر أخيرا والله المستعان . قال القاضي عياض : أورد مسلم حديث جابر " يبعث كل عبد على ما مات عليه " عقب حديث جابر أيضا رفعه " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله " يشير إلى أنه مفسر له ، ثم أعقبه بحديث " ثم بعثوا على أعمالهم " مشيرا إلى أنه وإن كان مفسرا لما قبله لكنه ليس مقصورا عليه بل هو عام فيه وفي غيره ، ويؤيده الحديث الذي ذكره بعده " ثم يبعثهم الله على نياتهم " انتهى ملخصا . والحاصل أنه لا يلزم من الاشتراك في الموت الاشتراك في الثواب أو العقاب بل يجازى كل أحد بعمله على حسب نيته . وجنح ابن أبي جمرة إلى أن الذين يقع لهم ذلك إنما يقع بسبب سكوتهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأما من أمر ونهى فهم المؤمنون حقا لا يرسل الله عليهم العذاب بل يدفع بهم العذاب ، ويؤيده قوله تعالى (وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) وقوله تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) ويدل على تعميم العذاب لمن لم ينه عن المنكر وإن لم يتعاطاه قوله تعالى (فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم) ويستفاد من هذا مشروعية الهرب من الكفار ومن الظلمة لأن الإقامة معهم من إلقاء النفس إلى التهلكة ، هذا إذا لم يعنهم ولم يرض بأفعالهم فإن أعان أو رضي فهو منهم ، ويؤيده أمره صلى الله عليه وسلم بالإسراع في الخروج من ديار ثمود . وأما بعثهم على أعمالهم فحكم عدل لأن أعمالهم الصالحة إنما يجازون بها في الآخرة ، وأما في الدنيا فمهما أصابهم من بلاء كان تكفيرا لما قدموه من عمل سيئ ، فكان العذاب المرسل في الدنيا على الذين ظلموا يتناول من كان معهم ولم ينكر عليهم فكان ذلك جزاء لهم على مداهنتهم ، ثم يوم القيامة يبعث كل منهم فيجازى بعمله . وفي الحديث تحذير وتخويف عظيم لمن سكت عن النهي ، فكيف بمن داهن ، فكيف بمن رضي ، فكيف بمن عاون

؟ نسأل الله السلامة . قلت : ومقتضى كلامه أن أهل الطاعة لا يصيبهم العذاب في الدنيا بجريرة العصاة ، وإلى ذلك جنح القرطبي في " التذكرة " وما قدمناه قريبا أشبه بظاهر الحديث . وإلى نحوه مال القاضي ابن العربي ، وسيأتي ذلك في الكلام على حديث زينب بنت جحش " أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث " في آخر كتاب الفتن .." (١)

""لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله " يشير إلى أنه مفسر له، ثم أعقبه بحديث: "ثم بعثوا على أعمالهم " مشيرا إلى أنه وإن كان مفسرا لما قبله لكنه ليس مقصورا عليه بل هو عام فيه وفي غيره، ويؤيده الحديث الذي ذكره بعده " ثم يبعثهم الله على نياتهم " انتهى ملخصا. والحاصل أنه لا يلزم من الاشتراك في الموت الاشتراك في الثواب أو العقاب بل يجازي كل أحد بعمله على حسب نيته. وجنح ابن أبي جمرة إلى أن الذين يقع لهم ذلك إنما يقع بسبب سكوتهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأما من أمر ونهى فهم المؤمنون حقا لا يرسل الله عليهم العذاب بل يدفع بهم العذاب، ويؤيده قوله تعالى:﴿وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون" وقوله تعالى:﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ ويدل على تعميم العذاب لمن لم ينه عن المنكر وإن لم يتعطاه قوله تعالى :﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ ويستفاد من هذا مشروعية الهرب من الكفار ومن الظلمة لأن الإقامة معهم من إلقاء النفس إلى التهلكة، هذا إذا لم يعنهم ولم يرض بأفعالهم فإن أعان أو رضي فهو منهم، ويؤيده أمره صلى الله عليه وسلم بالإسراع في الخروج من ديار ثمود. وأما بعثهم على أعمالهم فحكم عدل لأن أعمالهم الصالحة إنما يجازون بها في الآخرة، وأما في الدنيا فمهما أصابهم من بلاء كان تكفيرا لما قدموه من عمل سيئ، فكان العذاب المرسل في الدنيا على الذين ظلموا يتناول من كان معهم ولم ينكر عليهم فكان ذلك جزاء لهم على مداهنتهم، ثم يوم القيامة يبعث كل منهم فيجازى بعمله. وفي الحديث تحذير وتخويف عظيم لمن سكت عن النهي، فكيف بمن داهن، فكيف بمن رضي، فكيف بمن عاون؟ نسأل الله السلامة. قلت: ومقتضى كلامه أن أهل الطاعة لا يصيبهم العذاب في الدنيا بجريرة العصاة، وإلى ذلك جنح القرطبي في " التذكرة " وما قدمناه قريبا أشبه بظاهر الحديث. وإلى نحوه مال القاضي ابن العربي، وسيأتي ذلك في الكلام على حديث زينب بنت جحش " أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث " في آخر كتاب الفتن.." (٢)

" - حديث سمرة قال الذهبي إسناده مظلم لا تقوم بمثله حجة . وحديث جرير أخرجه أيضا ابن ماجه ورجال إسناده ثقات ولكن صحح البخاري وأبو حاتم وأبو داود والترمذي والدارقطني إرساله إلى قيس بن أبي حازم ورواه الطبراني أيضا موصولا وحديث معاوية أخرجه أيضا النسائي قال الخطابي إسناده فيه مقال . وحديث عبد الله السعدي أخرجه أيضا ابن ماجه وابن منده والطبراني والبغوي وابن عساكر

قوله : " فهو مثله " فيه دليل على تحريم مساكنة الكفار ووجوب مفارقتهم والحديث وإن كان فيه المقال المتقدم لكن يشهد لصحته قوله تعالى ﴿ فلا تقعدوا **معهم إنكم إذا مثلهم** ﴾ وحديث بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه عن جده مرفوعا " لا يقبل الله من مشرك عملا بعد ما أسلم أو يفارق المشركين " قوله " لا تتراءى نارهما " يعني لا

---

(١) فتح الباري لابن حجر، ١١٣/٢٠

(٢) فتح الباري- تعليق ابن باز، ٦١/١٣

ينبغي أن يكونا بموضع بحيث تكون نار كل واحد منهما في مقابلة الأخرى على وجه لو كانت متمكنة من الإبصار لأبصرت الأخرى فإثبات الرؤية للنار مجاز

قوله : " ما قوتل العدو " فيه دليل على أن الهجرة باقية ما بقيت المقاتلة للكفار

قوله : " لا هجرة بعد الفتح " أصل الهجرة هجرة الوطن وأكثر ما تطلق على من رحل من البادية إلى القرية

قوله : " ولكن جهاد ونية " قال الطيبي وغيره هذا الاستدراك يقتضي مخالفة حكم ما بعده لما قبله والمعنى أن الهجرة التي هي مفارقة الوطن التي كانت مطلوبة على الأعيان إلى المدينة إنقطعت إلا أن المفارقة بسبب الجهاد باقية وكذلك المفارقة بسبب نية صالحة كالفرار من دار الكفر والخروج في طلب العلم والفرار بالدين من الفتن والنية في جميع ذلك

قوله : " إذا استنفرتم فانفروا " قال النووي أن الخير الذي انقطع بإنقطاع الهجرة يمكن تحصيله بالجهاد والنية الصالحة و إذا أمركم الإمام بالخروج إلى الجهاد ونحوه من الأعمال الصالحة فاخرجوا إليه

قال الطيبي أن قوله ولكن جهاد الخ معطوف على محل مدخول لا هجرة إلى الهجرة من الوطن أما للفرار من الكفار أو إلى الجهاد أو إلى غير ذلك كطلب العلم فانقطعت الأولى وبقيت الأخريان فاغتنموهما ولا تقاعدوا عنهما بل إذا استنفرتم فانفروا

قال الحافظ وليس الأمر في انقطاع الهجرة من الكفار على ما قال انتهى

وقد اختلف في الجمع بين أحاديث الباب فقال الخطابي وغيره كانت الهجرة فرضا من أول الإسلام على من أسلم لقلة المسلمين بالمدينة وحاجتهم للاجتماع فلما فتح الله مكة دخل الناس في دين الله أفواجا فسقط فرض الهجرة إلى المدينة وبقي فرض الجهاد والنية على من قام به أو نزل به عدو انتهى

قال الحافظ وكانت الحكمة أيضا في وجوب الهجرة على من أسلم ليسلم من اذى من يؤذيه من الكفار فإنهم كانوا يعذبون من أسلم منهم إلى أن يرجع عن دينه وفيهم نزلت ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ الآية وهذه الهجرة باقية الحكم في حق من أسلم في دار الكفر وقدر على الخروج منها

وقال الماوردي إذا قدر على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر فقد صارت البلد به دار إسلام فالإقامة فيها أفضل من الرحلة عنها لما يترجى من دخول غيره الإسلام ولا يخفى ما في هذا الرأي من المصادمة لأحاديث الباب القاضية بتحريم الإقامة في دار الكفر

وقال الخطابي أيضا أن الهجرة أفترضت لما هاجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة إلى حضرته للقتال معه وتعلم شرائع الدين وقد أكد الله ذلك في عدة آيات حتى قطع الموالاة بين من هاجر ومن لم يهاجر فقال ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ﴾ فلما فتحت مكة ودخل الناس في الإسلام من جميع القبائل انقطعت الهجرة الواجبة وبقي الاستحباب

وقال البغوي في شرح السنة يحتمل الجمع بطريق أخرى فقوله لا هجرة بعد الفتح أي من مكة إلى المدينة . وقوله " لا تنقطع " أي من دار الكفر في حق من أسلم إلى دار الإسلام قال ويحتمل وجها آخر وهو أن قوله لا هجرة أي إلى النبي

صلى الله عليه وآله وسلم حيث كان بنية عدم الرجوع إلى الوطن المهاجر منه إلا بإذن فقوله لا تنقطع أي هجرة من هاجر على غير هذا الوصف من الأعراب ونحوهم وقد أفصح ابن عمر بالمراد فيما أخرجه الإسماعيلي بلفظ " انقطعت الهجرة بعد الفتح إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار " أي ما دام في الدنيا دار كفر فالهجرة واجبة منها على من أسلم وخشي أن يفتن على دينه ومفهومه أنه لو قدر أن لا يبقى في الدنيا دار كفر إن الهجرة تنقطع لإنقطاع موجبها وأطلق ابن التين أن الهجرة من مكة إلى المدينة كانت واجبة وأن من أقام بمكة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة بغير عذر كان كافرا

قال الحافظ وهو إطلاق مردود

وقال ابن العربي الهجرة هي الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام وكانت فرضا في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم واستمرت بعده لمن خاف على نفسه والتي انقطعت أصلا هي القصد إلى حيث كان وقد حكى في البحر أن الهجرة عن دار الكفر واجبة إجماعا حيث حمل على معصية أو ترك أو طلبها الإمام بقوته لسلطانه وقد ذهب جعفر بن مبشر وبعض الهادوية إلى وجوب الهجرة عن دار الفسق قياسا على دار الكفر وهو قياس مع الفارق والحق عدم وجوبها من دار الفسق لأنها دار إسلام وإلحاق دار الإسلام بدار الكفر بمجرد وقوع المعاصي فيها على وجه الظهور ليس بمناسب لعلم الرواية ولا لعلم الدراية . وللفقهاء في تفاصيل الدور والأعذار المسوغة لترك الهجرة مباحث ليس هذا محل بسطها ." (١)

"(إن الله تعالى إذا أنزل سطواته) جمع سطوة قهره وشدة بطشه وفي رواية ابن حبان سطوته بالإفراد (على أهل نقمته) أي المستوجبين لها (فوافت آجال قوم صالحين فأهلكوا بهلاكهم ثم يبعثون على) حسب (نياتهم وأعمالهم) أي بعث كل واحد منهم على حسب أعماله من خير وشر فإن كانت نيته وعمله صالحة فعقباه صالحة وإلا فسيئة فذلك العذاب طهرة للصالح ونقمة على الفاسق فالصالح ترفع درجاته والطالح تسفل دركاته فلا يلزم من الاشتراك في الموت الاشتراك في الثواب والعقاب بل يجازى كل واحد بعمله على حسب نيته ومن الحكم العدل أن أعمالهم الصالحة إنما يجازون عليها في الآخرة أما في الدنيا فمهما أصابهم من بلاء فهو تكفير لما قدموه من عمل سيء والنقمة عقوبة المجرم والفعل من نقم بالفتح والكسر ذكره القاضي وذهب ابن أبي جمرة إلى أن الذين يقع لهم ذلك بسبب سكوتهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اهـ. وذهب بعضهم إلى التعميم تمسكا بآية ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ وأخذ منه مشروعية الهرب من الكفار والظلمة لأن الإقامة معهم من إلقاء النفس في التهلكة.

١٧١١ إن الله تعالى إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر النعمة عليه و يكره البؤس و التباؤس و يبغض السائل الملحف و يحب الحيي العفيف المتعفف (صحيح) (هب) عن أبي هريرة .

الشرح:." (٢)

---

(١) نيل الأوطار، ١٢٥/٨

(٢) مصابيح التنوير على صحيح الجامع الصغير للألباني، ١٧٢/١

"على المعصية عندهم كما تقرر إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم النهي محمول على الزجر والتغليظ وتقبيح اعتقادهم على قول من لم يحكم بكفرهم وعلى الحقيقة على قول من حكم بكفرهم إذ الفاسق لا منع ولا كراهة في شهود جنازته بخلاف المريض فضلا عن كفره يمنع عن عيادته كذا ذكره ابن حجر وهو مخالف لمذهبنا فإن عيادة المريض من المسلمين فرض كفاية كشهود جنازتهم وخص هاتين الخصلتين لأنهما ألزم وأولى من سائر الحقوق فإنهما حالتان مفتقرتان إلى الدعاء بالصحة والمغفرة فيكون النهي عنهما أبلغ في المقصود رواه أحمد وأبو داود وكذا الحاكم وعن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله لا تجالسوا أهل القدر بضم أوله أي لا تواددوهم ولا تحابوهم فإن المجالسة ونحوها من المماشاة من علامات المحبة وإمارات المودة فالمعنى لا تجالسوهم مجالسة تأنيس وتعظيم لهم لأنهم إما إن يدعوكم إلى بدعتهم بما زينه لهم شيطانهم من الحجج الموهمة والأدلة المزخرفة التي تجلب من لم يتمكن في العلوم والمعارف إليهم ببادي الرأي وإما أن يعود عليكم من نقصهم وسوء عملهم ما يؤثر في قلوبكم وأعمالكم إذ مجالسة الأغيار تجر إلى غاية البوار ونهاية الخسار قال تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين التوبة ولا ينافي إطلاق الحديث تقييد الآية في المنافقين حيث قال الله تعالى فلا تقعدوا معهم حتى يكونوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم النساء وكذا قوله عز وجل وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره الأنعام فلم ينه عن مجالستهم مطلقا لأن الحديث يحمل على من لم يأمن على نفسه منهم فيمنع عن مجالستهم مطلقا والآية على من أمن فلا حرج عليه في مجالسته لهم بغير التأنيس والتعظيم ما لم يخوضوا في كفر وبدعة وكذا إذا خاضوا وقصد الرد عليهم وتسفيه أدلتهم ومع هذا البعد عنهم أولى والإجتناب عن مباحثتهم أحرى ولا تفاتحوهم من الفتاحة بضم الفاء وكسرها." (١)

" ١٦٦٧ - (إن الله تعالى إذا أنزل سطواته) جمع سطوة (١) قهره وشدة بطشه وفي رواية ابن حبان سطوته بالإفراد (على أهل نقمته) أي المستوجبين لها (فوافت آجال قوم صالحين فأهلكوا بهلاكهم ثم يبعثون على) حسب (نياتهم وأعمالهم) [ص ٢٠٢] أي بعث كل واحد منهم على حسب أعماله من خير وشر فإن كانت نيته وعمله صالحة فعقباه صالحة وإلا فسيئة فذلك العذاب طهرة للصالح ونقمة على الفاسق فالصالح ترفع درجاته والطالح تسفل دركاته فلا يلزم من الاشتراك في الموت الاشتراك في الثواب والعقاب بل يجازى كل واحد بعمله على حسب نيته ومن الحكم العدل أن أعمالهم الصالحة إنما يجازون عليها في الآخرة أما في الدنيا فمهما أصابهم من بلاء فهو تكفير لما قدموه من عمل سيء والنقمة عقوبة المجرم والفعل من نقم بالفتح والكسر ذكره القاضي وذهب ابن أبي جمرة إلى أن الذين يقع لهم ذلك بسبب سكوتهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اه . وذهب بعضهم إلى التعميم تمسكا بآية ﴿ فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم ﴾ وأخذ منه مشروعية الهرب من الكفار والظلمة لأن الإقامة معهم من إلقاء النفس في التهلكة

(هب عن عائشة) وهو صحيح ورواه عنها أيضا ابن حبان في صحيحه بلفظ إن الله إذا أنزل سطوته بأهل نقمته وفيهم الصالحون قبضوا معهم ثم بعثوا على نياتهم وأعمالهم

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٤١٠/١

(١) يقال سطا عليه يسطو سطوا قهره وأذله وهو البطش بشدة اه ." [١]

"عليه في الفرع (إلى) صلاة (الجمعة).

وذكر عمر بن شبة بسنده أن وقعة الجمل كانت في النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين، وذكر أيضا من رواية المدايني عن العلاء أبي محمد عن أبيه قال: جاء رجل إلى علي وهو بالزاوية فقال: علام تقاتل هؤلاء؟ قال علي: على الحق. قال: فإنهم يقولون إنهم على الحق. قال: أقاتلهم على الخروج عن الجماعة ونكث البيعة.

وعند الطبراني أن أول ما وقعت الحرب أن صبيان العسكرين تسابوا ثم تراموا ثم تبعهم العبيد ثم السفهاء فنشب الحرب وكانوا خندقوا على البصرة فقتل قوم وخرج آخرون وغلب أصحاب علي ونادى مناديه: لا تتبعوا مدبرا ولا تجهزوا جريحا ولا تدخلوا دار أحد ثم جمع الناس وبايعهم، واستعمل ابن عباس على البصرة ورجع إلى الكوفة.

وعند ابن أبي شيبة بسند جيد عن عبد الرحمن بن أبزى قال: انتهى عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي إلى عائشة يوم الجمل وهي في الهودج فقال: يا أم المؤمنين أتعلمين أني أتيتك عندما قتل عثمان فقلت: ما تأمريني فقلت الزم عليا فسكتت. فقال: اعقروا الجمل فعقروه فنزلت أنا وأخوها محمد فاحتملنا هودجها فوضعناه بين يدي علي فأمر بها فأدخلت بيتا.

وعند ابن أبي شيبة والطبري من طريق عمر بن جاوان عن الأحنف فكان أول قتيل طلحة ورجع الزبير فقتل. وقال الزهري: ما شوهدت وقعة مثلها فني فيها الكماة من فرسان مضر فهرب الزبير فقتل بوادي السباع، وجاء طلحة سهم غرب فحملوه إلى البصرة ومات. وحكى سيف كان قتلى الجمل عشرة آلاف نصفهم من أصحاب علي ونصفهم من أصحاب عائشة. وقيل قتل من أصحاب عائشة ثمانية آلاف، وقيل ثلاثة عشر ألفا ومن أصحاب علي ألف، وقيل من أهل البصرة عشرة آلاف ومن أهل الكوفة خمسة آلاف.

١٩ - باب إذا أنزل الله بقوم عذابا

هذا (باب) بالتنوين (إذا أنزل الله بقوم عذابا) أي يذكر جواب إذا اكتفاء بما في الحديث.

٧١٠٨ - حدثنا عبد الله بن عثمان، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يونس، عن الزهرى أخبرنى حمزة بن عبد الله بن عمر أنه سمع ابن عمر - رضى الله عنهما - يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «إذا أنزل الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم».

وبه قال: (حدثنا عبد الله بن عثمان) الملقب عبدان قال: (أخبرنا عبد الله) بن المبارك قال: (أخبرنا يونس) بن يزيد الأيلي (عن الزهري) محمد بن مسلم بن شهاب أنه قال: (أخبرني) بالإفراد

(حمزة بن عبد الله بن عمر) بالحاء المهملة والزاي (أنه سمع) أباه (ابن عمر -رضي الله عنهما- يقول: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-):

---

(١) فيض القدير، ٢/٢٠١

(إذا أنزل الله بقوم عذابا) أي عقوبة لهم على سيئ أعمالهم (أصاب العذاب من كان فيهم) ممن ليس هو على منهاجهم ومن من صيغ العموم، فالمعنى أن العذاب يصيب حتى الصالحين منهم وعند الإسماعيلي من طريق أبي النعمان عن ابن المبارك أصاب به من بين أظهرهم (ثم بعثوا) بضم الموحدة (على) حسب (أعمالهم) إن كانت صالحة فعقباهم صالحة وإلا فسيئة فذلك العذاب طهرة للصالح ونقمة على الفاسق. وعن عائشة مرفوعا: إن الله تعالى إذا أنزل سطوته بأهل نقمته وفيهم الصالحون قبضوا معهم ثم بعثوا على نياتهم وأعمالهم صححه ابن حبان وأخرجه البيهقي في شعبه، فلا يلزم من الاشتراك في الموت الاشتراك في الثواب أو العقاب بل يجازى كل أحد بعمله على حسب نيته وهذا من الحكم العدل لأن أعمالهم الصالحة إنما يجازون بها في الآخرة وأما في الدنيا فمهما أصابهم من بلاء كان تكفيرا لما قدموه من عمل سيئ كترك الأمر بالمعروف.

وفي السنن الأربعة من حديث أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قول: "إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعذاب". وكذا رواه ابن حبان وصححه فكان العذاب المرسل في الدنيا على الذين ظلموا يتناول من كان معهم ولم ينكر عليهم، فكان ذلك جزاء لهم على مداهنتهم ثم يوم القيامة يبعث كل منهم فيجازى بعمله فأما من أمر ونهى فلا يرسل الله عليهم العذاب بل يدفع الله بهم العذاب ويؤيده قوله تعالى: ﴿وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ [القصص: ٥٩] ويدل على التعميم لمن لم ينه عن المنكر وإن كان لا يتعاطاه قوله فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم ويستفاد** منه مشروعية الهروب من الظلمة لأن الإقامة معهم." (١)

"وقال : (النائحة إذا لم تتب تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب) وهذا وعيد شديد على النائحة ، وهذا يقتضى أن النياحة كبيرة من كبائر الذنوب وأنها تعذب يوم القيامة في سربال من قطران أي رصاص مذاب يوضع على جلدها وسائر جسمها .

قوله : (والمستمعة) .

أي التي تستمع النائحة وهذا وإن كان الخبر ضعيفاً إلا أن القاعدة الكلية عند أهل العلم أن الراضي بالذنب كفاعله فالذي يجلس عند النائحة ويسمعها شيطان أخرس له حظه من الإثم كالنائحة تماماً فلو كان في قلبه غيرة وحمية على الدين لبادر بالإنكار على هذه النائحة وعلى الأقل إذا عجز عن الإنكار عليها يفارق المجلس وهذا الأمر كثير في النساء بعض النساء تجلس ولا تنكر وبعض النساء تنوح معها ، مداراة لها وتطييباً لخاطرها لأن بعض النساء تعتقد أنه لا يطيب خاطر أختها إلا أذا ناحت معها وإذا ما ناحت معها ما عظمت الميت ولا قدرته حق قدره ، لذلك يجب أحد أمرين إما الإنكار أو مفارقة المجلس وأما الجلوس والسكوت فهذا محرم والراضي في الذنب كفاعله والله تعالى يقول (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذاً مثلهم**) أخذ من هذه الآية أهل العلم أن الراضي في الذنب كفاعلة والأدلة على هذا كثيرة والظاهر أنه إجماع من أهل العلم ما لم يكن الجلوس عن إكراه .

---

(١) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ١٩٦/١٠

٥٥٢ - وعن أم عطية رضي الله عنها قالت : أخذ علينا رسول الله (أن لا ننوح . متفق عليه .

قال البخاري حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب قال حدثنا حماد بن زيد قال أخبرنا أيوب عن محمد بن سيرين عن أم عطية به .

وقال مسلم حدثنا إسحاق بن إبراهيم قال حدثنا أسباط قال حدثنا هشام عن حفصة عن أم عطية .

قولها : (أخذ علينا رسول الله ( ) .." (١)

"فأول ما نبدأ بذكره من ذلك ما أمر الله / - عز وجل - به وذكره في كتابه من لزوم الجماعة والنهي عن الفرقة فال - عز وجل - ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (١) ثم تهدد (٢) بالوعيد من فارق جماعة المسلمين فقال. ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) فأمر الله تبارك وتعالى بالاجتماع على دينه وطاعته وقال - عز وجل - ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ (٥) وما أمر به المؤمنين من مباينة من خالف عقدهم ونكث عهدهم وطعن في دينهم من مجانبتهم وترك مجالستهم والاستماع لخطائهم (٦) وخطهم فقال تبارك وتعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (٧) .

(٨) [١] - وأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الثلاثة الذين تخلفوا عنه بهجرانهم ومباينتهم وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم حتى أنزل الله - عز وجل - توبتهم -

---

(١) - من هنا يبدأ النقص في النسخة "ر".

(٢) - في "ل" أتيت.

(٣) - في "ل" أتيت.

(٤) - في "ل" أتيت.

(٥) - في "ل" أتيت.

(٦) - في "ل" هدد.

(٧) - في "ل" هدد.

(٨) - كذا في الأصل والصواب لخطأهم.." (٢)

"أن المستهزئ بالله يكفر، لقوله: لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم.

استعمال الغلظة في محلها، وإلا فالأصل أن من جاء يعتذر يرحم، لكنه هنا ليس أهلا للرحمة.

---

(١) شرح البلوغ (الصلاة-الجنائز-الصوم-الحج)، ص/٨٤

(٢) متن كتاب الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة لابن بطة، ص/١٠٢

قبول توبة المستهزئ بالله؛ لقوله: إن نعف عن طائفة، وهذا أمر قد وقع، فإن من هؤلاء من عفي عنه وهدي للإسلام وتاب الله عليه، وهذا دليل للقول الراجح أن المستهزئ بالله تقبل توبته، لكن لابد من دليل بين على صدق توبته، لأن كفره من أشد الكفر أو هو أشد الكفر، فليس مثل كفر الإعراض أو الجحود.

وهؤلاء الذين حضروا السب مثل الذين سبوا، قال تعالى: وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم [النساء:١٤٠] وهم يستطيعون المفارقة، والنبي صلى الله عليه وسلم امتثل أمر الله بتبليغهم، حتى إن الرجل الذي جاء يعتذر صار يقول له: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم [التوبة:٦٥ - ٦٦]، ولا يزيد على هذا أبدا مع إمكان أن يزيده توبيخا وتقريعا.

عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة، دخل حديث بعضهم في بعض: أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عن اللقاء (يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه القراء). فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذهب عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله! إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق. قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقا بنسعة ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الحجارة تنكب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب. فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون [التوبة:٦٧]، ما يلتفت إليه وما يزيده عليه (١).

قوله: (ما رأينا) تحتمل أن تكون بصرية، وتحتمل أن تكون علمية قلبية.

قوله: (مثل قرائنا) .. والمراد بهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

قوله: (أرغب بطونا) .. أي: أوسع، وإنما كانت الرغبة هنا بمعنى: السعة، لأنه كلما اتسع البطن رغب الإنسان في الأكل.

قوله: (ولا أكذب ألسنا) الكذب: هو الإخبار بخلاف الواقع، والألسن: جمع لسان، والمراد: ولا أكذب قولا، واللسان يطلق على القول كثيرا في اللغة العربية، كما في قوله تعالى: وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه [إبراهيم:٤] أي: بلغتهم.

(١) رواه الطبري في ((تفسيره)) (١٤/ ٣٣٣)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٧/ ٣١٣).." [1]

"المطلب الثاني: حقيقة الإنكار بالقلب (١)

يغلط البعض فيظن أنه ما دام كارها للمنكر فلا بأس عليه بمخالطة فاعله والجلوس معه حال مواقعته المنكر .. أو البقاء في مكان فيه منكر في الشرع وهذا مخالف لما دل عليه القرآن والسنة. قال تعالى: وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم [النساء: ١٤٠] وهذا نهي صريح عن مجالستهم حال مواقعتهم لهذا المنكر .. فما دام لا يقدر على الإنكار باليد أو اللسان فلا بد إذا من مفارقته

(١) الموسوعة العقدية - الدرر السنية، مجموعة من المؤلفين ٦/٤٦٠

للمنكر .. هذا هو الصحيح (٢).

قال العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي –رحمه الله– عند هذه الآية: (وكذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه، وتقتحم حدوده التي حدها لعباده. ومنتهى هذا النهي عن القعود معهم حتى يخوضوا في حديث غيره أي: غير الكفر بآيات الله ولا الاستهزاء بها.

إنكم إذا أي إن قعدتم معهم في الحال المذكور (مثلهم) لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها، والحاصل أن من حضر مجلسا يعصى الله به فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم مع القدرة، أو القيام مع عدمها) (٣). ا. هـ.

وقال القرطبي –رحمه الله– عند هذه الآية: (.. فدل بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر، لأن من لم يجتنبهم فقد رضي فعلهم والرضا بالكفر كفر، قال الله عز **وجل: إنكم إذا مثلهم فكل** من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية .. وإذا ثبت تجنب أهل المعاصي فتجنب أهل البدع والأهواء أولى ..) (٤) ا. هـ.

وقال البخاري –رحمه الله–: (باب: هل يرجع إذا رأى منكرا في الدعوة؟).

ثم قال: ورأى ابن مسعود صورة في البيت فرجع (٥).

---

(١) ((الآداب الشرعية)) (١/ ٣٠٨)، ((تنبيه الغافلين)) (ص: ١٠٦ - ١٠٩)، ((التشريع الجنائي)) (١/ ٤٩٧).

(٢) ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٢٠٤، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٣٩).

(٣) ((تفسير السعدي)) (٢/ ٩٣ - ٩٤).

(٤) ((القرطبي)) (٥/ ٤١٨)، وانظر ((القاسمي)) (٥/ ٥٢٤ - ٥٢٧)، ((الظلال)) (٥/ ٢٦١ - ٢٦٢)، ((الحلال والحرام)) (ص: ٧٣).

(٥) رواه البخاري معلقا بصيغة الجزم قبل حديث رقم (٥١٨١). قال ابن حجر في ((فتح الباري)) (٩/ ٢٤٩): كذا في رواية المستملي والأصيلي والقابسي وعبدوس، وفي رواية الباقين أبو مسعود والأول تصحيف فيما أظن فأنني لم أر الأثر المعلق إلا عن أبي مسعود عقبة بن عمرو وأخرجه البيهقي - (٧/ ٢٦٨) (١٤٩٥٩) - من طريق عدي بن ثابت عن خالد بن سعد عن أبي مسعود: (أن رجلا صنع طعاما فدعاه فقال: أفي البيت صورة؟ قال: نعم؛ فأبى أن يدخل حتى تكسر الصورة). وسنده صحيح. وخالد بن سعد هو مولى أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري ولا أعرف له عن عبد الله بن مسعود رواية ويحتمل أن يكون ذلك وقع لعبد الله بن مسعود أيضا لكن لم أقف عليه. اهـ. وانظر: ((تغليق التعليق)) (٤/ ٤٢٣ - ٤٢٤).." [1]

---

(١) الموسوعة العقدية – الدرر السنية، مجموعة من المؤلفين ٢٣٨/٨

"المطلب الأول: تعريف الهجر لغة وشرعا

قال الجوهري: الهجر: ضد الوصل. والمهاجرة من أرض إلى أرض ترك الأولى للثانية.

والتهاجر: التقاطع. والهجرتان: هجرة إلى الحبشة وهجرة إلى المدينة (١).

والهجر الشرعي نوعان:

الأول: بمعنى الترك للمنكرات. ومنه قوله تعالى وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم** [النساء: ١٤٠].

قال ابن كثير: أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ بها وأقررتموهم على ذلك فقد شاركتموهم في الذي هم فيه (٢).

ومنه قوله تعالى: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين [الأنعام: ٦٨].

قال القرطبي –رحمه الله-: والخطاب مجرد للنبي صلى الله عليه وسلم وقيل إن المؤمنين داخلون في الخطاب معه وهو الصحيح. فإن العلة سماع الخوض في آيات الله وذلك يشملهم وإياه ..

ودل بهذا على أن الرجل إذا علم من الآخر منكرا علم أنه لا يقبل منه فعليه أن يعرض عنه إعراض منكر ولا يقبل عليه (٣).

وورد في حديث جابر بن عبد الله –الطويل- وفيه ((.. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعد على مائدة يشرب عليها الخمر)) (٤) الحديث.

ومن هذا الباب الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام.

ومنه قوله تعالى حكاية عن إبراهيم –عليه السلام- فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم [العنكبوت: ٢٦].

قال القرطبي: وهو أول من هاجر من أرض الكفر (٥).

وقال القرطبي أيضا حول قوله تعالى: واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خآصة [الأنفال: ٢٥].

قال علماؤنا: فالفتنة إذا عمت هلك الكل، وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر وعدم التغيير، وإذا لم تغير وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها. وهكذا كان الحكم فيمن كان قبلنا من الأمم .. وبهذا قال السلف رضي الله عنهم (٦).

الثاني: الهجر على وجه التأديب والعقوبة، وهو هجر أهل المعاصي والمنكرات والمخالفات وهو بمنزلة التعزير، ويفعله إذا رآه أقوى في نفسية الفاعل من التغيير باليد واللسان أو إذا عجز عن التغيير باليد واللسان.

فإذا أظهر الإنسان المكلف معصيته أو عرف بها وأصر عليها سواء أكانت هذه المعصية فعلية أم قولية أم اعتقادية فمن السنة هجره، فالهاجر يثاب عليه؛ لأنه من أجل الله تعالى.

(١) ((الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية)) الجوهري (٢/ ٨٥١).
(٢) ((تفسير القرآن العظيم)) (١/ ٥٦٦، ٥٦٧).
(٣) ((الجامع لأحكام القرآن)) م٤ (٧/ ١٢).
(٤) رواه الترمذي (٢٨٠١) بلفظ: ((يدار عليهم الخمر)) بدلا من ((يشرب عليها الخمر))، وأحمد (٣/ ٣٣٩) (١٤٦٩٢)، والدارمي (٢/ ١٥٣) (٢٠٩٢)، والحاكم (٤/ ٣٢٠)، وأبو يعلى في ((المسند)) (٣/ ٤٣٥) (١٩٢٥)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٣/ ٦٩) (٢٥١٠). قال الترمذي: حسن غريب [فيه] ليث بن أبي سليم كان يرفع أشياء لا يرفعها غيره فلذلك ضعفوه، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)).
(٥) ((الجامع لأحكام القرآن)) م٧ (١٣/ ٣٣٩).
(٦) ((الجامع لأحكام القرآن)) القرطبي م٤ (٧/ ٣٩٢) باختصار.." (١)

"الأدلة القرآنية على التلازم بين عمل القلب وعمل الجوارح

فأما من الكتاب: فقول الله تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ [البقرة:٨٢].

فما ذكر الله الإيمان في موضع من كتابه إلا وذكر قرينه العمل الصالح، إشارة إلى أن الإيمان الذي وقر في القلب لا بد أن يصدقه شيء في الظاهر، وهو العمل؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ [الأنفال:٢]، هذا في الداخل لا نعرفه ولا نراه، ثم قال الله: ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون﴾ [الأنفال:٢]، والتوكل هذا عمل باطني، ثم قال تعالى: ﴿الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ [الأنفال:٣]، فذكر الصلاة والإنفاق، وهذا عمل ظاهري؛ وذلك لأن هناك ترابط وثيق بين عمل القلب وعمل الجوارح.

ومن الأدلة من كتاب الله قوله تعالى: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾ [التوبة:١١] فلأن التوبة عمل قلبي لم يكتف الله بذلك، ولم يرض بها فقط حتى يدخل المرء الإسلام، بل ربط التوبة بما يظهرها وهو العمل الصالح: كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولذلك قال العلماء: إن الفاسق لا تقبل شهادته إلا أن يتوب، وكيف تعرف توبته؟ يقول الجمهور من أهل العلم: إن التوبة تكون بالظاهر، فإذا استقام مع الناس في الصلوات، وكان يخرج الزكاة، وعلم باستقامة حاله وحسن خلقه، فهذه هي التوبة، أي: الأمر الظاهري، مع أن التوبة عمل قلبي، لكن لا بد من الأمر الظاهري؛ ليتبين ما في القلب.

ومن الأدلة من كتاب الله قوله تعالى عن جزاء المحاربين وعن توبتهم: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم * إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ [المائدة:٣٣ - ٣٤].

---

(١) الموسوعة العقدية - الدرر السنية، مجموعة من المؤلفين ٢٤٣/٨

اختلف العلماء في توبة المحارب الذي تقطع يده ويصلب وينفى من الأرض، أي: كيف تعرف؟ فـ ابن القاسم المالكي قال: لابد أن يذهب إلى الأمير ويشهر توبته، وهذا قول المالكية.

وقال جمهور الفقهاء -وهو الراجح- إنه يقطن بيته، ويذهب إلى الصلاة في أوقاتها، ويحسن خلقه مع جيرانه ومع الناس فتعرف بذلك توبته.

فهذه التوبة التي هي عمل قلبي، ظهرت على الجوارح في الخارج، كما قال الله تعالى في الآية التي ذكرناها سابقا ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ [التوبة:١١].

وأيضا قال الله تعالى -مبينا أن تشابه الظاهر مرتبط بتشابه الباطن- قال عن اليهود لعنة الله عليهم: ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم﴾ [البقرة:١١٨]، فربط الظاهر بالباطن، فلما تشابه الظاهر بالظاهر، تشابه الباطن بالباطن، وهذه دلالة على أن الترابط وثيق بينهما، وسنة الله لا يمكن أن تتبدل.

أيضا قال الله تعالى عن النفاق والمنافقين؛ لأن النفاق عمل قلبي، فمن أجل أن نعرفه قال الله تعالى لنبيه: ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول﴾ [محمد:٣٠].

فأنت تعرفه أولا من خلال وجهه؛ لأن ما في القلب يظهر على الوجه، تراه فتقول: وجهك وجه منافق، أذكر شيخا من مشايخنا أفنى عمره في الدعوة، جلس مرة فقال: رأيت من الناس مفتي من المفتيين، ورأيت النفاق ينضح على وجهه نضحا.

وثانيا: تعرفهم من خلال كلامهم، فبعضهم تسمعه يقول: هل نأخذ علمنا من رجل يقول: من قال: إن الأرض كروية يكفر؟ نأخذ العلم من هذا!، والله هذا نفاق بين، أو آخر يقوم علنا أمام الناس فيقول: أتريدون تحكيم الشريعة؟ تريدون قطع يد السارق، ما هذا التخلف، مع أن هذا حكم الله من فوق سبع سماوات، وحكم الرسول صلى الله عليه وسلم الذي قال: (والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)، فهذا نفاق ينضح، وآخر يقول: أتريدون جلد الزاني مائة جلدة؟ والله هذه وحشية.

فهؤلاء أصبح النفاق ظاهرا على وجوههم وفي كلامهم.

أيضا: قال الله تعالى -منكرا على بني إسرائيل، ومبينا أن الإيمان، أو الكفر الذي في القلب، لا بد أن ينضح في الخارج- ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ [البقرة:٩٣]، أي: إذا كنتم مؤمنين حقا فلم عبدتم العجل؟ ولم أطعتم غير الله تعالى؟ بل هذا كفر في قلوبكم.

أيضا: من الأمور التي تبين ارتباط الظاهر بالباطن: أن الله سمى أعمال الظاهر إيمانا، قال الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ [البقرة:١٤٣]، فبإجماع المفسرين أنها الصلاة، وكما في حديث البخاري عن البراء -الطويل- وفيه أنه قال: (هي الصلاة)، وذلك حين حولت القبلة إلى الكعبة، فقال القوم: ما بال إخواننا الذين ماتوا، وما بال صلاتنا التي صليناها من قبل فقال الله جل وعلا تطمينا لقلوبهم: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ [البقرة:١٤٣]، فسمى الصلاة إيمانا.

أيضا: بين الله جل وعلا الارتباط الوثيق في كتابه بين الظاهر والباطن، وأنه إذا انتفى اللازم انتفى الملزوم، قال الله تعالى: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره

إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء:١٤٠] فبين الله جل وعلا أن هؤلاء الذين يجلسون في المجالس التي يكفر فيها بالله، أو يستهزأ فيها بآياته، أو بأوليائه الصالحين، دون إنكار، فإن هؤلاء من يجلسون معهم فيهم نفس الكفر؛ لأن القلب نضح وظهر ما فيه، فهو ساكت راض بهذا الكفر، فصاحبه كافر مثلهم.
لذلك استنبط العلماء قاعدة مهمة جدا من قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي قولهم: إن لم تزل المنكر فزل.
أي: اخرج فلو جلست فأنت مثلهم؛ لأنك راض بفعلهم، فإن جلست مع شراب الخمر، ولم تنههم وتنكر عليهم، فأنت مثلهم، إن جلست مع الزناة ولم تنكر عليهم، بل ولم يتحرك قلبك غضبا لله جل وعلا فأنت منهم.
فهذه أدلة من كتاب الله جل وعلا على أن الظاهر يرتبط ارتباطا وثيقا بالباطن.." (١)
"وجوب لزوم الكتاب والسنة
في هذا المقام تقعيد وتأصيل مهم لأهل العلم وهو أن نقول: شيخ الإسلام حبيب إلينا، والحق أحب إلينا منه، فلو أفتى أحد من المشاهير اللوامع، الذين تضرب لهم الطبول، ويعرفهم القاصي والداني، والذين بلغوا في العلم مداه، بفتوى خالفت الكتاب والسنة، لرد هذا القول على من قال به كائنا من كان، وقد قال ذلك أجل الناس، وأشرف الناس، وأعلى الناس، وأعلم الأمة الشافعي حيث قال: إن خالف قولي قول رسول الله فاضربوا بقولي عرض الحائط وخذوا بقول رسول الله، ودخل عليه امرؤ يسأله: يا شافعي ! ما تقول في مسألة كذا؟ وكان بجانبه المزني والبويطي وتلاميذ الشافعي، فأجابه رجل فقال: هذه المسألة قال فيها رسول الله، وأنهى المسألة.
والواجب علينا إذا قيل في مسألة: قال رسول الله أن نقول: سمعنا وأطعنا.
وبعض السائلين يكون جاهلا لا يفقه شيئا، فعندما تقول له: قال رسول الله، يقول لك: الشيخ الفلاني أفتى بحلها، وتقول: قال رسول الله، وقال الله، وهو يقول: الشيخ الفلاني وجدته يفعلها، أو السلف كانوا يفعلونها، ولقد قال بعض الصحابة: أوشكت السماء أن تمطر عليكم حجارة، أقول: قال رسول الله وتقولون: قال فلان، وقال فلان! فلذلك لما قيل للشافعي: أتقول بهذه المسألة؟ أو أتقول بهذا القول؟ قال: أرأيتني خرجت من كنيسة؟! وهذه دلالة على كفر أهل الكنائس على كفر أهل الصليب وعباد الصليب، فلا يجوز لامرئ مسلم قط أن يهنئهم بهذا العيد، قال بعض علمائنا: من أهداهم بيضة في عيدهم فقد كفر، تقعيدا وتخريجا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: (فإذا وجدتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه) وقال: (لا تبدءوا أهل الكتاب بالسلام)، فكيف بتهنئة العيد والرضا بكفرهم، والقاعدة المشهورة: الرضا بالكفر كفر.
والضابط في هذه القاعدة أن نقول: إذا كان الكفر الذي كفر به المرء كفرا متفقا عليه، لا خلاف فيه ولا نزاع، وهو كفر لنا فيه من الله برهان، فمن رضي به فقد كفر.
والدليل على هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه﴾ [محمد:٢٨] وفي الآية الأخرى يقول تعالى: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم * ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي - محمد حسن عبد الغفار، محمد حسن عبد الغفار ٥/٤٠

الله﴾ [محمد:٧ – ٩]، وقوله تعالى: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء:١٤٠].
وهنا أقول: العالم الذي يعلم عقيدتهم، ويعلم كفرهم البين، ثم يجلس في مجلسهم الكفري، ويرضى بكفرهم، بل يذهب ويهنئهم ويقبلهم ويحتضنهم، فهذا رجل لا نقول فيه إلا: حسبنا الله ونعم الوكيل.
ونقول له: قد بين الله لك بالاتفاق أن هؤلاء كفار فبين لهم كفرهم، أما الذين لا يعرفون إذا استفتوا أقول لهم: اتقوا الله في أنفسكم ولا تهنئوهم بالعيد؛ لأنكم بتهنئتكم لهم في هذا العيد تقروهم على كفرهم، وأنتم مأمورون شرعا أن تبينوا لهم كفرهم، حتى يعلموا يقينا أنهم على باطل، وأنهم إن لم يرجعوا إلى دين الله فهم على كفر وضلال.
ولقد اتصل بي أخ وقال لي بالتصريح: السلام عليكم، أنا كل مدرائي نصارى، وكل عيد يهنئونني ويأتوني بالهدايا، ويجاملونني، فماذا أفعل؟ قلت له: لا تهنئهم، بل ادعهم إلى الإسلام، فهذا هو الفعل الصحيح، قال: أريد أن أسلم عليهم فقط، وأجاملهم بعيدهم كما يفعلون، قلت له: لا تفعل، قال: إن أخذت بقولك فسأفقد وظيفتي، قلت له: أيهما أفضل، أن تفقد وظيفتك أم تفقد دينك؟ فهذا الرجل لا يعتمد على ربه في الرزق، بل يحسب أنه إن لم يسلم عليهم في عيدهم، ويهنئهم بكفرهم، فسيضيع عمله؛ لظنه أن الرزق بأيديهم، وهذه عقيدة فاسدة، فالعطب في عقيدته الأولى جره إلى عطب في عقيدته الثانية.
فمن سلم عليهم في يوم عيدهم فقد رضي بكفرهم، فهو ينزل هذه المنزلة إن كان من العالمين المتقنين الفاهمين لعقيدتهم الخربة.
والمقصود أنه لما قال الشافعي: أخرجت من كنيسة؟ يبين له أن هؤلاء أهل كفر، فإني إن رددت قول النبي لكنت مثلهم، فانظر: على حديث واحد يرده بعد أن اقتنع به يرى الشافعي أنه يمكن أن يكون مثلهم، قال: أرأيتني قد خرجت من كنيسة؟ أرأيت في وسطي زنارا؟ يعني: يهوديا، يقول: قال رسول الله فماذا أقول أنا؟ أقول: قال رسول الله، وأقول به، ولذلك نقول: المرء إذا جاءه حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: سمعت وأطعت، ويقدم قول النبي على قول أي أحد كائنا من كان.
فنقول: أولا: جاءتنا الأدلة التي قعدت لنا وأصلت الخلود للجنة والخلود للنار، منها قوله تعالى: ﴿خالدين فيها أبدا﴾ [المائدة:١١٩] أي: على التأبيد، فهذه الآية تثبت عدم فنائها.
ونرد على أدلة شيخ الإسلام من وجهين: الوجه الأول: أن هذه الآثار لم تثبت، وأهل الحديث عللوا هذه الآثار بالانقطاع وبغيره.
فإن تنزلنا مع الخصم وقلنا: ثبت عن ابن مسعود وأبي هريرة أنهما قالا: (ليأتين زمان على النار ليس فيها أحد) فنئوله على أن المقصود ليس فيها أحد من الموحدين.
ونحن نقول: إن نار الموحدين تفنى، لما ثبت في الصحيحين من حديث الشفاعة أن الله تعالى قال لنبيه محمد صلى الله علية وآله وسلم: (اذهب فمن كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان فأخرجه) وبعد ذلك دينار، ثم نصف دينار، ثم مثقال ذرة، ثم حبة من خردل، ثم قال: (أذن لي ربي أن أشفع فيمن قال: لا إله إلا الله، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لأخرجن من النار من قال: لا إله إلا الله) وهذا بيان بأن من قال: لا إله إلا الله وكان يصلي فهو يخرج من النار ولا يخلد فيها، وتفنى هذه

النار، ويكون تأويل شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم على أن التي تفنى هي نار الموحدين، ويلتئم الشمل وتجتمع الأدلة، ولا نزاع بإذن الله.

أسأل الله جل وعلا أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنات، وأن يبعدنا جميعا عن النيران.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.." (١)

"بيان معنى حديث: (وليس وراء ذلك من الإيمان مثقال حبة من خردل)

Q ما قولكم في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (وليس وراء ذلك من الإيمان مثقال حبة من خردل)، في حديث من لم ينكر المنكر بقلبه؟

A ليس المراد أنه يكون كافرا؛ لأن من لم ينكر المنكر بقلبه يكون عاصيا.

فإذا جلس الإنسان مع قوم يشربون الخمر يجب عليه أن ينكر باللسان إن عجز عن الإنكار باليد، فإن عجز فإنه ينكر بالقلب.

والإنكار بالقلب معناه: أن يقوم ويتركهم، فإن جلس معهم فليس عنده من الإيمان حبة خردل يتعلق بإنكار المنكر، ويكون حكمه نفس حكم من شرب الخمر في الإثم، ومن جلس مع قوم يكفرون بالله واستطاع أن ينكر ولم ينكر وجلس وسكت، فحكمه في الإثم يكون نفس حكمهم؛ لأنه رضي بالكفر وأقر به، ومن جلس مع قوم يتعاملون بالربا ولم ينكر عليهم فيكون حكمه حكم المرابي، قال تعالى: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ [النساء:١٤٠].." (٢)

"واجب المؤمن تجاه من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها

قال سبحانه: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ [النساء:١٤٠].

هذه الآية فيها بيان أنه لا يجوز للإنسان أن يجلس في مجلس يعصى الله فيه، ويكفر فيه بآيات الله ويستهزأ بها، وأن من جلس في مثل هذه المجالس فإن عليه أن ينكر، فإن سكت ولم ينكر فحكمه حكمهم، فإذا جلس في مجلس يكفر فيه بالله ويستهزأ به وبكتابه وسكت ولم ينكر، فإن حكمه حكم الكافرين، والراضي بالكفر كافر، وإذا جلس في مجلس غيبة ولم ينكر عليهم، فحكمه حكم المغتابين في الإثم، وإذا جلس في مجلس يشرب فيه الخمر أو الدخان ولم ينكر فحكمه حكم من شرب الخمر أو شرب الدخان.

إذا: الواجب على الإنسان أحد أمرين: الإنكار، فإن زال المنكر وإلا قام عن المجلس، أما إذا لم ينكر وسكت فحكمه حكمهم.." (٣)

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي - محمد حسن عبد الغفار، محمد حسن عبد الغفار ١١/٥٤

(٢) شرح كتاب السنة للبربهاري - الراجحي، عبد العزيز الراجحي ١٣/٥

(٣) شرح كتاب الإيمان الأوسط لابن تيمية - الراجحي، عبد العزيز الراجحي ٩/٥

"حكم ترك إنكار المنكر مع القدرة

Q نرى انتشار طلاب العلم -ولله الحمد- وكذلك أهل الخير، فما رأيكم في ضعفهم في إنكار المنكر، وعدم القيام به على الوجه المطلوب؟

A الواجب على المسلم أن ينكر المنكر بقدر استطاعته، فيزيله باليد إذا كان مستطيعا كأن يكون المنكر في بيته، أو كالأمير أو كرجال الهيئة في حدود صلاحياتهم فيغيرون المنكر باليد.

فإن كان لا يستطيع تغيير المنكر باليد فينكر باللسان، فإن عجز عن ذلك كما إذا كان يترتب على إنكاره باللسان ضرر محقق في بدنه أو ماله أو أهله فإن ينكر بقلبه، بمعنى أنه يكره المنكر بقلبه ولا يجالس أهله، بل يقوم عنهم، ولتكن علامات الإنكار على وجهه، فيقطب وجهه وتظهر عليه علامات الكراهة، فقد ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم من حديث أبي سعيد الخدري: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان).

إذا: فدرجات التغيير ثلاث: باليد ثم باللسان ثم بالقلب، فالإنكار بالقلب معناه كراهة المنكر والبعد عن أهله، فإذا كان يكره بقلبه فإنه لا يجلس وهو يستطيع البعد، فإذا كان يستطيع القيام فإنه يجب عليه أن يقوم، فإن لم يقم فليس صادقا في إنكار المنكر، ولابد أن تظهر علامات المنكر على وجهه، ولينصرف عنهم، فإن جلس فحكمه كحكمهم، ودعواه أنه أنكر المنكر كذب وليست صحيحة، كما قال تعالى: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء:١٤٠].

فمن جلس في مجلس يكفر فيه بالله وهو يستطيع القيام ولم ينكر ولم يقم فحكمه حكمهم، ومن جلس في مجلس يشرب فيه الخمر ولم ينكر عليهم وهو يستطيع الإنكار فحكمه كحكم شارب الخمر في الإثم، ومن جلس في مجلس يغتاب فيه الناس وهو يستطيع القيام ولم ينكر عليهم ولم يقم فحكمه كحكم المغتابين.." (١)

"آثار السلف في التحذير من مجالسة أهل الأهواء وسماع كلامهم

قال المصنف رحمه الله تعالى: [قد أعملتك يا أخي عصمني الله وإياك من الفتن، ووقاني وإياك جميع المحن؛ أن الذي أورد القلوب حمامها، وأورثها الشك بعد اتقائها، هو البحث والتنقير، وكثرة السؤال عما لا تؤمن فتنته، وقد كفى العقلاء مؤنته، وأن الذي أمرضها بعد صحتها، وسلبها أثواب عافيتها، إنما هو من صحبة من تغر إلفته، وتورد النار في القيامة صحبته، أما البحث والسؤال فقد شرحت لك ما إن أصغيت إليه -مع توفيق الله- عصمك، ولك فيه مقنع وكفاية.

وأما الصحبة فسيرجع عليك بالنفع طالما إن تمسكت به نفعك، وإن أردت الله الكريم به وفقك، قال الله عز وجل فيما خص به نبيه صلى الله عليه وسلم وحذره منه: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ [الأنعام:٦٨].

ثم أذكره ما حذره، وأعاد له ذكر ما أنذره فقال تعالى: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها

---

(١) شرح كتاب الإيمان الأوسط لابن تيمية - الراجحي، عبد العزيز الراجحي ١٠/٦

ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ [النساء:١٤٠].

عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿يخوضون في آياتنا﴾ [الأنعام:٦٨]، قال: يستهزئون، نهى الله عز وجل محمدا أن يقعد معهم إلا أن ينسى، فإذا تذكر فليقم، وذلك قوله: ﴿فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ [الأنعام:٦٨].

وعن قتادة بن دعامة البصري في قول الله تعالى: ﴿فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ [الأنعام:٦٨] قال: نهاه الله أن يجلس مع الذين يخوضون في آيات الله يكذبون بها، وإن نسي وقعد فلا يقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين.

وعن ابن عون قال: كان محمد بن سيرين يرى أن أسرع الناس ردة هم أهل الأهواء، وكان يرى أن هذه الآية أنزلت فيهم: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾ [الأنعام:٦٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل)]، والخليل: هو الصديق والصاحب.

قال: [وعن عطاء قال: أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: لا تجالس أهل الأهواء؛ فإنهم يحدثون في قلبك ما لم يكن فيه].

أي: أن لهم تأثيرا شديدا كالسحر في الخلق، فإذا دخل شيء من كلامهم وأهوائهم في قلب المرء أفسده، فنسأل الله عز وجل أن يحفظك منه.

[وعن طلحة قال: سمعت خصيفا الجزري يقول: أشهد أن في التوراة مكتوبا: يا موسى! لا تجادل أصحاب الأهواء؛ فيمرضوا عليك قلبك بما يرديك فيدخلك النار.

وعن محمد بن النضر الحارثي قال: بلغنا أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام: أن كن يقظانا –أي كن حذرا متيقظا– مرتادا بنفسك أخدانا، فكل خدن لا يواتيك على مسرتي فاحذره].

أي: كل صاحب لك لا يصحبك على ما يحبه الله عز وجل، فلا تصاحبه؛ فإنه لك عدو، وهو يقسي قلبك.

وعن عطاء قال: بلغني أن فيما أنزل الله على موسى: لا تجالس أهل الأهواء فيحدثوا في قلبك ما لم يكن فيه.

وقال أبو قلابة –وهو عبد الله بن زيد الجرمي الإمام البصري الكبير–: لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم؛ فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما تعرفون].

أي: أن مجرد المجالسة له ولو مرة واحدة أنت منهي عن ذلك؛ فضلا عن مناظرته ومجادلته وخصومته وغير ذلك، فمن باب أولى ألا تفعل ذلك؛ س لأن السلف لم يأمنوا علينا إذا فعلنا ذلك أن ننغمس في البدعة، وأن نتقرب من هواهم، أو يلبسوا علينا، أو يضعونا في دائرة الشك في الثوابت التي لدينا ومنها: شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام، وشفاعة الشافعين جميعا، فهذه عقيدة استقرت في قلوب العامة والخاصة، حتى إن عامة الناس إذا تحدثوا قال بعضهم لبعض: صلوا على النبي، فهذه عقيدة مستقرة لدى العامة أن النبي عليه الصلاة والسلام شفيع لأمته، ووجد في الأمة من ينكر الشفاعة؛ لأن ثقافتهم إنما هي بالصحف والمجلات، ولم يتلقوا علمهم ودينهم من أهل العلم.

[وعن عمرو بن قيس الملائي قال: كان يقال: لا تجالس صاحب زيغ فيزيغ قلبك.
وعن أبي قلابة قال: قال أبو الدرداء: من فقه المرء ممشاه ومدخله ومخرجه ومجلسه].
أي: من العلامات الدالة على فقه الرجل، وعلى عقله واستقامته: النظر إلى ممشاه، أي: مع من يمشي، ومع." (١)

"تابع آثار السلف في التحذير من مجالسة أهل البدع

قال: [وعن هشام بن عروة: أن عمر بن عبد العزيز أخذ قوما على شراب -أي: جلسوا يشربون خمرا -ومعهم رجل صائم -والصائم لا يشرب شيئا- فضربه معهم، فقيل له: إن هذا صائم.
فقال: قال الله تعالى: ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء:١٤٠].
قال: [وقال الفضيل: ليس للمؤمن أن يقعد مع كل من شاء؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ [الأنعام:٦٨]].." (٢)

"قول ابن حزم رحمه الله تعالى

قال الإمام ابن حزم في كتاب الفصل: وأما قولهم -أي: المرجئة-: إن شتم الله تعالى ليس كفرا، وكذلك شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فهذا مجرد دعوى، يعني: لا دليل عليها؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم﴾ [التوبة:٧٤]، فنص تعالى على أن من الكلام ما هو كفر، فيخرج الإنسان من الإيمان بمجرد الكلمة وإن لم يستحل، باستثناء المكلف؛ لأن الأصل أنه يعرف ماذا يقول.
أما الغضب فله مراتب كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.
فمنه الإغلاق، أي: الذي لا يدري معه المرء ماذا يقول، ولا ماذا يفعل، حتى مثل بعض أهل العلم على ذلك: بأنه إذا ألقى ولده من مكان شاهق، أو نزل إلى الوادي فقتله، فلما أفاق من غضبه قيل له: لم قتلت ولدك؟ قال: والله ما قتلته، فكذلك لو أن واحدا بلغ به الغضب هذا المبلغ بحيث لا يدري ما يقول؟ فإنه لو قال كلمة كفر فلا يكفر بها؛ لأنه غير مكلف؛ ولأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول: (رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون حتى يفيق)، وهذا الذي بلغ به الغضب هذا المبلغ هو كالمجنون سواء بسواء، ولذلك لو نكح لا ينعقد نكاحه، ولو طلق لا يقع طلاقه، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا طلاق في إغلاق)، أي: شدة الغضب.
وهناك غضب بسيط يستطيع الإنسان فيه أن يكبح جماح نفسه، وهذا الغضب يسميه ابن تيمية: الغضب البسيط، وهذا النوع من الغضب تترتب عليه الأحكام، فإذا طلق رجل امرأته في هذا الغضب فإنه يقع.
وهناك غضب بين هاتين المرحلتين، أو بين هذين الغضبين: الإغلاق والبسيط، وهو غضب شديد يدرك معه المرء ما يقوله، ويستطيع أن يكبح جماح نفسه، فالجمهور على أن هذا الرجل إذا نطق بكلمة الكفر كفر، وإذا طلق وقع طلاقه، والأحناف بخلاف ذلك، ولذلك عندما تذهب إلى الأزهر وتقول: طلقت امرأتي وأنا غاضب؟ فيقولون لك: لم يقع الطلاق؛ لأنهم

---

(١) شرح كتاب الإبانة من أصول الديانة، حسن أبو الأشبال الزهيري ٤/١٤
(٢) شرح كتاب الإبانة من أصول الديانة، حسن أبو الأشبال الزهيري ١٤/١٥

يأخذون بالأنفع لحياة الناس، والأزهر عندهم مذهب الأحناف، وهذا الذي تتبناه لجنة الفتوى بالأزهر، بينما بعض أهل العلم في الأزهر يقولون بمذهب الجمهور، وبهذا التقسيم الذي قسمه ابن تيمية في الغضب، لكن تجد العوام الذين عرفوا توجه الأزهر من أمكر خلق الله! فتجد أحدهم يدخل على العالم فيقول: يا شيخ أنا كنت غضبان.

من غير أن يقول له: أنا طلقت، أو لم يطلق، أو أي شيء آخر، ثم يقول له العالم: أنت كنت غضبانا إلى درجة أنك ممكن تقتل ابنك؟ فيقول له: لا، أنا كنت غضبانا وغير مرتاح، وكنت أصيح وغير ذلك، فيقول له: ومن الذي أغضبك؟ فيقول له: فلان وفلان، يعني: أنت كنت في أتم عقلك وإدراكك أن فلانا وفلانا كانوا موجودين؟ فيقول: نعم، إذا طلاقك قد وقع، فيقول له: يا شيخ هم يقولون لي: إن الأزهر يقول: إن الغضبان لا يقع طلاقه، يعني: هو أتى ومعه فتواه، فيفاجأ بأن الأزهري يقول له: إن طلاقه قد وقع، ويقول له: اذهب وتزوج واحدة أخرى، ويذهب فيتزوج واحدة أخرى وهكذا، والشيخ إذا قلت لهم أي شيء يقول لك: ما دام هكذا خيرنا في مذهب الأحناف.

وقال تعالى: ﴿إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء:١٤٠]، فنص تعالى على أن الكلام في آيات الله تعالى منه ما هو كفر بعينه، يعني: بمجرده هو كفر، وأمرنا بترك مجالستهم.

وقال الله تعالى: ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة﴾ [التوبة:٦٥ – ٦٦]، فنص الله تعالى على أن الاستهزاء بالله تعالى، أو بآياته، أو برسول من رسله كفر مخرج عن الإيمان، ولم يقل تعالى في ذلك: إني علمت أن في قلوبكم كفرا، يعني: لم يعلق الكفر على معرفته بما في قلوبهم، وإنما على مجرد الاستهزاء، بل جعلهم كفارا بنفس الاستهزاء، ومن ادعى غير هذا فقد قول الله تعالى ما لم يقل، وكذب على الله تعالى.

ثم قال: الجحد لشيء مما صح البرهان أنه لا إيمان إلا بتصديقه كفر، وهذا باتفاق، فالصلاة من الإيمان وجحودها كفر، والنطق بشيء مما قام البرهان بأن النطق به كفر كفر، إذا ترك العمل المتفق على أنه من الإيمان جحودا كفر، فالصلاة من الإيمان، والزكاة من الإيمان، والصيام من الإيمان، والحج من الإيمان، فمن جحد شيئا من ذلك فقد كفر.

وبالتالي فيكون هذا كفر بالعمل والاعتقاد أننا نقول: جحد، لكن هل يمكن أن يقع الكفر بالقول؟ نعم، وهذا القول جاء بالنص أو انعقد الإجماع على أن قائله كافر، قوله: والعمل بشيء مما قام البرهان بأنه كفر كفر كذلك، يعني: يريد أن يقول لك: عندي الآن ثلاثة إجماعات: إجماع أن من اعتقد شيئا هو كفر." (١)

"قول ابن المسيب في النشرة

قال المصنف رحمه الله: [وفي البخاري عن قتادة: قلت لـ ابن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه].

سعيد بن المسيب رحمه الله من الذين يقولون بجواز حل النشرة، وعلته ما ذكر، وهو قوله: إذا كانوا يريدون به الإصلاح –

---

(١) شرح كتاب الإبانة من أصول الديانة، حسن أبو الأشبال الزهيري ١٣/٤٠

يعني: إصلاح ما أفسده السحرة- فلا بأس به، أما إذا كان خلاف ذلك فهو محرم، ولكن هذا يفتقر إلى دليل، والأدلة على خلافه، ومنها ما ذكرنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرم عليها)، ومن المعلوم الذي لا يشك فيه من يعرف الشرع أو بعض أحكامه أن السحر من المحرمات، ومنها أن الذهاب إلى الساحر والرضا بفعله يعتبر تقريرا له، وتقرير الفاعل على الفعل يجعل المقرر له مشاركا له في الفعل فيكون مثله، ولهذا أخبرنا ربنا جل وعلا أن الذين يجلسون مع من يستهزئ بآيات الله أنهم مثل المستهزئ، والمستهزئ كافر، وكان يجب عليه إذا جلس مع المستهزئ أن ينكر عليه، وكذلك الموالاة، كون المسلم يكون مع الكافر غير مظهر له العداوة والبغضاء، وإن كان يكره ذلك في نفسه فإنه يكون مثله؛ لهذا يقول جل وعلا: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ [المائدة:٥١] أي: فهو منهم.

ويقول جل وعلا: ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾ [المجادلة:٢٢].

ويقول جل وعلا: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ [الممتحنة:١].

وهناك آيات كثيرة تدل على أن الإنسان يجب عليه أن ينكر فعل المخالف ويبغضه، أما إذا جلس معه وأقره أو ذهب إليه وتركه على ما هو عليه فإنه يكون مثله كما قال جل وعلا: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء:١٤٠] يعني: إذا جلس الإنسان مع من يسعى إلى الكفر ويسعى إلى المعاصي ولم ينكر عليه -وإن كان يبغض ذلك ويكرهه في قلبه- فإنه يكون مثله؛ لأن الله ميز المؤمنين من الكافرين، فكيف يجوز أن يذهب إلى الساحر حتى يحل السحر عنه؟! هذا إقرار له، ودين الله لا يقبل التجزئة ولا المداهنة فيه، فالصواب المنع من هذا.

[قوله: عن قتادة هو ابن دعامة بكسر الدال السدوسي ثقة فقيه من أحفظ التابعين قالوا: إنه ولد أكمه، مات سنة بضع عشرة ومائة].

قوله: (ويؤخذ عن امرأته) يعني: أنه يعمل له سحر يمنع به أن يصل إليها، كما يفعله كثير من الناس، يعملون السحر لأجل ذلك، وهذا يعمله من لا خلاق له في الآخرة من الفسقة والظلمة الذين لا يخافون الله ولا يراقبونه، وإنما يريدون أن يوقعوا الضرر بمن يحسدونه على شيء من أمور الدنيا؛ لذلك يرتكب هذا الجرم الذي يذهب بحسناته، وقد يجعله من أهل النار نسأل الله العافية.

أما المؤمن المتقي فإنه يخاف الله ولا يفعل شيئا من ذلك، إنما يفعله فسقة المسلمين؛ لأنه في الواقع جاهل لا يعرف العاقبة، ولا يعرف ما يئول إليه الأمر، فلو كشف عن سوء فعله لهانه ذلك أشد الهون.

فمن (يؤخذ عن زوجته) ويمنع من قربانها بواسطة السحر؛ فعلاجه يكون بالرقى الشرعية والأدوية المباحة، أما السحر فلا يجوز تعاطيه.

قال الشارح رحمه الله: [قوله: رجل به طب، بكسر الطاء أي: سحر، يقال: طب الرجل بالضم إذا سحر، ويقال: كنوا عن السحر بالطب؛ تفاؤلا كما يقال للديغ: سليم.

وقال ابن الأنباري: الطب من الأضداد، يقال: لعلاج الداء: طب، والسحر من الداء ويقال له: طب.

قوله: (يؤخذ) بفتح الواو مهموزة، وتشديد الخاء المعجمة وبعدها ذال معجمة، أي: يحبس عن امرأته ولا يصل إلى جماعها، والأخذة -بضم الهمزة- الكلام الذي يقوله الساحر.

قوله: (أيحل) بضم الياء وفتح الحاء مبني للمفعول.

قوله: (أو ينشر) بتشديد المعجمة.

قوله: (لا بأس به) يعني: أن النشرة لا بأس بها؛ لأنهم يريدون بها الإصلاح أي: إزالة السحر، ولم ينه عما يراد به الإصلاح، وهذا من ابن المسيب يحمل على نوع من النشرة لا يعلم أنه سحر].

يعني: أن كلام سعيد بن المسيب يحمل على نوع لا يكون من السحر، وهذا تأويل، ولكن الظاهر أنه يقصد به السحر؛ لأنه قال: (أما ما ينفع فلا) يعني: فلا يمنع منه (إنما يريدون به الإصلاح)، فهو ظاهر في أنه يريد السحر، ولكن قال هذا: (إنه يحمل على نوع ليس من السحر) حتى يتفق مع الأدلة ومع قول جمهور العلماء، هذا مقصوده، وعند العلماء قاعدة يسيرون عليها، إذا جاء عن أحد العلماء كلام يخالف الدليل فإنه يحمل على أحسن المحامل، ولا يظن بالعلماء أنهم يخالفون الدليل فهذا منه، فلهذا قال: إنه يحمل على نوع ليس من السحر.." (١)

"واجب طلبة العلم تجاه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

Q لوحظ في هذه الأيام كثرة طلاب العلم ولله الحمد والمنة، ولكن يلاحظ مع ذلك قلة الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهل من تعليق لكم وفقكم الله؟

A يجب على طلبة العلم أن يكونوا آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، والله تعالى بين أن الخيرية لهذه الأمة إنما حصلت بذلك، فقال سبحانه: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ [آل عمران:١١٠]، فالخيرية إنما صحت بهذه الأمور الثلاثة: الإيمان بالله، وبالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فمن عمل بهذه الصفات وانطبقت عليه حصلت له الخيرية، ومن فاتته هذه الصفات فاتته الخيرية، قال سبحانه: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ [آل عمران:١٠٤] الأمر من الله أن تكون أمة منتصبة بهذا الأمر بالقيام بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال سبحانه في وصف المؤمنين: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله﴾ [التوبة:٧١] يرحمهم الله بهذه الصفات، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، فينبغي لطلبة العلم أن يكونوا في المقدمة، وأن يمتثلوا أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، فما قيمة العلم الذي لا يعمل به الإنسان، من العمل بالعلم أن يكون طالب العلم آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر، لكن بالحكمة والموعظة

---

(١) شرح فتح المجيد للغنيمان، عبد الله بن محمد الغنيمان ٧/٧٨

الحسنة، باللين والرفق.
وإنكار المنكر له ثلاث مراتب: أولا: الإنكار باليد إذا كان الإنسان يستطيع أن يغير بإن كان له سلطة كالأمير، وإن كان في بيته إذا كان يستطيع غير بيده، وثانيا: إذا عجز باللسان والبيان، وثالثا: الإنكار بالقلب؛ كما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه الذي رواه الإمام مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)، والإنكار بالقلب لابد فيه من البعد عن المنكر، فإذا كنت لا تستطيع أن تنكر باللسان لا تجلس معهم، بل تقوم وتظهر علامة الإنكار على وجهك، أما إذا كنت تجلس معهم وتدعي أنك تنكر المنكر بقلبك فأنت شريك لهم في الإثم، فإن كانوا يشربون الخمر فحكمك حكم من يشرب الخمر، وإن كانوا يغتابون الناس وأنت ساكت وتستطيع أن تقوم فحكمك حكمهم، وإن كانوا يسبون الإسلام أو يسبون الله، فحكمك حكمهم، قال الله تعالى: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ [النساء:١٤٠]، فمن جلس مع قوم يكفرون بالله ولم ينكر عليهم ولم يقم فحكمه حكمهم، ومن جلس مع قوم يشربون الدخان ولم ينكر عليهم فحكمه حكمهم في الإثم، نسأل الله السلامة والعافية، ونسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وإياكم للعلم النافع العمل الصالح، ونسأله سبحانه وتعالى أن يتوفانا على الإسلام، إنه ولي ذلك والقادر عليه.." (١)

"بعض مظاهر وصور الموالاة لأعداء الله

أما صور الموالاة المحرمة ومظاهرها، فمنها: الرضا بكفر الكافرين، وعدم تكفيرهم، أي: الشك في كفرهم، فمن أقبح صور الموالاة التي تهدد عقيدة المسلم، أن يشك في كفر الكافر، أي: لا يعتقد أنه كافر بهذا الشرك الذي ارتكبه، أو يشك في كفره، أو تصحيح المسلم لأي مظهر من مظاهرهم الكفرية.

أيضا من مظاهر ذلك: التولي العام، واتخاذهم أعوانا وأنصارا وأولياء، أو الدخول في دينهم، يقول الله عز وجل: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾ [آل عمران:٢٨].

يقول ابن جرير رحمه الله: من اتخذ الكفار أعوانا وأنصارا وظهورا يواليهم على دينهم، ويظاهرهم على المسلمين، فليس من الله في شيء، أو قد برئ من الله، وبرئ الله منه، لارتداده عن دينه، ودخوله في الكفر، (إلا أن تتقوا منهم تقاة) أي: إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتضمروا لهم العداوة، ولا تجاروهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مسلم بفعل.

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ [المائدة:٥١].

يقول ابن حزم رحمه الله: قول الله تعالى: ((ومن يتولهم منكم فإنه منهم)) إنما هو على ظاهره؛ لأنه كافر من جملة الكفار،

---

(١) شرح عقيدة السلف وأصحاب الحديث - الراجحي، عبد العزيز الراجحي ٢/٢٠

وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين، يقول الله عز وجل: ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء﴾ [المائدة:٨١].

ومن صور الموالاة المحرمة: الإيمان ببعض ما هم عليه من الكفر، أو التحاكم إليهم دون كتاب الله، قال الله عز وجل: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا﴾ [النساء:٥١]، ونظير هذه الآية قوله تعالى عن بعض أهل الكتاب: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون * واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾ [البقرة:١٠١ – ١٠٢]، لما اتبعوا السحر، وتركوا كتاب الله، كما يفعله اليهود وكثير من المنتسبين إلى الإسلام، فمن كان من هذه الأمة مواليا للكفار من المشركين أو أهل الكتاب ببعض أنواع الموالاة، كإسناده أهل الباطل، واتباعهم في شيء من فعالهم ومقالهم الباطل؛ كان له من العقاب والذم بحسب ذلك.

ومن مظاهر الموالاة المحرمة مودتهم ومحبتهم، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾ [الممتحنة:١].

ومن ذلك أيضا: الركون إليهم، يقول الله عز وجل: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾ [هود:١١٣]، يقول قتادة: يعني لا تودوهم ولا تطيعوهم.

وقد خاطب الله عز وجل الرسول عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا * إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا﴾ [الإسراء:٧٤ – ٧٥]، فإذا كان هنا في حق الرسول صلى الله عليه وسلم فكيف بمن هو دونه؟! ومن الموالاة المحرمة: مداهنتهم ومداراتهم ومجاملتهم على حساب الدين، يقول الله عز وجل: ﴿ودوا لو تدهن فيدهنون﴾ [القلم:٩]، ومن أعظم ما يقع فيه المسلمون المداهنة والمجاملة على حساب إسلامهم، فأخذوا ينسلخون من دينهم شيئا فشيئا حتى لا يتهموا بالتعصب ولا بالتطرف، وحتى يرضى عنهم هؤلاء الكفار، الذين أخبر الله أنهم لن يرضوا حتى يترك المسلم دينه ويتنجس بكفرهم.

وقال صلى الله عليه وسلم: (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم) الحديث.

ومن ذلك: اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، وأقرب شيء إلى الإنسان هو بطانة الملابس، فهي قريبة جدا من جسده، فكذلك الإنسان عندما يوالي هؤلاء الكفار، يقول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾ [آل عمران:١١٨]، كان بعض المؤمنين يصافون المنافقين أي: يصير بينهم صفاء، ويواصلون رجلا من اليهود، فنزلت هذه الآية تحذيرا من ذلك، وبطانة الرجل خاصته، تشبيها لها ببطانة الثوب التي تلي بطنه؛ لأنهم يستبطنون أمره، ويطلعون منه على ما لا يطلع عليه غيرهم، وقد بين الله العلة في النهي عن اتخاذهم بطانة فقال: ((لا يألونكم خبالا)) أي: لا يفترون ولا يتركون جهدهم فيما يوردكم الشر والفساد، ثم إنهم ليرجون ما يشق عليك من الذل والهلاك.

ومن الموالاة المحرمة: طاعتهم فيما يأمرون ويشيرون به، يقول عز وجل: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان

أمره فرطا﴾ [الكهف:٢٨]، وقال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾ [آل عمران:١٤٩]، وقال عز وجل: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ [الأنعام:١٢١].

ومن ذلك: مجالستهم والركون إليهم وقت استهزائهم بآيات الله، ولذلك نهى الله عن مجالستهم فقال: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء:١٤٠]، فإذا جالستموهم وهم يشتمون دين الله، أو يطعنون في فرائضه؛ فإنكم إذا مثلهم، يعني: إن لم تقوموا عنهم في هذه الحال.

ومن ذلك: توليتهم أمرا من أمور المسلمين، كالإمارة والكتابة وغيرها، بحيث يكونون رؤساء على المسلمين، ويكون لهم سلطان على ديار المسلمين، فإنهم لن يألوا المسلمين خبالا وتآمرا عليهم، فالتولية شقيقة الولاية، لابد أن تؤدي إلى تمكين ونصرة، وتوليتهم فيه نوع من مناصرتهم ومحبتهم، وقد حسم الله الأمر أن من تولاهم فإنه منهم، فلا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم.

وهناك حادثة مشهورة وقعت أيام الملك الصالح إسماعيل، فقد كان في دولته رجل نصراني يسمى محاضر الدولة أبا الفضل بن دخان، ولم يكن في المباشرين أمكن منه، وكان قذاة في عين الإسلام، وبثرة في وجه الدين، وبلغ من أمره أنه وقع على رجل نصراني أسلم، فرده إلى دين النصرانية، وأخرجه من الملة الإسلامية، ولم يزل يكاتب الفرنجة بأخبار المسلمين وأعمالهم، وأمر الدولة وتفاصيل أحوالها، فكان مجلسه معمورا برسل الفرنج والنصارى وكانوا هم المقربين لديه، وحوائجهم مقضية عنده، ويحمل لهم الأدرار والضيافات، وأكابر المسلمين محجوبون عند الباب لا يؤذن لهم! وإذا دخلوا لم ينصفوا في التحية ولا في الكلام، وحدث أن اجتمع في مجلس الملك الصالح أكابر الناس من الكتاب والقضاة والعلماء، فسأل السلطان بعض الجماعة عن أمر أفضى به إلى ذكر مفاسد النصارى، فبسط لسانه في ذلك، وذكر بعض ما هم عليه من الأفعال والأخلاق، يعني: يقول الجاحد عليهم: الخيانة عشرة أجزاء، تسعة أجزاء منها في أهل الذمة، ويقول بعض العلماء حينما رأى في بعض مراحل التاريخ الإسلامي تمكنهم من المسلمين: بأبي وأمي ضاعت الأحلام أم ضاعت الأذهان والأفهام من حاد عن دين النبي محمد أله بأمر المسلمين قيام إلا تكن أسيافهم مشهورة فينا فتلك سيوفهم أقلام ومن جملة كلامه أنه قال: إن النصارى لا يعرفون الحساب، ولا يدرونه على الحقيقة؛ لأنهم يجعلون الواحد ثلاثة، والثلاثة واحدا، والله تعالى يقول: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾.

فأخذ هذا المعنى بعض الشعراء وقال في قصيدة له: كيف يدري الحساب من جعل الوا حد رب الورى تعالى ثلاثة ثم قال: كيف تأمن أن يفعل في معاملة السلطان كما فعل في أصل اعتقاده؟! ويكون مع هذا أكثر النصارى أمانة وكلما استخرج ثلاثة دنانير دفع إلى السلطان دينارا وأخذ لنفسه اثنين، ولاسيما وهو يعتقد ذلك قربة وديانة؟! والمقصود أن من الموالاة، توليتهم والإعجاب بهم واستئمانهم، وقد خونهم الله، يقول عز وجل: ﴿من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه

بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ [آل عمران:٧٥]." (١)

"حكم من سب الصحابة برميهم بالكفر

القسم الأول: السب في الدين كمن كفر الصحابة جميعا إلا بضعة عشر، أي: ثلاثة عشر أو أربعة عشر نفرا هم الذين بقوا على الإسلام، وارتد الباقي، فمن قال بذلك أو لعنهم أو كفر أبا بكر أو عمر أو لعنهما، فهذا كافر كفرا أكبر يخرج من الملة، ومن لم يكفره فهو كافر؛ لأنه رضي بالكفر ومن رضي بالكفر كمرتكبه ومن شك في كفره فهو كافر، وهذه هي المراحل الثلاث، والدلالة على ذلك من الكتاب والسنة فيما يلي: أولا: من سب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في دينهم ولعنهم، أو كفرهم عن بكرة أبيهم آحادا وأفرادا فهذا كفره من وجهين: الوجه الأول: تكذيب لله ورسوله، ومن كذب الله ورسوله فقد كفر، فقد عدل الله الصحابة من فوق سبع سموات، قال تعالى: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ [الفتح:١٨].

وقال أيضا: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ [التوبة:١٠٠].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة) وقال أيضا: (لا يا عمر! لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم).

فهذه كلها أدلة على عدالة صحابة رسول الله من كلام الله وكلام النبي صلى الله عليه وسلم.

أما الوجه الثاني: أنه يدخل تحت عموم قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما) وهذا له تأويل عند الجماهير أي: فقد باء بوزره، أو باء بهذه الكبيرة، لكن في سب الصحابة ينطبق هذا الحديث على ظاهره، فمن قال لـ أبي بكر: يا كافر، فقد كفر، ومن قال لـ عمر: يا كافر، فقد كفر، ومن قال لـ عائشة: يا كافرة، فقد كفر، ومن قال لـ عثمان أو لـ علي: يا كافر، فقد كفر (ومن قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما)، وفي الرواية الأخرى قال: (إن كان كذلك وإلا حارت) أي: رجعت عليه.

أما الأقوى من ذلك: فمن لم يكفر من كفر الصحابة فهو كافر؛ لأن الراضي بالمنكر كمرتكبه، وهذا الرضا الذي يظهر لنا عنده؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر أنه لا بد من الإنكار بالقلب، والإنكار بالقلب: ألا تبقى بالمكان الذي يسب فيه صحابة رسول الله، أما أن تضحك، وتقر بذلك، ولا ترد عليهم، وتجالسهم فأنت ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء:١٤٠]، والمثلية هنا على حالاتها التي فندها العلماء.

(١) عقيدة الولاء والبراء - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٢/٥

وأيضا: من شك في كفره فقد كفر؛ لأنه يشك في كفر من كذب الله، وهذا أمر معلوم من الدين بالضرورة، فمن شك في كفر من يكذب الله جل في علاه فقد كفر؛ لأن هذا من باب المعلوم من الدين بالضرورة.." (١)

"حكم حضور المهرجانات التي ترتكب فيها أمور شركية

Q يقام في أيام الإجازات عدد من المهرجانات، ويقام فيها ألعاب السيف، ويقام فيها أمور وأفعال خارقة للعادة، فما حكمها وما حكم حضورها؟

A ينظر في هذه الألعاب، فإن كانت من ألعاب السحرة فلا تجوز، ولا يجوز حضورها إلا مع الإنكار إن كان يجد منكرا. وإذا كانت عندنا في البلاد فيكتب إلى المسئولين، وترفع إلى ولاة الأمور حتى تزال، وإذا كانت خارج البلاد فينكر الإنسان بالاستطاعة وإلا فلا يحضرها؛ لأن الواجب على الإنسان أن ينكر المنكر، فإن زال وإلا فليترك هذا المكان، فإذا كان يفعل الشرك في هذا المكان وسكت صار حكمه حكم شركي، وإذا كان أمرا منكرا صار حكمه حكم هذا المنكر، قال الله تعالى: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء:١٤٠]، فبين الله أن من سكت وحضر المنكر فحكمه كحكمهم، فإذا كانوا يشركون بالله وسكت ولم ينكر فإنه يكون حكمه كحكم المشركين، وإذا كانوا يشربون الخمر وسكت فحكمه كحكم من يشرب الخمر، وإذا كانوا يغتابون الناس فحكمه كحكم من يغتاب الناس، فهو مثلهم عليه إثمه إذا سكت، والواجب أن تنكر، فإن امتثلوا وتركوا وإلا فقم عن المكان، ولا تكون شريكا لهم في الإثم.." (٢)

"[سورة النساء (٤) : الآيات ١ الى ١٧٦]

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تسائلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا (١) وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا (٢) وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا (٣) وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا (٤)

ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا (٥) وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا (٦) للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا (٧) وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا (٨) وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا

---

(١) شرح مختصر الصارم المسلول - محمد حسن عبد الغفار، محمد حسن عبد الغفار ٥/٨

(٢) شرح تطهير الاعتقاد للصنعاني - الراجحي، عبد العزيز الراجحي ١٦/٧

عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا (٩)
إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا (١٠) يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما (١١) ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم (١٢) تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم (١٣) ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين (١٤)
واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا (١٥) والذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيما (١٦) إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما (١٧) وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما (١٨) يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا (١٩)
وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا (٢٠) وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا (٢١) ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا (٢٢) حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفورا رحيما (٢٣) والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما (٢٤)
ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم (٢٥) يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم (٢٦) والله يريد

أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما (٢٧) يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا (٢٨) يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما (٢٩)

ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا (٣٠) إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما (٣١) ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن وسئلوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما (٣٢) ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيدا (٣٣) الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا (٣٤)

وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا (٣٥) واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا (٣٦) الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا (٣٧) والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا (٣٨) وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما (٣٩)

إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما (٤٠) فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا (٤١) يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا (٤٢) يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا (٤٣) ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل (٤٤)

والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا (٤٥) من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا (٤٦) يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا (٤٧) إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما (٤٨) ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا (٤٩)

انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا (٥٠) ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا (٥١) أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد

له نصيرا (٥٢) أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا (٥٣) أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما (٥٤)

فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا (٥٥) إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما (٥٦) والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا (٥٧) إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا (٥٨) يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا (٥٩)

ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا (٦٠) وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا (٦١) فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا (٦٢) أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا (٦٣) وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما (٦٤)

فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما (٦٥) ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا (٦٦) وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما (٦٧) ولهديناهم صراطا مستقيما (٦٨) ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا (٦٩)

ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما (٧٠) يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا (٧١) وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا (٧٢) ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما (٧٣) فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما (٧٤)

وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا (٧٥) الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا (٧٦) ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا (٧٧) أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا (٧٨) ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا (٧٩)

من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا (٨٠) ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا (٨١) أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (٨٢) وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا (٨٣) فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا (٨٤)
من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتا (٨٥) وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيبا (٨٦) الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا (٨٧) فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (٨٨) ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا (٨٩)
إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاؤكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا (٩٠) ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا (٩١) وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما (٩٢) ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما (٩٣) يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا (٩٤)
لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما (٩٥) درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما (٩٦) إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا (٩٧) إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا (٩٨) فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا (٩٩) ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما (١٠٠) وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا (١٠١) وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا

حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا (١٠٢) فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا (١٠٣) ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما (١٠٤)

إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما (١٠٥) واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما (١٠٦) ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما (١٠٧) يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا (١٠٨) ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا (١٠٩)

ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما (١١٠) ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما (١١١) ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا (١١٢) ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما (١١٣) لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما (١١٤)

ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا (١١٥) إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا (١١٦) إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا (١١٧) لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا (١١٨) ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا (١١٩)

يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا (١٢٠) أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا (١٢١) والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا (١٢٢) ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا (١٢٣) ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا (١٢٤)

ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا (١٢٥) ولله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطا (١٢٦) ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما (١٢٧) وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا (١٢٨) ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما (١٢٩)

وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما (١٣٠) ولله ما في السماوات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنيا حميدا (١٣١) ولله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا (١٣٢) إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا (١٣٣) من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعا بصيرا (١٣٤)

يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا (١٣٥) يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا (١٣٦) إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩)

وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١) إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا (١٤٢) مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (١٤٣) يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا (١٤٤)

إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا (١٤٥) إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما (١٤٦) ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما (١٤٧) لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما (١٤٨) إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا (١٤٩)

إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا (١٥٠) أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا (١٥١) والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما (١٥٢) يسئلك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا (١٥٣) ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا (١٥٤)

فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون

إلا قليلا (١٥٥) وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما (١٥٦) وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا (١٥٧) بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما (١٥٨) وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا (١٥٩)

فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا (١٦٠) وأخذهم الربوا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما (١٦١) لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما (١٦٢) إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا (١٦٣) ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما (١٦٤)

رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما (١٦٥) لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا (١٦٦) إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا (١٦٧) إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا (١٦٨) إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا (١٦٩)

يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما (١٧٠) يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا (١٧١) لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا (١٧٢) فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا (١٧٣) يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا (١٧٤)

فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما (١٧٥) يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم (١٧٦)." (١)

"ولا ليهديهم سبيلا- ١٣٧- إلى الهدى منهم عمرو بن زيد وأوس بن قيس، وقيس بن زيد.

ولما نزلت المغفرة للنبي- صلى الله عليه وسلم- وللمؤمنين فى سورة الفتح قال عبد الله بن أبي ونفر معه، فما لنا؟ فأنزل الله-

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان مقاتل ٣٢٩/١

عز وجل- بشر المنافقين يعني عبد الله بن أبي، ومالك بن دخشم، وجد بن قيس بأن لهم في الآخرة عذابا أليما- ١٣٨- يعني وجيعا، ثم نعتهم فقال:

الذين يتخذون الكافرين من اليهود أولياء من دون المؤمنين. وذلك أن المنافقين قالوا لا يتم أمر محمد، فتابعوا اليهود وتولوهم فذلك قوله- سبحانه-:

أيبتغون عندهم العزة يعني المنعة، وذلك أن اليهود أعانوا مشركي العرب على قتال النبي- صلى الله عليه وسلم- ليتعززوا «١» بذلك فقال- سبحانه- «أيبتغون عندهم العزة» يقول أيبتغي المنافقون عند اليهود المنعة فإن العزة لله جميعا- ١٣٩- يقول جميع من يتعزز فإنما هو بإذن الله وكان المنافقون يستهزءون بالقرآن فأنزل الله- عز وجل- بالمدينة وقد نزل عليكم في الكتاب يعنى فى سورة الأنعام بمكة «٢» أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره يقول حتى يكون حديثهم يعنى المنافقين [٨٨ أ] في غير ذكر الله- عز وجل- فنهى الله- عز وجل- عن مجالسة كفار مكة ومنافقي المدينة عند الاستهزاء بالقرآن ثم خوفهم: إن جالستموهم ورضيتم باستهزائهم إنكم إذا مثلهم فى الكفر إن الله جامع المنافقين يعني عبد الله بن أبي، ومالك بن دخشم،

---

(١) فى أ: فتعززوا.

(٢) يشير للآية ٦٨ من سورة الأنعام وهي: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين.." (١)

"العذاب منه في الدنيا وهو القتل ببدر، ومنه في الآخرة نار جهنم، وذلك قوله:

وسوف تعلمون- ٦٧- أوعدهم العذاب مثلها في «اقتربت» وإذا رأيت يعني سمعت يا محمد الذين يخوضون في آياتنا يعنى يستهزءون بالقرآن وقالوا ما لا يصلح قال الله لنبيه- صلى الله عليه وسلم-: فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره يعني فقم عنهم لا تجالسهم حتى يكون حديثهم في غير أمر الله وذكره وإما ينسينك الشيطان يقول فإن أنساك الشيطان فجالستهم بعد النهي فلا تقعد بعد الذكرى يقول إذا ذكرت فلا تقعد مع القوم الظالمين- ٦٨- يعني المشركين، فقال المؤمنون عند ذلك، لو قمنا عنهم إذا خاضوا واستهزءوا فإنا نخشى الإثم في مجالستهم يعني حين لا نغير عليهم «١» فأنزل الله وما على الذين يتقون يعني يوحدون الرب من حسابهم من شيء يعني من مجازاة عقوبة خوضهم واستهزائهم من شيء، ثم قال: ولكن ذكرى لعلهم يتقون- ٦٩- إذا قمتم عنهم منعهم من الخوض والاستهزاء الحياء منكم والرغبة في مجالستكم فيذكرون قيامكم عنهم ويتركون الخوض والاستهزاء ثم نسختها الآية التي في النساء «٢» وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ... الآية «٣» .

---

(١) فى أ: إنا نخشى فى مجالستهم الإثم يعنى حين لا نغير عليهم.

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان مقاتل ١/٤١٥

وفى تفسير القرطبي ص ١٧٩: روى أن المسلمين قالوا: لئن كنا نقوم كلما استهزءوا بالقرآن لم نستطيع أن نجلس فى المسجد الحرام ونطوف فنزلت:

وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا.. سورة الأنعام: ٧٠.

(٢) وهذه أيضا لأنسخ فيها وإنما هو تقييد المطلق فسماه مقاتل نسخا على مقتضى مدلول النسخ عنده فإنه يطلق النسخ على تقييد المطلق أو تخصيص العام أو تفسير المجمل. كما يطلق على التدرج فى التشريع نسخا.

(٣) سورة النساء: ١٤٠ **وتمامها:.. إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا.." [١]

"- ١٢- جدول بآيات منسوخة عند مقاتل وهي اخبار لا تقبل النسخ

اسم السورة/ رقم الآية/ جزء من الآية/ رقم الجزء والورقة فى تفسير مقاتل/ رقم المجلد والصفحة فى النسخة المحققة الانعام/ ٦٩/ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء/ ١/ ١١٨ ب/ ١/ ٥٦٧ الانعام/ ١٥٩/ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا/ ١/ ١٢٧ ا/ ١/ ٥٩٩ التوبة/ ٨٠/ إن تستغفر لهم سبعين مرة/ ١/ ١٥٨ ا/ ٢/ ١٨٦- ١٨٧ الشورى/ ١٥/ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم/ ٢/ ١٣٨ ب/ ٣/ ٧٦٧ الشورى/ ٢٠/ من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها/ ٢/ ١٣٩ ا/ ٣/ ٧٦٨ المجموع/ ٥ آيات

وإليك بيان هذه الآيات:

١- الآية ٦٩ من سورة الانعام هي قوله تعالى:

وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء، ولكن ذكرى لعلهم يتقون، وقد ذكر مقاتل انها منسوخة بالآية ١٤٠ فى سورة النساء وهي: وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم، إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا، والآية الاولى خبر، والاخبار لا تقبل النسخ. وقد ذهب الى ذلك الطبري، وابو جعفر النحاس، وابن الجوزي «٤٠» .

---

(٤٠) النسخ فى القرآن الكريم: ١/ ٤٤١ الفقرة ٦٠٢.." [٢]

"النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا إنا أصبنا ذنوبا عظاما فلم يرد النبي صلى الله عليه وسلم عليهم شيئا فنزلت وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها عليهم (الآية ٥٤) .

٢٦٧: ٦: ٧ سفيان عن الحسن بن عبيد الله عن إبراهيم في قوله توفته رسلنا قال ملك الموت (الآية ٦١) .

٢٦٨: ٧: ٨ سفيان عن منصور عن إبراهيم قال أعوان ملك الموت ثم يقبضها ملك الموت منهم بعد.

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان مقاتل ٥٦٧/١

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان مقاتل ١٧٧/٥

٢٦٩: ٨: ١ حدثنا أبو حذيفة ثنا سفيان عن السدي عن سعيد بن جبير

وأبي ملك فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى قال بعدان تذكر (الآية ٦٨).

٢٧٠: ٩: ٢ سفيان عن السدي عن سعيد بن جبير وأبي ملك وما على الذين يتقون من حسابهم من شئ ولكن ذكرى لعلهم يتقون قال مسآتهم لم (الآية ٦٩).

٢٧١: ١٠: ٣ سفيان عن السدي عن سعيد بن جبير وأبي ملك قالا ثم نزلت وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزي حدثنا بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم.." [١]

"قال الله عز وجل: (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)

الأم: مبتدأ التنزيل والفرض على النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم على الناس:

قال الشافعي رحمه الله: ثم أنزل الله تبارك وتعالى بعد هذا في الحال التي فرض

فيها عزلة المشركين، فقال:

(وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم)

مما فرض عليه، فقال: (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها)

قرأ الربيع إلى: (إنكم إذا مثلهم) الآية.

أحكام القرآن: ما يؤثر عنه - الشافعي - في تفسير في آيات متفرقة:

قال الشافعي رحمه الله: ومثل قوله - عز وجل -: (فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره) الآية.

ومثل هذا في القرآن على ألفاظ.." [٢]

"مناقب الشافعي: باب (ما يؤثر عنه - الشافعي - في الإيمان):

قال الشافعي رحمه الله: وفرض الله على السمع: أن يتنزه عن الاستماع

إلى ما حرم الله، وأن يغضي عما نهى الله عنه، فقال في ذلك:

(وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم) الآية.

* * *

قال الله عز وجل: (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا (١٤٥)

الأم: المرتد عن الإسلام:

---

(١) تفسير سفيان الثوري سفيان الثوري ص/١٠٨

(٢) تفسير الإمام الشافعي الشافعي ٢/٦٧٧

قال الشافعي رحمه الله: وقد قضى الله (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا) الآية.

الأم (أيضا) اللعان:

قال الشافعي رحمه الله: فحقن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – دماءهم بما أظهروا من الإسلام.

وأقرهم على المناكحة والموارثة، وكان الله أعلم بدينهم بالسرائر، فأخبره الله – عز وجل، أنهم في النار، فقال: (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) الآية.

وهذا يوجب على الحكام ما وصفت، من ترك الدلالة الباطنة، والحكم

بالظاهر، من القول، أو البينة، أو الاعتراف، أو الحجة.." (١)

"قال الله عز وجل: (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين (٦٨)

الأم: مبتدأ التنزيل والفرض على النبي – صلى الله عليه وسلم – ثم على الناس:

قال الشافعي رحمه الله: ثم أنزل الله تبارك وتعالى بعد هذا في الحال التي

فرض فيها عزلة المشركين فقال: (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم) الآية، مما فرض عليه فقال: (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها)

قرأ الربيع إلى: (إنكم إذا مثلهم) .

مناقب الشافعي: باب (ما يؤثر عنه في الإيمان) :

قال الشافعي رحمه الله: ثم استثنى موضع النسيان – بعد أن ذكر الآية /

١٤٥ من سورة النساء – فقال – عز وجل –:

(وإما ينسينك الشيطان) أي: فقعدت

معهم: (فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) .." (٢)

"القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ [النساء: ١٤٠] يعني بذلك جل ثناؤه: بشر المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين. ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب﴾ [النساء: ١٤٠] يقول: " أخبر من اتخذ من هؤلاء المنافقين الكفار أنصارا وأولياء بعدما نزل عليهم من القرآن ﴿أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ [النساء: ١٤٠] يعني: بعدما علموا نهي الله عن مجالسة الكفار الذين يكفرون بحجج الله وآي كتابه ، ويستهزئون بها ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ [النساء: ١٤٠] يعني بقوله: ﴿يخوضوا﴾ [النساء: ١٤٠] يتحدثوا حديثا غيره بأن لهم عذابا أليما. وقوله: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾

---

(١) تفسير الإمام الشافعي الشافعي ٦٧٨/٢

(٢) تفسير الإمام الشافعي الشافعي ٨١٤/٢

[النساء: ١٤٠] يعني: وقد نزل عليكم أنكم إن جالستم من يكفر بآيات الله ، ويستهزئ بها وأنتم تسمعون فأنتم مثله ، يعني: فأنتم إن لم تقوموا عنهم في تلك الحال مثلهم في فعلهم ، لأنكم قد عصيتم الله بجلوسكم معهم ، وأنتم تسمعون آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ، كما عصوه باستهزائهم بآيات الله ، فقد أتيتم من معصية الله نحو الذي أتوه منها ، فأنتم إذا مثلهم في ركوبكم معصية الله ، وإتيانكم ما نهاكم الله عنه.." (١)

"ذكر من قال ذلك: حدثني المثنى ، قال: ثنا إسحاق ، قال: ثنا يزيد بن هارون ، عن العوام بن حوشب ، عن إبراهيم التيمي ، عن أبي وائل ، قال: " إن الرجل ليتكلم بالكلمة في المجلس من الكذب ليضحك بها جلساءه ، فيسخط الله عليهم. قال: فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي ، فقال: صدق أبو وائل. أوليس ذلك في كتاب الله: ﴿أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء: ١٤٠]." (٢)

"حدثني المثنى ، قال: ثنا إسحاق ، قال: ثنا عبد الله بن إدريس ، عن العلاء بن المنهال ، عن هشام بن عروة ، قال: أخذ عمر بن عبد العزيز قوما على شراب ، فضربهم وفيهم صائم ، فقالوا: إن هذا صائم فتلا: ﴿فلا تقعدوا معهم -[٦٠٤]- حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء: ١٤٠]." (٣)

"ذكر من قال ذلك حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جريج، قال: "كان المشركون يجلسون إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحبون أن يسمعوا منه، فإذا سمعوا استهزءوا، فنزلت: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ [الأنعام: ٦٨] الآية، قال: فجعل إذا استهزءوا قام، فحذروا وقالوا: لا تستهزئوا فيقوم، فذلك قوله: ﴿لعلهم يتقون﴾ [الأنعام: ٦٩] : أن يخوضوا فيقوم، ونزل: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ [الأنعام: ٦٩] إن قعدوا معهم، ولكن لا تقعدوا، ثم نسخ ذلك قوله بالمدينة: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء: ١٤٠] ، فنسخ قوله: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ [الأنعام: ٦٩] الآية "." (٤)

"وأما قوله: ﴿إنكم لمشركون﴾ [الأنعام: ١٢١] يعني: إنكم إذا مثلهم، إذ كان هؤلاء يأكلون الميتة استحلالا، فإذا أنتم أكلتموها كذلك فقد صرتم مثلهم مشركين. واختلف أهل العلم في هذه الآية: هل نسخ من حكمها شيء أم لا؟ فقال بعضهم: لم ينسخ منها شيء، وهي محكمة فيما عنيت به، وعلى هذا قول عامة أهل العلم. وروي عن الحسن البصري وعكرمة." (٥)

"القول في تأويل قوله: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) ﴾

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٦٠٢/٧

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٦٠٣/٧

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٦٠٣/٧

(٤) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٣١٧/٩

(٥) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٥٣١/٩

قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه:"بشر المنافقين"= الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ="وقد نزل عليكم في الكتاب"، يقول: أخبر من اتخذ من هؤلاء المنافقين الكفار أنصارا وأولياء بعد ما نزل عليهم من القرآن،"أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره"، يعني: بعد ما علموا نهي الله عن مجالسة الكفار الذين يكفرون بحجج الله وآي كتابه ويستهزئون بها="حتى يخوضوا في حديث غيره"، يعني بقوله:"يخوضوا"، يتحدثوا حديثا غيره="بأن لهم عذابا أليما". (١)

وقوله:"إنكم إذا مثلهم"، يعني: وقد نزل عليكم أنكم إن جالستم من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها وأنتم تسمعون، فأنتم مثله= يعني: فأنتم إن لم تقوموا عنهم في تلك الحال، مثلهم في فعلهم، لأنكم قد عصيتم الله بجلوسكم معهم وأنتم تسمعون آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها، كما عصوه باستهزائهم بآيات الله. فقد أتيتم من معصية الله نحو الذي أتوه منها، فأنتم إذا مثلهم في ركوبكم معصية الله، وإتيانكم ما نهاكم الله عنه.

* * *

(١) أراد أبو جعفر بهذه الفقرة أن يبين أن قوله في الآية الأولى: "بأن لهم عذابا أليما"، مقدم ومعناه التأخير، فلذلك قال في أول الكلام"بشر المنافقين" ثم استطرد في ذكر الآيتين بعدها، ثم ختمها بختام الأولى.." [١]

"وفي هذه الآية، الدلالة الواضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع، من المبتدعة والفسقة، عند خوضهم في باطلهم.

* * *

وبنحو ذلك كان جماعة من الأئمة الماضين يقولون، (١) تأولا منهم هذه الآية أنه مراد بها النهي عن مشاهدة كل باطل عند خوض أهله فيه.

*ذكر من قال ذلك:

١٠٧٠٨- حدثني المثنى قال، حدثنا إسحاق قال، حدثنا يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب، عن إبراهيم التيمي، عن أبي وائل، قال: إن الرجل ليتكلم بالكلمة في المجلس من الكذب ليضحك بها جلساءه، فيسخط الله عليهم. قال: فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي، فقال: صدق أبو وائل، أو ليس ذلك في كتاب الله:"أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم"؟

١٠٧٠٩- حدثني المثنى قال، حدثنا إسحاق قال، حدثنا عبد الله بن إدريس، عن العلاء بن المنهال، عن هشام بن عروة قال: أخذ عمر بن عبد العزيز قوما على شراب فضربهم، وفيهم صائم، فقالوا: إن هذا صائم! فتلا"فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم".

١٠٧١٠- حدثني المثنى قال، حدثنا عبد الله بن صالح قال، حدثني معاوية، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر الطبري، أبو جعفر ٩/٣٢٠

قوله:"أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها"، وقوله: (ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) ، [سورة الأنعام: ١٥٣] ، وقوله: (أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) [سورة الشورى: ١٣] ، ونحو هذا من القرآن. قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف

---

(١) في المطبوعة: "كان جماعة من الأمة الماضية"، والصواب من المخطوطة.." (١)

"* ذكر من قال ذلك:

١٣٣٩٦ - حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال، حدثني حجاج، عن ابن جريج قال: كان المشركون يجلسون إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحبون أن يسمعوا منه، فإذا سمعوا استهزءوا، فنزلت:"وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره"، الآية، قال: فجعل إذا استهزءوا قام، فحذروا وقالوا لا تستهزءوا فيقوم! فذلك قوله:"لعلهم يتقون"، أن يخوضوا فيقوم، ونزل:" وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء"، إن قعدوا معهم، ولكن لا تقعدوا. ثم نسخ ذلك قوله بالمدينة: وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم، [سورة النساء: ١٤٠] ، فنسخ قوله:"وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء"، الآية.

١٣٣٩٧ - حدثني محمد بن الحسين قال، حدثنا أحمد بن المفضل قال، حدثنا أسباط، عن السدي قوله:" وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء"، يقول: من حساب الكفار من شيء ="ولكن ذكرى"، يقول: إذا ذكرت فقم ="لعلهم يتقون" مساءتكم، إذا رأوكم لا تجالسونهم استحيوا منكم، فكفوا عنكم. ثم نسخها الله بعد، فنهاهم أن يجلسوا معهم أبدا، قال: وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها، الآية.

١٣٣٩٨ - حدثني محمد بن عمرو قال، حدثنا أبو عاصم قال، حدثنا عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد:"وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء"، إن قعدوا، ولكن لا تقعد.

١٣٣٩٩- حدثني المثنى قال، حدثنا أبو حذيفة قال، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، مثله.." (٢)

"في أكل الميتة وما حرم عليكم ربكم؛ كما:-

١٣٨٣٣- حدثني المثنى قال، حدثنا عبد الله بن صالح قال: حدثنا معاوية، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: (وإن أطعتموهم) ، يقول: وإن أطعتموهم في أكل ما نهيتكم عنه.

١٣٨٣٤- حدثني محمد بن الحسين قال، حدثنا أحمد بن مفضل قال، حدثنا أسباط، عن السدي: (وإن أطعتموهم) ، فأكلتم الميتة.

* * *

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر الطبري، أبو جعفر ٣٢١/٩

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر الطبري، أبو جعفر ٤٤٠/١١

وأما قوله: (إنكم لمشركون) ، يعني: إنكم إذا مثلهم، إذ كان هؤلاء يأكلون الميتة استحلالا. فإذا أنتم أكلتموها كذلك، فقد صرتم مثلهم مشركين.

* * *

قال أبو جعفر: واختلف أهل العلم في هذه الآية، هل نسخ من حكمها شيء أم لا؟ فقال بعضهم: لم ينسخ منها شيء، وهي محكمة فيما عنيت به. وعلى هذا قول عامة أهل العلم. (١)

* * *

وروي عن الحسن البصري وعكرمة، ما:-

١٣٨٣٥- حدثنا به ابن حميد قال، حدثنا يحيى بن واضح، عن الحسين بن واقد، عن يزيد، عن عكرمة والحسن البصري قالا قال: (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين. ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) ، فنسخ واستثنى من ذلك فقال: (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم) [سورة المائدة: ٥] .

* * *

(١) انظر ((الناسخ والمنسوخ)) ، لأبي جعفر النحاس صلى الله عليه وسلم: ١٤٤، قال: ((وفي هذه السورة = يعني سورة الأنعام = شيء قد ذكره قوم هو عن الناسخ والمنسوخ بمعزل، ولكنا نذكره ليكون الكتاب عام الفائدة ...)) ثم ذكر الآية، وما قيل في ذلك، إلى صلى الله عليه وسلم: ١٤٦.." (١)

"قال الأصمعي: العزاز: النفل من الأرض والصلب الحجارة، الذي يسرع منه جري الماء والسيل هذا لفظ الأصمعي. فتأويل العزة الغلبة والشدة التي لا يتعلق بها إذلال.

قالت الخنساء:

كأن لم يكونوا حمى يتقى. . . إذ الناس إذ ذاك من عز بزا

أي من قوى وغلب سلب.

ويقال: قد استعز على المريض إذا اشتد وجعه، وكذلك قول الناس:

يعز علي أن تفعل، أي يشتد، فأما قولهم قد عز الشيء إذا لم يوجد فتأويله قد اشتد وجوده أي صعب أن يوجد، والمآب، واحد.

وقوله: (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره **إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)

أعلم الله عز وجل المؤمنين أن المنافقين يهزأون بكتاب الله، فأمروا ألا

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر الطبري، أبو جعفر ٨٧/١٢

يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره أي في حديث غير القرآن.

وقوله: (إنكم إذا مثلهم).

أي إنكم إذا جالستموهم على الخوض في كتاب الله بالهزؤ فأنتم مثلهم.." (١)

"السلم، ومعناه: تبعكم السلم.

قال الشاعر:

ألا يا نخلة من ذات عرق. . . برود الظل شايعك الظلام

وتقول: آتيتك غدا أو شيعه أي أو اليوم الذي يتبعه، فمعنى الشيعة الذين يتبع بعضهم بعضا، ومعنى الشيع الفرق التي كل فرقة منهم يتبع بعضهم بعضا وليس كلهم متفقين.

* * *

وقوله جل وعز: (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون (١٦٠)

القراءة: (فله عشر أمثالها)، والمعنى فله عشر حسنات أمثالها وكما يجوز عندي خمسة أثوابا، ويجوز فله عشر مثلها في غير القراءة فيكون المثل في لفظ الواحد وفي معنى الجميع، كما قال:، (إنكم إذا مثلهم).

ومن قال أمثالها فهو كقوله: (ثم لا يكونوا أمثالكم)

وإنما جاء على المثل التوحيد.

وأن يكون في معنى الجميع، لأنه على قدر ما يشبه به، تقول مررت بقوم مثلكم، وبقوم أمثالكم.." (٢)

"قوله تعالى: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء: ١٤٠]." (٣)

"٦١٢٧ - حدثنا أبو سعيد الأشج ، ثنا ابن إدريس ، عن العلاء بن المنهال ، عن هشام بن عروة ، أن عمر بن عبد العزيز ، أخذ قوما يشربون ، فضربهم وفيهم رجل صالح فقيل: إنه صائم ، فتلا: ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ [النساء: ١٤٠]." (٤)

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج الزجاج ٢/١٢١

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج الزجاج ٢/٣٠٩

(٣) تفسير ابن أبي حاتم، الأصيل - مخرجا الرازي، ابن أبي حاتم ٤/١٠٩٣

(٤) تفسير ابن أبي حاتم، الأصيل - مخرجا الرازي، ابن أبي حاتم ٤/١٠٩٣

"قوله تعالى: أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها.

٦١٢٤ - حدثنا أبي، ثنا أبو صالح، حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ونحو هذا في القرآن قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم إنما هلك من كان قبلهم بالمري والخصومات في الدين.

٦١٢٥ - قرأت على محمد بن الفضل، ثنا محمد بن علي، أنبأ محمد بن مزاحم، عن بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان قوله: أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فنسخت هذه الآية التي في الأنعام فكان هذا الذي أنزل بالمدينة. وخوفهم فقال: إن قعدتم ورضيتم بخوضهم واستهزائهم بالقرآن ف إنكم إذا مثلهم.

قوله تعالى: فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره.

٦١٢٦ - حدثنا أبي، ثنا عبد الرحمن بن محمد بن سلام الطرسوسي، ثنا يزيد بن هارون، أنبأ العوام بن حوشب، عن إبراهيم التيمي عن أبي وائل، قال: إن الرجل ليتكلم بالكلمة من الكذب ليضحك بها القوم، فيسخط الله عليه، فذكرت ذلك لإبراهيم، النخعي فقال: صدق، أليس الله تعالى يقول: إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره.

قوله تعالى: إنكم إذا مثلهم.

٦١٢٧ - حدثنا أبو سعيد الأشج، ثنا ابن إدريس، عن العلاء بن المنهال عن هشام ابن عروة، أن عمر بن عبد العزيز أخذ قوما يشربون فضربهم وفيهم رجل صالح فقيل إنه صائم، فتلا: فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا.

٦١٢٨ - قرأت على محمد بن الفضل، ثنا محمد بن علي، أنبأ محمد بن مزاحم، عن بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان فقال: إن قعدتم ورضيتم بخوضهم واستهزائهم بالقرآن ف إنكم إذا مثلهم.." (١)

"يبعث، ثم كفروا به بعد ما بعث، ثم ازدادوا كفرا يعني ثبتوا على كفرهم. وقال في رواية الكلبي: آمنوا بموسى عليه السلام ثم كفروا به بعده، ثم آمنوا بعزير، ثم كفروا بعيسى، ثم ازدادوا كفرا يعني بمحمد صلى الله عليه وسلم. وقال في رواية الضحاك: نزلت في شأن أبي عامر الراهب، وهو الذي بنى مسجد الضرار، آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ثم كفر، ثم آمن ثم كفر ومات على كفره. وقال الزجاج: يجوز أن يكون محاربا آمن ثم كفر، ثم آمن ثم كفر، ويجوز أن يكون منافقا أظهر الإيمان وأبطن الكفر، ثم آمن ثم كفر، ثم ازداد كفرا بإقامته على النفاق. فإن قيل: إن الله تعالى لا يغفر كفرا مرة واحدة فأيش الفائدة في قوله آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا؟ قيل له: لأن الكافر إذا أسلم فقد غفر له ما قد سلف من ذنبه، فإذا

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم - محققا الرازي، ابن أبي حاتم ١٠٩٣/٤

كفر بعد إيمانه لم يغفر الله له الكفر الأول، فهو مطالب بجميع ما فعل في كفره الأول، فذلك قوله عز وجل: لم يكن الله ليغفر لهم يعني إذا ماتوا على كفرهم ولا ليهديهم سبيلا أي يوفقهم طريقا.

ثم قال تعالى:

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٨ الى ١٤٠]

بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)

بشر المنافقين وذلك أنه لما نزل قوله تعالى: ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر [الفتح: ٢] فقال المؤمنون هذا لك فما لنا؟ فنزل قوله تعالى: وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا [الأحزاب: ٤٧] فقال المنافقون: فما لنا؟ فنزل قوله تعالى بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما في الآخرة. ثم نعت المنافقين فقال: الذين يتخذون الكافرين يعني اليهود أولياء في العون والنصرة من دون المؤمنين ثم عيرهم بذلك فقال أيبتغون عندهم العزة يعني يطلبون عندهم المنعة والظفر على محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، العزة في اللغة المنفعة والغلبة كما يقال: من عز بز، أي من غلب سلب. ويقال: عز الشيء إذا اشتد وجوده، ثم ذكر أنه لا نصرة لهم من الكفار، والنصرة من الله تعالى، فقال: فإن العزة لله جميعا يعني الظفر والنصر كله من الله تعالى، وهذا كما قال في آية أخرى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين [المنافقون: ٨] .." (١)

"ثم قال: وقد نزل عليكم في الكتاب وذلك أن المشركين بمكة كانوا يستهزئون بالقرآن، فنهى الله تعالى المسلمين عن القعود معهم، وهو قوله وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم- إلى قوله- فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين [الأنعام: ٦٨] فامتنع المسلمون عن القعود معهم، فلما قدموا المدينة كانوا يجلسون مع اليهود والمنافقين، وكان اليهود يستهزئون بالقرآن، فنزلت هذه الآية وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها أي يجحد بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره أي حتى يأخذوا في كلام أحسن. ثم قال **تعالى: إنكم إذا مثلهم يعني**: لو جلستم معهم كنتم معهم في الوزر، وفي هذه الآية دليل أن من جلس في مجلس المعصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية أو عملوا بها، فإن لم يقدر بأن ينكر عليهم ينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية. وروى جويبر عن الضحاك أنه قال: دخل في هذه الآية كل محدث في الدين، وكل مبتدع إلى يوم القيامة. قرأ عاصم وقد نزل عليكم بنصب النون والزاي، وقرأ الباقون بضم النون وكسر الزاي على فعل ما لم يسم فاعله.

ثم قال تعالى: إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا يعني إذا ماتوا على كفرهم ونفاقهم، فبدأ بالمنافقين لأنهم شر من الكفار، وجعل مأواهم جميعا النار. وقال في رواية الكلبي: قوله تعالى فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره

---

(١) تفسير السمرقندي = بحر العلوم أبو الليث السمرقندي ٣٤٨/١

نسخ بقوله عز وجل وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء [الأنعام: ٦٩] وقال عامة المفسرين: إنها محكمة وليست بمنسوخة.

ثم أخبر عن المنافقين، فقال تعالى:

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٤١ الى ١٤٤]

الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١) إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا (١٤٢) مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (١٤٣) يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا (١٤٤)." (١)

"فقيرا لفقره فذلك قوله تعالى إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما منكم فهو يتولى ذلك منهم فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا يعني أن تتركوا الحق وتتبرأوا.

قال الفراء: ويقال معناه: لا تتبعوا الذنوب لتعدلوا كما يقال: لا تتبعن هواك ليرضى عنك أي أنهاك عن هذا كيما يرضى ربك.

ويقال: فلا تتبعوا الهوى فرارا من إقامة الشهادة وإن تلووا باللسان فتحرفوا الشهادة لتبطلوا الحق أو تعرضوا عنها فتكتمونها ولا تقيمونها عند الحكام فإن الله كان بما تعملون من إقامتها وكتمانها خبيرا ويقال: معناه: وإن تلووا أي تدافعوا في إقامة الشهادة، يقال:

لويت حقه أي دافعته وبطلته.

وقال ابن عباس: هذه الآية في [القاضي] وليه شدقه وإعراضه عن أحد الخصمين.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند نزول هذه الآية: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقم شهادته على ما كانت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجحد حقا هو عليه، وليؤده عفوا، ولا يلجئه إلى سلطان [ليأخذ] «١» بها حقه، وأما رجل خاصم إلي فقضيت له إلى أخيه بحق ليس هو له عليه، فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من جهنم» «٢» [٣٩٠] .

مسألة في اللغة

قال أهل المعاني: معنى القسط العدل، يقال أقسط الرجل يقسط إقساطا إذا عدل وقسط يقسط قسوطا إذ جار.

قال الله تعالى: وأقسطوا إن الله يحب المقسطين «٣» وقال تعالى: أما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا.

---

(١) تفسير السمرقندي = بحر العلوم أبو الليث السمرقندي ٣٤٩/١

ويقال: قسط البعير يقسط قسطا إذا يبست يده، ويد قسطا أي يابسة، فكان أقسط معناه أقام الشيء على حقيقته في العدل، وكان معنى قسط أي [خيار] أي يبس الشيء وأفسد جهته المستقيمة.

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٦ الى ١٤١]

يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا (١٣٦) إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)

الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

---

(١) المخطوط مشوش ولم نجده في المصادر وما أثبتناه استظهارا منا. [.....]

(٢) المعجم الكبير: ٢٣/ ٣٨٢ باختصار.

(٣) سورة الحجرات: ٩.." [1]

"وقال الشاعر:

وخيل قد دلفت «١» لها بخيل ... تحية بينهم ضرب وجمع «٢»

ثم وصف المنافقين فقال الذين يتخذون الكافرين أولياء أنصارا وبطانة من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة يعني الرفد والمعونة والظهور على محمد وأصحابه.

وقال الزجاج: العزة يعني المنعة والشدة والغلبة مأخوذ من قولهم: أرض عزاز أي صلبة لا يفيد عليها شيء ويقال: استعز على المريض اشتد وجعه، وقولهم يعز علي أي يشتد، وقولهم إذا عز الشيء لم يوجد فتأويله قد اشتد وجود وصف إن وجد فإن العزة لله جميعا أي القدرة لله جميعا وهو سيد الأرباب. ثم قال وقد نزل عليكم يا معشر المسلمين بمكة في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يعني القرآن يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره أي يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بمحمد وأصحابه والقرآن.

وذلك إن المنافقين كانوا يجلسون إلى أحبار اليهود فيستهزءون بالقرآن ويكذبون به ويحرفونه عن مواضعه فنهى الله تعالى المسلمين عن مجالستهم ومخالطتهم، والذي نزل في الكتاب قوله تعالى وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٤٠٠/٣

«٣» الآية.

الضحاك عن ابن عباس: ودخل في هذه الآية كل محدث في الدين، وكل مبتدع إلى يوم القيامة.

الكلبي عن أبي صالح: صح هذا القول بقوله عز وجل وما على الذين يتقون الشرك والاستهزاء من حسابهم من شيء ولكن ذكرى أي ذكروهم وعظوهم بالقرآن لعلهم يتقون الاستهزاء بمحمد **والقرآن إنكم إذا مثلهم إذا** قعدتم عندهم فأنتم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا الذين يتربصون بكم أي ينتظرون بكم الدوائر يعني المنافقين فإن كان لكم فتح من الله يعني النصر والغنيمة قالوا ألم نكن معكم على دينكم فأعطونا من الغنيمة وإن كان للكافرين نصيب يعني دولة وظهورا على المسلمين قالوا يعني المنافقين ألم نستحوذ عليكم ألم نخبركم بعزيمة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ونطلعكم على سرهم.

وقال أهل اللغة: ألم نستحوذ عليكم ويغلب عليكم قال: استحوذ أي غلب.

وفي الحديث كان عمر أحوذنا أي غالب أمرنا في الحق.

وقال العجاج:

يحوذهن وله حوذي. ... [كما يحوذ الفئة] الكمي «٤» .

---

(١) دلفت: زحفت.

(٢) لسان العرب: ٥/ ٢٦٤.

(٣) سورة الأنعام: ٦٨.

(٤) الحوذ: السير الشديد، والحوز: السير برفق، والبيت في تصحيفات المحدثين للعسكري: ٢٠٦.." (١)

"فاتخذتموهم أولياء ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ كفار، إذا جالستموهم على تلك الحال، لأن من لم يجتنبهم، فهو راض بفعلهم، فالرضا بالكفر كفر.

وهذه الآية تدل على اجتناب أهل المعاصي إذ ظهر منهم منكر، ومجانبة أهل الباطل من كل نوع من المبتدعة والقدرية وغيرهم إذا خاضوا في فسقهم.

وروى إبراهيم التيمي عن أبي وائل قال: إن الرجل ليتكلم بالكلمة في المجلس من الكذب ليضحك بها جلساؤه فيسخط الله عليهم.

وقال إبراهيم النخعي: إذ سمع هذا عن أبي وائل، صدق أبو وائل، أو ليس ذلك في كتاب الله D ﴿ أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا." (٢)

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٤٠٣/٣

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ١٥٠٢/٢

"في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ أي: يجمعهم بموالاة بعضهم بعضا فكلهم كافر.

قوله: ﴿الذين يتربصون بكم﴾ الآية.

في قراءة أبي: ومنعناكم في موضع: نمنعكم.

وأجاز الفراء: ونمنعكم بالنصب على الصرف.

ومعنى الآية: أنها صفة للمنفقين لأنهم كانوا يتربصون بالمؤمنين، فإن كان فتح من الله جل وعز للمؤمنين، قالوا للمؤمنين: ألم نمنعكم في جهادكم، فطلبوا الفيء من الغنيمة ﴿وإن كان للكافرين﴾ ظفر على المؤمنين قالوا للكافرين ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ أي: نغلب عليكم حتى قهرتم المؤمنين ﴿ونمنعكم﴾ من المؤمنين، أي: كنا عيونا لكم نأتيكم بالأخبار في السر، ونخذل المؤمنين حتى غلبتموهم ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾ أي: بين المؤمنين والمنافقين ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ أي: حجة يوم القيامة.

وهذا وعد من الله جل ذكره للمؤمنين يكون في القيامة فأما في الدنيا فقد يغلبون ويغلبون، ودل على ذلك قوله ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾.

وقيل: معناه: لا يجعل الله الكافرين على المؤمنين سبيلا يوم القيامة في قتلهم لهم، وسبيهم لذراريهم، ذلك مباح للمؤمنين في الدنيا، ولا درك عليهم في." (١)

"﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ قوله تعالى: ﴿إن الذينءامنوا ثم كفروا ثمءامنوا ثم كفروا﴾ فيه ثلاثة أقاويل: فيه ثلاثة أقاويل: أحدها: أنهم آمنوا بموسى ثم كفروا بعبادة العجل ، ثم آمنوا بموسى بعد عوده ثم كفروا بعيسى ، ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليهم وسلم ، وهذا قول قتادة.." (٢)

"ويقال يا أيها الذين آمنوا باستعمال أدلة العقول آمنوا إذا أنختم بعقوة الوصول، واستمكنت منكم حيره البديهة «١» وغلبات الذهول «٢» ثم أفقتم عن تلك الغيبة فآمنوا أن الذي كان غالبا عليكم كان شاهد الحق لا حقيقة الذات «٣» فإن الصمدية منزهة متقدسة عن كل قرب وبعد، ووصل وفصل.

قوله جل ذكره:

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٧ الى ١٣٨]

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ١٥٠٣/٢

(٢) تفسير الماوردي = النكت والعيون الماوردي ٥٣٦/١

إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨)

الذين تبدلت بهم الأحوال فقاموا وسقطوا ثم انتعشوا ثم ختم بالسوء أحوالهم، أولئك الذين قصمتهم «٤» سطوة العزة حكما، وأدركتهم شقاوة القسمة خاتمة وحالا- فالحق سبحانه لا يهديهم لقصد، ولا يدلهم على رشد، فبشرهم بالفرقة الأبدية، وأخبرهم بالعقوبة السرمدية.

قوله جل ذكره:

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٩ الى ١٤٠]

الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)

---

(١) الحيرة بديهة ترد على قلوب العارفين عند تأملهم وحضورهم وتفكرهم تحجبهم عن التأمل والفكرة، وقال الواسطي: حيرة البديهة أجل من سكون التولي عن الحيرة (اللمع ص ٤٢١) .

(٢) الغلبات عند قوة الرغبة والانفلات من دواعي الهوى والنفوس، عند قوة رغبة الطالب إذا لاح له أعلام المزيد فى حال طلبه المطلوب، فلو ظن أن مطلوبه وراء بحر سبحه أو فى تيه سلكه بالهجوم عند غلبات الإرادة وقوة سلطان المطالبة عليه (اللمع ص ٤١٧) .

(٣) هذا تنبيه هام وخطير يدحض به المضللين والأدعياء، أولئك الذين شن عليهم القشيري هجومه العنيف فى مستهل «رسالته» والذين أساءوا إلى التصوف وأهله.

(٤) القصم: الكسر. حكى عن الزقاق أنه قال: لو أن المعاصي كانت شيئا اخترته لنفسى ما أجزتني ذلك لأن ذلك يشيهنى، وإنما قصم ظهرى حين سبق لى منه ذلك. (اللمع ص ٤٣٤) . [.....]."[1]

"قوله: «إنكم إذا مثلهم» : أوضح برهان على سريرة (....) «١» صحبة من يقارنه «٢» وعشرة من يخادنه فالشكل مقيد بشكله، والفرع منتشر عن أصله.

قوله جل ذكره:

[سورة النساء (٤) : آية ١٤١]

الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم

---

(١) لطائف الإشارات = تفسير القشيري القشيري، عبد الكريم ٣٧٤/١

ويمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)
لما عدموا الإخلاص فى الحقيقة، وما ذقوا فيما استشعروا من العقيدة، امتازوا «٣» عن المسلمين فى الحكم، وباينوا الكافرين فى الاسم، وواجب على أهل الحق التحرز عنهم والتحفظ منهم، ثم ضمن لهم- سبحانه- جميل الكفاية بقوله: «ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا» «٤» وهذا على العموم فإن وبال كيدهم إليهم مصروف، وجزاء مكرهم عليهم موقوف، والحق- من قبل الحق سبحانه- منصور أهله، والباطل- بنصر الحق سبحانه- مجتث أصله.
قوله جل ذكره:

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٤٢ الى ١٤٣]
إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا (١٤٢)
مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (١٤٣)

---

(١) مشتبهة ولا بد أنها كلمة بمعنى (المرء) أو (الشخص) ... ونحوهما.
(٢) يقارنه هنا معناها أن يكون له قرين.
(٣) امتازوا هنا معناها افترقوا بعلامات مخصوصة.
(٤) قال على رضى الله عنه لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا يوم القيامة حين يحكم الله بينهم، فلا يكون للكافرين سبيل إلى حجة. ويرى غيره أن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا فى الدنيا فلن يستطيعوا عليهم نصرا بالكلية، ولكن قد يحصل لهم ظفر فى بعض الأحيان على بعض الناس ولكن العاقبة للمتقين فى الدنيا والآخرة. (ابن كثير ص ٥٦٧)." (١)

"وقوله: ﴿ومثلا للآخرين﴾. قال ابن عباس ومقاتل: يريد عظة لمن بقي بعدهم (١) وآية وعبرة، والمعنى: أن حال غيرهم من المشركين يقاس بحالهم ويجروا مجراهم إذا ماتوا على الطغيان. قال أبو علي: والمثل واحد يراد به الجمع، ومن ثم عطف على سلف، ويدلك على وقوعه أكثر من واحد. قوله: ﴿ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه﴾ [النحل: ٧٥]، فأوقع لفظ الإفراد على التثنية، وكذلك أفرد في موضع التثنية فيما أنشد سيبويه:
وساقيين مثل زيد وجعل (٢)
وقد جمع المثل في قوله: ﴿وتلك الأمثال﴾ [الحشر: ٢١] وقوله: ﴿ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ [محمد: ٣٨]، وأفرد في قوله (٣): ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء: ١٤٠].

٥٧ - قوله تعالى: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون﴾ قال ابن عباس في رواية عطاء: يريد لما ذكر عيسى،

---

(١) لطائف الإشارات = تفسير القشيري القشيري، عبد الكريم ٣٧٦/١

وقدرة الله تعالى فيه وخلقه إياه من غير ذكر، وما كان يفعل من إحياء الموتى وغير ذلك إذا قومك منه يصدون يريد: يضجون كضجيج الإبل بالأثقال (٤).

وقال مجاهد في هذه الآية: قالوا إنما يريد محمد أن نعبده كما عبد

---

(١) انظر: "تفسير الطبري" ١٣/ ٨٥، "تفسير مقاتل" ٣/ ٧٩٨.

(٢) هذا صدر البيت وعجزه:

سقبان ممشوقان مكنوزا العضل

انظر: "الكتاب" ٢/ ١٧، "شرح أبيات" سيبويه ص ٩٥، "الحجة" ٦/ ١٥٣.

(٣) انظر: "الحجة" ٦/ ١٥٣.

(٤) ذكر ذلك القرطبي في "الجامع" ١٦/ ١٠٣.." [1]

"وقال الله تعالى: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ (١) [النساء: ١٤٠] ولم يقل: أمثالهم. وقد جمع في قوله ﴿ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ [محمد: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿رأي العين﴾. يقال: (رأيته (٢) رأيا)، و (رؤية)، و (رأيته في المنام رؤيا حسنة) غير مجراة (٣). فالرؤيا تختص بالمنام، وهو مصدر لـ (رأيت) (٤)، ويقول: (هو مني رأي العين) أي: حيث يقع عليه بصري. فقوله: ﴿رأي العين﴾ يجوز (٥) أن ينتصب عدى المصدر (٦)، ويجوز أن يكون ظرفا للمكان (٧)، كما تقول: (تروهم أمامكم). ومثله: (هو مني مزجر الكلب) (٨)،

= والشاهد في البيت: إفراد (مثل) وهي في موضع التثنية.

(١) فأفردت (مثل) في الآية، وهي في موضع الجمع.

(٢) من قوله: (رأيته ..) إلى (.. مجراة): نقله عن "تفسير الطبري" ٣/ ١٩٨ مع التصرف.

(٣) في (ج): (محزاة) ، (د): (مجزاة). ومعنى: (غير محجراة): أي أن كلمة (رؤيا)، غير مصروفة، والإجراء: المنع من الصرف. وهو من اصطلاحات الكوفيين. يقولون: (ما يجرى وما لا يجرى)، و (الجاري وغير الجاري). قال ابن حجر: (وهذا اصطلاح قديم، يقولون للاسم المصروف: مجرى). "فتح الباري" ٨/ ٦٨٤. وقد وردت هذه اللفظة كثيرا عند الفراء. انظر: "معاني القرآن" ٣/ ١٥٠، ٢١٤، ٢١٨، "والحروف" لأبي الحسين المزني ٥٩، "النحو وكتب التفسير" ١/ ١٨٦، "دراسة في النحو الكوفي" ص ٢٣٣.

(٤) في (د): (مصدرا رأيت).

(٥) في (ج): (ويجوز).

---

[1] التفسير البسيط الواحدي ٦٤/٢٠

(٦) والنصب هنا على المصدر: إما المصدر التوكيدي، أو المصدر التشبيهي أي: رأيا مثل رأي العين أي: يشبه رأي العين.
(٧) أي: يجوز نصبه لكونه ظرف مكان.
(٨) انظر هذا المثل في "كتاب سيبويه" ١/ ٤١٣، ٤١٦، "الأصول" لابن السراج ١/ ١٩٩، "المسائل الحلبيات" للفارسي ٥٩، "اللسان" ٣/ ١٨١٣ (زجر).
والمزجر: اسم لمكان الزجر. والزجر: المنع والنهي والانتهار. ومعنى هذا المثل: أنه مني في القرب بتلك المنزلة.
انظر: (زجر) في "اللسان" ٣/ ١٨١٣، "المعجم الوسيط" ١/ ٣٩٠.." [1]

"وقال أبو العالية: ثم ازدادوا كفرا بذنوب أصابوها في كفرهم (١).
قال أبو عبيد: جعل أبو العالية إصابة الذنوب زيادة في الكفر، كما أن أعمال البر زيادة في الإيمان (٢).
وقال أبو علي: ما ازدادوه من الكفر إنما هو بقولهم: ﴿إنما نحن مستهزئون﴾ [البقرة: ١٤] فهذا زيادة في الكفر. ويدل على أن المستهزئ (٣) باستهزائه كافر، فيزداد به كفرا إلى كفره قوله تعالى: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم﴾ إلى قوله: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء: ١٤٠]، فإذا كان المجالس مثلهم وإن لم يظهر ذلك ولم يعتقده، فالقاتل لذلك أشد ذهابا في الكفر (٤).
وقوله تعالى: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ إن قيل: إن الله عز وجل لا يغفر الكفر وقد أخبر به، فلم قال ههنا فيمن آمن ثم كفر، ثم آمن ثم كفر: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾؟
فالجواب: أن الله تعالى يغفر للكافرين (٥) كفره إذا آمن، فإن كفر بعد إيمانه لن يغفر له الكفر الأول، لأنه إذا كفر بعد إيمان قبله كفر، كان مطالبا بجميع كفره.
وهذا جواب ذكره الزجاج (٦)، وبه قال بعض الأصوليين (٧).

---

(١) لم أقف عليه.
(٢) لم أقف عليه.
(٣) في المخطوط: "المستهزئين"، والتصويب من "الحجة" ١/ ٢٣٤.
(٤) "الحجة" لأبي علي ١/ ٢٣٤، ٢٣٥.
(٥) هكذا في المخطوط، والإفراد أظهر.
(٦) "معاني القرآن وإعرابه" ٢/ ١٢٠.
(٧) لم أقف عليه.." [2]

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٨٣/٥
(٢) التفسير البسيط الواحدي ١٤٩/٧

"قال المفسرون: الذي نزل في النهي عن مجالستهم ما نزل بمكة من قوله تعالى: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾ الآية [الأنعام: ٦٨] وكان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود، فيسخرون من القرآن ويكذبون به فنهى الله عز وجل المسلمين (١).

وقوله تعالى: ﴿أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها﴾ أي إذا سمعتم الكفر بآيات الله والاستهزاء بها ، ولكن أوقع فعل السماع على الآيات والمراد بالسماع الاستهزاء (٢).

قال الكسائي: وهو كمال تقول العرب: سمعت عبد الله يلام، وأتيت عبد الله يلام، إنما سمع اللوم فأوقع على الملوم (٣).

وقوله تعالى: ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾.

أي يأخذوا في حديث غير الكفر والاستهزاء، فكنى عنه لأن الفعل يدل على المصدر.

وقوله تعالى: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾، قال ابن عباس: "يريد إنكم كافرون مثلهم" (٤).

وهذا دليل على الوعيد لمن رضي بحالهم وما هم عليه من الكفر والاستهزاء (٥)، أو من رضي بالكفر فهو كافر، ويدل على أن من رضي بمنكر وخالط أهله وإن لم يباشر ذلك كان في الإثم والمعصية بمنزلة

---

(١) من "الكشف والبيان" ٤/ ١٣٤ أبتصرف، وانظر: "بحر العلوم" ١/ ٣٩٨، والبغوي ٢/ ٣٠١، و"الكشاف" ١/ ٣٠٥، و"زاد المسير" ٢/ ٢٢٨، و"الدر المنثور" ٢/ ٤١٥.

(٢) انظر: القرطبى ٥/ ٤١٧، ٤١٨.

(٣) لم أقف عليه عن الكسائي، وانظر: القرطبي ٥/ ٤١٨.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) انظر: الطبري ٥/ ٣٣٠.." (١)

"لأن الله تعالى خوفهم فقال: إن قعدتم معهم ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء: ١٤٠] وقال غيرهم: (ليست بمنسوخة، ولكن المعنى: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ إذا قعدوا معهم بشرط التذكير والموعظة) (١).

٧٠ - قوله تعالى: ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا﴾ الآية، قال ابن عباس (٢) والمفسرون (٣): (يعني: الكفار الذين إذا سمعوا آيات الله استهزؤوا بها وتلاعبوا عند ذكرها).

وقال الفراء: (يقال: ليس من قوم إلا ولهم عيد فهم (٤) يلهون في أعيادهم إلا أمة محمد، فإن أعيادهم بر وصلاة وتكبير وخير) (٥)، وهذا قول الكلبي (٦)، فعلى القول الأول معنى قوله ﴿دينهم﴾: الذي شرع لهم، وعلى قول الفراء المراد بالدين: العيد؛ لأنه مما يتدين (٧) به فصار داخلا في جملة الدين.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١٥٤/٧

(١) هذا هو الظاهر، واختيار النحاس في "ناسخه" ٢/ ٣١٩، ومكي في "الإيضاح" ص ٢٤٣، وابن الجوزي في "النواسخ" ص ٣٢٥، ومصطفى زيد في "النسخ في القرآن" ١/ ٤٤٠، قالوا: (الآية خبر ومحال نسخه، والمعنى فيه بين، أي: ما عليكم شيء من آثامهم إنما يلزمكم الإنذار والنهي عن المنكر، ولا يقعد معه راضيا بقوله وفعله وإلا كان مثله) وانظر: ابن عطية ٥/ ٢٣٥، والقرطبي ٧/ ١٥، وانظر: "مفهوم النسخ عند السلف" في ص ٢٦٧.

(٢) ذكر نحوه بدون نسبة البغوي ٣/ ١٥٥، وابن الجوزي ٣/ ٦٤.

(٣) انظر: الطبري ٧/ ٢٣١، والماوردي ٢/ ١٢٩.

(٤) في (ش): (عيد فلهم)، وهو تحريف.

(٥) "معاني الفراء" ١/ ٣٣٩.

(٦) ذكره السمرقندي ١/ ٤٩٣، والقرطبي ٧/ ١٦، وذكره الرازي ١٣/ ٢٧ عن ابن عباس.

(٧) في (ش): (مما تدين به).." [(١)]

"﴿وقد نزل عليكم﴾ أيها المؤمنون ﴿في الكتاب﴾ في القرآن ﴿أن إذا سمعتم﴾ الكفر بآيات الله والاستهزاء بها ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث﴾ غير الكفر والاستهزاء يعني: قوله في سورة الأنعام ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾ هذه كانت مما نزل عليهم في الكتاب وقوله: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ يعني: إن قعدتم معهم راضين بما يأتون من الكفر بالقرآن والاستهزاء به وذلك أن المنافقين كانوا يجلسون إلى أحبار اليهود فيسخرون من القرآن فنهى الله سبحانه المسلمين عن مجالستهم ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ يريد: أنهم كما اجتمعوا على الاستهزاء بالآيات يجتمعون في جهنم على العذاب." [(٢)]

"الذين يتخذون الكافرين﴾ [النساء: ١٣٩] يعني: اليهود ﴿أولياء من دون المؤمنين﴾ [النساء: ١٣٩] كان المنافقون يوالون اليهود ويتوهمون أن لهم القوة والمنعة وذلك قوله: ﴿أيبتغون عندهم العزة﴾ [النساء: ١٣٩] أي: القوة بالظهور على محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، والمعنى: أيطلبون أن يتقووا بهم فيظهروا على المسلمين؟ وقوله: ﴿فإن العزة لله جميعا﴾ [النساء: ١٣٩] أي: الغلبة والقوة لأنه عزيز بعزه ومعز من عز من عباده بما خلق من العزة، فله العزة جميعا من كل وجه.

﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ﴿١٤٠﴾ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴿١٤١﴾ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴿١٤٢﴾ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴿١٤٣﴾ ﴾ [النساء: ١٤٠-١٤٣] قوله تعالى: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب﴾ [النساء: ١٤٠] الآية،

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٨/٢١٤

(٢) الوجيز للواحدي الواحدي ص/٢٩٦

قال المفسرون: الذي نزل عليهم في الكتاب: النهي عن مجالستهم.
وهو قوله: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾ [الأنعام: ٦٨] الآية.
وكان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود فيسخرون من القرآن، ويكذبون به، فنهى الله المسلمين عن مجالستهم.
وقوله: ﴿أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها﴾ [النساء: ١٤٠] أي: إذا سمعتم الكفر بآيات الله والاستهزاء بها ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ [النساء: ١٤٠] أي: يأخذوا في حديث غير الكفر والاستهزاء.
﴿إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء: ١٤٠] أي: إنكم كافرون مثلهم لأن من رضي بالكفر فهو كافر.
وهذا يدل على أن من." (١)

"﴿لم يكن الله ليغفر لهم:﴾ شيئا من كفرهم الأول والثاني والثالث؛ لأن الكفر المتأخر أحبط العمل المتقدم (١).
﴿ولا ليهديهم سبيلا:﴾ لا يوفقهم، والتوفيق هو التيسير لليسرى، وذلك غير واجب بعد التمكين الذي يلزم به الحجة (٢).
وقبول توبة هؤلاء مختلف فيه (٣).

١٣٩ - ﴿أيبتغون:﴾ على الإنكار.
﴿فإن العزة:﴾ «أي: المنعة» (٤).
﴿لله جميعا﴾ يكرم بها من يشاء وقد ردها (٥) لرسوله وللمؤمنين.

١٤٠ - ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب:﴾ قوله: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾ [الأنعام:٦٨] (٦).
و ﴿أن:﴾ لترجمة المنزل ما هو، والتقدير: وقد نزل عليكم في الكتاب شيئا وهو قوله: ﴿إذا سمعتم آيات الله﴾ (٨٩ ظ) ﴿يكفر بها ويستهزأ بها (٧)﴾: بالقرآن، وهو استخفافه.
﴿فلا تقعدوا معهم:﴾ فطرد المعاشرة دون المجادلة والتقية، وإنما أباح القعود بعد الغاية لرفع الجناح أو لاستمالتهم (٨).
والكناية في (معهم) راجعة إلى (٩) الكافرين والمستهزئين.
و (الخوض) في الحديث هو الشروع في الكلام، وضده الإمساك عنه (١٠).
﴿إنكم إذا مثلهم:﴾ أي: إن قعدتم معهم موالين إياهم كنتم مثلهم في الكفر والنفاق (١١).

---

(١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ٢/ ١٢٠، والتبيان في تفسير القرآن ٣/ ٣٥٩ - ٣٦٠.
(٢) ينظر: تفسير الطبري ٥/ ٤٤١.
(٣) ينظر: تفسير البغوي ١/ ٤٩٠.
(٤) معاني القرآن وإعرابه ٢/ ١٢٠، ومعاني القرآن الكريم ٢/ ٢١٨.

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ١٢٩/٢

(٥) في الأصل وع وب: وردها. وينظر: التفسير الكبير ١١/ ٨٠.

(٦) ينظر: تفسير القرآن الكريم ٢/ ٤٤٥ - ٤٤٦، وتفسير البغوي ١/ ٤٩١، والقرطبي ٥/ ٧؟؟؟.

(٧) (ويستهزأ بها) ليس في ب. وينظر في توجيه (أن): المجيد ٤٦٢ - ٤٦٣ (تحقيق: د. عطية أحمد)، والدر المصون ٤/ ١٢٠ - ١٢١.

(٨) ينظر: التفسير الكبير ١١/ ٨١.

(٩) ساقطة من ب. وينظر: الكشاف ١/ ٥٧٨، ومجمع البيان ٣/ ٢١٧، والبحر المحيط ٣/ ٣٩٠.

(١٠) في ب: عنهم.

(١١) ينظر: تفسير الطبري ٥/ ٤٤٣، وتفسير القرآن الكريم ٢/ ٤٤٦، وتفسير البغوي ١/ ٤٩١.." [١]

"على اعتقاد الكفر وماتوا عليه، ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ شيئا من كفرهم الأول والثاني والثالث لأن الكفر المتأخر أحبط العمل المتقدم ﴿ولا ليهديهم سبيلا﴾ لا يوفقهم، و (التوفيق): هو التيسير لليسرى، وذلك غير واجب بعد التمكين الذي يلزم به الحجة، وقبول توبة هؤلاء مختلف فيه. ﴿أيبتغون﴾ على الإنكار ﴿فإن العزة﴾ أي: المنعة ﴿لله جميعا﴾ يكرم بها من يشاء وقد وردها لرسوله وللمؤمنين.

﴿وقد نزل عليكم في الكتاب﴾ قوله: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾ [الأنعام: ٦٨] وإن لترجمة المنزل ما هو، والتقدير: وقد نزل عليكم في الكتاب شيئا وهو قوله: ﴿أن (١) إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها (٢)﴾ بالقرآن وهو استخفافه ﴿فلا تقعدوا معهم﴾ فطرد المعاشرة دون المجادلة والتقية، وإنما أباح القعود بعد الغاية لرفع الجناح ولاستمالتهم، والكناية في ﴿معهم﴾ راجعة إلى الكافرين والمستهزئين، والخوض في الحديث هو الشروع في الكلام وضده الإمساك عنه، ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ أي: إن قعدتم معهم موالين إياهم كنتم مثلهم في الكفر والنفاق ﴿المنافقين﴾ المضمرين الكفر و ﴿والكافرين﴾ المظهرين له.

﴿يتربصون بكم﴾ أي: نزول الدوائر والحوادث ﴿فتح﴾ نصرة ﴿نصيب﴾ دولة ﴿ألم نكن معكم﴾ نشارككم في هذا الغزو ويطلبون الشركة في الغنيمة ﴿ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم﴾ ألم نغلبكم ونستول عليكم مع المؤمنين ونحكم ونجركم، يذكرون أياديهم حالة الاستيلاء ﴿فالله يحكم﴾ يفصل الحكمة ﴿سبيلا﴾ أي: حجة صحيحة، ويحتمل أن معناه إن ينصرهم عليهم فإنهم وإن غلبوا فهم المخذولون الأخسرون.

﴿كسالى﴾ جمع كسلان، و (الكسل): التثبط والتبرم والقليل من الذكر ما ﴿يراءون﴾ ويسمعون به.

---

(١) (أن) من الأصل.

(٢) (ويستهزأ بها) ليست في "أ".." [٢]

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٥٣٤/١

(٢) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الحكمة الجرجاني، عبد القاهر ٦٣٩/٢

"قوله – تعالى –: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ .

هذا إشارة إلى ما أنزل في سورة الأنعام ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم ... .﴾ الآية. نهى عن القعود معهم، وما حكم القعود معهم؟ أما إذا قعد معهم ... ورضى بما يخوضون فيه، فهو كافر مثلهم، وهو معنى قوله: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ . وإن قعد، ولم يرض بما يخوضون فيه، فالأولى أن لا يقعد، ولكن لو قعد كارها، فلا يكفر، وهذا هو الحكم في كل بدعة يخاض فيها، فلو تركوا الخوض فيه وخاضوا في حديث غيره، فلا بأس بالقعود معهم وإن كره؛ لقوله ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ قال الحسن: وإن خاضوا في حديث غيره لا يجوز القعود معهم؛ لقوله في سورة الأنعام: ﴿وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ والأكثرون على أنه يجوز، وآية الأنعام مكية وهذه الآية مدنية، والمتأخر أولى.

﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا." (١)

"﴿الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا﴾ فإن قال قائل: قد نرى في بعض الأحوال الغلبة للكفار؛ فما معنى قوله: ﴿فإن العزة لله جميعا﴾ ؟ قيل: معناه: أن المقوى هو الله – تعالى – في الأحوال كلها.

وقيل: معناه: الغلبة بالحجة لله جميعا.." (٢)

"تسميتها الجهلة عزا فليس ذلك في الحقيقة بعز إذا اعتبرت الحقايق.

قوله تعالى: (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)

منع تعالى المؤمنين من مجالسة من قصده العناد والهزؤ، وليس

له قصد إلى حماع الصدق ولا نية رجاء أن يسخر بلى حق، فأما من رجي أن

يقلع عن رأيه فجائز مجالسته بل واجب، ولهذا قال الحسن: إنا كنا إذا

رأينا باطلا تركناه حتى لا يسرع ذلك في ديننا،

وقول ابن عباس: لمن يجوز أن يقعد معهم بوجه حتى نزل قوله تعالى:

(وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون) نسخ ذلك، فليس يقصد حقيقة النسخ، وإنما يعني أن الآية كانت تحمل على العموم، فعلم بهذه الآية تخصيصها وأنه يجوز مجالستهم إذا رجي منهم رشدا، ولا يجوز فيما

---

(١) تفسير السمعاني السمعاني، أبو المظفر ٤٩٢/١

(٢) تفسير السمعاني السمعاني، أبو المظفر ٤٩٢/١

يؤدي بهم إلى فساد
ولهذا قال تعالى: (فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين (٦٨)." [١]
"ونبه بقوله: (إنكم إذا مثلهم) على أن الاستماع إلى الباطل مكروه، كما أن التفوه به مكروه، وبهذا ألم الشاعر فقال:
سمعك صن عن سماع القبح ... كصون اللسان عن اللفظ به
والسامع للذم شريك له والمطعم للمأكول كالآكل. ونحو الآية قوله
تعالى: (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره) وبين أن المنافق الذي يظهر بلسانه الإيمان
دون قلبه، والكافر الذي يصرح بالكفر هما سيان في استحقاق النار، فإن
الاعتبار بإخلاص النية كما قال عليه الصلاة والسلام: (ولكل امرئ ما نوى).." [٢]
"ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال (١٧) للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به

وقوله: (في النار) حال "للهاء" من "عليه "، أي كالا في
النار، قوله: (ابتغاء حلية) ، يريد ما يتخذ من النحاس والصفر والحديد
والرصاص من الأواني وغيرها مما يمتع به في السفر والحضر.
قوله: (زبد مثله)
يريد لهذه الفلزات إذا غليت بالنار زبد مثل زبد الماء، و"ابتغاء"
نصب على المفعول له. أي لابتغاء حلية.
الغريب: نصب على الحال، أي مبتغين حلية.
قوله: (كذلك يضرب الله الحق والباطل)
فيه قولان، أحدهما:
أي مثل الحق والباطل، فحذف المضاف، والثاني: (يضرب الله الحق والباطل) ، الأمثال، وهو قوله: (كذلك يضرب الله الأمثال (١٧) .
فلما حيل بينهما بقوله: (فأما الزبد) الآية، أعاد فقال: (كذلك يضرب الله الأمثال (١٧) .
قوله: (جفاء) هو ما جفاه الوادي، أي رماه.

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني الراغب الأصفهاني ٤/٢٠١
(٢) تفسير الراغب الأصفهاني الراغب الأصفهاني ٤/٢٠٢

الغريب: ممحقا.

العجيب: متنشفا.

قوله: (لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه) .

قال الشيخ الإمام: يحتمل أن المراد بالمثل، الجمع، كقوله: (إنكم إذا مثلهم) ، أي أمثالهم، لتكون المبالغة على وجه لا مزيد عليها.

سؤال: لم قال في هذه السورة: (لافتدوا به) ، وقال في غيرها: (ليفتدوا به)

الجواب: لأن "لو" يقع على الماضي أولا وثانيا.

وقوله: (ما تقبل منهم) جواب لهم، و (ليفتدوا) اعتراض، وفي هذه السورة جاء على القياس من غير اعتراض.." [1]

"في الكهف في المداد فحسب اكتفاء بذكر أحدهما عن الآخر كما اكتفى بذكر

الأقلام والمداد عن ذكر ما يكتب عليه، وعن ذكر الكتبة لأن تقدير الآية لو

جعلت الأشجار أقلاما والبحار مدادا والسموات والأرض قرطاسا والأنس

والجن والملائكة كتبة ثم كتبوا منها عليها، ما نفدت كلمات الله، ومعنى

قوله: (أقلام) أي بريت أقلاما.

قال الشيخ الإمام: ويحتمل ولو أن ما في الأرض من شجرة شجرة أقلام فبريت أقلاما.

(سبعة أبحر) يريد به الكثرة، لا سبع العدد، وقوله في الكهف "ولو جئنا بمثله مددا) ، أي بأمثاله، يوافق هذه الآية، ومثل قد يقع للجمع، كقوله: (إنكم إذا مثلهم) أي أمثالهم من نصب البحر عطفه على "ما" ومن رفعه جعله مبتدأ "يمده" خبره، والتقدير، والبحر هذه حاله.

قوله: (كنفس واحدة) .

أي كخلق نفس واحدة وبعثها.

قوله: (بنعمة الله) .

حال، أي منعما بها عليكم.

الغريب: بنعمة الله، أي بالريح، لأن الريح من نعم الله.

قوله: (صبار شكور)

أي صبار ما دام فيها، شكور إذا خرج، وقيل: صبار شكور أي مسلم.

لقوله: "الإيمان نصفان، نصف صبر، ونصف شكر".

قوله: (فمنهم مقتصد) .

---

(١) غرائب التفسير وعجائب التأويل الكرماني، برهان الدين ١/٥٦٧

أي مقيم على عبادة الله، ومنهم جاحد فحذف لأن قوله: (وما يجحد) يدل عليه، وقيل: (فمنهم مقتصد) ، ذم، ومعناه جاحد.." (١)

"﴿الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١) ﴾

﴿وقد نزل عليكم في الكتاب﴾ قرأ عاصم ويعقوب "نزل " بفتح النون والزاي، أي: نزل الله، وقرأ الآخرون "نزل " بضم النون وكسر الزاي، أي: عليكم يا معشر المسلمين، ﴿أن إذا سمعتم آيات الله﴾ يعني القرآن، ﴿يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم﴾ يعني: مع الذي يستهزئون، ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ أي: يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن، وهذا إشارة إلى ما أنزل الله في سورة الأنعام "وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره" (الأنعام -٦٨) .

وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: دخل في هذه الآية كل محدث في الدين وكل مبتدع إلى يوم القيامة، ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ أي: إن قعدتم عندهم وهم يخوضون ويستهزئون ورضيتم به فأنتم كفار مثلهم، وإن خاضوا في حديث غيره فلا بأس بالقعود معهم مع الكراهة، وقال الحسن: لا يجوز القعود معهم وإن خاضوا في حديث غيره، لقوله تعالى: ﴿وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ والأكثرون على الأول. وآية الأنعام مكية وهذه مدنية والمتأخر أولى: ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾

﴿الذين يتربصون بكم﴾ [ينتظرون بكم الدوائر] (١) ، يعني: المنافقين، ﴿فإن كان لكم فتح من الله﴾ يعني: ظفر وغنيمة، ﴿قالوا﴾ لكم ﴿ألم نكن معكم﴾ على دينكم في الجهاد، كنا معكم فاجعلوا لنا نصيبا من الغنيمة، ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ يعني دولة وظهور على المسلمين، ﴿قالوا﴾ يعني: المنافقين للكافرين، ٩٨/ب ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ والاستحواذ: هو الاستيلاء والغلبة، قال تعالى: "استحوذ عليهم الشيطان" (المجادلة -١٩) أي: استولى وغلب، يقول: ألم نخبركم بعورة محمد

---

(١) ما بين القوسين ساقط من: (أ) .." (٢)

"﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) ﴾." (٣)

"رسول وكتاب كان قبل القرآن، والملائكة واليوم الآخر لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون، وقال الضحاك: أراد به [١] اليهود والنصارى، وقيل: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد والقرآن، وقال مجاهد: أراد به [٢]

---

(١) غرائب التفسير وعجائب التأويل الكرماني، برهان الدين ٩٠٣/٢

(٢) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٣٠١/٢

(٣) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٣٠١/٢

المنافقين، يقول: يا أيها الذين آمنوا باللسان آمنوا بالقلب. وقال أبو العالية وجماعة: هذا خطاب للمؤمنين، يقول: يا أيها الذين آمنوا آمنوا أي أقيموا واثبتوا على الإيمان، كما يقال للقائم: قم حتى أرجع إليك، أي اثبت قائما [و] [٣] قيل: المراد به أهل الشرك، يعني يا أيها الذين آمنوا باللات والعزى آمنوا بالله ورسوله.

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٧ الى ١٣٨]

إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨)

قوله تعالى: إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا، قال قتادة: هم اليهود آمنوا بموسى ثم كفروا من بعد بعبادتهم العجل، ثم آمنوا بالتوراة ثم كفروا بعيسى عليه السلام، ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم. وقيل: هو في جميع أهل الكتاب آمنوا بنبيهم ثم كفروا به، وآمنوا بالكتاب الذي نزل عليه ثم كفروا به، وكفرهم به تركهم إياه ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل: هذا في قوم مرتدين آمنوا ثم ارتدوا ثم آمنوا ثم ارتدوا [ثم آمنوا ثم ارتدوا] [٤] ، ومثل هذا هل تقبل توبته؟ حكي عن علي رضي الله عنه أنه لا تقبل توبته بل يقتل [٥] ، لقوله تعالى: لم يكن الله ليغفر لهم، وأكثر أهل العلم على قبول توبته، وقال مجاهد: ثم ازدادوا كفرا أي ماتوا عليه، لم يكن الله ليغفر لهم، ما أقاموا على ذلك، ولا ليهديهم سبيلا، أي طريقا إلى الحق، فإن قيل: ما معنى قوله لم يكن الله ليغفر لهم، ومعلوم أنه لا يغفر الشرك إن كان أول مرة؟ قيل: معناه أن الكافر إذا أسلم أول مرة ودام عليه يغفر له كفره السابق، فإن أسلم ثم كفر ثم أسلم ثم كفر لا يغفر له كفره السابق الذي كان يغفر له لو دام على الإسلام.

بشر المنافقين، أخبرهم يا محمد، بأن لهم عذابا أليما، والبشارة: كل خبر يتغير به بشرة الوجه سارا كان أو غير سار، وقال الزجاج: معناه اجعل في موضع بشارتك لهم العذاب، كما تقول العرب: تحيتك الضرب وعتابك السيف، أي: بدلا لك من التحية، ثم وصف المنافقين فقال:

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٩ الى ١٤١]

الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

الذين يتخذون الكافرين أولياء، يعني: يتخذون اليهود أولياء وأنصارا أو بطانة

---

١ في المطبوع «بهم» .

٢ في المطبوع «بهم» .
(٣) زيادة عن المخطوط.
(٤) زيد في المطبوع وط.
(٥) تصحف في المخطوط «يقبل» .." (١)

"من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة، أي: المعونة والظهور على محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه: وقيل: أيطلبون عندهم القوة، فإن العزة أي: الغلبة والقوة والقدرة، لله جميعا.

وقد نزل عليكم في الكتاب، قرأ عاصم ويعقوب نزل بفتح النون والزاي، أي: نزل الله، وقرأ الآخرون (نزل) بضم النون وكسر الزاي، أي: عليكم يا معشر المسلمين [١] ، أن إذا سمعتم آيات الله

، يعني القرآن، يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم، يعني: مع الذين يستهزئون، حتى يخوضوا في حديث غيره، أي: يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن، وهذا إشارة إلى ما أنزل الله في سورة الأنعام وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره [الأنعام:

٦٨] ، قال الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما: دخل في هذه الآية كل محدث في الدين وكل مبتدع إلى يوم القيامة، إنكم إذا مثلهم، أي: إن قعدتم عندهم وهم يخوضون ويستهزئون ورضيتم به فأنتم كفار مثلهم، وإن خاضوا في حديث غيره فلا بأس بالقعود معهم مع الكراهة، وقال الحسن: لا يجوز القعود معهم وإن خاضوا في حديث غيره، لقوله تعالى: وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين [الأنعام: ٦٨] ، والأكثرون على الأول. وآية الأنعام مكية وهذه مدنية والمتأخر أولى. قوله:

إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا.

الذين يتربصون بكم، ينتظرون بكم الدوائر، يعني: المنافقين، فإن كان لكم فتح من الله، يعني: ظفر وغنيمة، قالوا، لكم ألم نكن معكم، على دينكم في الجهاد كنا معكم فاجعلوا لنا نصيبا من الغنيمة، وإن كان للكافرين نصيب، يعني دولة وظهورا على المسلمين، قالوا، يعني:

المنافقين للكافرين، ألم نستحوذ عليكم، والاستحواذ: هو الاستيلاء والغلبة، قال تعالى: استحوذ عليهم الشيطان [المجادلة: ١٩] أي: استولى وغلب، يقول: ألم نخبركم بعورة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ونطلعكم على سرهم؟ قال المبرد: يقول المنافقون للكفار ألم نغلبكم على رأيكم ونمنعكم، ونصرفكم، من المؤمنين، أي: عن الدخول في جملتهم، وقيل: معناه ألم نستول عليكم بالنصرة لكم ونمنعكم من المؤمنين، أي: ندفع عنكم صولة المؤمنين بتخذيلهم عنكم ومراسلتنا إياكم بأخبارهم وأمورهم، ومراد المنافقين بهذا الكلام إظهار المنة على الكافرين فالله يحكم بينكم يوم القيامة، يعني: بين أهل الإيمان وأهل النفاق، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا، قال علي [رضي الله عنه] [٢] : في الآخرة، وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه: أي حجة، وقيل: ظهورا على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) تفسير البغوي - إحياء التراث البغوي ، أبو محمد ٧١٣/١

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٤٢ الى ١٤٤]

إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا (١٤٢) مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (١٤٣) يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا (١٤٤)

إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم

، أي يعاملونه معاملة المخادعين وهو خادعهم، أي:

مجازيهم على خداعهم وذلك أنهم يعطون نورا يوم القيامة كما للمؤمنين فيمضي المؤمنون بنورهم على الصراط، ويطفأ نور المنافقين، وإذا قاموا إلى الصلاة

، يعني: المنافقين قاموا كسالى

أي: متثاقلين لا يريدون بها الله فإن رآهم أحد صلوا وإلا انصرفوا فلا يصلون، يراؤن الناس

أي: يفعلون ذلك

---

(١) كذا في المطبوع وط، وفي المخطوط «المؤمنين» . [.....]

(٢) زيادة عن المخطوط.." [1]

"المبالغة التي يعطيها اللام، والمراد بنفيهما نفى ما يقتضيهما وهو الإيمان الخالص الثابت. والمعنى:

إن الذين تكرر منهم الارتداد وعهد منهم ازدياد الكفر والإصرار عليه، يستبعد منهم أن يحدثوا ما يستحقون به المغفرة ويستوجبون اللطف، من إيمان صحيح ثابت يرضاه الله، لأن قلوب أولئك الذين هذا ديدنهم قلوب قد ضربت بالكفر ومرنت على الردة، وكان الإيمان أهون شيء عندهم وأدونه، حيث يبدو لهم فيه كرة بعد أخرى وليس المعنى أنهم لو أخلصوا الإيمان بعد تكرار الردة ونصحت توبتهم لم يقبل منهم ولم يغفر لهم، لأن ذلك مقبول حيث هو بذل للطاقة واستفراغ للوسع، ولكنه استبعاد له واستغراب، وأنه أمر لا يكاد يكون، وهكذا ترى الفاسق الذي يتوب ثم يرجع ثم يتوب ثم يرجع، لا يكاد يرجى منه الثبات. والغالب أنه يموت على شر حال وأسمج صورة. وقيل: هم اليهود، آمنوا بالتوراة وبموسى ثم كفروا بالإنجيل وبعيسى. ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم.

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٨ الى ١٣٩]

بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩)

---

(١) تفسير البغوي - إحياء التراث البغوي ، أبو محمد ٧١٤/١

بشر المنافقين وضع (بشر) مكان: أخبر، تهكما بهم. والذين نصب على الذم أو رفع بمعنى أريد الذين، أو هم الذين. وكانوا يمايلون الكفرة «١» ويوالونهم ويقول بعضهم لبعض: لا يتم أمر محمد فتولوا اليهود. فإن العزة لله جميعا يريد لأوليائه الذين كتب لهم العز والغلبة على اليهود وغيرهم، وقال ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٤٠ الى ١٤١]

وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

---

(١) . قوله «يمايلون الكفرة» : لعله «يمالئون» . (ع)." [1]

"موسى وأولاها، وقد تعلقت بها معجزات شتى: من انقلابها حية، وتلقفها ما أفكته السحرة، وانفلاق البحر، وانفجار العيون من الحجر بضربهما بها، وكونها حارسا، وشمعة، وشجرة خضراء مثمرة، ودلوا ورشاء. جعلت كأنها ليست بعضها لما استبدت به من الفضل، فلذلك عطفت عليها كقوله تعالى وجبريل وميكال ويجوز أن تراد الآيات أنفسها، أى: هي آيات وحجة بينة عالين متكبرين إن فرعون علا في الأرض، لا يريدون علوا في الأرض أو متطاولين على الناس قاهرين بالبغي والظلم.

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٤٧ الى ٤٨]

فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون (٤٧) فكذبوهما فكانوا من المهلكين (٤٨)

البشر يكون واحدا وجمعا: بشرا سويا

، لبشرين، فإما ترين من البشر و «مثل» و «غير» يوصف بهما: الاثنان، والجمع، والمذكر، والمؤنث: إنكم إذا مثلهم، ومن الأرض مثلهن ويقال أيضا: هما مثلاه، وهم أمثاله: إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم. وقومهما يعنى بنى إسرائيل، كأنهم يعبدوننا خضوعا وتذللا. أو لأنه كان يدعى الإلهية فادعى للناس العبادة، وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة.

[سورة المؤمنون (٢٣) : آية ٤٩]

ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون (٤٩)

موسى الكتاب أى قوم موسى التوراة لعلهم يعملون بشرائعها ومواعظها، كما قال: على خوف من فرعون وملائهم يريد آل فرعون، وكما يقولون: هاشم، وثقيف، وتميم، ويراد قومهم. ولا يجوز أن يرجع الضمير في لعلهم إلى فرعون وملئه، لأن

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٥٧٧/١

التوراة إنما أوتيها بنو إسرائيل بعد إغراق فرعون وملئه: ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى.

[سورة المؤمنون (٢٣) : آية ٥٠]

وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين (٥٠)

فإن قلت: لو قيل آيتين هل كان يكون له وجه؟ قلت: نعم، لأن مريم ولدت من غير مسيس، وعيسى روح من الله ألقى إليها، وقد تكلم في المهد وكان يحيى الموتى مع معجزات أخر، فكان آية من غير وجه، واللفظ محتمل للتثنية على تقدير وجعلنا ابن مريم آية وأمه آية ثم حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها. الربوة والرباوة في رائهما الحركات. وقرئ: ربوة ورباوة، بالضم. ورباوة بالكسر وهي الأرض المرتفعة. قيل: هي إيليا أرض بيت المقدس، وأنها." (١)

"التي لم تتلاحق في زمان واحد، وليس هذا مقصد الآية، وإنما توجد هذه الصفة في شخص من المنافقين، لأن الرجل الواحد منهم يؤمن ثم يكفر، ثم يوافي على الكفر وتأمل قوله تعالى: لم يكن الله ليغفر لهم فإنها عبارة تقتضي أن هؤلاء محتوم عليهم من أول أمرهم، ولذلك ترددوا وليست هذه العبارة مثل أن يقول:

لا يغفر الله لهم، بل هي أشد، وهي مشيرة إلى استدراج من هذه حاله وإهلاكه، وهي عبارة تقتضي لسامعها أن ينتبه ويراجع قبل نفوذ الحتم عليه، وأن يكون من هؤلاء، وكل من كفر كفرا واحدا ووافى عليه فقد قال الله تعالى: إنه لا يغفر له، ولم يقل «لم يكن الله ليغفر له» فتأمل الفرق بين العبارتين فإنه من دقيق غرائب الفصاحة التي في كتاب الله تعالى، كأن قوله لم يكن الله حكم قد تقرر عليهم في الدنيا وهم أحياء.

قوله تعالى:

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٨ الى ١٤٠]

بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)

في هذه الآية دليل ما على أن التي قبلها إنما هي في المنافقين، كما ترجح آنفا، وجاءت البشارة هنا مصرحا بقيدها، فلذلك حسن استعمالها في المكروه، ومتى جاءت مطلقة فإنما عرفها في المحبوب.

ثم نص تعالى في صفة المنافقين على أشدها ضررا على المؤمنين، وهي موالاتهم الكفار واطراحهم المؤمنين، ونبه على فساد ذلك ليدعه من عسى أن يقع في نوع منه من المؤمنين غفلة أو جهالة أو مسامحة، ثم وقف تعالى على جهة التوبيخ على مقصدهم في ذلك، أهو طلب العزة والاستكثار بهم أي ليس الأمر كذلك بل العزة كلها لله يؤتيها من يشاء، وقد وعد بها المؤمنين، وجعل العاقبة للمتقين، والعزة أصلها:

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١٨٩/٣

الشدة والقوة، ومنه الأرض العزاز أي: الصلبة، ومنه عزني [ص: ٢٣] أي: غلبني بشدته، واستعز المرض إذا قوي، إلى غير هذا من تصاريف اللفظة.

وقوله تعالى وقد نزل عليكم مخاطبة لجميع من أظهر الإيمان من محقق ومنافق، لأنه إذا أظهر الإيمان فقد لزمه أن يمتثل أوامر كتاب الله تعالى، والإشارة بهذه الآية إلى قوله تعالى: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره [الإنعام: ٦٨] ، إلى نحو هذا من الآيات، وقرأ جمهور الناس «نزل عليكم» بضم النون وكسر الزاي المشددة قال الطبري: وقرأ بعض الكوفيين «نزل» بفتح النون والزاي المشددة على معنى نزل الله، وقرأ أبو حيوة وحميد «نزل» بفتح النون والزاي خفيفة، وقرأ إبراهيم النخعي «أنزل» بألف على بناء الفعل للمفعول، والكتاب في هذا الموضع القرآن، وفي هذه الآية دليل قوي على وجوب تجنب أهل البدع وأهل المعاصي، وأن لا يجالسوا، وقد روي عن عمر بن عبد العزيز أنه أخذ قوما يشربون الخمر فقيل له عن أحد الحاضرين: إنه صائم فحمل." (١)

"عليه الأدب، وقرأ هذه **الآية إنكم إذا مثلهم وهذه** المماثلة ليست في جميع الصفات، ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر من المقارنة، وهذا المعنى كقول الشاعر: [الطويل]

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي

ثم توعد تعالى المنافقين والكافرين بجمعهم في جهنم، فتأكد بذلك النهي والحذر من مجالسهم وخلطتهم.

قوله تعالى:

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٤١ الى ١٤٣]

الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١) إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا (١٤٢) مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (١٤٣)

الذين صفة للمنافقين، ويتربصون معناه: ينتظرون دور الدوائر عليكم، فإن كان فتح للمؤمنين ادعوا فيه النصيب بحكم ما يظهرونه من الإيمان، وإن كان للكافرين نيل من المؤمنين ادعوا فيه النصيب بحكم ما يبطنونه من موالاة الكفار، وهذا حال المنافقين، ونستحوذ معناه: نغلب على أمركم، ونحطكم ونحسم أمركم، ومنه قول العجاج في صفة ثور وبقر: [الرجز] يحوذهن وله حوذي أي يغلبهن على أمرهن، ويغلب الثيران عليهن، ويروى يحوزهن بالزاي، ومن اللفظة قول لبيد في صفة عير وأتن:

إذا اجتمعت وأحوذ جانبيها ... وأوردها على عوج طوال

أحوذ جانبيها قهرها وغلب عليها. وقوله تعالى: استحوذ عليهم الشيطان [المجادلة: ١٩] معناه:

غلب عليهم، وشذ هذا الفعل في أن لم تعل واوه، بل استعملت على الأصل، وقرأ أبي بن كعب «ومنعناكم من المؤمنين»

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١٢٥/٢

وقرأ ابن أبي عبلة «ونمنعكم» بفتح العين على الصرف، ثم سلى وأنس المؤمنين بما وعدهم به في قوله فالله يحكم بينكم يوم القيامة أي وبينهم وينصفكم من جميعهم، وبقوله ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا وقال يسيع الحضرمي: كنت عند علي بن أبي طالب فقال له رجل: يا أمير المؤمنين أرأيت قول الله تعالى: ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا كيف ذلك وهم يقاتلوننا ويظهرون علينا أحيانا؟ فقال علي رضي الله عنه: معنى ذلك: يوم القيامة يكون الحكم، وبهذا قال جميع أهل التأويل.." (١)

"﴿بشر المنافقين﴾ أي اجعل مكان بشارتهم العذاب

﴿وقد نزل عليكم﴾ وهو قوله ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾

﴿إنكم إذا مثلهم﴾ في العصيان

﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ أي دولة ﴿قالوا﴾ للكفار ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ أي الم نستول عليكم بالمعونة والنصر ﴿ونمنعكم من المؤمنين﴾ بتخذيلهم عنكم

﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ أي ظهورا اذ العاقبة لهم وقال الدسي حجة

﴿مذبذبين﴾ أي مترددين بين الاسلام والكفر

﴿لا تتخذوا الكافرين﴾ يعني اليهود وقيل المنافقين

والسلطان الحجة والمعنى حجة تلزمكم عذابهم

و ﴿الدرك﴾ واحد الادراك وهي المنازل والاطباق قال الضحاك الدرج الى فوق والدرك الى اسفل والدرك واحد الادراك وهي المنازل والاطباق." (٢)

"[سورة النساء (٤) : آية ١٣٨]

بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨)

قوله تعالى: بشر المنافقين زعم مقاتل أنه لما نزلت المغفرة في سورة الفتح للنبي والمؤمنين قال عبد الله بن أبي ونفر معه: فما لنا؟ فنزلت هذه الآية «١» . وقال غيره: كان المنافقون يتولون اليهود، فألحقوا بهم في التبشير بالعذاب. وقال الزجاج: معنى الآية: اجعل موضع بشارتهم العذاب. والعرب تقول: تحيتك الضرب، أي: هذا بدل لك من التحية. قال الشاعر:

وخيل قد دلفت لها بخيل ... تحية بينهم ضرب وجيع «٢»

[سورة النساء (٤) : آية ١٣٩]

الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩)

قوله تعالى: الذين يتخذون الكافرين أولياء قال ابن عباس: يتخذون اليهود أولياء في العون والنصرة. قوله تعالى: أيبتغون

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١٢٦/٢

(٢) تذكرة الأريب في تفسير الغريب ابن الجوزي ص/٧٥

عندهم العزة أي: القوة بالظهور على محمد وأصحابه، والمعنى:

أيتقون بهم؟ قال مقاتل: وذلك أن اليهود أعانوا مشركي العرب على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال الزجاج: أيبتغي المنافقون عند الكافرين العزة. و «العزة» : المنعة، وشدة الغلبة، وهو مأخوذ من قولهم: أرض عزاز. قال الأصمعي: العزاز: الأرض التي لا تنبت. فتأويل العزة: الغلبة والشدة التي لا يتعلق بها إذلال. قالت الخنساء:

كأن لم يكونوا حمى يتقى ... إذ الناس إذ ذاك من عز بزا

أي: من قوي وغلب سلب. ويقال: قد استعز على المريض، أي: اشتد وجعه. وكذلك قول الناس: يعز علي أن يفعل، أي: يشتد، وقولهم: قد عز الشيء: إذا لم يوجد، معناه: صعب أن يوجد، والباب واحد.

[سورة النساء (٤) : آية ١٤٠]

وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)

قوله تعالى: وقد نزل عليكم في الكتاب وقرأ عاصم، ويعقوب: «نزل» بفتح النون والزاي.

قال المفسرون: الذي نزل عليهم في النهي عن مجالستهم، قوله في الأنعام وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم «٣» وكان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود، فيسخرون من القرآن ويكذبون به، فنهى الله المسلمين عن مجالستهم. وآيات الله: هي القرآن. والمعنى: إذا سمعتم الكفر بآيات الله، والاستهزاء بها، فلا تقعدوا معهم حتى يأخذوا في حديث غير الكفر، والاستهزاء. إنكم إن جالستموهم على ما هم عليه من ذلك، فأنتم مثلهم، وفي ماذا تقع المماثلة فيه، قولان: أحدهما:

---

(١) باطل. عزاه المصنف لمقاتل، وهو متهم بالوضع، كما تقدم، وخبره لا شيء، ليس له أصل.

(٢) في «الخزانة» ٤/ ٥٣ قال البغدادي: وهذا البيت نسبه شراح أبيات «الكتاب» وغيرهم إلى عمرو بن معديكرب الصحابي ولم أره في شعره. وفي «اللسان» : دلف: الدليف: المشي الرويد. ودلفت الكتيبة إلى الكتيبة في الحرب تقدمت. وجيع أي موجع.

(٣) سورة الأنعام: ٦٨.." [1]

"ثم قال تعالى: بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما.

واعلم أن من حمل الآية المتقدمة على المنافقين قال إنه تعالى بين أنه لا يغفر لهم كفرهم ولا/ يهديهم إلى الجنة، ثم قال: وكما لا يوصلهم إلى دار الثواب فإنه مع ذلك يوصلهم إلى أعظم أنواع العقاب، وهو المراد من قوله بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما وقوله بشر تهكم بهم، والعرب تقول: تحيتك الضرب، وعتابك السيف. ثم قال تعالى:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٤٨٧/١

[سورة النساء (٤) : آية ١٣٩]

الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩)

الذين: نصب على الذم، بمعنى أريد الذين، أو رفع بمعنى هم الذين، واتفق المفسرون على أن المراد بالذين يتخذون: المنافقون، وبالكافرين اليهود، وكان المنافقون يوالونهم ويقول بعضهم لبعض: إن أمر محمد لا يتم، فيقول اليهود بأن العزة والمنعة لهم.

ثم قال تعالى: أيبتغون عندهم العزة قال الواحدي: أصل العزة في اللغة الشدة، ومنه قيل للأرض الصلبة الشديدة: عزاز، ويقال: قد استعز المرض على المريض إذا اشتد مرضه وكاد أن يهلك، وعز الهم اشتد، ومنه عز علي أن يكون كذا بمعنى اشتد، وعز الشيء إذا قل حتى لا يكاد يوجد لأنه اشتد مطلبه، واعتز فلان بفلان إذا اشتد ظهره به، وشاة عزوز التي يشتد حلبها ويصعب والعزة القوة منقولة من الشدة لتقارب معنييهما. والعزيز القوي المنيع بخلاف الذليل.

إذا عرفت هذا فنقول: إن المنافقين كانوا يطلبون العزة والقوة بسبب اتصالهم باليهود، ثم إنه تعالى أبطل عليهم هذا الرأي بقوله فإن العزة لله جميعا.

فإن قيل: هذا كالمناقض لقوله ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين [المنافقين: ٨] .

قلنا: القدرة الكاملة لله، وكل من سواه فبإقداره صار قادرا، وبإعزازه صار عزيزا، فالعزة الحاصلة للرسول عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين لم تحصل إلا من الله تعالى، فكان الأمر عند التحقيق أن العزة جميعا لله. ثم قال تعالى:

[سورة النساء (٤) : آية ١٤٠]

وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره** **إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)

قال المفسرون: إن المشركين كانوا في مجالسهم يخوضون في ذكر القرآن ويستهزؤن به، فأنزل الله تعالى: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره [الأنعام: ٦٨]." (١)

"وهذه الآية نزلت بمكة، ثم إن أحبار اليهود بالمدينة كانوا يفعلون مثل فعل المشركين، والقاعدون معهم والموافقون لهم على ذلك الكلام هم المنافقون، فقال تعالى مخاطبا للمنافقين إنه قد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها والمعنى إذا سمعتم الكفر بآيات الله والاستهزاء بها، ولكن أوقع فعل السماع على الآيات والمراد به سماع الاستهزاء. قال الكسائي: وهو كما يقال: سمعت عبد الله يلام. وعندي فيه وجه آخر وهو أن يكون المعنى: إذا سمعتم آيات الله حال ما يكفر بها ويستهزأ بها، وعلى هذا التقدير فلا حاجة إلى ما قال الكسائي، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غير الكفر والاستهزاء.

ثم قال: إنكم إذا مثلهم.

والمعنى: أيها المنافقون أنتم مثل أولئك الأحبار في الكفر. قال أهل العلم: هذا يدل على أن من رضي بالكفر فهو كافر،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٤٦/١١

ومن رضي بمنكر يراه وخالط أهله وإن لم يباشر كان في الإثم بمنزلة المباشر بدليل أنه تعالى ذكر لفظ المثل هاهنا، هذا إذا كان الجالس راضيا بذلك الجلوس، فأما إذا كان ساخطا لقولهم وإنما جلس على سبيل التقية والخوف فالأمر ليس كذلك، ولهذه الدقيقة قلنا بأن المنافقين الذين كانوا يجالسون اليهود، وكانوا يطعنون في القرآن والرسول كانوا كافرين مثل أولئك اليهود، والمسلمون الذين كانوا بالمدينة كانوا بمكة يجالسون الكفار الذين كانوا يطعنون في القرآن فإنهم كانوا باقين على الإيمان، والفرق أن المنافقين كانوا يجالسون اليهود مع الاختيار، والمسلمين كانوا يجالسون الكفار عند الضرورة.

ثم إنه تعالى حقق كون المنافقين مثل الكافرين في الكفر فقال: إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا.

يريد كما أنهم اجتمعوا على الاستهزاء بآيات الله في الدنيا فكذلك يجتمعون في عذاب جهنم يوم القيامة، وأراد جامع بالتنوين لأنه بعد ما جمعهم ولكن حذف التنوين استخفافا من اللفظ وهو مراد في الحقيقة.

[سورة النساء (٤) : آية ١٤١]

الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

اعلم أن قوله الذين يتربصون بكم إما بدل من الذين يتخذون، وإما صفة للمنافقين، وإما نصب على الذم، وقوله يتربصون أي ينتظرون ما يحدث من خير أو شر، فإن كان لكم فتح أي ظهور على اليهود قالوا للمؤمنين ألم نكن معكم، أي فأعطونا قسما من الغنيمة، وإن كان للكافرين يعني اليهود نصيب، أي ظفر على المسلمين قالوا ألم نستحوذ عليكم، يقال: استحوذ على فلان، أي غلب عليه وفي تفسير هذه الآية وجهان:

الأول: أن يكون بمعنى ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم وأسركم ثم لم نفعل شيئا من ذلك ونمنعكم من المسلمين بأن ثبطناهم عنكم وخيلنا لهم ما ضعفت به قلوبهم وتوانينا في مظاهرتهم عليكم فهاتوا لنا نصيبا مما أصبتم.

الثاني: أن يكون المعنى أن أولئك الكفار واليهود كانوا قد هموا بالدخول في الإسلام، ثم إن المنافقين حذروهم عن ذلك وبالغوا في تنفيرهم عنه وأطمعوهم أنه سيضعف أمر محمد وسيقوى أمركم، فإذا اتفقت لهم صولة على." (١)

"بضربها بها وكونها حارسا وشمعة وشجرة مثمرة ودلوا ورشاء، فلأجل انفراد العصا بهذه الفضائل أفردت بالذكر كقوله جبريل وميكال وثانيها: يجوز أن يكون المراد بالآيات نفس تلك المعجزات وبالسلطان المبين كيفية دلالتها على الصدق، وذلك لأنها وإن شاركت سائر آيات الأنبياء في كونها آيات فقد فارقتها في قوة دلالتها على قوة موسى عليه السلام وثالثها: أن يكون المراد بالسلطان المبين استيلاء موسى عليه السلام عليهم في الاستدلال على وجود الصانع وإثبات النبوة وأنه ما كان يقيم لهم قدرا ولا وزنا.

واعلم أن الآية تدل على أن معجزات موسى عليه السلام كانت معجزات هارون عليه السلام أيضا، وأن النبوة كما أنها مشتركة بينهما فكذلك المعجزات، ثم إنه سبحانه حكى عن فرعون وقومه صفتهم ثم ذكر شبهتهم أما صفتهم فأمران

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٤٧/١١

أحدهما: الاستكبار والأنفة والثاني: أنهم كانوا قوما عالين أي رفيعي الحال في أمور الدنيا، ويحتمل الاقتدار بالكثرة والقوة وأما شبهتهم فهي/ قولهم: أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون قال صاحب «الكشاف» لم يقل مثلينا كما **قال: إنكم إذا مثلهم** [النساء: ١٤٠] ولم يقل أمثالهم وقال: كنتم خير أمة [آل عمران: ١١٠] ولم يقل أخيار أمة كل ذلك لأن الإيجاز أحب إلى العرب من الإكثار والشبهة مبنية على أمرين: أحدهما: كونهما من البشر وقد تقدم الجواب عنه والثاني: أن قوم موسى وهارون كانوا كالخدم والعبيد لهم قال أبو عبيدة العرب تسمي كل من دان لملك عابدا له ويحتمل أن يقال إنه كان يدعي الإلهية فادعى أن الناس عباده وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة ثم بين سبحانه أنه لما خطرت هذه الشبهة ببالهم صرحوا بالتكذيب وهو المراد من قوله: فكذبوهما.

ولما كان ذلك التكذيب كالعلة لكونهم من المهلكين لا جرم رتبه عليه بفاء التعقيب فقال وكانوا ممن حكم الله عليهم بالغرق فإن حصول الغرق لم يكن حاصلا عقيب التكذيب، إنما الحاصل عقيب التكذيب حكم الله تعالى بكونهم كذلك في الوقت اللائق به.

أما قوله: ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون فقال القاضي معناه أنه سبحانه خص موسى عليه السلام بالكتاب الذي هو التوراة لا لذلك التكذيب لكن لكي يهتدوا به فلما أصروا على الكفر مع البيان العظيم استحقوا أن يهلكوا، واعترض صاحب «الكشاف» عليه فقال لا يجوز أن يرجع الضمير في لعلهم إلى فرعون وملائه لأن التوراة إنما أوتيها بنو إسرائيل بعد إغراق فرعون وملائه بدليل قوله تعالى: ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى [القصص: ٤٣] بل المعنى الصحيح: ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يعملون بشرائعها ومواعظها فذكر موسى والمراد آل موسى كما يقال هاشم وثقيف والمراد قومهما.

[سورة المؤمنون (٢٣) : آية ٥٠]

وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين (٥٠)

القصة الخامسة- قصة عيسى وقصة مريم عليهما السلام

اعلم أن ابن مريم هو عيسى عليه السلام جعله الله تعالى آية بأن خلقه من غير ذكر وأنطقه في المهد في الصغر وأجرى على يديه إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وأما مريم فقد جعلها الله تعالى آية لأنها حملته من غير ذكر. وقال الحسن تكلمت مريم في صغرها كما تكلم عيسى عليه السلام وهو قولها: هو من عند الله." (١)

"﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٧٩/٢٣

جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)." [١]

"[سورة النساء (٤) : آية ١٣٦]

يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا (١٣٦)

يا أيها الذين آمنوا خطاب للمسلمين، أو للمنافقين، أو لمؤمني أهل الكتاب إذ

روي: أن ابن سلام وأصحابه قالوا يا رسول الله: أنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه. فنزلت. آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل اثبتوا على الإيمان بذلك وداوموا عليه، أو آمنوا به بقلوبكم كما آمنتم بألسنتكم، أو آمنوا إيمانا عاما يعم الكتب والرسل، فإن الإيمان بالبعض كلا إيمان والكتاب الأول القرآن والثاني الجنس. وقرأ نافع والكوفيون: الذي نزل والذي أنزل بفتح النون والهمزة والزاي، والباقون بضم النون والهمزة وكسر الزاي. ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر أي ومن يكفر بشيء من ذلك. فقد ضل ضلالا بعيدا عن المقصد بحيث لا يكاد يعود إلى طريقه.

[سورة النساء (٤) : آية ١٣٧]

إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧)

إن الذين آمنوا يعني اليهود آمنوا بموسى عليه الصلاة والسلام. ثم كفروا حين عبدوا العجل.

ثم آمنوا بعد عوده إليهم. ثم كفروا بعيسى عليه الصلاة والسلام. ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم، أو قوما تكرر منهم الارتداد ثم أصروا على الكفر وازدادوا تماديا في الغي. لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا إذ يستبعد منهم أن يتوبوا عن الكفر ويثبتوا على الإيمان، فإن قلوبهم ضربت بالكفر وبصائرهم عميت عن الحق لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم يقبل منهم ولم يغفر لهم، وخبر كان في أمثال ذلك محذوف تعلق به اللام مثل: لم يكن الله مريدا ليغفر لهم.

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٨ الى ١٣٩]

بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩)

بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما يدل على أن الآية في المنافقين وهم قد آمنوا في الظاهر وكفروا في السر مرة بعد أخرى ثم ازدادوا بالإصرار على النفاق وإفساد الأمر على المؤمنين، ووضع بشر مكان أنذر تهكم بهم.

الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين في محل النصب، أو الرفع على الذم بمعنى أريد الذين أو هم الذين. أيبتغون

---

(١) تفسير العز بن عبد السلام ابن عبد السلام ٣٥٩/١

عندهم العزة أيتعززون بموالاتهم. فإن العزة لله جميعا لا يتعزز إلا من أعزه الله، وقد كتب العزة لأوليائه فقال ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولا يؤبه بعزة غيرهم بالإضافة إليهم.

[سورة النساء (٤) : آية ١٤٠]

وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)

وقد نزل عليكم في الكتاب يعني القرآن. وقرأ عاصم نزل وقرأ الباقون نزل على البناء للمفعول والقائم مقام فاعله. أن إذا سمعتم آيات الله وهي المخففة والمعنى أنه إذا سمعتم. يكفر بها ويستهزأ بها حالان من الآيات جيء بهما لتقييد النهي عن المجالسة في قوله: فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره الذي هو جزاء الشرط بما إذا كان من يجالسه هازئا معاندا غير مرجو، ويؤيده." (١)

"الغاية. وهذا تذكار لما نزل عليهم بمكة من قوله: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم الآية.

والضمير في معهم للكفرة المدلول عليهم بقوله يكفر بها ويستهزأ **بها. إنكم إذا مثلهم في** الاثم لأنكم قادرون على الاعراض عنهم والإنكار عليهم، أو الكفر إن رضيتم بذلك، أو لأن الذين يقاعدون الخائضين في القرآن من الأحبار كانوا منافقين، ويدل عليه: إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا يعني القاعدين والمقعود معهم، وإذا ملغاة لوقوعها بين الاسم والخبر، ولذلك لم يذكر بعدها الفعل وإفراد مثلهم، لأنه كالمصدر أو للاستغناء بالإضافة إلى الجمع. وقرئ بالفتح على البناء لإضافته إلى مبني كقوله تعالى:

مثل ما أنكم تنطقون.

[سورة النساء (٤) : آية ١٤١]

الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

الذين يتربصون بكم ينتظرون وقوع أمر بكم، وهو بدل من الذين يتخذون، أو صفة للمنافقين والكافرين أو ذم مرفوع أو منصوب أو مبتدأ خبره. فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم مظاهرين لكم فاسهموا لنا مما غنمتم. وإن كان للكافرين نصيب من الحرب فإنها سجال قالوا ألم نستحوذ عليكم أي قالوا للكفرة: ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم فأبقينا عليكم، والاستحواذ الاستيلاء وكان القياس أن يقال استحاذ يستحيذ استحاذة فجاءت على الأصل. ونمنعكم من المؤمنين بأن خذلناهم بتخييل ما ضعفت به قلوبهم وتوانينا في مظاهرتهم فأشركونا فيما أصبتم، وإنما سمي ظفر المسلمين فتحا وظفر الكافرين نصيبا لخسة حظهم، فإنه مقصور على أمر دنيوي سريع الزوال. فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٠٣/٢

على المؤمنين سبيلا حينئذ أو في الدنيا والمراد بالسبيل الحجة، واحتج به أصحابنا على فساد شراء الكافر المسلم. والحنفية على حصول البينونة بنفس الارتداد وهو ضعيف لأنه لا ينفي أن يكون إذا عاد إلى الإيمان قبل مضي العدة.

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٤٢ الى ١٤٣]

إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا (١٤٢)

مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (١٤٣)

إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم

سبق الكلام فيه أول سورة البقرة. وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى

متثاقلين كالمكره على الفعل وقرئ كسالى بالفتح وهما جمعا كسلان. يراؤن الناس

ليخالوهم مؤمنين المراءاة مفاعلة بمعنى التفعيل كنعم وناعم أو للمقابلة فإن المرائي يري من يرائيه عمله وهو يريه استحسانه.

ولا يذكرون الله إلا قليلا

إذ المرائي لا يفعل إلا بحضرة من يرائيه، وهو أقل أحواله أو لأن ذكرهم باللسان قليل بالإضافة إلى الذكر بالقلب. وقيل: المراد بالذكر الصلاة. وقيل الذكر فيها فإنهم لا يذكرون فيها غير التكبير والتسليم.

مذبذبين بين ذلك حال من واو يراؤن

كقوله: ولا يذكرون

أي يراءوهم غير ذاكرين مذبذبين أو واو يذكرون أو منصوب على الذم، والمعنى: مرددين بين الإيمان والكفر من الذبذبة وهي جعل الشيء مضطربا، وأصله الذي بمعنى الطرد. وقرئ بكسر الذال بمعنى يذبذبون قلوبهم أو دينهم أو يتذبذبون كقولهم: صلصل بمعنى تصلصل. وقرئ بالدال الغير المعجمة بمعنى أخذوا تارة في دبة وتارة في دبة وهي." (١)

"وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)

﴿وقد نزل عليكم﴾ بفتح النون عاصم وبضمها غيره ﴿في الكتاب﴾ القرآن ﴿أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ حتى يشرعوا في كلام غير الكفر والاستهزاء بالقرآن والخوض الشروع وأن مخففة من الثقيلة أي أنه إذا سمعتم أي نزل عليكم أن الشأن كذا والشأن ما أفادته الجملة بشرطها وجزائها وأن مع ما في حيزها في موضع الرفع بنزل أو فى موضع النصب بنزل والمنزل عليهم في الكتاب هو ما نزل عليهم بمكة من قوله وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وذلك أن المشركين كانوا يخوضون في ذكر القرآن فى مجالسهم فيستهزءون به فنهى المسلمون عن القعود معهم ماداموا خائضين فيه وكان المنافقون بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين بمكة فنهوا أن يقعدوا معهم كما نهوا عن مجالسة المشركين بمكة ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ أي في الوزر إذا مكثتم معهم

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٠٤/٢

ولم يرد به التمثيل من كل وجه فإن خوض المنافقين فيه كفر ومكث هؤلاء معهم معصية ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ لاجتماعهم في الكفر والاستهزاء." (١)

"إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا قال ابن عباس نزلت في اليهود آمنوا بموسى ثم كفروا بعبادتهم العجل ثم بعد ذلك كفروا بعيسى والإنجيل ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وقيل إنهم آمنوا بموسى ثم كفروا بعده ثم آمنوا بداود ثم كفروا بعيسى ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وقيل نزلت في المنافقين وذلك أنهم آمنوا ثم كفروا بعد الإيمان ثم آمنوا يعني بألسنتهم وهو إظهارهم الإيمان لتجري عليهم أحكام المؤمنين ثم ازدادوا كفرا يعني بموتهم على الكفر. وقيل بذنوب أحدثوها في الكفر وقيل هم قوم آمنوا ثم ارتدوا إلى الكفر ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا يعني بموتهم عليه. وذلك لأن من تكرر منه الإيمان بعد الكفر والكفر بعد الإيمان مرات كثيرة يدل على أنه لا وقع للإيمان في قلبه، ومن كان كذلك لا يكون مؤمنا بالله إيمانا صحيحا وازديادهم الكفر هو استهزاؤهم وتلاعبهم بالإيمان ومثل هذا المتلاعب بالدين هل تقبل توبته أم لا؟ حكي عن علي بن أبي طالب أنه قال لا تقبل توبته بل يقتل وذهب أكثر أهل العلم إلى أن توبته مقبولة. وقوله تعالى: لم يكن الله ليغفر لهم يعني ما أقاموا على الكفر وماتوا عليه وذلك لأن الله تعالى أخبر أنه يغفر الكفر إذا تاب منه بقوله قل للذين كفروا إن ينتهوا يعني عن الكفر يغفر لهم ما قد سلف يعني من كفرهم ولا ليهديهم سبيلا يعني طريق هدى وقيل لا يجعلهم بكفرهم مهتدين. قوله تعالى: بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما يعني أخبرهم يا محمد وإنما وضع بشر مكان أخبر تهكما بهم وقيل البشارة كل خبر تتغير به بشرة الوجه سارا كان ذلك الخبر أو غير سار وقيل معناه اجعل موضع بشارتك لهم العذاب لأن العرب يقول تحيتك الضرب أي هذا بدل من تحيتك قال الشاعر:

وخيل قد دلفت لها بخيل ... تحية بينهم ضرب وجيع

[سورة النساء (٤): الآيات ١٣٩ الى ١٤١]

الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

ثم وصف الله تعالى المنافقين فقال تعالى: الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين يعني يتخذون اليهود أولياء وأنصارا وبطانة من دون المؤمنين وذلك أن المنافقين كانوا يقولون إن محمدا لا يتم أمره فيوالون اليهود فقال الله تعالى ردا على المنافقين: أيبتغون عندهم العزة يعني يطلبون من اليهود العزة والمعونة والظهور على محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فإن العزة لله جميعا يعني فإن القوة والقدرة والغلبة لله جميعا وهو الذي يعز أولياءه وأهل طاعته كما قال تعالى: ولله العزة ولرسوله

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٤٠٦/١

وللمؤمنين وقد نزل عليكم يا معشر المسلمين في الكتاب يعني القرآن أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها قال المفسرون الذي أنزل عليهم في النهي عن مجالستهم هو قوله تعالى في سورة الأنعام: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وهذا أنزله بمكة لأن المشركين كانوا يخوضون في القرآن ويستهزءون به في مجالسهم ثم إن أحبار اليهود بالمدينة كانوا يفعلون مثل فعل المشركين وكان المنافقون يجلسون إليهم ويخوضون معهم في الاستهزاء بالقرآن فنهى الله المؤمنين عن القعود معهم بقوله: فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره يعني يأخذوا في حديث آخر غير الاستهزاء بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس دخل في هذه الآية كل محدث في." (١)

"الدين وكل مبتدع إلى يوم القيامة إنكم إذا مثلهم يعني أنكم يا أيها الجالسون مع المستهزئين بآيات الله إذا رضيتم بذلك فأنتم وهم في الكفر سواء. قال العلماء وهذا يدل على أن من رضي بالكفر فهو كافر ومن رضي بمنكر أو خالط أهله كان في الإثم بمنزلتهم إذا رضي به وإن لم يباشره فإن جلس إليهم، ولم يرض بفعلهم بل كان ساخط له وإنما جلس على سبيل التقية والخوف فالأمر فيه أهون من المجالسة مع الرضا وإن جلس مع صاحب بدعة أو منكر ولم يخض في بدعته أو منكره فيجوز الجلوس معه مع الكراهة وقيل لا يجوز بحال والأول أصح إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا أي إنهم اجتمعوا في الدنيا على الاستهزاء بآيات الله وكذلك يجمعهم في عذاب جهنم يوم القيامة قوله عز وجل: الذين يتربصون بكم نزلت في المنافقين والمعنى ينتظرون ما يحدث بكم من خير أو شر فإن كان لكم فتح من الله أي ظفر على عدوكم، وغنيمة تنالونها منهم قالوا يعني المنافقين لكم ألم نكن معكم يعني في الوقعة والفتح فأعطونا من الغنيمة وقيل معناه ألم نكن على دينكم وفي الجهاد كنا معكم فاجعلوا لنا نصيبا من الغنيمة وإن كان للكافرين نصيب أي دولة وظهور على المسلمين قالوا يعني المنافقين للكفار ألم نستحوذ عليكم الاستحواذ هو الاستيلاء والغلبة يقال استحوذ فلان على فلان أي غلب عليه والمعنى أم نغلبكم ونتمكن منكم ومن قتالكم وأسركم ثم لم نفعل ذلك وقيل معناه ألم نغلبكم على رأيكم ونمنعكم من المؤمنين يعني في صلاتهم والدخول في دينهم وقيل معناه ألم ندفع المؤمنين بتخذيلهم عنكم ومراسلتنا إياكم بأخبارهم وأسرارهم فهاتوا نصيبا مما أصبتم منهم ومراد المنافقين إظهار المنة على الكفار. فإن قلت لم سمي ظفر المؤمنين فتحا وسمي ظفر الكافرين نصيبا. قلت تعظيما لشأن المؤمنين وتخسيسا لحظ الكافرين لأن ظفر المؤمنين أمر عظيم تفتح له أبواب السماء حتى ينزل النصر على المسلمين وأما ظفر الكفار فما هو إلا حظ دنيء ونصيب خسيس لا يبقى منه إلا ما نالوه ولهم في الآخرة العقوبة الشديدة على ذلك النصيب الذي نالوه من المسلمين فالله يحكم بينكم يوم القيامة يعني الفريقين فريق المؤمنين وفريق المنافقين والمعنى إنما وضع السيف عن المنافقين في الدنيا لا لأجل كرامتهم بل أخر عذابهم إلى يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا فيه قولان: أحدهما وهو قول علي بن أبي طالب وابن عباس أن المراد به يوم القيامة بدليل أنه عطف على قوله فالله يحكم بينكم يوم القيامة روي أن رجلا سأل علي بن أبي طالب عن هذه الآية: ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا وهم يقتلوننا فقال ولن يجعل الله للكافرين يوم القيامة على المؤمنين سبيلا. والقول الثاني إن هذا في الدنيا والمعنى أن حجة المؤمنين غالبة في الدنيا على

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤٣٨/١

الكافرين وليس لأحد أن يغلبهم بالحجة وقيل معناه إن الله لم يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا بأن يمحو دولة المؤمنين بالكلية حتى يستبيحوا بيضتهم فلا يبقى أحد من المؤمنين وقيل معناه إن الله لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا بالشرع فإن شريعة الإسلام ظاهرة إلى يوم القيامة ويتفرع على ذلك مسائل من أحكام الفقه منها أن الكافر لا يرث المسلم ومنها أن الكافر إذا استولى على مال المسلم لم يملكه بدليل هذه الآية ومنها أن الكافر ليس له أن يشتري عبدا مسلما ومنها أن المسلم لا يقتل بالذمي بدليل هذه الآية. قوله تعالى:

[سورة النساء (٤): الآيات ١٤٢ الى ١٤٤]

إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا (١٤٢) مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (١٤٣) يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا (١٤٤)

إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم

يعني يعاملون الله وهو يجازيهم على خداعهم وقيل معناه." [١]

"[سورة النساء (٤) : الآيات ١٢٧ الى ١٤١]

ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما (١٢٧) وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا (١٢٨) ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما (١٢٩) وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما (١٣٠) ولله ما في السماوات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنيا حميدا (١٣١)

ولله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا (١٣٢) إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا (١٣٣) من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعا بصيرا (١٣٤) يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا (١٣٥) يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا (١٣٦)

إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤٣٩/١

لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)." (١)

"الذي دل عليه قوله: يكفر بها ويستهزأ أي: فلا تقعدوا مع الكافرين المستهزئين، وحتى غاية لترك القعود معهم. ومفهوم الغاية أنهم إذا خاضوا في غير الكفر والاستهزاء ارتفع النهي، فجاز لهم أن يقعدوا معهم. والضمير عائد على ما دل عليه المعنى أي: في حديث غير حديثهم الذي هو كفر واستهزاء. ويحتمل أن يفرد الضمير، وإن كان عائدا على الكفر وعلى الاستهزاء المفهومين من قوله: يكفر بها ويستهزأ بها، لأنهما راجعان إلى معنى واحد، ولأنه أجرى الضمير مجرى اسم الإشارة في كونه لمفرد، وإن كان المراد به اثنين.

إنكم إذا مثلهم حكم تعالى بأنهم إذا قعدوا معهم وهم يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها، وهم قادرون على الإنكار مثلهم في الكفر، لأنهم يكونون راضين بالكفر، والرضا بالكفر كفر. والخطاب في أنكم على الخلاف السابق أهو للمنافقين؟ أم للمؤمنين؟

ولم يحكم تعالى على المسلمين الذين كانوا يجالسون الخائضين من المشركين بمكة بأنهم مثل المشركين، لعجز المسلمين إذ ذاك عن الإنكار بخلاف المدينة، فإن الإسلام كان الغالب فيها والأعلى، فهم قادرون على الإنكار، والسامع للذم شريك للقائل، وما أحسن ما قال الشاعر:

وسمعك صن عن سماع القبيح ... كصون اللسان عن النطق به

قال ابن عطية: وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات، ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر من المقارنة كقوله الشاعر:

عن المرء لا تسئل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي

وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه أخذ قوما يشربون الخمر فقيل له عن أحد الحاضرين: إنه صائم فحمل عليه الأدب، وقرأ: إنكم إذا مثلهم. ومن ذهب إلى أن معنى قوله: إنكم إذا مثلهم، إن خضتم كخوضهم ووافقتموهم على ذلك فأنتم كفار مثلهم، قوله تنبو عنه دلالة الكلام. وإنما المعنى ما قدمناه من أنكم إذا قعدتم معهم مثلهم.

وإذا هنا توسطت بين الاسم والخبر، وأفرد مثل، لأن المعنى إن عصيانكم مثل عصيانهم، فالمعنى على المصدر كقوله: أنؤمن لبشرين مثلنا «١» وقد جمع في قوله:

ثم لا يكونوا أمثالكم «٢» وفي قوله: حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون «٣» والإفراد

---

(١) سورة المؤمنون: ٣/ ٤٧.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٤/٧٩

(٢) سورة محمد: ٤٧/ ٣٨. [.....]

(٣) سورة الواقعة: ٥٦/ ٢٢- ٢٣.." (١)

"بوكيل بمسلط وقيل: لا أقدر على منعكم من التكذيب إجبارا إنما أنا منذر. قال ابن عطية: وهذا كان قبل نزول الجهاد والأمر بالقتال ثم نسخ. وقيل: لا نسخ في هذا إذ هو خبر والنسخ فيه متوجه لأن اللازم من اللفظ لست الآن وليس فيه أنه لا يكون في المستقبل.

لكل نبإ مستقر أي لكل أجل شيء ينبأ به يعني من إنبائه بأنهم يعذبون وإبعادهم به وقت استقرار وحصول لا بد منه. وقيل: لكل عمل جزاء وليس هذا بالظاهر. وقال السدي: استقر نبأ القرآن بما كان يعدهم من العذاب يوم بدر. وقال مقاتل: منه في الدنيا يوم بدر وفي الآخرة جهنم. وسوف تعلمون مبالغة في التهديد والوعيد فيجوز أن يكون تهديد بعذاب الآخرة، ويجوز أن يكون تهديدا بالحرب وأخذهم بالإيمان على سبيل القهر والاستيلاء.

وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره هذا خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه المؤمنون لأن علة النهي وهو سماع الخوض في آيات الله يشمله وإياهم. وقيل: هو خاص بتوحيده لأن قيامه عنهم كان يشق عليهم وفراقه على مغاضبه والمؤمنون عندهم ليسوا كهو. وقيل: خطاب للسامع والذين يخوضون المشركون أو اليهود أو أصحاب الأهواء ثلاثة أقوال، ورأيت هنا بصرية ولذلك تعدت إلى واحد ولا بد من تقدير حال محذوفة أي وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا وهم خائضون فيها أي وإذا رأيتهم ملتبسين بهذه الحالة. وقيل: رأيت علمية لأن الخوض في الآيات ليس مما يدرك بحاسة البصر وهذا فيه بعد لأنه يلزم من ذلك حذف المفعول الثاني من باب علمت فيكون التقدير وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا خائضين فيها وحذفه اقتصارا لا يجوز وحذفه اختصارا عزيز جدا حتى أن بعض النحويين منعه والخوض في الآيات كناية عن الاستهزاء بها والطعن فيها. وكانت قريش في أنديتها تفعل ذلك فأعرض عنهم أي لا تجالسهم وقم عنهم وليس إعراضا بالقلب وحده بينه وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم «١» ، وقد تقدم من قول المفسرين في هذه الآية أن قوله: وقد نزل عليكم في الكتاب: أن الذي نزل في الكتاب هو قوله: وإذا رأيت الذين يخوضون الآية وحتى يخوضوا غاية الإعراض عنهم أي فلا بأس أن تجالسهم والضمير في غيره قال الحوفي عائد إلى الخوض كما قال الشاعر:

---

(١) النساء: ٤/ ١٤٠.." (٢)

"في» غيره «يجوز أن يعود على الكفر والاستهزاء المفهومين من قوله» يكفر بها «و» يستهزأ بها «وإنما أفرد الضمير وإن كان المراد به شيئين لأحد أمرين: إما لأن الكفر والاستهزاء شيء واحد في المعنى، وإما لإجراء الضمير مجرى اسم الإشارة نحو:

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ١٠٣/٤

(٢) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٥٤٥/٤

﴿عوان بين ذلك﴾ [البقرة: ٦٨] و [قوله:]

١٦٦ - ٤- كأنه في الجلد توليع البهق ... وقد تقدم تحقيقه في البقرة. و «حتى» غاية للنهي، والمعنى: أنه يجوز مجالستهم عند خوضهم في غير الكفر والاستهزاء.

وقوله: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ «إذن» هنا ملغاة لوقوعها بين مبتدأ وخبر. والجمهور على رفع اللام في «مثلهم» على خبر الابتداء. وقرئ شاذا بفتحها، وفيها تخريجان، أحدهما: - وهو قول البصريين- أنه خبر أيضا، وإنما فتح لإضافته إلى غير متمكن كقوله تعالى: ﴿إنه لحق مثل مآ أنكم تنطقون﴾ [الذاريات: ٢٣] بفتح اللام، وقول الفرزدق:

١٦٦ - ٥-. . . . . وإذما مثلهم بشر

في أحد الأوجه. والثاني: - وهو قول الكوفيين- أن «مثل» يجوز." (١)

"والخنازير وما يحملني حبي إياه، وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض، وسيأتي الحديث مسندا في سورة المائدة إن شاء الله تعالى.

وقوله: وإن تلووا أو تعرضوا قال مجاهد وغير واحد من السلف: تلووا، أي تحرفوا الشهادة وتغيروها، واللي هو التحريف وتعمد الكذب، قال تعالى: وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب [آل عمران: ٧٨] ، والإعراض هو كتمان الشهادة وتركها، قال تعالى: ومن يكتمها فإنه آثم قلبه [البقرة: ٢٨٣] وقال النبي صلى الله عليه وسلم «خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها» «١» ولهذا توعدهم الله بقوله: فإن الله كان بما تعملون خبيرا أي وسيجازيكم بذلك.

[سورة النساء (٤) : آية ١٣٦]

يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا (١٣٦)

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه، كما يقول المؤمن في كل صلاة اهدنا الصراط المستقيم [الفاتحة: ٦] أي بصرنا فيه وزدنا هدى وثبتنا عليه، فأمرهم بالإيمان به وبرسوله، كما قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله [الحديد: ٢٨] . وقوله: والكتاب الذي نزل على رسوله يعني القرآن، والكتاب الذي أنزل من قبل وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة، وقال في القرآن:

نزل لأنه نزل مفرقا منجما على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم، وأما الكتب المتقدمة، فكانت تنزل جملة واحدة، لهذا قال تعالى: والكتاب الذي أنزل من قبل، ثم قال تعالى: ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا أي فقد خرج عن طريق الهدى وبعد عن القصد كل البعد.

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ١٢٢/٤

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٧ الى ١٤٠]

إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)

يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان، ثم رجع عنه، ثم عاد فيه، ثم رجع واستمر على ضلاله وازداد حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته ولا يغفر الله له ولا يجعل له مما هو فيه فرجا ولا مخرجا ولا طريقا إلى الهدى، ولهذا قال: لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا. قال

---

(١) رواه أحمد في المسند ٤/ ١١٨ و ٥/ ١٩٢ من حديث زيد بن خالد الجهني بلفظ: «خير الشهادة ما شهد بها صاحبها قبل أن يسألها» . [.....]."[1]

"ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا حفص بن جميع عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ثم ازدادوا كفرا قال: تموا على كفرهم حتى ماتوا، وكذا قال مجاهد. وروى ابن أبي حاتم من طريق جابر المعلى عن عامر الشعبي، عن علي رضي الله عنه، أنه قال: يستتاب المرتد ثلاثا، ثم تلا هذه الآية إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا، ثم قال: بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما يعني أن المنافقين من هذه الصفة، فإنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم، ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة، ويقولون لهم إذا خلوا بهم: إنما نحن معكم، إنما نحن مستهزئون، أي بالمؤمنين، في إظهارنا لهم الموافقة.

قال الله تعالى منكرا عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين أيبتغون عندهم العزة، ثم أخبر الله تعالى بأن العزة كلها له وحده لا شريك له ولمن جعلها له، كما قال تعالى في الآية الأخرى من كان يريد العزة فلله العزة جميعا [فاطر: ١٠] . وقال تعالى: ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون [المنافقون: ٨] ، والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله والإقبال على عبوديته والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، ويناسب هنا أن نذكر الحديث الذي رواه الإمام أحمد «١» : حدثنا حسين بن محمد، حدثنا أبو بكر بن عياش بن حميد الكندي، عن عبادة بن نسيء، عن أبي ريحانة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من انتسب إلى تسعة آباء كفار يريد بهم عزا وفخرا، فهو عاشرهم في النار» تفرد به أحمد، وأبو ريحانة هذا هو أزدي، ويقال أنصاري، واسمه شمعون، بالمعجمة، فيما قاله البخاري، وقال غيره: بالمهملة، والله أعلم.

وقوله: وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ٣٨٤/٢

غيره إنكم إذا مثلهم، أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها وأقررتموهم على ذلك، فقد شاركتموهم في الذي هم فيه، فلهذا قال **تعالى: إنكم إذا مثلهم في** المأثم، كما جاء في الحديث «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر» والذي أحيل عليه في هذه الآية من النهي في ذلك هو قوله تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم [الأنعام:

٦٨] ، قال مقاتل بن حيان: نسخت هذه الآية التي في سورة الأنعام، يعني نسخ **قوله: إنكم إذا مثلهم لقوله**- وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون [الأنعام: ٦٩] .

---

(١) مسند أحمد ٤/ ١٣٣.." (١)

"وقوله وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا أي بالتكذيب والاستهزاء، فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره أي حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب، وإما ينسينك الشيطان والمراد بذلك كل فرد، فرد من آحاد الأمة، أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها، فإن جلس أحد معهم ناسيا، فلا تقعد بعد الذكرى بعد التذكر مع القوم الظالمين ولهذا ورد في الحديث «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» .

وقال السدي عن أبي مالك وسعيد بن جبير في قوله وإما ينسينك الشيطان قال: إن نسيت فذكرت فلا تقعد معهم، وكذا قال مقاتل بن حيان «١» .

وهذه الآية هي المشار إليها في قوله وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم** [النساء: ١٤٠] أي إنكم إذا جلستم معهم، وأقررتموهم على ذلك، فقد ساويتموهم فيما هم فيه.

وقوله وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء أي إذا تجنبوهم، فلم يجلسوا معهم في ذلك، فقد برئوا من عهدتهم وتخلصوا من إثمهم، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن السدي، عن أبي مالك، عن سعيد بن جبير، قوله وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء قال: ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك، أي إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم، وقال آخرون: بل معناه وإن جلسوا معهم، فليس عليهم من حسابهم من شيء.

وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية، وهي **قوله إنكم إذا مثلهم** [النساء: ١٤٠] قاله مجاهد والسدي وابن جريج وغيرهم. وعلى قولهم يكون قوله ولكن ذكرى لعلهم يتقون أي ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم، حينئذ تذكيرا لهم عما هم فيه، لعلهم يتقون ذلك ولا يعودون إليه.

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ٢/٣٨٥

[سورة الأنعام (٦) : آية ٧٠]

وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون (٧٠)

يقول تعالى: وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا أي دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلا فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم، ولهذا قال وذكر به، أي ذكر

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٢٢٦.." (١)

"﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا (١٣٦) ﴾

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه. كما يقول المؤمن في كل صلاة: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ [الفاتحة: ٦] أي: بصرنا فيه، وزدنا هدى، وثبتنا عليه. فأمرهم بالإيمان به وبرسوله، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله﴾ [الحديد: ٢٨] .

وقوله: ﴿والكتاب الذي نزل على رسوله﴾ يعني: القرآن ﴿والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة، وقال في القرآن: ﴿نزل﴾ ؛ لأنه نزل مفرقا منجما على الوقائع، بحسب ما يحتاج إليه العباد إليه في معادهم ومعاشهم، وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة؛ ولهذا قال: ﴿والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ ثم قال ﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا﴾ أي: فقد خرج عن طريق الهدى، وبعد عن القصد كل البعد.

﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) ﴾

يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رجع عنه، ثم عاد فيه ثم رجع، واستمر على ضلاله (١) وازداد حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته، ولا يغفر الله له، ولا يجعل له مما هو فيه فرجا ولا مخرجا، ولا طريقا إلى الهدى؛ ولهذا قال: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا﴾

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا حفص بن جميع، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس في

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ٢٤٩/٣

قوله: ﴿ثم ازدادوا كفرا﴾ قال: تمموا (٢) على كفرهم حتى ماتوا. وكذا قال مجاهد.
وروى ابن أبي حاتم من طريق جابر المعلى، عن عامر الشعبي، عن علي، رضي الله عنه، أنه قال: يستتاب المرتد، ثلاثا، ثم تلا هذه الآية: ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا﴾

---

(١) في أ: "ضلالته".
(٢) في ر، أ: "تموا".." (١)

"ثم قال: ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما﴾ يعني: أن المنافقين من هذه الصفة فإنهم آمنوا ثم كفروا، فطبع على قلوبهم، ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة، يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة، ويقولون لهم إذا خلوا بهم: إنما نحن معكم، إنما نحن مستهزئون. أي بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة. قال الله تعالى منكرا عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين: ﴿أيبتغون عندهم العزة﴾ ؟
ثم أخبر تعالى بأن العزة كلها لله وحده لا شريك له، ولمن جعلها له. كما قال في الآية الأخرى: ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعا﴾ [فاطر: ١٠] ، وقال تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ [المنافقون: ٨] .
والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله، والالتجاء إلى عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.
ويناسب أن يذكر (١) هاهنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد:
حدثنا حسين بن محمد، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن حميد الكندي، عن عبادة بن نسي، عن أبي ريحانة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من انتسب إلى تسعة آباء كفار، يريد بهم عزا وفخرا، فهو عاشرهم في النار".
تفرد به أحمد (٢) وأبو ريحانة هذا هو أزدي، ويقال: أنصاري. اسمه (٣) شمعون بالمعجمة، فيما قاله البخاري، وقال غيره: بالمهملة، والله (٤) أعلم.
وقوله [تعالى] (٥) ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ أي: إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم، ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها، وأقررتموهم على ذلك، فقد شاركتموهم في الذي هم فيه. فلهذا قال تعالى: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ [أي] (٦) في المأثم، كما جاء في الحديث: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر" (٧) .
والذي أحيل عليه في هذه الآية من النهي في (٨) ذلك، هو قوله تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم [حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين] (٩) ﴾ [الأنعام: ٦٨] قال مقاتل بن حيان: نسخت هذه الآية التي في الأنعام. يعني نسخ قوله: ﴿إنكم إذا

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤٣٤/٢

مثلهم﴾ لقوله ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون﴾ [الأنعام: ٦٩] .

(١) في ر: "ومناسب أن ذكر".

(٢) المسند (١٣٣/٤) قال الهيثمي في المجمع (٨٥/٨) : "رجال أحمد ثقات".

(٣) في ر، أ: "واسمه".

(٤) في ر، أ: "فالله".

(٥) زيادة من ر، أ.

(٦) زيادة من ر، أ.

(٧) رواه الترمذي في سننه برقم (٢٨٠١) من حديث جابر، وفي إسناده ليث بن أبي سليم ضعيف، ورواه أحمد في المسند (٢٠/١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي إسناده مجهول، ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٩١/١١) من حديث عبد الله ابن عباس، وفي إسناده يحيى بن أبي سليمان وهو ضعيف.

(٨) في ر: "عن".

(٩) زيادة من: ر، أ، وفي هـ: "الآية".." (١)

"﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ [ص: ٨٨] ، وقال ﴿لكل أجل كتاب﴾ [الرعد: ٣٧] .

وهذا تهديد ووعيد أكيد؛ ولهذا قال بعده: ﴿وسوف تعلمون﴾

ثم قال: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾ أي: بالتكذيب والاستهزاء ﴿فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ أي: حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه (١) من التكذيب، ﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ والمراد بهذا كل فرد، فرد من آحاد الأمة، ألا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها، فإن جلس أحد معهم ناسيا ﴿فلا تقعد بعد الذكرى﴾ بعد التذكر ﴿مع القوم الظالمين﴾

ولهذا ورد في الحديث: "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه" (٢)

وقال السدي، عن أبي مالك وسعيد بن جبير في قوله: ﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ قال: إن نسيت فذكرت، فلا تجلس معهم. وكذا قال مقاتل بن حيان.

وهذه الآية هي المشار إليها في قوله: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ الآية [النساء: ١٤٠] أي: إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك، فقد ساويتموهم في الذي هم فيه.

وقوله: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ أي: إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك، فقد برئوا من عهدتهم، وتخلصوا من إثمهم.

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤٣٥/٢

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن السدي، عن أبي مالك وسعيد بن جبير، قوله: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ قال: ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك، أي: إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم.

وقال آخرون: بل معناه: وإن جلسوا معهم، فليس عليهم من حسابهم من شيء. وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية، وهي قوله: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء: ١٤٠] . قاله مجاهد، والسدي، وابن جريج، وغيرهم. وعلى قولهم، يكون قوله: ﴿ولكن ذكرى لعلهم يتقون﴾ أي: ولكن أمرناكم (٣) بالإعراض عنهم حينئذ تذكيرا لهم عما هم فيه؛ لعلهم يتقون ذلك، ولا يعودون إليه.

---

(١) في أ: "قبله".

(٢) رواه ابن ماجه في السنن برقم (٢٠٤٣) من حديث أيوب بن سويد عن أبي بكر الهذلي عن شهر عن أبي ذر الغفاري، رضي الله عنه. وقال البوصيري في الزوائد (١٣٠/٢) : "إسناده ضعيف".

(٣) في أ: "أمرناهم".." (١)

"إما لأن الكفر والاستهزاء شيء واحد في المعنى:

وإما لإجراء الضمير مجرى اسم الإشارة، نحو: ﴿عوان بين ذلك﴾ [البقرة: ٦٨] . وقوله: [الرجز]

١٨٩٠ - كأنه في الجلد توليع البهق ... وقد تقدم تحقيقه في البقرة، و «حتى» : غاية للنهي، والمعنى: أنه يجوز مجالستهم عند خوضهم في غير الكفر والاستهزاء.

قال الضحاك: عن ابن عباس: دخل في هذه الآية كل محدث في الدين، وكل مبتدع إلى يوم القيامة.

قوله: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ «إذا» هنا: ملغاة؛ لوقوعها بين مبتدأ وخبر، والجمهور على رفع اللام في «مثلهم» على خبر الابتداء، وقرئ شاذا بفتحها، وفيها تخريجان:

أحدهما: - وهو قول البصريين - أنه خبر أيضا، وإنما فتح لإضافته إلى غير متمكن؛ كقوله - تعالى -: ﴿إنه لحق مثل مآ أنكم تنطقون﴾ [الذاريات: ٢٣] بفتح اللام، وقول الفرزدق: [البسيط]

١٨٩١ - ... ... وإذ ما مثلهم بشر

في أحد الأوجه.

والثاني: - وهو قول الكوفيين - إن «مثل» يجوز نصبها على المحل، أي: الظرف، ويجيزون: «زيد مثلك» بالنصب على المحل أي: زيد في مثل حالك، وأفرد «مثل» هنا، وإن أخبر به عن جمع ولم يطابق به كما طابق ما قبله في قوله: ﴿ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ [محمد: ٣٨] ، وقوله: ﴿وحور عين كأمثال﴾ [الواقعة: ٢٢، ٢٣] .

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٢٧٨/٣

قال أبو البقاء وغيره: لأنه قصد به هنا المصدر، فوحد كما وحد في قوله: ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ [المؤمنون: ٤٧] . وتحرير المعنى: أن التقدير: إن عصيانكم مثل عصيانهم، إلا أن تقدير المصدرية في قوله: «لبشرين مثلنا» قلق.." (١)

"ومن أحسن دينا يعني من محمد صلى الله عليه وسلم حين أسلم سره وروحه وقلبه ونفسه وشيطانه كما قال: «أسلم شيطاني على يدي» «١»

ومن إسلام نفسه يقول يوم القيامة:

«أمتي أمتي»

حين يقول الأنبياء نفسي نفسي. وهو محسن بمعنى أنه من أهل المشاهدة يعبد الله كأنه يراه بل يراه ولأنه أحسن خلقه العظيم إلى أن بلغ حد الكمال والختم. واتبع ملة إبراهيم بأن الله اتخذه خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا. قيل لمجنون بني عامر: ما اسمك؟ قال: ليلى.

وقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم: ما اسمك؟ قال: الحبيب.

فكان محمد صلى الله عليه وسلم حبيبا خليلا أي فقيرا من الخلة الحاجة لأنه افتقر بالكلية إلى الله في كل أحواله. والفرق بين مقام الخليل ومقام الحبيب أن الخليل اتخذ الآلهة عدوا في الله فإنهم عدو لي إلا رب العالمين [الشعراء: ٧٧] والحبيب اتخذ نفسه عدوا في الله وقال: ليت رب محمد لم يخلق محمدا وهذا مقام الفناء في الفناء بل البقاء بعد الفناء فلا جرم يقول بالرب عن الرب.

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٢٧ الى ١٤١]

ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما (١٢٧) وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا (١٢٨) ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما (١٢٩) وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما (١٣٠) ولله ما في السماوات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنيا حميدا (١٣١)

ولله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا (١٣٢) إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا (١٣٣) من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعا بصيرا (١٣٤) يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا (١٣٥) يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٧٩/٧

الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا (١٣٦)

إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

---

(١) رواه مسلم في كتاب المنافقين حديث ٦٩، ٧٠. الترمذي في كتاب الرضاع باب ١٧. النسائي في كتاب النساء باب ٤. الدارمي في كتاب الرقاق باب ٢٥، ٦٦. أحمد في مسنده (١/ ٢٥٧، ٣٩٧) .." [1]

"قال ع «١» : وهذا هو التأويل الراجح، وتأمل قوله تعالى: لم يكن الله ليغفر لهم فإنها عبارة تقتضي أن هؤلاء محتوم عليهم من أول أمرهم ولذلك ترددوا، وليست هذه العبارة مثل أن يقول: لا يغفر الله لهم، بل هي أشد، فتأمل الفرق بين العبارتين فإنه من دقيق غرائب الفصاحة التي في كتاب الله سبحانه.

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٨ الى ١٣٩]

بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩)

وقوله تعالى: بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما ... الآية: في هذه الآية دليل ما على أن التي قبلها إنما هي في المنافقين، ثم نص سبحانه من صفات المنافقين على أشدها ضررا، وهي موالاتهم الكافرين، واطراحهم المؤمنين، ونبه على فساد ذلك ليدعه من عسى أن يقع في نوع منه من المؤمنين غفلة، أو جهالة، أو مسامحة ثم وقفهم سبحانه على جهة التوبيخ، فقال: أيبتغون عندهم العزة والإستكثار، أي: ليس الأمر كذلك فإن العزة لله جميعا يؤتيها من يشاء، وقد وعد بها المؤمنين، وجعل العاقبة للمتقين، والعزة أصلها الشدة والقوة ومنه: وعزني في الخطاب [ص: ٢٣] أي: غلبني بشدته.

[سورة النساء (٤) : آية ١٤٠]

وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)

---

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ٢/٥٠٦

وقوله سبحانه: وقد نزل عليكم في الكتاب ... الآية: مخاطبة لجميع من أظهر الإيمان من محقق ومنافق لأنه إذا أظهر الإيمان، فقد لزمه امتثال أوامر كتاب الله تعالى، والإشارة بهذه الآية إلى قوله تعالى: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره [الأنعام: ٦٨] إلى نحو/ هذا من الآيات، والكتاب في هذا الموضع القرآن، وفي الآية دليل قوي على وجوب تجنب أهل البدع والمعاصي، وألا يجالسوا، وقد قيل: [الطويل]

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن مقتد «٢»

وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات، ثم توعد سبحانه المنافقين والكافرين بجمعهم في جهنم، فتأكد بذلك النهي عن مجالستهم وخلطتهم.

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ١٢٤) .

(٢) ينظر البيت في «العزلة» للخطابي ص (٦٩) وينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ١٢٦) .." [1]

"الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) فلا يقتصرن قاصر الهمة على السعي للدنيا فقط، أو معناه فيعطيه ما يريد وليس له في الآخرة من نصيب (وكان الله سميعا بصيرا) فلا يخفى عليه خافية ويجازى بحسب قصده.

* * *

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا (١٣٥) يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا (١٣٦) إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

* * *." [2]

"(وقد نزل عليكم في الكتاب) في القرآن (أن) أي: أنه (إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها) حالان من الآيات (فلا تقعدوا معهم) مع من يكفر ويستهزئ (حتى يخوضوا في حديث غيره) الاستهزاء، وهذا تذكار ما نزل عليهم بمكة من قوله " وإذا رأيت الذين يخوضون في ءاياتنا " الآية [الأنعام: ٦٨]، (إنكم إذا مثلهم) في الكفر إن رضيتم بذلك،

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٣١٧/٢

(٢) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٤١٧/١

أو في الإثم فإنكم قادرون على الإعراض والإنكار، وقيل: هي منسوخة بقوله: (وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء) إلخ (إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا) كما اجتمعوا على الاستهزاء بالآيات (الذين يتربصون بكم) ينتظرون وقوع أمر بكم، بدل من الذين أو مبتدأ وخبره (فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم) ففي الدين والنصرة فأسهموا لنا من الغنيمة (وإن كان للكافرين نصيب) من الظفر فإن الحرب سجال (قالوا) للكافرين (ألم نستحوذ عليكم) ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم وأسركم فما فعلنا شيئا من ذلك (ونمنعكم من المؤمنين) بأن ثبطناهم عنكم بتخييلنا لهم ما ضعفت به قلوبهم وتوانينا في مظاهرتهم، أو معناه نصرفكم عن الدخول في جملتهم، فإن." [1]

"باعتبار القرآن، (وإما ينسينك الشيطان): النهي عن مجالستهم بوساوسه، (فلا تقعد بعد الذكرى) بعد أن تذكر، (مع القوم الظالمين)، معهم فإنهم ظلمة لوضع التكذيب، والسخرية موضع التصديق والتعظيم، (وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء): ما عليهم شيء مما يحاسبون عليه أي: من آثام الخائضين إن قعدوا معهم، (ولكن ذكرى) أي: لكن عليهم أن يذكروهم، ويمنعوهم، ويعظوهم، (لعلهم يتقون): يجتنبون الخوض كراهة لمساءتهم نقل أنه لما نزل النهي عن مجالستهم قال المسلمون: إذا لم نستطع أن نجلس في الحرم ونطوف فإنهم يخوضون أبدا، فنزلت رخصة لهم في القعود بشرط التذكير، قال كثير من السلف: هذا منسوخ بآية النساء المدنية، وهي قوله " **إنكم إذا مثلهم** " [النساء: ١٤٠]، وفي رواية قال المسلمون: نخاف الإثم حين نتركهم ولا ننهاهم وحينئذ معنى قوله: " ولكن ذكرى " أي: ولكن عليكم التجنب وتذكر النهي لعلهم يتقون حين يروا إعراضكم عنهم، وصح عن سعيد ابن جبير: إن معناه ما عليكم أن يخوضوا في آيات الله شيء من حسابهم إذا تجنبتم، وأعرضتم عنهم أي: عليكم الإعراض، (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا) أي: استهزءوا بالدين الحق الذي يجب أن يعظم غاية التعظيم، أو معناه جعلوا اللعب كعبادة الأصنام وتحريم البحائر وغيرها دينا واجبا أي: أعرض عنهم ولا تبال بأفعالهم وأقوالهم، (وغرتهم الحياة الدنيا) حتى اطمأنوا بها، (وذكر به): بالقرآن، (أن." [2]

"أخرج ابن المنذر وابن جرير عن أبي وائل قال: إن الرجل ليتكلم في المجلس بالكلمة الكذب يضحك بها جلساءه فيسخط الله عليهم جميعا فذكر ذلك لإبراهيم النخعي فقال: صدق أبو وائل أو ليس ذلك في كتاب الله ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: أنزل في سورة الأنعام (حتى يخوضوا في حديث غيره) (الأنعام الآية ٦٨) ثم نزل التشديد في سورة النساء ﴿إنكم إذا مثلهم﴾

وأخرج ابن المنذر عن السدي في الآية قال: كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في رسول الله والقرآن فشتموه واستهزؤوا به فأمر الله أن لا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره

وأخرج عن سعيد بن جبير أن الله جامع المنافقين من أهل المدينة والمشركين من أهل مكة الذين خاضوا واستهزؤوا بالقرآن في جهنم جميعا

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٤٢٠/١

(٢) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٥٤٦/١

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿الذين يتربصون بكم﴾ قال: هم المنافقون يتربصون بالمؤمنين ﴿فإن كان لكم فتح من الله﴾ إن أصاب المسلمون من عدوهم غنيمة قال المنافقون ﴿ألم نكن معكم﴾ قد كنا معكم فأعطونا من الغنيمة مثل ما تأخذون ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ يصيبونه من المسلمين قال المنافقون للكفار ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ ألم نبين لكم أنا على ما أنتم عليه قد نثبطهم عنكم

وأخرج ابن جرير عن السدي ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ قال: نغلب عليكم

أخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن علي أنه قيل له: أرأيت هذه الآية ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ وهم يقاتلونا فيظهرون ويقتلون فقال: ادنه ادنه ثم قال: فالله يحكم بينكم يوم القيامة ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾

وأخرج ابن جرير عن علي ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ قال في الآخرة

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ قال: ذاك يوم القيامة." (١)

"إلى قوله ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ نسخ قوله ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ الآية

وأخرج الفريابي وأبو نصر السجزي في الإبانة عن مجاهد في قوله ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾ قال: هم أهل الكتاب نهى أن يقعد معهم إذا سمعهم يقولون في القرآن غير الحق

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي وائل قال: إن الرجل ليتكلم بالكلمة من الكذب ليضحك بها جلساءه فيسخط الله عليه فذكر ذلك لإبراهيم النخعي فقال: صدق أو ليس ذلك في كتاب الله ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾ الآية

وأخرج أبو الشيخ عن مقاتل قال: كان المشركون بمكة إذا سمعوا القرآن من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خاضوا واستهزؤوا فقال المسلمين: لا يصلح لنا مجالستهم نخاف أن نخرج حين نسمع قولهم ونجالسهم فلا نعيب عليهم فأنزل الله في ذلك ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾ الآية

وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾ الآية

قال: نسختها هذه الآية التي في سورة النساء ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها﴾ النساء الآية ١٤٠ الآية

ثم أنزل بعد ذلك ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ التوبة الآية ٥

وأخرج النحاس في ناسخه عن ابن عباس في قوله ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ قال: هذه مكية نسخت بالمدينة بقوله ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها﴾ النساء الآية ١٤٠ الآية

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ إن قعدوا ولكن لا تقعد

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور السيوطي ٧١٨/٢

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: لما هاجر المسلمون إلى المدينة جعل المنافقون يجالسونهم فإذا سمعوا القرآن خاضوا واستهزؤوا كفعل المشركين بمكة فقال." (١)

"١٤١ - ١٤٢ النساء وأخرى بالسماع وأن المراد بالإعراض إظهار المخالفة بالقيام عن مجالسهم لا الإعراض بالقلب أو بالوجه فقط والضمير في معهم للكفرة المدلول عليهم بقوله تعالى يكفر بها ويستهزأ بها

﴿إنكم إذا مثلهم﴾ جملة مستأنفة سيقت لتعليل النهي غير داخلة تحت التنزيل وإذن ملغاة عن العمل لوقوعها بين المبتدأ والخبر أي لا تقعدوا معهم في ذلك الوقت إنكم إن فعلتموه كنتم مثلهم في الكفر واستتباع العذاب وإفراد المثل لأنه كالمصدر أو للاستغناء بالإضافة إلى الجمع وقرئ شاذا مثلهم بالفتح لإضافته إلى غير متمكن كما في قوله تعالى مثل ماانكم تنطقون وقيل هو منصوب على الظرفية أي في مثل حالهم

وقوله تعالى ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا﴾ تعليل لكونهم مثلهم في الكفر ببيان ما يستلزمه من شركتهم لهم في العذاب والمراد بالمنافقين إما المخاطبون وقد وضع موضع ضميرهم المظهر تسجيلا بنفاقهم وتعليلا للحكم بمأخذ الاشتقاق وإما الجنس وهم داخلون تحته دخولا أوليا وتقديم المنافقين على الكافرين لتشديد الوعيد على المخاطبين ونصب جميعا مثل ما قبله." (٢)

"١٠٨ - وعن عمر رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: («لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم») رواه أبو داود.

---

١٠٨ - (وعن عمر) : رضي الله عنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: («لا تجالسوا أهل القدر») : بضم أوله أي: لا تواددوهم، ولا تحابوهم، فإن المجالسة ونحوها من المماشاة من علامات المحبة وأمارات المودة، فالمعنى لا تجالسوهم مجالسة تأنيس وتعظيم لهم لأنهم إما أن يدعوك إلى بدعتهم بما زينه لهم شيطانهم من الحجج الموهمة، والأدلة المزخرفة التي تجلب من لم يتمكن في العلوم والمعارف إليهم ببادي الرأي، وإما أن يعود عليكم من نقصهم وسوء عملهم ما يؤثر في قلوبكم وأعمالكم؛ إذ مجالسة الأغيار تجر إلى غاية البوار ونهاية الخسار. قال تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ [التوبة: ١١٩] ولا ينافي إطلاق الحديث تقييد الآية في المنافقين حيث قال الله تعالى: ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء: ١٤٠] وكذا قوله عز وجل ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ [الأنعام: ٦٨] فلم ينه عن مجالستهم مطلقا؛ لأن الحديث يحمل على من لم يأمن على نفسه منهم؛ فيمنع عن مجالستهم مطلقا، والآية على من أمن فلا حرج عليه في مجالسته لهم بغير التأنيس، والتعظيم ما

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور السيوطي ٢٩٣/٣

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٤٥/٢

لم يكونوا في كفر، وبدعة، وكذا إذا خاضوا وقصد الرد عليهم وتسفيه أدلتهم، ومع هذا؛ البعد عنهم أولى، والاجتناب عن مباحثتهم أحرى." (١)

"١٦٦٧ - (إن الله تعالى إذا أنزل سطواته) جمع سطوة (١) قهره وشدة بطشه وفي رواية ابن حبان سطوته بالإفراد (على أهل نقمته) أي المستوجبين لها (فوافت آجال قوم صالحين فأهلكوا بهلاكهم ثم يبعثون على) حسب (نياتهم وأعمالهم) -[٢٠٢]- أي بعث كل واحد منهم على حسب أعماله من خير وشر فإن كانت نيته وعمله صالحة فعقباه صالحة وإلا فسيئة فذلك العذاب طهرة للصالح ونقمة على الفاسق فالصالح ترفع درجاته والطالح تسفل دركاته فلا يلزم من الاشتراك في الموت الاشتراك في الثواب والعقاب بل يجازى كل واحد بعمله على حسب نيته ومن الحكم العدل أن أعمالهم الصالحة إنما يجازون عليها في الآخرة أما في الدنيا فمهما أصابهم من بلاء فهو تكفير لما قدموه من عمل سيء والنقمة عقوبة المجرم والفعل من نقم بالفتح والكسر ذكره القاضي وذهب ابن أبي جمرة إلى أن الذين يقع لهم ذلك بسبب سكوتهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اه. وذهب بعضهم إلى التعميم تمسكا بآية ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ وأخذ منه مشروعية الهرب من الكفار والظلمة لأن الإقامة معهم من إلقاء النفس في التهلكة

(هب عن عائشة) وهو صحيح ورواه عنها أيضا ابن حبان في صحيحه بلفظ إن الله إذا أنزل سطوته بأهل نقمته وفيهم الصالحون قبضوا معهم ثم بعثوا على نياتهم وأعمالهم

---

(١) يقال سطا عليه يسطو سطوا قهره وأذله وهو البطش بشدة اه." (٢)

"مكفورا ومستهزاء وبها فى محل الرفع لقيامه مقام الفاعل والأصل يكفر بها أحد ويستهزئ فلا تقعدوا جزاء الشرط معهم اى الكفرة المدلول عليهم بقوله يكفر بها ويستهزأ بها حتى يخوضوا الخوض بالفارسية «در حديث شدن» في حديث غيره اى غير القرآن وحتى غاية للنهى والمعنى انه تجوز مجالستهم عند خوضهم وشروعهم فى غير الكفر والاستهزاء. وفيه دلالة على ان المراد بالاعراض عنهم اظهار المخالفة بالقيام عن مجالسهم لا الاعراض بالقلب او بالوجه **فقط إنكم إذا مثلهم جملة** مستأنفة سيقت لتعليل النهى غير داخلة تحت التنزيل واذن ملغاة عن العمل لاعتماد ما بعدها على ما قبلها اى لوقوعها بين المبتدأ والخبر اى لا تقعدوا معهم فى ذلك الوقت انكم ان فعلتموه كنتم مثلهم اى مثل اليهود فى الكفر واستتباع العذاب فان الرضى بالكفر كفر إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا يعنى القاعدين والمقعود معهم وهو تعليم لكونهم مثلهم فى الكفر بيانه ما يستلزمه من شركتهم لهم فى العذاب. واعلم ان الائتلاف هاهنا نتيجة تعارف الأرواح هنالك لقوله عليه السلام (الأرواح جنود مجندة) الحديث فمن تعارف أرواح الكافر والمنافق هناك يأتلفون هاهنا ومن تناكر أرواحهم وأرواح المؤمنين يختلفون هاهنا- روت- عائشة رضى الله عنها ان امرأة كانت بمكة تدخل على نساء قريش تضحكهن فلما هاجرن ووسع الله تعالى دخلت المدينة قالت عائشة فدخلت على فقلت لها فلانة ما أقدمك قالت إليكن

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح الملا على القاري ١٨٢/١

(٢) فيض القدير المناوي ٢٠١/٢

قلت فأين نزلت قالت على فلانة امرأة كانت تضحك بالمدينة قالت عائشة ودخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال (فلانة المضحكة عندكم) قالت عائشة قلت نعم فقال (فعلى من نزلت) قالت على فلانة المضحكة قال (الحمد لله ان الأرواح جنود) إلخ: ونعم ما قيل

همه مرغان كند با جنس پرواز ... كبوتر با كبوتر باز با باز

ولما كان الابد مرآة الأزل لا يظهر فيه الا ما قدر فى الأزل لذا قال الله تعالى إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا لانهم كانوا فى عالم الأرواح فى صف واحد وفى الدنيا بذلك التناسب والتعارف فى فن واحد وقال عليه السلام (كما تعيشون تموتون

وكما تموتون تحشرون) . ففى اشارة الآية نهى لاصحاب القلوب عن المجالسة مع ارباب النفوس والموافقة فى شيء من اهوائهم فانهم ان يفعلوا ذلك يكونوا مثلهم يعنى يكون القلب كالنفس وصاحب القلب كصاحب النفس بالصحبة والمخالطة والمتابعة: قال الحافظ قدس سره

نخست موعظه پير مجلس اين حرفست ... كه از مصاحب ناجنس احتراز كنيد

قال الحدادي فى تفسيره اذن لم يجز جلوس المؤمن معهم لاقامة فرض او سنة اما إذا كان جلوسه لاقامة عبادة وهو ساخط لتلك الحال لا يقدر على تغييرها فلا بأس بالجلوس كما روى عن الحسن انه حضر وابن سيرين جنازة وهناك نوح فانصرف ابن سيرين فذكر ذلك للحسن فقال ما كنا متى رأينا باطلا تركنا حقا اشرع ذلك فى ديننا ولم يرجع انتهى كلامه. وذكر ان الله تعالى اوحى الى يوشع بن نون عليه السلام انى مهلك من قومك أربعين الفا من خيارهم وستين الفا من شرارهم قال يا رب هؤلاء الاشراء فما بال الأخيار قال انهم لم يغضبوا لغضبي وأاكلوهم وشاربوهم وإذا كان." (١)

"ولو علم الله فيهم خيرا لا سمعهم والحق تعالى تارة يتلو عليك الكتاب من الكبير الخارج وتارة يتلو عليك من نفسك فاسمع وتأهب لخطاب مولاك إليك فى أي مقام كنت وتحفظ من الوقر والصمم فالصمم آفة تمنعك عن ادراك تلاوته عليك من الكتاب الكبير وهو الكتاب المعبر عنه بالفرقان والوقر آفة تمنعك من ادراك تلاوته عليك من نفسك المختصرة وهو الكتاب المعبر عنه بالقرآن إذ الإنسان محل الجمع لما تفرق فى العالم الكبير وعلامة السامعين المتحققين فى سماعهم انقيادهم إلى كل عمل مقرب الى الله تعالى من جهة سماعه اعنى من التكليف المتوجه على الاذن من امر او نهى كسماعه للعلم والذكر والثناء على الحق تعالى والموعظة الحسنة والقول الحسن ومن علامته ايضا التصامم عن سماع الغيبة والبهتان والسوء من القول والخوض فى آية الله والرفث والجدال وسماع القينات وكل محرم حجر الشارع عليك سماعه قال الله تعالى أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم فالكافر** الخائض والمنافق الجليس له المستمع لخوضه كذلك من جالس الصديقين والعارفين فى مجالسهم المطهرة وأنديتهم المقدسة فانه شريك لهم فى كل خير ينالون من الله تعالى وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام فيهم (انهم القوم لا يشقى بهم جليسهم) فالمرؤ مع من جالس فى الدنيا بالطاعة والأدب الشرعي وفى الآخرة بالمعاينة والقرب المشهدي نسأل الله تعالى ان يجعلنا مع الصلحاء

(١) روح البيان إسماعيل حقي ٣٠٥/٢

فى الدنيا والآخرة انه الفياض الوهاب وإن لكم ايها الناس في الأنعام جمع نعم بالتحريك وهى الأنواع الاربعة التي هى الإبل والبقر والضأن والمعز. والمعنى بالفارسية [در وجود چهار پايان] لعبرة دلالة يعبر بها من الجهل الى العلم كأنه قيل كيف العبرة فقيل نسقيكم [مى آشامانيم شما را] قال الزجاج سقيته وأسقيته بمعنى واحد وفى الاسئلة المقحمة يقال أسقيته إذا جعلت له سقيا دائما وسقيته إذا أعطيته شربه مما في بطونه من للتبعيض لان اللبن بعض ما فى بطونه والضمير يعود الى بعض الانعام وهو الإناث لان اللبن لا يكون للكل او الى المذكور اى فى بطون ما ذكرنا قاله الكسائي. والمعنى بالفارسية [بعضى از آنچه كه در شكمهاى ذوات ألبانست از جنس نعم] من بين فرث ودم لبنا من ابتدائية متعلقة بنسقيكم لان بين الفرث والدم مبدأ الاسقاء والفرث فضالة العلف فى الكرش وثفله والكرش للحيوان بمنزلة المعدة للانسان خالصا صافيا ليس عليه لون الدم ولا رائحة الفرث سائغا بالفارسية [كوارنده] للشاربين اى سهل المرور فى حلقهم قيل لم يغص أحد باللبن قط وليس فى الطعام والشراب انفع منه ألا يرى الى قوله عليه السلام (إذا أكل أحدكم طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه وإذا شرب لبنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فأنى لا اعلم شيأ انفع فى الطعام والشراب منه) قال فى الكواشي المعنى خلق الله اللبن فى مكان وسط بين الفرث والدم وذلك ان الكرش إذا طبخت العلف صار أسفله فرثا وأوسطه لبنا خالصا لا يشوبه شيء وإعلاء دما وبينه وبينهما حاجز من قدرة الله لا يختلط أحدهما بالآخر بلون ولا طعم ولا رائحة مع شدة الاتصال ثم تسلط الكبد على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها فتجرى الدم فى العروق واللبن فى الضروع ويبقى الفرث فى الكرش ثم ينحدر فان قلت ان اللبن." (١)

"ثم نهى عن صحبة أهل الخوض، فقال:

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٤٠ الى ١٤١]

وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

قلت: (أن) مخفف: نافية، فاعل نزل، و (يكفر) و (يستهزأ) ، حالان من الآيات، وضمير (معهم) : يعود على الكفار المفهوم من (يكفر) ، وضمير (غيره) يعود على الكفر والاستهزاء، وهما شيء واحد.

يقول الحق جل جلاله في التحذير من مجالسة أهل الكفر والمعاصي: وقد نزل عليكم يا معشر المسلمين في القرآن في سورة الأنعام، أنه إذا سمعتم آيات الله حال كونها يكفر بها، ويستهزأ بها، فلا تقعدوا معهم بل قوموا عنهم، إن لم تقدروا أن تنكروا عليهم، والآية التي في سورة الإنعام قوله تعالى:

وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره الآية. فما داموا في الخوض فاعرضوا عنهم

---

(١) روح البيان إسماعيل حقي ٤٨/٥

حتى يخوضوا في حديث غير الخوض، فإن جلستم معهم في حال الخوض فإنكم إذا مثلهم في الإثم، إن لم ترضوا، أو في الكفر، إن رضيتم بخوضهم.

نزلت في قوم من المنافقين كانوا يجلسون إلى أحبار اليهود، فيسخرون من القرآن، ويكذبون به ويحرفونه، فنهى المسلمين عن مجالستهم، قال ابن عباس: ودخل في هذه الآية كل محدث في الدين ومبتدع إلى يوم القيامة. هـ.

الإشارة: أولياء الله آيات من آيات الله: فمن استهزأ بهم فقد استوجب المقت من الله، وكل موطن يقع فيه الإنكار عليهم أو الغض من مرتبتهم، يجب الفرار منه، لأنه موطن الغضب ومحل الهلاك والعطب، فإن لحوم الأولياء سموم قاتلة، واللعنة على من يقع فيهم حاصلة، فمن جلس مع أهل الخوض من غير عذر، كان من الخائضين، ومن فر منهم كان من الناجين، ومن أنكر على من يقع فيهم كان من المجاهدين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وعيد الخائضين ومن رضي بخوضهم، فقال:

إن الله جامع المنافقين." (١)

"(وعن عبد الله بن السعدي أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «لا تنقطع الهجرة ما قوتل العدو» رواه أحمد والنسائي) .

٣٤٥٥ - (وعن ابن عباس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا» رواه الجماعة إلا ابن ماجه، لكن له منه " إذا استنفرتم فانفروا " وروت عائشة مثله. متفق عليه) .

٣٤٥٦ - (وعن عائشة، وسئلت عن الهجرة فقالت: لا هجرة اليوم، كان المؤمن يفر بدينه إلى الله ورسوله مخافة أن يفتن، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام، والمؤمن يعبد ربه حيث شاء. رواه البخاري) .

٣٤٥٧ - (وعن مجاشع بن مسعود أنه «جاء بأخيه مجالد بن مسعود إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: هذا مجالد جاء يبايعك على الهجرة، فقال: لا هجرة بعد فتح مكة، ولكن أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد» متفق عليه) .

ـــــــQ [باب بقاء الهجرة إلى دار الإسلام وأن لا هجرة من دار أسلم أهلها]

حديث سمرة قال الذهبي: إسناده مظلم لا تقوم بمثله حجة.

وحديث جرير أيضا أخرجه ابن ماجه ورجال إسناده ثقات، ولكن صحح البخاري وأبو حاتم وأبو داود والترمذي والدارقطني إرساله إلى قيس بن أبي حازم، ورواه الطبراني أيضا موصولا.

وحديث معاوية أخرجه أيضا النسائي. قال الخطابي: إسناده فيه مقال.

وحديث عبد الله السعدي أخرجه أيضا ابن ماجه وابن منده والطبراني والبغوي وابن عساكر.

قوله: (فهو مثله) فيه دليل على تحريم مساكنة الكفار ووجوب مفارقتهم. والحديث وإن كان فيه المقال المتقدم لكن يشهد

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥٧٧/١

لصحته قوله تعالى: ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء: ١٤٠] وحديث بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه عن جده مرفوعا: «لا يقبل الله من مشرك عملا بعدما أسلم أو يفارق المشركين» قوله: (لا تتراءى ناراهما) يعني لا ينبغي أن يكونا بموضع بحيث تكون نار كل واحد منهما في مقابلة الأخرى على وجه لو كانت متمكنة من الإبصار لأبصرت الأخرى، فإثبات الرؤية للنار مجاز قوله: (ما قوتل العدو) فيه." (١)

"فلما بعث الله رسوله دعاهم إلى أن يؤمنوا بمحمد والقرآن، وذكرهم الذي أخذ عليهم من الميثاق، فمنهم من صدق النبي صلى الله عليه وسلم واتبعه، ومنهم من كفر.

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٧ الى ١٤١]

إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

أخبر الله سبحانه عن هذه الطائفة التي آمنت ثم كفرت، ثم آمنت ثم كفرت، ثم ازدادت كفرا بعد ذلك كله: أنه لم يكن الله سبحانه ليغفر لهم ذنوبهم، ولا ليهديهم سبيلا يتوصلون به إلى الحق، ويسلكونه إلى الخير، لأنه يبعد منهم كل البعد أن يخلصوا لله، ويؤمنوا إيمانا صحيحا، فإن هذا الاضطراب منهم- تارة يدعون أنهم مؤمنون وتارة يمرقون من الإيمان ويرجعون إلى ما هو دأبهم وشأنهم من الكفر المستمر والجحود الدائم- يدل أبلغ دلالة على أنهم متلاعبون بالدين، ليست لهم نية صحيحة، ولا قصد خالص. قيل: المراد بهؤلاء:

اليهود، فإنهم آمنوا بموسى ثم كفروا بعزير، ثم آمنوا بعزير، ثم كفروا بعيسى، ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل: آمنوا بموسى، ثم كفروا به بعبادتهم العجل، ثم آمنوا به عند عوده إليهم، ثم كفروا بعيسى، ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، والمراد بالآية: أنهم ازدادوا كفرا، واستمروا على ذلك، كما هو الظاهر من حالهم، وإلا فالكافر إذا آمن وأخلص إيمانه وأقلع عن الكفر فقد هداه الله السبيل الموجب للمغفرة، والإسلام يجب ما قبله، ولكن لما كان هذا مستبعدا منهم جدا كان غفران ذنوبهم وهدايتهم إلى سبيل الحق مستبعدا.

قوله: بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما إطلاق البشارة على ما هو شر خالص لهم تهكم بهم، وقد مر تحقيقه. وقوله: الذين يتخذون الكافرين أولياء وصف للمنافقين، أو منصوب على الذم، أي:

يجعلون الكفار أولياء لهم، يوالونهم على كفرهم، ويمالئونهم على ضلالهم. وقوله: من دون المؤمنين في محل نصب على الحال،

---

(١) نيل الأوطار الشوكاني ٣١/٨

أي: يوالون الكافرين متجاوزين ولاية المؤمنين أيبتغون عندهم العزة هذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والجملة معترضة. قوله: فإن العزة لله جميعا هذه الجملة تعليل لما تقدم من توبيخهم بابتغاء العزة عند الكافرين، وجميع أنواع العزة وأفرادها مختص بالله سبحانه، وما كان منها مع غيره فهو من فيضه وتفضله كما في قوله: ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين «١» والعزة: الغلبة، يقال: عزه يعزه عزا: إذا غلبه وقد نزل عليكم في الكتاب الخطاب لجميع من أظهر الإيمان من مؤمن ومنافق،

(١) . المنافقون: ٨.." (١)

"لأن من أظهر الإيمان فقد لزمه أن يمتثل ما أنزله الله وقيل: إنه خطاب للمنافقين فقط، كما يفيده التشديد والتوبيخ. وقرأ عاصم ويعقوب: نزل بفتح النون والزاي وتشديدها، وفاعله ضمير راجع إلى اسم الله تعالى في قوله: فإن العزة لله جميعا. وقرأ حميد: بتخفيف الزاي مفتوحة مع فتح النون، وقرأ الباقون: بضم النون مع كسر الزاي مشددة على البناء للمجهول. وقوله: أن إذا سمعتم آيات الله في محل نصب على القراءة الأولى على أنه مفعول نزل، وفي محل رفع على القراءة الثانية على أنه فاعل، وفي محل رفع على أنه مفعول ما لم يسم فاعله على القراءة الثالثة. وأن هي المخففة من الثقيلة، والتقدير أنه إذا سمعتم آيات الله. في الكتاب: هو القرآن. وقوله: يكفر بها ويستهزأ بها حالان، أي: إذا سمعتم الكفر والاستهزاء بآيات الله، فأوقع السماع على الآيات. والمراد: سماع الكفر والاستهزاء. وقوله: فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره أي: أنزل عليكم في الكتاب أنكم عند هذا السماع والاستهزاء بآيات الله لا تعقدوا معهم ما داموا كذلك، حتى يخوضوا في حديث غير حديث الكفر والاستهزاء بها. والذي أنزله الله عليهم في الكتاب هو قوله تعالى: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره «١» وقد كان جماعة من الداخلين في الإسلام يقعدون مع المشركين واليهود حال سخريتهم بالقرآن واستهزائهم به، فنهوا عن ذلك.

وفي هذه الآية- باعتبار عموم لفظها الذي هو المعتبر دون خصوص السبب- دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التنقص والاستهزاء للأدلة الشرعية، كما يقع كثيرا من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء الرجال بالكتاب والسنة، ولم يبق في أيديهم سوى: قال إمام مذهبنا كذا، وقال فلان من أتباعه: بكذا، وإذا سمعوا من يستدل على تلك المسألة بآية قرآنية أو بحديث نبوي سخروا منه، ولم يرفعوا إلى ما قاله رأسا، ولا بالوا به بالة، وظنوا أنه قد جاء بأمر فظيع، وخطب شنيع، وخالف مذهب إمامهم الذي نزلوه منزلة معلم الشرائع، بل بالغوا في ذلك حتى جعلوا رأيه الفائل «٢» ، واجتهاده الذي هو عن منهج الحق مائل، مقدما على الله وعلى كتابه وعلى رسوله، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ما صنعت هذه المذاهب بأهلها، والأئمة الذين انتسب هؤلاء المقلدة إليهم برآء من فعلهم، فإنهم قد صرحوا في مؤلفاتهم بالنهي عن تقليدهم كما أوضحنا ذلك في رسالتنا المسماة ب [القول المفيد في حكم التقليد] وفي مؤلفنا المسمى ب [أدب الطلب ومنتهى الأرب] اللهم انفعنا بما علمتنا، واجعلنا من المقتدين بالكتاب والسنة، وباعد بيننا وبين آراء الرجال المبنية على شفا جرف هار، يا مجيب السائلين! **قوله: إنكم إذا مثلهم تعليل** للنهي، أي: إنكم إن فعلتم ذلك ولم تنتهوا فأنتم مثلهم في

(١) فتح القدير للشوكاني الشوكاني ٦٠٦/١

الكفر.

قيل: وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات، ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر كما في قول القائل:

....

وكل قرين بالمقارن يقتدي «٣»

---

(١) . الأنعام: ٦٨.

(٢) . الفائل: رجل فائل الرأي أي: ضعيفه.

(٣) . وصدر البيت: عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه.." (١)

"بعضهم بعضا» وقيل: إنه سبحانه لا يجعل للكافرين سبيلا على المؤمنين ما داموا عاملين بالحق غير راضين بالباطل ولا تاركين للنهي عن المنكر كما قال تعالى: وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم «١» قال ابن العربي: وهذا نفيس جدا وقيل: إن الله لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا شرعا، فإن وجد فبخلاف الشرع. هذا خلاصة ما قاله أهل العلم في هذه الآية، وهي صالحة للاحتجاج بها على كثير من المسائل.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة في قوله: إن الذين آمنوا ثم كفروا الآية، قال: هم اليهود والنصارى، آمنت اليهود بالتوراة ثم كفرت، وآمنت النصارى بالإنجيل ثم كفرت. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عنه في الآية قال: هؤلاء اليهود آمنوا بالتوراة ثم كفروا، ثم ذكر النصارى فقال: ثم آمنوا ثم كفروا يقول: آمنوا بالإنجيل ثم كفروا، ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في الآية قال: هؤلاء المنافقون آمنوا مرتين، ثم كفروا مرتين، ثم ازدادوا كفرا بعد ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ثم ازدادوا كفرا قال: تموا على كفرهم حتى ماتوا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن أبي وائل قال: إن الرجل ليتكلم في المجلس بالكلمة من الكذب ليضحك بها جلساءه فيسخط الله عليهم جميعا، فذكروا ذلك لإبراهيم النخعي، فقال: صدق أبو وائل، أو ليس ذلك في كتاب الله؟ فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: أنزل في سورة الأنعام: حتى يخوضوا في حديث غيره «٢» ثم نزل التشديد في سورة النساء: إنكم إذا مثلهم. وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير: أن الله جامع المنافقين من أهل المدينة والكافرين من أهل مكة الذين خاضوا واستهزءوا بالقرآن في جهنم جميعا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد:

الذين يتربصون بكم قال: هم المنافقون يتربصون بالمؤمنين فإن كان لكم فتح من الله إن أصاب المسلمين من عدوهم غنيمة قال المنافقون: ألم نكن قد كنا معكم فأعطونا من الغنيمة مثل ما تأخذون وإن كان للكافرين نصيب يصيبونه من المسلمين قال المنافقون للكفار: ألم نستحوذ عليكم ألم نبين لكم أنا على ما أنتم عليه، قد كنا نثبطهم عنكم. وأخرج ابن جرير عن السدي: ألم نستحوذ عليكم قال: نغلب عليكم. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، ابن المنذر،

---

(١) فتح القدير للشوكاني الشوكاني ٦٠٧/١

والبيهقي في الشعب، والحاكم، وصححه عن علي أنه قيل له: أرأيت هذه الآية ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون، فقال: ادنه ادنه، ثم قال: فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال:

في الآخرة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن أبي مالك نحوه أيضا- وأخرج ابن جرير عن السدي سبيلا قال: حجة.

---

(١) . الشورى: ٣٠. [.....]

(٢) . الأنعام: ٦٨.." [1]

"الذين يتكرر منهم الكفر بعد الإيمان مرات، ثم ماتوا على الكفر. أو المعنى إن الذين أظهروا الإسلام ثم كفروا بكون باطنهم على خلاف ظاهرهم، ثم آمنوا بألسنتهم فكلما لقوا جمعا من المسلمين قالوا: إنا مؤمنون وإنما أظهروا الإيمان لتجري عليهم أحكام المؤمنين، ثم كفروا فإذا دخلوا على شياطينهم قالوا: إنا معكم إنما نحن مستهزئون. ثم ازدادوا كفرا باجتهادهم في استخراج أنواع المكر في حق المسلمين وبموتهم على الكفر لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) فإن كل من كان كثير الانتقال من الإسلام إلى الكفر لم يكن للإسلام في قلبه عظم فلا يتوب عن الكفر حتى يموت عليه بشر المنافقين أي أنذرهم بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أي فإن المنافقين يوالون اليهود ويقول بعض المنافقين:

لبعض لا يتم أمر محمد فتولوا اليهود فيقولون: إن العزة لهم أيبتغون أي أيطلب المنافقون عندهم العزة أي عند اليهود القوة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) أي إن القدرة الكاملة لله وكل من سواه فبإقداره صار قادرا وبإعزازه صار عزيزا. فالعزة الحاصلة للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين لم تحصل إلا من عند الله تعالى فكان الأمر عند التحقيق أن العزة جميعا لله وقد نزل عليكم يا معشر المنافقين في الكتاب أي القرآن في سورة الأنعام قبل هذا بمكة أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها أي أنه إذا سمعتم آيات الله مكفورا بها ومستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره أي الكفر والاستهزاء. وذلك قوله تعالى: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم [الأنعام: ٦٨] الآية وهذا نزل بمكة لأن المشركين كانوا يخوضون في القرآن ويستهزئون في مجالسهم، ثم إن أحبار اليهود بالمدينة كانوا يفعلون مثل فعل المشركين والقاعدون معهم والموافقون لهم على ذلك الكلام المنافقون فقال تعالى مخاطبا للمنافقين:

وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها أي إذا سمعتم آيات الله حال ما يكفر بها ويستهزأ بها إنكم إذا مثلهم أي إنكم أيها المنافقون مثل أولئك الأحبار في الكفر، قال أهل العلم: هذا يدل على أن من رضي بالكفر فهو كافر ومن رضي بمنكر يراه وخالط أهله، وإن لم يباشر كان في الإثم بمنزلة المباشرة أما إذا كان ساخطا لقولهم وإنما جلس على سبيل التقية والخوف فالأمر ليس كذلك. فالمنافقون الذين كانوا يجالسون اليهود وكانوا يطعنون في الرسول

---

(١) فتح القدير للشوكاني الشوكاني ٦٠٩/١

والقرآن هم كافرون مثل أولئك اليهود. أما المسلمون الذين كانوا بمكة يجالسون الكفار الذين كانوا يطعنون في القرآن فإنهم كانوا باقين على الإيمان فهم كانوا يجالسون الكفار عند الضرورة بخلاف المنافقين فإنهم كانوا يجالسون اليهود مع الاختيار إن الله جامع المنافقين أي منافقي أهل المدينة عبد الله بن أبي وأصحابه والكافرين أي كفار أهل مكة أبي جهل وأصحابه وكفار أهل المدينة كعب وأصحابه في جهنم جميعا (١٤٠) أي كما أنهم اجتمعوا على الاستهزاء بآيات الله في الدنيا فكذلك يجتمعون في عذاب جهنم يوم القيامة

الذين يتربصون بكم." (١)

"وأبو ريحانة هذا هو أزدي واسمه (شمعون) بالمعجمة فيما قاله البخاري.

وقال غيره: بالمهملة والله أعلم.

تنبيه:

قال الحاكم: دلت الآية على وجوب مولاة المؤمنين، والنهي عن موالاة الكفار.

قال: والمنهي عن موالاتهم في الدين فقط. وقد ذكر المؤيد بالله، قدس الله روحه، معنى هذا. وهي: أن تحبه لما هي عليه. وهذا ظاهر. وهو يرجع إلى الرضا بالكفر، وما أحبه لأجله.

فأما الخلطة فليست موالاة. وقد جوز العلماء رحمه الله نكاح الفاسقة.

وكذلك الإحسان. فقد مدح الله من أطعم الأسارى. وجوز كثير منهم الوصية لأهل الذمة. وكذلك الاغتمام بغمه في أمر، كاغتمام المسلمين لغلب فارس للروم. كذا في تفسير بعض الزيدية.

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة النساء (٤) : آية ١٤٠]

وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)

وقد نزل عليكم في الكتاب قال المفسرون: إن المشركين بمكة كانوا في مجالسهم يخوضون في ذكر القرآن ويستهزئون به. فنهى الله تعالى المسلمين عن القعود معهم بقوله: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره [الأنعام: ٦٨] . وهذه الآية من سورة الأنعام. وهي مكية.

فامتنع المسلمون عن القعود معهم. ولما قدموا المدينة كانوا يجلسون مع اليهود والمنافقين. وكان اليهود يستهزئون بالقرآن. فنزلت هذه الآية وقد نزل عليكم في الكتاب. يعني في سورة الأنعام أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها يعني يجحد بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره وفيها دلالة على أن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم، وإن خوطب به خاصة، منزل على الأمة وأن مدار الإعراض عنهم، هو العلم بخوضهم في الآيات. ولذلك عبر عن ذلك تارة بالرؤية

(١) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد نووي الجاوي ١/٢٣٥

وأخرى بالسماع. وأن المراد بالإعراض إظهار المخالفة بالقيام عن مجالسهم. لا الإعراض بالقلب أو بالوجه **فقط إنكم إذا مثلهم أي**: إذا قعدتم معهم دل على رضاكم." (١)

"بالكفر بالآيات والاستهزاء بها. فتكونون مثلهم في الكفر واستتباع العذاب.

فاجتماعكم بهم هاهنا سبب اجتماعكم في جهنم. كما قال إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا لأنهم لما شاركوهم في الكفر، واجتمعوا على الاستهزاء بالآيات في الدنيا، جمعهم الله في عذاب جهنم يوم القيامة.

تنبيه:

قال بعض مفسري الزيدية: اعلم أنه لا خلاف في تحريم القعود والمخالطة، إذا كان ذلك يوهم بأن القاعد راض. ولا خلاف أنه يحرم إذا خشي الافتتان. ولا خلاف أنه يجوز القعود للتنكير عليهم والدفع لهم.

قال الحاكم: ولذلك يحضر العلماء مع أهل الضلالة يناظرونهم. ولهم بذلك الثواب العظيم. وأما إذا خلا عما ذكرنا، وكان لا يوهم بالرضا ولا يفتتن ولا ينكر عليهم، فاختلف العلماء في ذلك. فمنهم من أوجب المثل. لظاهر الآية.

قال الحاكم: روي «١» أن قوما أخذوا على شراب في عهد عمر بن عبد العزيز.

فأمر بضربهم الحد. فقيل: فيهم صائم. فتلا قوله تعالى: فلا تقعدوا معهم إلى قوله إنكم إذا مثلهم. وهذا أيضا ظاهر حديث: لا يحل لعين ترى الله يعصى، فتطرف حتى تغير وتنتقل.

وقال أبو علي وأبو هاشم: إن أنكر بقلبه لم يجب عليه أكثر من ذلك. وجاز له القعود، يعني مع عجزه عن الإنكار باليد أو باللسان، وعدم تأثير ذلك.

أقول: ما قالاه مخالف لظاهر الآية. فلا عبرة به.

وقال القاضي والحاكم: أما لو كان له حق في تلك البقعة، فله أن لا يفارق.

كمن يحضر الجنائز مع النوح، أو الولائم. فيسمع المنكر فيسعه أن يقعد. والنكير على قدر الإمكان واجب عليه. وعن الحسن: لو تركنا الحق للباطل لبطل الشرع.

وقد كان خرج إلى جنازة، خرجت النساء فيها فلم يرجع. ورجع ابن سيرين. انتهى.

أقول: من له حق في البقعة، فعليه أن يفارق كغيره. إذ ليس في مفارقته ضياع حقه. وعموم الآية يشمله، ولا تخصيص إلا بمخصص. والمسألة المقيس عليها غير ما نحن فيه. على ما فيها من الخلاف. كما حكى. ولا قياس مع النص. وقد حكى

---

(١) الأثر رقم ١٠٧٠٩ من تفسير الطبري.." (٢)

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٣/٣٧٣

(٢) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٣/٣٧٤

"الحاكم أقوالا كلها ترجع إلى تخصيص الآية. ولا مستند فيها إلا الرأي، والاحتمال.

فلذا أعرضنا عنها.

قال أبو علي: تحريم القعود في المجلس لما فيه من الإبهام. فإذا أظهر الكراهة جاز القعود في مكان آخر، وإن قرب. وأما إذا خاضوا في حديث غيره، جاز القعود.

بمفهوم الآية. ثم إن الآية محكمة عند الجمهور. وروي عن الكلبي، أنها منسوخة بقوله تعالى: وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء [الأنعام: ٦٩] . وهو مردود. فإن من التقوى اجتناب مجالس هؤلاء الذين يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها.

قال الحاكم: دلت الآية على أن الراضي بالاستهزاء بالرسول والدين، كافر. لأنه تعالى **قال إنكم إذا مثلهم ودلت** على أن الرضا بالكفر كفر.

وقال السمرقندي: في هذه الآية دليل على أن من جلس في مجلس معصية، ولم ينكر عليهم، فيكون معهم في الوزر سواء. وينبغي أن ينكر عليهم، إذا تكلموا بالمعصية أو عملوا بها. فإن لم يقدر أن ينكر عليهم ينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية.

وروى ابن جرير عن الضحاك أنه قال: دخل في هذه الآية كل محدث في الدين، وكل مبتدع إلى يوم القيامة.

وقال في (فتح البيان) : وفي هذه الآية باعتبار عموم لفظها الذي هو المعتبر دون خصوص السبب، دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التنقيص والاستهزاء، للدلالة الشرعية. كما يقع كثيرا من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء الرجال بالكتاب والسنة. ولم يبق في أيديهم سوى (قال إمام مذهبنا:

كذا) و (قال فلان من أتباعه بكذا) أو إذا سمعوا من يستدل على تلك المسألة بآية قرآنية أو بحديث نبوي، سخروا منه، ولم يرفعوا إلى ما قاله رأسا، ولا بالوا به بالة.

وظنوا أنه قد جاء بأمر فظيع وخطب شنيع. وخالف مذهب إمامهم الذي نزلوه منزلة معلم الشرائع. مع أن الأئمة، الذين انتسب هؤلاء المقلدة إليهم، برءاء من فعلهم.

فإنهم قد صرحوا في مؤلفاتهم بالنهي عن تقليدهم. انتهى.

وفي (الإكليل) : قال ابن الفرس. واستدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب اجتناب أهل المعاصي والأهواء. وفي هذه الآية أصل لما يفعله المصنفون من الإحالة على ما ذكر في مكان آخر، والتنبيه عليه. انتهى. وقوله تعالى.." [١]

"وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم.. الآية. لأن في حضور المنكر مع إمكان التباعد عنه، مشاركة لصاحبه.

فوائد:

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٣/٣٧٥

قال السيوطي في (الإكليل) : في هذه الآية وجوب اجتناب مجالس الملحدين، وأهل اللغو، ويستدل بها على أن الناسي غير مكلف، وأنه إذا ذكر عاد إليه التكليف، فيعفى عما ارتكبه في حال نسيانه. ويندرج تحت ذلك مسائل كثيرة في العبادات والتعليقات. انتهى.

وقال الرازي: ومن الحشوية من استدل بهذه الآية في النهي عن الاستدلال والمناظرة في ذات الله تعالى وصفاته. قال: لأن ذلك خوض في آيات الله، والخوض في آيات الله حرام بدليل هذه الآية.

والجواب عنه: أن المراد من الخوض في الآية الشروع في الطعن والاستهزاء.

فسقط هذا الاستدلال- والله أعلم-.

وقال بعض مفسري الزيدية- ثمرة الآية أحكام:

الأول- وجوب الإعراض عن مجالس المستهزئين بآيات الله أو بحججه أو برسله، وأن لا يقعد معهم، لأن في القعود إظهار عدم الكراهة، وذلك لأن التكليف عام لنا، ولرسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما يجب الإعراض، وترك الجلوس معهم، إذا لم يطمع في قبولهم، فإذا انقطع طمعه إذا، فلا فائدة في دعائهم. ويجب القيام عن مجالسهم إذا عرف أن قيامه يكون سببا في ترك الخوض، وأنهم إنما يفعلونه مغايظة للواقف، إذا كان وقوفه يوهم عدم الكراهة.

الحكم الثاني- جواز مجالسة الكفار، مع عدم الخوض، لأنه إنما أمرنا بالإعراض مع الخوض. وأيضا فقد قال تعالى: حتى يخوضوا في حديث غيره. قال الحاكم: والآية تدل أيضا على المنع من مجالسة الظلمة والفسقة، إذا أظهروا المنكرات، وتدل على إباحة الدخول عليهم لغرض، كما يباح للتذكير. وفي الآية أيضا دلالة على وجوب الإنكار، لأن الإعراض إنكار. قال: وتدل على أن التقية من الأنبياء والأئمة بإظهارهم المنكر لا تجوز، خلاف الإمامية، وتدل على جواز النسيان على الأنبياء.

الحكم الثالث- أن الناسي مرفوع عنه الحرج، فإن قيل: النسيان فعل الله، فلم." (١)

"أضيف إلى الشيطان؟ أجيب: بأن السبب من الشيطان، وهو الوسوسة والإعراض عن الذكر، فأضيف إليك لذلك. كما أن من ألقى غيره في النار فمات، يقال، إنه القاتل، وإن كان الإحراق فعل الله، واختلف في النسيان ما هو؟ فقال الحاكم: هو معنى يحدثه الله في القلب. وقال أبو هاشم وأصحابه: ليس بمعنى، وإنما هو زوال العلم الضروري الذي جرت العادة بحصوله. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة الأنعام (٦) : آية ٦٩]

وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون (٦٩)

وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء أي: وما يلزم المتقين الذين يجالسونهم شيء عما يحاسبون عليه من خوضهم، ولكن ذكرى أي: ولكن أمروا بالإعراض عنهم، ليكون ذكرى لضعفاء المسلمين، لئلا يقع شيء من مطاعن المستهزئين في

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٣٩٣/٤

قلوبهم. لعلهم يتقون أي: يبلغ مبلغ التوقي من شبهاتهم، بالجلوس مع علمائه بدلهم.

تنبيهان:

الأول- ما ذكرناه في معنى الآية، هو ما قرره المهايمي رحمه الله تعالى.

وقيل: المعنى: ولكن على المتقين أن يذكروهم ذكرى إذا سمعوهم يخوضون، بالقيام عنهم، وإظهار الكراهة لهم وموعظتهم، لعلهم يتقون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم، فلا يعودون إليه، وجوزوا أن يكون الضمير الذين يتقون، أي: يذكرونهم رجاء أن يثبتوا على تقواهم، أو يزدادوها. انتهى.

وما ذكرناه أسد وأوجه.

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، قال في الآية: أي ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك. أي: إذا تجنبتهم، وأعرضت عنهم. وعليه فالموصول كناية عن النبي صلى الله عليه وسلم. التفت به تعظيما وتكريما.

الثاني- قال السيوطي في (الإكليل) : قد يستدل بقوله تعالى: وما على الذين يتقون.. إلخ على أن من جالس أهل المنكر، وهو غير راض بفعلهم، فلا إثم عليه. لكن آية النساء تدل على أنه آثم، ما لم يفارقهم، لأنه **قال: إنكم إذا مثلهم [**النساء: ١٤٠] . أي إن قعدتم فأنتم مثلهم في الإثم، وهي متأخرة. فيحتمل أن تكون ناسخة لهذه، كما ذهب إليه قوم منهم السدي.." (١)

"فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون فكذبوهما فكانوا من المهلكين أي المغرقين في البحر.

فائدة:

قال الزمخشري البشر يكون واحدا وجمعا بشرا سويا

[مريم: ١٧] ، لبشرين [المؤمنون: ٤٧] ، فإما ترين من البشر [مريم: ٢٦] ، و (مثل) و (غير) يوصف بهما الاثنان والجمع والمذكر **والمؤنث إنكم إذا مثلهم [**النساء:

١٤٠] ، ومن الأرض مثلهن [الطلاق: ١٢] ، ويقال أيضا: هما مثلاه وهم أمثاله إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم [الأعراف: ١٩٤] .

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٤٩ الى ٥٠]

ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون (٤٩) وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين (٥٠)

ولقد آتينا موسى الكتاب أي التوراة لعلهم أي قومه يهتدون أي إلى طريق الحق، بما فيها من الشرائع والأحكام وجعلنا ابن مريم وأمه آية أي دلالة على قدرتنا الباهرة. لأنها ولدته من دون مسيس. فالآية أمر واحد نسب إليهما. أو المعنى: وجعلنا ابن مريم آية بما ظهر منه من الخوارق، وأمه آية بأنها ولدته من غير مسيس فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها وآويناهما أي

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٣٩٤/٤

جعلنا مأواهما أي منزلهما إلى ربوة أي أرض مرتفعة، ذات قرار أي مستقر من أرض منبسطة مستوية. وعن قتادة: ذات ثمار وماء. يعني أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها ومعين أي وماء معين ظاهر جار. من (معن الماء إذا جرى) أو مدرك بالعين (من عانه) إذا أدركه بعينه.

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣) : آية ٥١]
يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم (٥١)
يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم نداء وخطاب لجميع الأنبياء باعتبار زمان كل وعهده. فدخل فيه عيسى دخولا أوليا. أو يكون ابتداء كلام ذكر تنبيها على أن تهيئة أسباب التنعم لم تكن له خاصة. وأن إباحة الطيبات للأنبياء شرع قديم. واحتجاجا على الرهابنة في رفض الطيبات. وقوله." (١)
"القول في تأويل قوله تعالى: [سورة النور (٢٤) : آية ٢]
الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين (٢)
الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة شروع في تفصيل ما ذكر من الآيات البينات وبيان أحكامها. أي كل من زنى من الرجال والنساء، فأقيموا عليه هذا الحد. وهو أن يجلد، أي يضرب على جلده مائة جلدة، عقوبة لما صنع ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله أي رقة ورحمة في طاعته فيما أمركم به، من إقامة الحد عليهما، على ما ألزمكم به إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر أي تصدقون بالله ربكم وباليوم الآخر، وأنكم مبعوثون لحشر القيامة وللثواب والعقاب. فإن من كان بذلك مصدقا، فإنه لا يخالف الله في أمره ونهيه، خوف عقابه على معاصيه وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين أي وليحضر جلدهما طائفة من أهل الإيمان بالله ورسوله، قال ابن جرير: العرب تسمي الواحد فما زاد طائفة.
قال ابن تيمية عليه الرحمة: فأمر تعالى بعقوبتهما بحضور طائفة من المؤمنين. وذلك بشهادته على نفسه أو شهادة المؤمنين عليه. لأن المعصية إذا ظهرت كانت عقوبتها ظاهرة. كما
في الأثر: (من أذنب سرا فليتب سرا. ومن أذنب علانية فليتب علانية)
وليس من الستر الذي يحبه الله، كما
في الحديث (إن الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها. فإذا أعلنت ولم تنكر، ضرت العامة)
فإذا أعلنت أعلنت عقوبتها بحسب العدل الممكن. ولهذا لم يكن للمعلن بالبدع والفجور غيبة. كما روي عن الحسن وغيره، لأنه لما أعلن استحق العقوبة. وأدناها أن يذم عليها لينزجر ويكف الناس عنه وعن مخالطته. ولو لم يذكر إلا بما فيه لاغتر به الناس. فإذا ذكر انكف وانكف غيره عن ذلك وعن صحبته. قال الحسن: أترغبون عن ذكر الفاجر؟ اذكروا بما فيه كي يحذره الناس. و (الفجور) اسم جامع لكل متجاهر بمعصية أو كلام قبيح، يدل السامع له على فجور قلب قائله. ولهذا

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٢٩١/٧

استحق الهجرة، إذا أعلن ببدعة أو معصية، أو فجور أو تهتك أو مخالطة لمن هذا حاله. بهذا لا يبالي بطعن الناس عليه. فإن هجره نوع تعزير له. فإذا أعلن السيئات، أعلن هجره، وإذا أسر أسر هجره، إذ الهجرة هي الهجرة على السيئات وهجرة السيئات، كقوله والرجز فاهجر [المدثر: ٥] ، وقوله: واهجرهم هجرا جميلا [المزمل: ١٠] ، وقوله:

فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره، إنكم إذا مثلهم [النساء:." [1]

"يقتضي مباشرة البدن. وبقوله مائة جلدة على أنه لا يكتفي بالضرب بها مجموعة ضربة واحدة، صحيحا كان أو مريضا. وفي قوله تعالى: ولا تأخذكم بهما رأفة الحث على إقامة الحدود والنهي عن تعطيلها. وأنه لا يجوز العفو عنها للإمام ولا لغيره، وفيه رد على من أجاز للسيد العفو. فاستدل بالآية من قال: إن ضرب الزنى أشد من ضرب القذف والشرب. وفي قوله تعالى وليشهد عذابهما إلخ، استحباب حضور جمع، عند جلدهما. وأقله أربعة عدد شهود الزنى. وقيل: عشرة، وقيل ثلاثة وقيل: اثنان. انتهى.

وتقدم عن ابن جرير أن الطائفة تصدق بالواحد، لغة. فتذكر. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة النور (٢٤) : آية ٣]

الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين (٣)

الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين.

لما أمر الله بعقوبة الزانيين، حرم مناكحتهما على المؤمنين، هجرا لهما ولما معها من الذنوب كقوله: والرجز فاهجر [المدثر: ٥] ، وجعل مجالس فاعل ذلك المنكر، مثله بقوله: إنكم إذا مثلهم [النساء: ١٤٠] ، وهو زوج له قال تعالى: احشروا الذين ظلموا وأزواجهم [الصافات: ٢٢] ، أي عشراءهم وأشباههم.

ولهذا يقال: (المستمع شريك المغتاب) ورفع إلى عمر بن عبد العزيز قوم يشربون الخمر. وكان فيهم جليس لهم صائم، فقال ابدءوا به في الجلد ألم يسمع قول الله تعالى فلا تقعدوا معهم [النساء: ١٤٠] ، فإذا كان هذا في المجالسة والعشرة العارضة حين فعلهم المنكر، يكون مجالسهم مثلا لهم، فيكف بالعشرة الدائمة:

(والزوج) يقال له: العشير. كما

في الحديث «١»

(ويكفرن العشير)

وأخبر أنه لا يفعل ذلك إلا زان أو مشرك. أما المشرك فلا إيمان له يزجره عن الفواحش ومجامعة أهلها. وأما الزاني ففجوره يدعوه إلى ذلك، وإن لم يكن مشركا. وفيها دليل على أن الزاني ليس بمؤمن مطلق الإيمان. وإن لم يكن مشركا كما في الصحيح (لا يزني

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٧/٣١٠

(١) أخرجه البخاري في: الحيض، ٦- باب ترك الحائض الصوم، حديث ٢١٥، عن أبي سعيد الخدري.." (١)

"لهم يقال له مخشي بن حمير، كانوا يسيرون مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض: أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم، والله لكأنا بكم غدا تقادون في الحبال، قال مخشي بن حمير: ما وددت أني أقاضي، فذكر الحديث مثل الذي قبله، وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود نحوه.

والمعنى: أن الله تعالى نبأ رسوله بما كان يقوله هؤلاء المنافقون في أثناء السير إلى تبوك، من الاستهزاء بتصديه لقتال الروم الذين ملأ صيتهم بلاد العرب، بما كان تجارهم يرون من عظمة ملكهم في الشام؛ إذ كانوا يرحلون إليها في كل صيف. نبأه نبأ مؤكدا بصيغة القسم أنه إن سألهم عن أقوالهم هذه يعتذرون عنها بأنهم لم يكونوا فيها جادين ولا منكرين، بل هازلين لاعبين، كما هو شأن الذين يخوضون في الأحاديث المختلفة للتسلي والتلهي، وكانوا يظنون أن هذا عذر مقبول؛ لجهلهم أن اتخاذ أمور الدين لعبا ولهوا، لا يكون إلا ممن اتخذه هزوا، وهو كفر

محض، ويغفل عن هذا كثير من الناس يخوضون في القرآن والوعد والوعيد. كما يفعلون إذ يخوضون في أباطيلهم وأمور دنياهم، وفي الرجال الذين يتفكهون بالتنادر عليهم والاستهزاء بهم وإنما يستعمل " الخوض " فيما كان بالباطل؛ لأنه مأخوذ من الخوض في البحر أو في الوحل، فيراد به الإكثار، والتعرض لتقحم الأخطار، قال تعالى في سورة الزخرف آية رقم (٨٣) والمعارج آية رقم (٤٢) فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون وقال في سورة الطور: فويل يومئذ للمكذبين الذين هم في خوض يلعبون (٥٢: ١١ و١٢) وقال في سورة النساء: وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (٤: ١٤٠) وقد بينا في تفسير هذه الآية أن الخطاب فيها لكل من يظهر الإسلام من مؤمن ومنافق، وأنه يدخل في عمومها المبتدعون المحدثون في الدين، والذين يخوضون في الداعين إلى الكتاب والسنة ويستهزئون بهم لاعتصامهم بهما وإيثارهم إياهما على المذاهب المقلدة [راجع ص٣٧٧ ج ٥ ط الهيئة] .

وبعد أن نبأ الله تعالى رسوله بما يعتذرون به لقنه ما يرد به عليهم بقوله: قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون والمعنى أن الخوض واللعب إذا كان موضوعه صفات الله وأفعاله وشرعه وآياته المنزلة وأفعال رسوله وأخلاقه وسيرته كان ذلك استهزاء بها؛ لأن الاستهزاء بالشيء عبارة عن الاستخفاف به، وكل ما يلعب به فهو مستخف به، وقد حررنا معنى اللفظ في تفسير ما أسنده تعالى إلى المنافقين من قولهم لشياطينهم:." (٢)

"إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما الذين يتخذون الكافرين

أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٣٢٢/٧

(٢) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٤٥٦/١٠

ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا.

بين الله في هذه الآيات حال أناس من أصحاب الضلال البعيد الذي ذكره في الآية التي قبلهن آمنوا في الظاهر نفاقا أو تقليدا، وكان الكفر قد استحوذ على قلوبهم فلم يدع فيها استعدادا لفهم الإيمان ؛ فلذلك لم يعصمهم من الرجوع إلى الكفر مرة بعد أخرى ؛ لأنهم لم يعرفوا حقيقته ولا ذاقوا حلاوته، ثم وعيد المنافقين كافة وبيان موالاتهم للكافرين وما بينهم من التناسب الذي يقتضي اشتراكهم في الوعيد وتحذير المؤمنين منهم فقال: إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا، ذلك بأنه قد تبين من ذبذبتهم بين الإيمان والكفر أنه قد طبع على قلوبهم حتى فقدوا الاستعداد لفهم حقيقة الإيمان وحقيته ومزاياه، فهم بحسب سنة الله في خلقه لا يرجى لهم أن يهتدوا إلى سبيل من سبله، ولا أن يغفر لهم ما دنس أرواحهم من ذنوبه، وإنما قلنا إن الآية مبينة لسنة الله تعالى في أمثالهم ؛ لأن أرحم الراحمين واسع المغفرة لم يكن ليحرم أحدا من عباده المغفرة والهداية بمحض الخلق والمشيئة، وإنما مشيئته مقترنة بحكمته، وقد قضت حكمته الأزلية بأن يكون كسب البشر لعلومهم وأعمالهم
مؤثرا في نفوسهم، فمن طال." (١)

"الكفار ما يخشى عليه من فتنة المبتدع ؛ لأنه يحذر من الأول على ضعف شبهته، ما لا يحذر من الثاني وهو يجيئه من مأمنه، ولا يعقل أن يقعد المؤمن باختياره مع الكفار في حال استهزائهم بآيات الله، وتكذيبهم بها، وطعنهم فيها كما يقعد مختارا مع المجادلين فيها المتأولين لها، وإنما يتصور قعود المؤمن مع الكافر المستهزئ في حال الإكراه وما يقرب منها، كشدة الضعف، ولا سيما إذا كان في دار الحرب. ولم تكن مكة دار إسلام عند نزول هذه الآيات. ويدخل في أهل الأهواء المقلدون الجامدون الذين يحاولون تطبيق آيات الله وسنن رسوله على آراء مقلديهم بالتكلف، أو يردونها ويحرمون العمل بها بدعوى احتمال النسخ أو وجود معارض آخر، وقد نقلنا كلاما في هذا المعنى عن فتح البيان في تفسير آية سورة النساء التي بمعنى هذه الآية، وهي قوله تعالى: (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا) (٤: ١٤٠) . ومن الناس من يحرف آيات الله عن مواضعها بهواه لأجل أن يكفر بها مسلما أو يضلل بها مهتديا، بغيا عليه وحسدا له، كما فعل بعض أدعياء العلم بمصر في هاتين
الآيتين، وفيما ورد في النهي عن تولي أعداء الله وأعداء المؤمنين من الكفار بنحو إعانتهم على المسلمين في الحرب، كقوله تعالى في أول سورة الممتحنة: (لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) (٦٠: ١) زعم المحرف أن هذه الآيات تنطبق على من حضر من المسلمين ناديا للنصارى ابنوا فيه طبيبا منهم لم يكفروا فيه بآيات الله، ولم يستهزئوا بها، ولم تكن من موضوع حديثهم، وليسوا محاربين للمسلمين، ومثل هذا التحريف أولى بالدخول في عموم آيتي الأنعام والنساء من تأويل أصحاب

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٣٧٥/٥

المذاهب والشيع الذي نقلنا عن بعض المفسرين إدخاله فيه أو تفسيره به. وأما تحريف آية الممتحنة وما في معناها من سورة المائدة فيرده تقييد النهي – وهو في ولاية المحاربين – بإخراج الرسول والمؤمنين من وطنهم لأجل إيمانهم، ثم تأييد هذا التقييد بما ينفي عموم النهي، وذلك صريح قوله تعالى في سورة الممتحنة بعده: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم) إلى قوله: (الظالمون) (٨، ٩) .

وقد بينا في تفسير آية النساء من الجزء الخامس أن المنافقين كانوا يقعدون في المدينة مع الكفار الذين يخوضون في آيات الله بما ذكر، كما فعل بعض ضعفاء المؤمنين في مكة، فأنزل الله فيهم هذه الآية كما أنزل آية الأنعام في أولئك الضعفاء على ما ورد في بعض الروايات، ولذلك كان التشديد في آية النساء أعظم منه في آية الأنعام ؛ إذ كان لضعفاء المؤمنين في أول الإسلام بعض العذر، وليس لمنافقي المدينة عذر إلا إخفاء الكفر، على أن آية الأنعام أول ما نزل في هذا النهي، فعمل بها المؤمنون، وانتهوا عما قيل إنه كان قد وقع منهم، فما عذر المنافقين في القعود." (١)

"مع المستهزئين بعد النهي وهم يتلونه أو يتلى عليهم؟ لهذا شدد الله في آية النساء، وقال في الذين يقعدون معهم: (إنكم إذا مثلهم) ، وأما أولئك فعذرهم بنسيان النهي في قوله:

(وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) أي، وإن فرض أن أنساك الشيطان النهي مرة ما، وقعدت معهم في تلك الحال ثم ذكرته فلا تقعد بعد التذكر مع القوم الظالمين لأنفسهم بتكذيب آيات ربهم والاستهزاء بها، بدلا من الإحسان إليها بالإيمان والاهتداء بها، وقرأ ابن عامر: (ينسينك) بتشديد السين، وهو يفيد أن النسيان عذر، وإن تكرر؛ لأن في التنسية معنى التكرار.

وهل الخطاب في هذه الآية للرسول والمراد غيره كما قيل في آيات كثيرة غيرها على حد المثل " إياك أعني واسمعي يا جارة " وهو كثير في كلام العرب؟ أم للرسول بالذات ولغيره بالتبع كما هو الشأن في غير الأحكام الخاصة به – صلى الله عليه وسلم – أم لكل من بلغه كما قيل آيات أخرى؟ أقول: ظاهر ما نقلناه عن السدي ومقاتل اختيار الأول منها.

وقد استشكل إنساء الشيطان له – صلى الله عليه وسلم – على القول بأن الخطاب في الآية له، وقد ثبت في نص القرآن أن الشيطان ليس له سلطان على عباد الله المخلصين، وخاتم النبيين والمرسلين – صلى الله عليه وسلم – أخلصهم وأفضلهم وأكملهم، بل ورد في سورة النحل: (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) (١٦: ٩٩: ١٠٠) ولكن إنساء الشيطان بعض الأمور للإنسان ليس من قبيل التصرف والسلطان، وإلا لم يقع إلا لأوليائه المشركين، وقد قال تعالى حكاية عن فتى موسى حين نسي الحوت: (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) (١٨: ٦٣) وإنما كان فتاه – أي خادمه لا عبده – يوشع بن نون كما في البخاري، والمشهور أنه نبي، وروي عن مجاهد في تفسير (فأنساه الشيطان ذكر ربه) (١٢: ٤٢) الآية أن يوسف – عليه السلام – أنساه الشيطان ذكر ربه، إذ أمر الناجي من صاحبيه في السجن بذكره عند الملك وابتغاء الفرج من عنده (فلبث في السجن بضع سنين) عقوبة له، بل ذكر أهل التفسير المأثور حديثا مرفوعا في ذلك، رووه مرسلا وموصولا، وهو " لو لم يقل يوسف – عليه السلام – الكلمة

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٤٢٢/٧

التي قال، ما لبث في السجن طول ما لبث، حيث يبتغي الفرج من غير الله تعالى " هذه رواية ابن عباس رفعها، أخرجها عنه ابن أبي الدنيا في كتاب العقوبات، وابن جرير، والطبراني، وابن مردويه، فثبت بهذا أن نسيان الشيء الحسن الذي يسند إلى الشيطان لكونه ضارا أو مفوتا لبعض المنافع، أو لكونه حصل بوسوسته ولو بإشغالها القلب ببعض المباحات – لا يصح أن يعد من سلطان الشيطان على الناسي، واستحواذه عليه بالإغواء والإضلال الذي." (١)

"بقبح القعود مع المستهزئين بآيات الله، وإن لم يكن العقل مستقلا بالتحليل والتحريم فيمكن توجيه هذا الجواز مع رد تلك القاعدة، إلا أن يمنع منه التعبير بفعل الاستقبال وهو ما اعترض به ابن المنير، ولكن كيف يخفى مثله على هذا اللغوي النحرير؟ .

واستنبط العلماء من الآية أن الإنسان غير مؤاخذ بما يفعله في حال النسيان بمعنى أنه لا يعاقب عليه، وإذا أكل في رمضان ناسيا لا يبطل صيامه، لا بمعنى أن

٤الحقوق تسقط به، ويستدل الأصوليون والفقهاء على هذه المسألة بحديث " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " وقد اشتهر الحديث بهذا اللفظ في كتبهم، وفيه مقال للمحدثين معروف؛ أنكره الإمام أحمد رواية ودراية، فقال: لا يصح ولا يثبت إسناده. وقال: من زعم أن الخطأ والنسيان مرفوع فقد خالف كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – فإن الله أوجب في قتل النفس في الخطأ الكفارة. وقد يجاب عن هذا بما ذكرناه آنفا من أن رفع النسيان عبارة عن رفع الإثم لا رفع الحقوق، فمن نسي الصلاة أعادها، وحقوق العباد أولى بألا تسقط بنسيان ولا خطأ. وأما إسناده فقد رواه ابن ماجه في باب طلاق المكره والناسي من حديث ابن عباس مرفوعا بلفظ " إن الله وضع عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه " قال في الزوائد: إسناده صحيح إن سلم من الانقطاع، ولكن رجح أنه منقطع، وقال الديبع في الأحاديث المشتهرة: وقد رواه ابن ماجه، وابن أبي عاصم بلفظ " إن الله وضع عن هذه الأمة ثلاثا: الخطأ، والنسيان، والأمر يكرهون عليه " ورواته ثقات، كذا صححه ابن حبان.

(وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء) أي وما على الذين يتقون الله من حساب الخائضين في آياته شيء ما، فلا يحاسبون على شيء من خوضهم ولا على غيره من أعمالهم التي يحاسبهم الله تعالى عليها إذا هم تجنبوهم وأعرضوا عنهم كما أمروا، وقد روي هذا المعنى عن سعيد بن جبير قال: ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم، قيل: هو رخصة، ومعناه: ما عليهم من حسابهم من شيء إن قعدوا معهم – وأنه منسوخ بآية سورة النساء إذ قال فيها: (إنكم إذا مثلهم) (٤: ١٤٠) وروي عن مجاهد والسدي وابن جريج، وهو بعيد جدا، لأنه لا يصح أن يتصل بالنهي ما يبطله وهو قد نزل معه كما هنا. قال الألوسي: وفي الطود الراسخ في المنسوخ والناسخ أنه لا نسخ عند أهل التحقيق في ذلك؛ لأن قوله سبحانه: (وما على الذين) إلخ. خبر، ولا نسخ في الأخبار، فافهم. انتهى. وقد يقال: إن الجملة إنشائية المعنى، فهي حكم شرعي معناه عدم مؤاخذة أحد بذنب غيره، لا خبر من الأخبار التي قالوا إنها لا تنسخ، والعمدة في رد القول بنسخها ما ذكر آنفا، فتعين تقدير الشرط الذي ذكره سعيد بن جبير، أو أن يقال في التقدير: وما على الذين يتقون

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٤٢٣/٧

الله من حساب الخائضين من شيء؛

إذ كانوا يقعدون معهم قبل النهي كارهين." (١)

"فلا يعتد بإيمانه، لأنه إما يتبع الهوى، أو يقلد عن جهل وعمى، ذاك أن سر الرسالة هى الهداية ولم يكن بعض النبيين فيها بأكمل من بعض، فإذا كفر ببعض الكتب أو الرسل كان كفره بها دليلا على أنه لم يؤمن بشيء منها إيمانا صحيحا مبنيا على فهم حقيقتها والبصر بحكمتها، وكل ذلك من الضلال البعيد عن طرق الهداية.

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٧ الى ١٤١]

إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره** **إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

المعنى الجملي

ذكر الله تعالى فى هذه الآيات حال قوم من أهل الضلال البعيد- آمنوا فى الظاهر نفاقا وكان الكفر قد استحوذ على قلوبهم ولم يجعل فيها مكانا للاستعداد للفهم، ومن ثم لم يمنعهم ذلك من الرجوع إلى الكفر مرة بعد أخرى، إذ هم لم يفقهوا." (٢)

"والخلاصة- إنكم إذا سمعتم الكلام الذي يتضمن جعل الآيات فى موضع السخرية والاحتقار فابتعدوا عنهم، ولا ترجعوا إليهم حتى يعودوا إلى حديث آخر.

وفى الآية دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يدل على التنقص والاستهزاء بالأدلة الشرعية والأحكام الدينية كما يقع من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء العلماء بالكتاب والسنة ولم يبق فى أيديهم إلا قال إمام مذهبنا كذا وقال فلان من أتباعه كذا، وإذا استدل أحد بآية قرآنية أو بحديث نبوى سخروا منه وظنوا أنه قد جاء بخطب شنيع، وجعلوا رأى إمامهم مقدما على ما نطق به الكتاب، وأرشدت إليه السنة.

(إنكم إذا مثلهم) أي إنكم إن قعدتم معهم تكونوا شركاء لهم فى الكفر، لأنكم رضيتم به ووافقتموهم عليه.

وفى الآية إيماء إلى أن من يقر المنكر ويسكت عليه يقع فى الإثم، وإلى أن إنكار الشيء يمنع من انتشاره بين الناس.

وقد وقع فى هذا المنكر كثير من المسلمين، فإنهم يرون الملحدين فى البلاد يخوضون فى آيات الله ويستهزئون بالدين وهم يسكتون عن ذلك ولا يبدون إنكارا، ولا اشمئزازا ولا صدا ولا إعراضا.

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٤٣٠/٧

(٢) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ١٨١/٥

(إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا) أي إنهم كما اجتمعوا على الاستهزاء بآيات الله فى الدنيا سيجتمعون فى العقاب يوم القيامة.

ولا يخفى ما فى هذا من الوعيد للكفار والمنافقين ثم بين بعض أحوال المنافقين فقال:

(الذين يتربصون بكم) يتربصون ينتظرون ما يحدث من خير أو شر: أي إن هؤلاء المنافقين ينتظرون ما يحدث لكم من كسر أو نصر، وشر أو خير.

(فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم؟) أي فإن نصركم الله وفتح عليكم ادعوا أنهم كانوا معكم فيستحقون مشاركتكم فى النعمة وإعطاءهم من الغنيمة.

(وإن كان للكافرين نصيب قالوا: ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين) الاستحواذ: الاستيلاء على الشيء والتمكن من تسخيره أو التصرف فيه: أي وإن كان." (١)

"﴿١٤٠، ١٤١﴾ ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ .

أي: وقد بين الله لكم فيما أنزل عليكم حكمه الشرعي عند حضور مجالس الكفر والمعاصي ﴿أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها﴾ أي: يستهان بها. وذلك أن الواجب على كل مكلف في آيات الله الإيمان بها وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا المقصود بإنزالها، وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، فضد الإيمان الكفر بها، وضد تعظيمها الاستهزاء بها واحتقارها، ويدخل في ذلك مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم.

وكذلك المبتدعون على اختلاف أنواعهم، فإن احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات الله لأنها لا تدل إلا على حق، ولا تستلزم إلا صدقا، بل وكذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه، وتقتحم حدوده التي حدها لعباده ومنتهى هذا النهي عن القعود معهم ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ أي: غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها.

﴿إنكم إذا﴾ أي: إن قعدتم معهم في الحال المذكورة ﴿مثلهم﴾ لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها، والحاصل أن من حضر مجلسا يعصى الله به، فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم مع القدرة، أو القيام مع عدمها.

﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ كما اجتمعوا على الكفر والموالاة ولا ينفع الكافرين (١) مجرد كونهم في الظاهر مع المؤمنين كما قال تعالى: ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم﴾ إلى آخر الآيات.

---

(١) في ب: المنافقين.." (٢)

---

(١) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ١٨٤/٥

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٢١٠

﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا (١٣٦) إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١) إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يرآؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا (١٤٢) مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (١٤٣) يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا (١٤٤) إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا (١٤٥) إلا
الذين تابوا وأصلحوا." (١)

"الإيمان، وشعبه، وأركانه، ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل، وتقريره، وتثبيته، والاستمرار
عليه، كما يقول المؤمن في كل صلاة: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ ، أي: بصرنا فيه، وزدنا هدى، وثبتنا عليه.
وقوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا﴾ ، قال قتادة: هم: اليهود والنصارى، آمنت اليهود بالتوراة ثم كفرت، وآمنت النصارى بالإنجيل ثم كفرت، وكفرهم به تركهم إياه. ثم ﴿ازدادوا كفرا﴾ بالفرقان وبمحمد – صلى الله عليه وسلم –. وقال ابن زيد هؤلاء المنافقون، آمنوا مرتين وكفروا مرتين، ثم ازدادوا كفرا بعد ذلك. وعن علي رضي الله عنه قال: يستتاب المرتد ثلاثا ثم قرأ: ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا﴾ . وقال إبراهيم: يستتاب كلما ارتد، وهو قول أكثر أهل العلم.
وقوله تعالى: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ ، أي: أقاموا على ذلك ﴿ولا ليهديهم سبيلا﴾ ، أي: طريقا إلى الحق.
وقوله تعالى: ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما * الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا﴾ ، كقوله تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ .

قوله عز وجل: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا

(١) توفيق الرحمن في دروس القرآن فيصل المبارك ٦٠٥/١

في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم." (١)

"فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١) ﴾ .

قوله: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ يشير إلى قوله في سورة الأنعام: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ . وعن هشام بن عرفة قال: أخذ عمر بن عبد العزيز قوما على شراب فضربهم وفيهم صائم فقالوا: إن هذا صائم، ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ .

وقوله تعالى: ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا * الذين يتربصون بكم إن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين﴾ . قال ابن جريج: إن أصاب المسلمون من عدوهم غنيمة قال المنافقون: ألم نكن معكم؟ قد كنا معكم فأعطونا غنيمة مثل ما تأخذون، وإن كان للكافرين نصيب يصيبونه من المسلمين قال المنافقون للكافرين: ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين؟ قد كنا نثبطهم عنكم.

وقوله تعالى: ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ ، عن منيع الحضرمي قال: كنت عند

علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال رجل: يا أمير المؤمنين أرأيت قول الله عز وجل: ﴿ولن يجعل الله." (٢)

"[سورة النساء (٤) : آية ١٤٠]

وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)

الإعراب:

(الواو) استئنافية (قد) حرف تحقيق (نزل) فعل ماض والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (على) حرف جر و (كم) ضمير في محل جر متعلق ب (نزل) ، (في الكتاب) جار ومجرور متعلق ب (نزل) ، (أن) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف (إذا) ظرف للزمن المستقبل في محل نصب متعلق بمضمون الجواب (سمعتم) فعل ماض مبني على السكون وفاعله (آيات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (يكفر) مضارع مبني للمجهول مرفوع (بها) في محل رفع نائب فاعل (الواو) عاطفة (يستهزأ) مثل يكفر ونائب الفاعل (بها) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) ناهية جازمة (تقعدوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون ... والواو فاعل (مع) ظرف مكان منصوب متعلق ب (تقعدوا) ، و (هم) ضمير مضاف إليه (حتى) حرف غاية وجر (يخوضوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى وعلامة

---

(١) توفيق الرحمن في دروس القرآن فيصل المبارك ٦٠٨/١

(٢) توفيق الرحمن في دروس القرآن فيصل المبارك ٦٠٩/١

النصب حذف النون ... والواو فاعل.

والمصدر المؤول (أن يخوضوا) في محل جر ب (حتى) متعلق ب (تقعدوا) .

(في حديث) جار ومجرور متعلق ب (يخوضوا) ، (غير) نعت لحديث مجرور مثله و (الهاء) ضمير مضاف إليه.." (١)

"وجملة «إن الله جامع ... » لا محل لها استئنافية.

الصرف:

(جامع) ، اسم فاعل من جمع الثلاثي وزنه فاعل.

البلاغة

١- «وقد نزل عليكم» خطاب للمنافقين بطريق الالتفات مفيد لتشديد التوبيخ الذي يستدعيه تعديد جناياتهم.

٢- التشبيه: في قوله «إنكم إذا مثلهم» والمثلية بين الكافرين والمنافقين تظهر في الآية بين القاعدين والمقعود معهم، فإن الذين يشايعون الكفرة ويوالونهم ويمدون أيدي الاستخزاء والذل إليهم مع قدرتهم على الصمود والتحدي هم مثل الكفرة.

الفوائد

١- قوله **تعالى إنكم إذا مثلهم إذن**: حرف جواب وجزاء وهنا مهمل لا عمل له لوقوعه بين اسم إن وخبرها وقد تقدم الكلام عنه بالتفصيل في نفس السورة الآية (٥٣) .

٢- قوله تعالى إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا جميعا حال منصوب وهي إن جاءت منصوبة ومنونة فهي حال مثل جاء المدعوون جميعا.

أما إذا اتصلت بضمير يعود على الاسم قبلها فهي توكيد مثل: جاء المدعوون جميعهم.

[سورة النساء (٤) : آية ١٤١]

الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)." (٢)

"والاستفهام هنا إنكارى تهديدى، يكشف للمنافقين سوء تقديرهم، وخسارة صفقتهم التي عقدوها مع الكافرين..

«فإن العزة لله جميعا» .. وإن أخسر الناس صفقة، من أراد العزة فاتخذ غير الله طريقا إليها، وغير المؤمنين أولياء له فى طلبها.. إن العزة لله جميعا، وإن العزة لأولياء الله، ولمن والى أولياء الله.. والله سبحانه وتعالى يقول:

«ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون» (٨: المنافقون) .

الآية: (١٤٠) [سورة النساء (٤) : آية ١٤٠]

وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره**

---

(١) الجدول في إعراب القرآن محمود صافي ٥/٢٠٨

(٢) الجدول في إعراب القرآن محمود صافي ٥/٢١٠

إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)

التفسير: للنفاق مداخل كثيرة إلى القلوب، فهو يتدسس إلى الإنسان فى خفاء، ويتحسس مواطن الضعف منه فينفذ إليها، حتى يتمكن منها، وإذا المرء وقد عشش فيه النفاق، ثم باض وأفرخ، وإذا هو فى المنافقين، لا يملك دفع هذا الداء الذي جثم على صدره.

لهذا كان الإسلام حريصا على أن ينبه المسلمين إلى هذا الخطر، ويحذرهم من أن يلموا به، أو يحوموا حوله، حتى لا تصيبهم عدواه، فيتعذر شفاؤهم منه..." (١)

"فهذه الآية هى توكيد لهذا التنبيه الذي سبق نزول القرآن به من قبل، وتحذير جديد لأولئك الذين لم ينتهوا عما نهوا عنه، والخطاب فى الآية موجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم، هو أمر ملزم لأتباع النبى، إذ كان النبي إمامهم وقدوتهم.

وقوله تعالى: «يكفر بها ويستهزأ بها» هو حال كاشفة للصفة التي تدور بها آيات الله على ألسنة الكافرين والمنافقين.. وهى أنها تدور للسخرية والعبث.

وقوله تعالى: «فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره» هو نهى للمسلمين عن الجلوس فى هذا المجلس القائم على تلك الصفة، وليس نهيا عاما مطلقا على تجنب الجلوس مع المنافقين والكافرين، ففى ذلك إعنات للمؤمنين، فقد تستدعى أحوالهم أن يكونوا بحيث لا منصرف لهم عن الحياة مع هذه الجماعة، وتبادل المنافع معها! على أن من السلامة لدين المؤمن أن يتجنب مجالس هؤلاء القوم ما استطاع، فإذا مست هذه المجالس دينه بما يسوء، كان أمرا لازما عليه أن يتحول عن هذه المجالس فى الحال، ولا يخلط نفسه بها، وإلا حمل وزره من الإثم الذي يتعاطاه فيها أهل النفاق والكفر.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «إنكم إذا مثلهم» أي لا فرق بينكم أيها المؤمنون وبين هؤلاء الأثمة، الذين يهزءون بآيات الله ويسخرون منها، إذا أنتم استمتعتم إلى هذا المنكر ولم تنكروه..

وفى قوله تعالى: «إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا» تهديد ووعيد بهذا المصير المشئوم الذي ينتظر الكافرين والمنافقين، ومن يلوذ بالكافرين والمنافقين، ويركن إليهم، ويستمع للزور الذي يدور بينهم.." (٢)

"الأصنام لأن الملائكة غير مشاهدين فليست دلائل الحدوث بادية عليهم كالأصنام، ولأن الذين زعموهم بنات الله أقرب للتمويه من الذين زعموا الحجارة شركاء الله، وقد أشرنا إلى ذلك آنفا عند قوله تعالى قل من رب السماوات السبع [المؤمنون: ٨٦] الآية.

و (إذن) حرف جواب وجزاء لكلام قبلها ملفوظ أو مقدر. والكلام المجاب هنا هو ما تضمنه قوله وما كان معه من إله فالجواب ضد ذلك النفي. وإذ قد كان هذا الضد أمرا مستحيل الوقوع تعين أن يقدر له شرط على وجه الفرض والتقدير، والحرف المعد

لمثل هذا الشرط هو (لو) الامتناعية، فالتقدير: ولو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق.

---

(١) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب ٩٣٦/٣

(٢) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب ٩٣٨/٣

وبقاء اللام في صدر الكلام الواقع بعد (إذن) دليل على أن المقدر شرط (لو) لأن اللام تلزم جواب (لو) ولأن غالب مواقع (إذن) أن تكون جواب (لو) فلذلك جاز حذف الشرط هنا لظهور تقديره.

وقد تقدم بيان ذلك عند قوله **تعالى: إنكم إذا مثلهم في** سورة النساء [١٤٠] .

فقوله: إذا لذهب كل إله بما خلق استدلال على امتناع أن يكون مع الله آلهة.

وإنما لم يستدل على امتناع أن يتخذ الله ولدا لأن الاستدلال على ما بعده مغن عنه لأن ما بعده أعم منه وانتفاء الأعم يقتضي انتفاء الأخص فإنه لو كان الله ولد لكان الأولاد آلهة لأن ولد كل موجود إنما يتكون على مثل ماهية أصله كما دل عليه قوله تعالى: قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين [الزخرف: ٨١] أي له.

والذهاب في قوله لذهب كل إله مستعار للاستقلال بالمذهوب به وعدم مشاركة غيره له فيه. وبيان انتظام هذا الاستدلال أنه لو كان مع الله ءالهة لاقتضى ذلك أن يكون الآلهة سواء في صفات الإلهية وتلك الصفات كمالات." (١)

"[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٨ إلى ١٤١]

بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

استئناف ابتدائي ناشىء عن وصف الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا، فإن أولئك كانوا مظهرين الكفر بمحمد- صلى الله عليه وسلم-، وكان ثمة طائفة تبطن الكفر وهم أهل النفاق، ولما كان التظاهر بالإيمان ثم تعقيبه بالكفر ضربا من التهكم بالإسلام وأهله، جيء في جزاء عملهم بوعيد مناسب لتهكمهم بالمسلمين، فجاء به على طريقة التهكم إذ قال: بشر المنافقين، فإن البشارة هي الخبر بما يفرح المخبر به، وليس العذاب كذلك، وللعرب في التهكم أساليب كقول شقيق ابن سليك الأسدي:

أتاني من أبي أنس وعيد ... فسلى لغيظة الضحاك جسمي

وقول النابغة:

فإنك سوف تحلم أو تناهى ... إذا ما شبت أو شاب الغراب

وقول ابن زيابة:

نبئت عمرا غارزا رأسه ... في سنة يوعد أخواله

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١١٤/١٨

وتلك منه غير مأمونة ... أن يفعل الشيء إذا قاله." (١)

"لهم القعود معهم إذ خاضوا في حديث غير حديث الكفر. ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره [التوبة: ٢٣، ٢٤] .

وجعل جواب القعود معهم المنهي عنه أنهم إذا لم ينتهوا عن القعود معهم يكونون مثلهم في الاستخفاف بآيات الله إذ **قال: إنكم إذا مثلهم فإن** (إذن) حرف جواب وجزاء لكلام ملفوظ به أو مقدر. والمجازاة هنا لكلام مقدر دل عليه النهي عن القعود معهم فإن التقدير: إن قعدتم معهم إذن إنكم مثلهم. ووقوع إذن جزاء لكلام مقدر شائع في كلام العرب كقول العنبري:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي ... بنو اللقيطة من ذهل شيبانا

إذن لقام بنصري معشر خشن ... عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا

قال المرزوقي في «شرح الحماسة» : «وفائدة (إذن) هو أنه أخرج البيت الثاني مخرج جواب قائل له: ولو استباحوا ماذا كان يفعل بنو مازن؟ فقال: إذن لقام بنصري معشر خشن» . قلت: ومنه قوله تعالى: وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون [العنكبوت: ٤٨] . التقدير: فلو كنت تتلو وتخط إذن لارتاب المبطلون.

فقد علم أن الجزاء في **قوله: إنكم إذا مثلهم عن** المنهي عنه لا عن النهي، كقول الراجز، وهو من شواهد اللغة والنحو:

لا تتركني فيهم شطيرا ... إني إذن أهلك أو أطيرا

والظاهر أن فريقا من المؤمنين كانوا يجلسون هذه المجالس فلا يقدمون على تغيير هذا ولا يقومون عنهم تقية لهم فنهوا عن ذلك. وهذه المماثلة لهم خارجة مخرج التغليظ والتهديد والتخويف، ولا يصير المؤمن منافقا بجلوسه إلى المنافقين، وأريد المماثلة في المعصية لا في مقدارها، أي أنكم تصيرون مثلهم في التلبس بالمعاصي.." (٢)

"وعن الكسائي: المعنى ولكن هذه ذكرى، أي قوله: وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين [الأنعام: ٦٨] تذكرة لك وليست مؤاخذة بالنسيان، إذ ليس على المتقين تبعة سماع استهزاء المستهزئين ولكنا ذكرناهم بالإعراض عنهم لعلهم يتقون سماعهم.

والجمهور على أن هذه الآية ليس بمنسوخة. وعن ابن عباس والسدي أنها منسوخة بقوله تعالى في سورة النساء [١٤٠] وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره**

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٣٣/٥

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٣٦/٥

إنكم إذا مثلهم بناء على رأيهم أن قوله: وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء أباح للمؤمنين القعود ولم يمنعه إلا على النبيء صلى الله عليه وسلم بقوله: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم [الأنعام: ٦٨] كما تقدم آنفا.
[٧٠]

[سورة الأنعام (٦) : آية ٧٠]
وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون (٧٠)
عطف على جملة: فأعرض عنهم [الأنعام: ٦٨] أو على جملة: وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء [الأنعام: ٦٩] . وهذا حكم آخر غير حكم الإعراض عن الخائضين في آيات الله ولذلك عطف عليه. وأتي بموصول وصلة أخرى فليس ذلك إظهارا في مقام الإضمار.
وذر فعل أمر. قيل: لم يرد له ماض ولا مصدر ولا اسم فاعل ولا اسم مفعول.
فتصاريفه هذه مماتة في الاستعمال استغناء عنها بأمثالها من مادة ترك تجنبا للثقل واستعملوا مضارعه والأمر منه. وجعله علماء التصريف مثالا واويا لأنهم." (١)

"وبين في موضع آخر أن العزة التي هي له وحده أعز بها رسوله، والمؤمنين، وهو قوله تعالى: ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين [٦٣ \ ٨] ، أي: وذلك بإعزاز الله لهم والعزة الغلبة، ومنه قوله تعالى: وعزني في الخطاب [٣٨ \ ٢٣] ، أي: غلبني في الخصام، ومن كلام العرب من عز بز يعنون من غلب استلب، ومنه قول الخنساء: [المتقارب]
كأن لم يكونوا حمى يختشى ... إذ الناس إذ ذاك من عز بزا

قوله تعالى: وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم، هذا المنزل الذي أحال عليه هنا هو المذكور في سورة «الأنعام» ، في قوله تعالى: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره [٦ \ ٦٨] ، وقوله هنا: فلا تقعدوا معهم، لم يبين فيه حكم ما إذا نسوا النهي حتى قعدوا معهم، ولكنه بينه في «الأنعام» بقوله: وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين [٦ \ ٦٨] .

قوله تعالى: ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا، في معنى هذه الآية أوجه للعلماء:
منها: أن المعنى ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين يوم القيامة سبيلا، وهذا مروي عن علي بن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهم ويشهد له قوله في أول الآية: فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين الآية [٤ \ ١٤١] ، وهو ظاهر. قال ابن عطية: وبه قال جميع أهل التأويل، كما نقله عنه القرطبي، وضعفه ابن العربي زاعما أن آخر الآية غير

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٧/٢٩٤

مردود إلى أولها.
ومنها: أن المراد بأنه لا يجعل لهم على المؤمنين سبيلا، يمحو به دولة المسلمين ويستأصلهم ويستبيح بيضتهم، كما ثبت في «صحيح مسلم» وغيره عنه – صلى الله عليه وسلم – من حديث ثوبان، أنه قال: «وإني سألت ربي ألا يهلك أمتي بسنة بعامة وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن الله قد أعطاني لأمتي ذلك حتى يكون بعضهم يهلك بعضا، ويسبي بعضهم بعضا» ، ويدل لهذا الوجه آيات كثيرة كقوله: إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا الآية [٤٠ \ ٥١] ، وقوله: وكان حقا علينا نصر المؤمنين [٣٠ \ ٤٧] ،." (١)

"حلوان كاهن وأجرة الغنا ... ونائح ورشوة مهر الزنا
هكذا قيل، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار الآية، ذكر في هذه الآية الكريمة أن النوم وفاة، وأشار في موضع آخر إلى أنه وفاة صغرى، وأن صاحبها لم يمت حقيقة، وأنه تعالى يرسل روحه إلى بدنه حتى ينقضي أجله، وأن وفاة الموت التي هي الكبرى قد مات صاحبها، ولذا يمسك روحه عنده، وذلك في قوله تعالى: الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون [٣٩ \ ٤٢] .

قوله تعالى: ويرسل عليكم حفظة الآية، لم يبين هنا ماذا يحفظون، وبينه في مواضع أخر، فذكر أن مما يحفظونه بدن الإنسان، بقوله: له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله [١٣ \ ١١] ، وذكر أن مما يحفظونه جميع أعماله من خير وشر، بقوله: وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون [٨٢ \ ١٠، ١١، ١٢] ، وقوله: إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد [٥٠ \ ١٧، ١٨] ، وقوله: أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون.

قوله تعالى: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره، نهى الله تعالى نبيه – صلى الله عليه وسلم – في هذه الآية الكريمة عن مجالسة الخائضين في آياته، ولم يبين كيفية خوضهم فيها، التي هي سبب منع مجالستهم، ولم يذكر حكم مجالستهم هنا، وبين ذلك كله في موضع آخر، فبين أن خوضهم فيها بالكفر والاستهزاء بقوله: وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم الآية [٤ \ ١٤٠] .
وبين أن من جالسهم في وقت خوضهم فيها مثلهم في الإثم، بقوله: إنكم إذا مثلهم، وبين حكم من جالسهم ناسيا، ثم تذكر بقوله هنا: وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين [٦ \ ٦٨] ، كما تقدم في سورة النساء.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣١٩/١

قوله تعالى: فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي، الآيات، قوله: هذا ربي [٦ \ ٧٦] ، في المواضع الثلاثة محتمل لأنه كان يظن ذلك، كما روي عن ابن عباس وغيره." (١)

"﴿وقد نزل عليكم في الكتاب﴾ القرآن ﴿أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم﴾ أي لا تقعدوا مع الكافرين المستهزئين بآيات الله ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ فإن قعدتم معهم مع كفرهم بآيات الله تعالى، وخوضهم في الحق الذي أنزله ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ في الكفر. يؤخذ من هذه الآية الكريمة: أن السامع شريك للقائل؛ ما لم يرده قسرا، أو يمنعه جبرا؛ فإن لم يستطع فليفارق مجلسه من فوره ﴿إن الله جامع المنافقين﴾ الذين يظهرون غير ما يبطنون ﴿والكافرين في جهنم جميعا﴾ للعذاب." (٢)

"وما بعده عطف عليه (فقد ضل ضلالا بعيدا) فقد الفاء رابطة لجواب الشرط، وقد حرف تحقيق، وضل فعل ماض وضلالا مفعول مطلق، وبعيدا صفة. والجملة في محل جزم جواب الشرط، وجملة فعل الشرط وجوابه في محل رفع خبر «من» .

[سورة النساء (٤) : آية ١٣٧]

إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧)

الإعراب:

(إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا) كلام مستأنف مسوق لوصف ترجح اليهود والمنافقين في مهاوي الفتن والقلق. وإن واسمها، وجملة آمنوا صلة، وكرر العطف تبيانا لمآلهم وصيرورتهم وترجحهم بين الكفر والايمان، وكفرا تمييز (لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا) الجملة خبر إن، ولم حرف نفي وقلب وجزم، ويكن فعل مضارع ناقص، والله اسمها وليغفر اللام لام الجحود، ويغفر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعدها، والجار والمجرور- لام الجحود والمصدر المؤول- متعلقان بمحذوف خبر يكن، أي: مريدا ليغفر لهم، والجار والمجرور «لهم» متعلقان بيغفر ولا ليهديهم عطف على ما تقدم وسبيلا مفعول به ثان ليهديهم، أو منصوب بنزع الخافض، والجار والمجرور متعلقان بيهديهم.

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٨ الى ١٤٠]

بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)." (٣)

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٤٨٥/١

(٢) أوضح التفاسير محمد عبد اللطيف الخطيب ص/١١٧

(٣) إعراب القرآن وبيانه محيي الدين درويش ٣٥١/٢

"والمجرور متعلقان بتقعدوا، وفي حديث متعلقان بيخوضوا وغيره صفة لحديث (إنكم إذا مثلهم) إن واسمها، واذن حرف جواب وجزء مهمل لتوسطه، ومثلهم خبر إن، ولم يطابق بين الاسم والخبر فأفرد «مثل» وأخبر بها عن الجمع كما طابق في موضع آخر فقال: «وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون» لأن «مثل» بمعنى المصدر، وتقدير المعنى إن عصيانكم مثل عصيانهم والجملة لا محل لها لأنها تعليل للنهي (إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا) الجملة تعليل ثان للمثلية، وسيأتي مزيد من هذه المثلية في باب البلاغة، وإن واسمها وخبرها. وفي جهنم متعلقان بجامع، وجميعا حال.

البلاغة:

١- التهكم في قوله «بشر» . والتهكم في الأصل اللغوي تهدم البناء، يقال: تهكمت البئر إذا تهدمت، والغضب الشديد والتندم على الأمر الفائت. وفي الاصطلاح البلاغي هو الاستهزاء والسخرية من المتكبرين لمخاطبتهم بلفظ الإجلال في موضع التحقير، والبشارة في موضع التحذير، والوعد في موضع الوعيد. وإنما بسطنا القول في هذا الفن بشيء من التفصيل لأن القرآن طافح بأمثلة التهكم، وستأتي في مواضعها. ومن طريف هذا الفن في الشعر قول ابن الرومي:

فيا له من عمل صالح ... يرفعه الله الى أسفل

وله في وصف ابن حصينة الأحدب من أبيات غاية في التهكم الذي وضع المديح موضع الهزء والسخرية:." (١)

"ويجلسون إليه- بالقرآن الذي يتلوه عليهم، وبالمواعظ والنذر التي يوجهها إليهم، ويتحرج من ترك مجالستهم وإهمال إنذارهم، فنزلت الآيات تسلية له ورفعا للحرج عنه وبيانا لمدى مهمته ومسؤوليته وإنذار للكفار في الوقت نفسه.

ومع أن الخطاب في الآية الأولى قد يكون منصرفا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بقرينة ضمير المخاطب المفرد فإن نص الآية الثانية يسوغ القول بأن الحظر الذي احتوته الآية الأولى ليس خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم وإنما هو عام للمسلمين. وقد يكون من دعائم ذلك آية سورة النساء هذه: وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم [**١٤٠] حيث احتوت الآية إشارة إلى آيات الأنعام التي نحن في صددها.

ويلحظ أن النهي محدود بوقت الخوض وبمن يقترفونه، وهو المتسق مع مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين التبشيرية. ولقد تكررت الآيات المكية التي فيها إشارة إلى خوض الكفار والمشركين والمنافقين منها آية في سورة المدثر التي سبق تفسيرها وكنا نخوض مع الخائضين (٤٥) وآية في سورة الطور الذين هم في خوض يلعبون (١٢) وآية في سورة الزخرف فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون (٨٣) وآية أخرى في سورة الأنعام ستأتي بعد قليل، حيث يبدو من هذا أن ذلك كان من ديدنهم ومن جملة الصور التي كانوا يواجهون بها دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وآيات القرآن، مع التنبيه إلى أن آية النساء التي أوردناها قد نزلت بخاصة في خوض المنافقين على ما يتبادر من سياقها، على ما سوف يشرح في مناسبته.

---

(١) إعراب القرآن وبيانه محيي الدين درويش ٢/٣٥٤

ولقد قال بعض المفسرين «١» إن آية النساء المذكورة قد نسخت هذه الآية ولسنا نرى في آية النساء نسخا بل نرى توكيدا. فآية الأنعام لم تسمح بالقعود مع

(١) انظر تفسير الخازن.." (١)

"والطمأنينة الاجتماعية ومصلحة الأفراد والجماعات منوطة به وقائمة عليه. وعلى اعتبار أن استشعار كل فرد بواجب الإنصاف في كل موقف وحال هو أقوى عماد لصلاح المجتمع وقوته وسعادته.

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٦ الى ١٤٧]

يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا (١٣٦) إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)

الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١) إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا (١٤٢) مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (١٤٣) يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا (١٤٤) إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا (١٤٥)

إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما (١٤٦) ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما (١٤٧)

. (١) ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين: قال الزمخشري في تأويلها:." (٢)

"أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا (١٣٥) يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا (١٣٦) إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر

(١) التفسير الحديث محمد عزة دروزة ١١٠/٤

(٢) التفسير الحديث محمد عزة دروزة ٢٥٩/٨

لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل." (١)

"١٣٥- (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا) وإن تلووا:

قرىء:

وإن تلوا، بضم اللام بواو واحدة، وهى قراءة جماعة فى الشاذ، وابن عامر، وحمزة.

١٣٧- (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) نزل ... أنزل:

قرىء:

١- بالبناء للمفعول، وهى قراءة العربيين، وابن كثير.

٢- بالبناء للفاعل، وهى قراءة الباقين.

١٤٠- (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا) نزل:

قرىء:

١- مشددا مبنيا للمفعول، وهى قراءة الجمهور.

٢- مشددا مبنيا للفاعل، وهى قراء عاصم.

٣- مخففا مبنيا للفاعل، وهى قراءة أبى حيوة.

٤- أنزل، بالهمزة، مبنيا للمفعول، وهى قراءة النخعي.

١٤١- (الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) ونمنعكم:

وقرىء:." (٢)

"(أذن) : الأذن الجارحة وشبه به من حيث الحلقة أذن القدر وغيرها، ويستعار لمن كثر استماعه وقوله لما يسمع، قال تعالى: ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم أي استماعه لما يعود بخيركم، وقوله: وفي آذانهم وقرا إشارة إلى جهلهم لا إلى

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير محمد المكي الناصري ٣٨٩/١

(٢) الموسوعة القرآنية إبراهيم الإبياري ١٨٩/٥

عدم سمعهم. وأذن استمع نحو قوله: وأذنت لربها وحقت ويستعمل ذلك فى العلم الذي يتوصل إليه بالسماع نحو قوله: فأذنوا بحرب من الله ورسوله والإذن والأذان لما يسمع ويعبر بذلك عن العلم إذ هو مبدأ كثير من العلم فينا، قال تعالى: ائذن لي ولا تفتني وقال:

وإذ تأذن ربك وأذنته بكذا وآذنته بمعنى. والمؤذن كل من يعلم بشىء نداء. قال: ثم أذن مؤذن أيتها العير- فأذن مؤذن بينهم- وأذن في الناس بالحج والأذين المكان الذي يأتيه الأذان، والإذن فى الشيء: إعلام بإجازته والرخصة فيه نحو: وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله أي بإرادته وأمره. وقوله: وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وقوله: - وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله- وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله قيل معناه بعلمه. لكن بين العلم والإذن فرق فإن الإذن أخص ولا يكاد يستعمل إلا فيما فيه مشيئة به راضيا منه الفعل أم لم يرض به، فإن قوله: وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله فمعلوم أن فيه مشيئته وأمره. وقوله: وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله، ففيه مشيئته من وجه وهو أنه لا خلاف أن الله تعالى أوجد فى الإنسان قوة فيها إمكان قبول الضرب من جهة من يظلمه فيضره ولم يجعله كالحجر الذي لا يوجعه الضرب، ولا خلاف أن إيجاد هذا الإمكان من فعل الله، فمن هذا الوجه يصح أن يقال إنه بإذن الله ومشيئته يلحق الضرر من جهة الظالم، ولبسط هذا الكلام كتاب غير هذا والاستئذان طلب الإذن، قال تعالى: إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله- فإذا استأذنوك وإذن جواب وجزاء، ومعنى ذلك أنه يقتضى جوابا أو تقدير جواب ويتضمن ما يصحبه من الكلام جزاء ومتى صدر به الكلام وتعقبه فعل مضارع ينصبه لا محالة نحو: إذن أخرج، ومتى تقدمه كلام ثم تبعه فعل مضارع يجوز نصبه ورفعه نحو: أنا إذن أخرج وأخرج، ومتى تأخر عن الفعل أو لم يكن معه الفعل المضارع لم يعمل نحو: أنا أخرج إذن، قال تعالى: إنكم إذا مثلهم.

(أذى) : الأذى ما يصلى إلى الحيوان من الضرر إما فى نفسه أو جسمه أو تبعاته." (١)

"توبتهم لم يقبل منهم ولم يغفر لهم، لأن ذلك مقبول حيث هو بذل للطاقة واستفراغ للوسع، ولكنه استبعاد له واستغراب وأنه أمر لا يكاد يكون.

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٨ الى ١٤١]

بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

١٣٨- بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما:

---

(١) الموسوعة القرآنية إبراهيم الإبياري ١٤/٨

بشر وضعت مكان (أخبر) تهكما بهم.

١٣٩- الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا:

الذين نصب على الذم، أو رفع، بمعنى: أريد الذين، أو هم الذين.

وكانوا يمالئون الكفرة ويوالونهم.

فإن العزة لله جميعا يريد لأوليائه الذين كتب لهم العز والغلبة.

١٤٠- وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا:

أن إذا سمعتم أن، هى المخففة من الثقيلة. أي إنه إذا سمعتم.

والمنزل عليهم فى الكتاب هو ما نزل عليهم بمكة من قوله وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره.

وذلك أن المشركين كانوا يخوضون فى ذكر القرآن فى مجالسهم فيستهزئون به، فنهى المسلمون عن القعود معهم ماداموا خائضين فيه.

وكان المنافقون يجلسون إلى هؤلاء يستمعون إليهم وهم يستهزئون بآيات الله.

إن الله جامع المنافقين والكافرين يعنى القاعدين والمقعود معهم.

١٤١- الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم." (١)

"والوجه الثاني: إجابة دعوة أخيه إذا كان في العرس، وكان ذلك في أول يوم.

وأما إذا كان هناك منكر في الدعوة لا تستطيع تغييره كما لو كان في الدعوة شر دخان، أو شيشه، أو كان هناك أعان محرمة، فإنه لا يجوز لك أن تجيب.

قال أهل العلم: إلا إذا كان المنكر في محل آخر، وأنت تجيب إلى محل ليس فيه منكر، وكان الداعي من أقاربك الذين لو تركت إجابتهم لعد ذلك قطيعة، فلا بأس بالإجابة في هذه الحال، وإن كان الهجر يترتب عليه ترك هذه المعصية فاهجره، يعني مثلا لو دعاك قريبك وأنت تعلم أنه سيكون في الدعوة محرم، وقبل بذلك فأجب، وأما إن أصر على وجود المحرم فلا تجب؛ لأن حضور المحرم ولو مع كراهة الإنسان له بقلبه يكون فيه الإنسان مشاركا للفعل لقول الله تعالى: (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا) (النساء: ١٤٠) هذا حكم إجابة الدعوة.

والحق الخامس: تشميت العاطس: يعني أن من حقوق المسلم على المسلم أن يشمته إذا عطس، هكذا في الرواية الأولى التى أخرجها البخاري ومسلم، وفي الرواية الثانية التى أخرجها مسلم: " إذا عطس فحمد الله فشمته" فقيد ذلك بما إذا حمد الله.

---

(١) الموسوعة القرآنية إبراهيم الإبياري ٣٥١/٩

فإذا عطس الرجل وحمد الله وسمعته فشمته، يعني قل: يرحمك الله،." [1]

"وحسن الإصغاء يكون بالقول وبالفعل أما القول: فبألا يتكلم إذا كان جليسه يتكلم، فيحصل بذلك التشويش بأن يكون الكلام كلاما واحدا حتى ينتفع الناس جميعا بما يتكلم به بعضهم وأما الإصغاء بالفعل: فينبغي إذا كان الإنسان يحدثك أن تقبل إليه بوجهك وألا تلتفت يمينا وشمالا، لأنك إذا التفت يمينا وشمالا وهو يحدثك نسبك إلى الكبرياء، وقد قال الله تعالى: ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا فينبغي أن تصغي إليه وأن تقابله بوجهك حتى يعرف أنك قد أحسست به، وأنك قد اهتممت بكلامه، إلا إذا كان يتكلم بشيء محرم، كغيبة، أو كلام لغو، أو ما أشبه ذلك من الأشياء المحرمة، فإنك لا تصغي إليه، بل انهه عن ذلك الشيء.

فإن استمر يتكلم بالكلام المحرم، ولم يضع إلى قولك وإلى نصحك، فالواجب عليك أن تقوم من مكانك وأن تفارقه، لأن الله يقول: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾." [2]

"حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله متفق عليه.

وعتبان بكسر العين على المشهور، وحكي ضمها، وبعدها تاء مثناة من فوق، ثم باء موحدة.

والدخشم بضم الدال وإسكان الخاء وضم الشين المعجمتين.

EXقال المؤلف النووي رحمه الله في كتابه (رياض الصاحين) باب تحريم سماع الغيبة، لما ذكر الله النصوص الواردة في تحريم الغيبة، لما بين مضارها ومفاسدها وآثامها أعقب ذلك بهذا الباب وهو تحريم سماع الغيبة، يعني أن الإنسان إذا سمع شخصا يغتاب آخر فإنه يحرم عليه أن يستمع إلى ذلك بل ينهاه عن هذا ويحاول أن ينقله إلى حديث آخر، فإن هذا فيه أجر عظيم كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، فإن أصر هذا الذي يغتاب الناس، إلا أن يبقى على غيبته وجب عليه أن يقوم عن المكان؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: وقد نزل عليكم في الكتب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم فدل ذلك على أن الإنسان إذا استمع إلى المحرم، فهو مشارك لمن يفعل هذا المحرم بل الواجب أن يقوم، ثم ذكر آيات متعددة في بيان الإعراض عن اللغو، واللغو." [3]

"ثم إن كان صاحب الربا الذي أخذ منه قد استفاد فإن الربا يأخذ من المرابي ويتصدق به أو يوضع في بيت المال وإن كان لم يستفد فإنه يعطي المطلوب لأنه إذا استفاد لا يمكن أن نجمع له بين الحق من الربا وبين انتفاعه نقول أنت حظك الانتفاع ولكن إذا كان لم ينتفع فإنه يعطي ما أخذ من الربا وذكر الترمذي وغيره في رواية أخرى أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن شاهدي الربا وكاتبه مع أن الشاهدين والكاتب ليس لهما منفعة لكن أعانوا على تثبيت الربا الشاهدان والكاتب يثبت بهما الربا لأن الشاهدين يثبتان الحق والكاتب يوثقه ولهذا يكون هؤلاء الثلاثة الشاهدان والكاتب قد أعانوا

---

(١) شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ٦٠٣/٢

(٢) شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ٦٩/٤

(٣) شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ١٣٠/٦

على الإثم والعدوان فنالهم من ذلك نصيب فهؤلاء الخمسة كلهم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله والشاهدين والكاتب خمسة وفي هذا الحديث دليل أن المعين على الإثم مشارك للفاعل وهو كذلك وهذا قد دل عليه القرآن قال الله تبارك وتعالى ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ وإما ينسينك الشيطان ﴿وجلست ناسيا﴾ فلا تقعد بعد الذكرى ﴿يعني بعد أن تفطن﴾ مع القوم الظالمين ﴿وقال عز وجل﴾ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم** ﴿فالمشارك لفاعل الإثم ولو بالجلوس يكون له مثل على ما صاحب **الإثم**﴾ **إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ﴿في هذا دليل على التحذير من الربا ووجوب البعد." (١)

"معنى الإعراض عن الجاهلين

ذكر المؤلف في الوصايا التي ختم بها عقيدته الإعراض عن الجاهلين.

والمراد بالإعراض عنهم عدم عتابهم وعدم الأخذ عليهم ما داموا جاهلين، ولكن لابد أن نعلمهم حتى يزول الجهل، ولا نتركهم على جهلهم، ولا نعرض عنهم دائما، بل نبدأ بتعليمهم ونوصيهم بالتعلم، ولكن إذا أصروا وعاندوا ولم يقبلوا فإن الإعراض عنهم أولى حتى يشعروا من أنفسهم بالنقص، قال الله تعالى في صفة بعض أوليائه: ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ [القصص:٥٥] ، هكذا حكى الله عن بعض أوليائه، واللغو هو الذي يسمعونه من الكلام الباطل أو السيئ الذي يعمرون به المجالس من خوض فيما لا فائدة فيه ولا أهمية له من صياح ولغط ونحو ذلك، فأولياء الله الصالحون إذا سمعوا هؤلاء اللاغين أعرضوا عنهم، ثم نصحوهم وقالوا: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ ، أي: نحن بريئون منكم ومن أعمالكم التي منها هذا اللغو ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ ، وهذا دليل على أن أولئك الذين يخوضون في اللغو جاهلون.

وكذلك أيضا أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ثم أمر المؤمنين بالإعراض عن مجالس اللهو والباطل والاستهزاء والسخرية وما أشبهها، فأنزل على محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ [الأنعام:٦٨] .

يعني: إذا لم تستطع أن تردهم وترشدهم وتهديهم إلى الصراط السوي وتدلهم عليه وتصرفهم عن هذا الخوض في آيات الله باستهزائهم بها فاجتنبهم ولا تجلس معهم حتى يخوضوا في حديث غيره.

وهذه الآية نزلت في مكة خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم، وكان الخطاب -بغير شك- يعم جميع المؤمنين، فكأن المؤمنين لم يعملوا بها أو بعضهم، فعاتبهم الله في سورة مدنية فقال تعالى: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ [النساء:١٤٠] ، فعاتبهم عتابا أشد من العتاب الأول بقوله: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ يعني: إذا جلستم معهم وهم يخوضون في آيات الله فإنكم تكونون شركاء لهم في هذا الاسم.

(١) شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ٦/٣٣٤

فهذه الآية عامة، فإذا جلست مع أناس في مجلس ورأيتهم يستهزئون ويسخرون بالملتزمين وبأهل الدين، أو يسخرون ببعض شعائر الإسلام ويلوكون بها ألسنتهم ويتنقصون بعض الشعائر وبعض أهل الخير ويعيبونهم بكذا وكذا، ويعيبون أهل الدين بجهلهم به كما عابت الكفار من جاء من مضر بأنهم رجعيون لم يتمسكوا بنص من الوحيين جاء به الأثر، فهؤلاء إن قدرت على أنك ترد عليهم وتبطل ما يقولونه وتقنعهم بأنهم على شر وأن عملهم عمل سيئ فإنك تفعل، أما إذا لم تقدر على ذلك فقم عنهم، وقل: إني بريء منكم لي عملي ولكم عملكم، أنتم بريئون مما أعمله وأنا بريء مما تعملون.

فقم عنهم واترك مجالستهم حتى تسلم من الإثم ولا تعمك هذه الآية: ﴿إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ .

فالحاصل أن الله تعالى أمر بالإعراض عن الجاهلين حتى يتعلموا ويبين لهم الحق، فإذا أصروا على جهلهم وعنادهم فيجب الإنكار عليهم، والعقوبة بعد البيان، وذلك لأنهم بعد البيان إذا أصروا على التجاهل كانوا ليسوا بجهلة ولكنهم مارقين.

والناس من حيث العموم أربعة أقسام، كما ذكروا ذلك عن الخليل بن أحمد، ذكروا أنه كان مرة يقطع أبياتا من الشعر، فاستهجنه ابنه فقال لتلامذته: إن أبي أصابه هوس أو جنون.

فدخلوا عليه فذكروا ذلك له، فقال: الناس أربعة: الأول: عالم ويدري أنه عالم، فهذا كامل فسودوه.

الثاني: عالم ولا يدري أنه عالم، فهذا غافل فنبهوه.

الثالث: جاهل ويدري أنه جاهل، فهذا مسترشد فأرشدوه.

الرابع: جاهل ولا يدري أنه جاهل، فهذا مارق فاتركوه.

وهو شر الأقسام، ويسمى الجاهل المركب الذي يكون جاهلا ويدعي أنه عالم، يقول بعضهم في وصفه: لما جهلت جهلت أنك جاهل جهلا وجهل الجهل داء معضل ويقول الآخر: ومن أعجب الأشياء أنك لا تدري وأنك لا تدري بأنك لا تدري تعتقد أنك عالم وأنت في الحقيقة جاهل، وبين الجاهلين تقلب.

فالحاصل أنا نعرض عن الجاهلين حتى يتعلموا ويبين لهم الحق، فإذا تعلموا وبين لهم الحق ففي ذلك الوقت لا نتركهم، بل ننكر عليهم ونعاقبهم ونقيم العذر بينهم، ونأخذ الحق منهم، وما دموا جاهلين فإننا نرشدهم ونعلمهم.." (١)

"استمع إلى السورة الكريمة وهي تحكى كل ذلك بأسلوبها الحكيم فتقول:

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٧ الى ١٤٧]

إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله

---

(١) اعتقاد أهل السنة ابن جبرين ١٣/١٦

قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا (١٤٢) مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (١٤٣) يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا (١٤٤) إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا (١٤٥) إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما (١٤٦)

ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما (١٤٧)." (١)

"ثم نهى- سبحانه- المسلمين عن مخالطة الكافرين بآيات الله والمستهزئين بها فقال: وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره.

أى: وقد نزل الله عليكم- أيها المؤمنون- في كتابه المحكم أنكم إذا سمعتم آيات الله يكفر بها الكافرون، ويستهزئ بها المستهزئون، فعليكم في هذه الأحوال أن تتركوا مجالسهم، وأن تعرضوا عنهم حتى يتكلموا في حديث آخر سوى الكفر بآيات الله والاستهزاء بها.

قال صاحب الكشاف: والمراد بالمنزل عليهم في الكتاب: هو ما نزل عليهم في مكة من قوله- تعالى-: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره «١» . وذلك أن المشركين كانوا يخوضون في ذكر القرآن في مجالسهم فيستهزءون به، فنهى- سبحانه- المسلمين عن القعود معهم ماداموا خائضين فيه.

وكان أحبار اليهود بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين، فنهوا أن يقعدوا معهم كما نهوا- قبل ذلك- عن مجالسة المشركين بمكة «٢» .

وأن في قوله أن إذا سمعتم تفسيرية، لأن نزل تضمن معنى القول دون حروفه.

وجعلها بعضهم مخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن مقدر أى أنه إذا سمعتم. وقدره بعضهم ضمير المخاطبين أى أنكم إذا سمعتم، وخبرهما جملة الشرط والجزاء.

وقوله يكفر بها ويستهزأ بها جملتان في موضع الحال من الآيات.

وأضاف- سبحانه- الآيات إليه، لتهويل أمرها، والتشنيع على من كفر أو استهزأ بها.

والضمير في قوله معهم يعود إلى الكافرين والمستهزئين المدلول عليهم بقوله: يكفر بها ويستهزأ بها فكأنه قيل: لا تقعدوا- أيها المؤمنون- مع الكافرين بآيات الله والمستهزئين بها.

والضمير في قوله غيره يعود إلى تحدثهم بالكفر والاستهزاء أى: حتى يخوضوا في حديث سوى حديثهم المتعلق بالكفر بآيات الله والاستهزاء بها.

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ٣٤٧/٣

وقوله إنكم إذا مثلهم تعليل للنهى عن القعود معهم.

أى: - أيها المؤمنون- إن استمعتم إلى الكفار والمنافقين وهم يعلنون الكفر بآيات الله- تعالى- والاستهزاء بها، كنتم معهم في الاستهانة بآيات الله وشركاء لهم في آثامهم، لأن

---

(١) سورة الأنعام الآية ٦٨.

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٧٨.." (١)

"الراضي بالكفر بآيات الله وبالاستهزاء بها. يكون بعيدا عن حقيقة الإيمان، ومستحقا للعقوبة من الله- تعالى- قال صاحب الكشاف، فإن قلت: لم يكونون مثلهم بالمجالسة إليهم في وقت الخوض؟

قلت: لأنهم إذا لم ينكروا عليهم كانوا راضين. والراضي بالكفر كافر فإن قلت: فهلا كان المسلمون بمكة- حين كانوا يجالسون الخائضين من المشركين- منافقين؟ قلت: لأنهم كانوا لا ينكرون لعجزهم. وهؤلاء لم ينكروا مع قدرتهم فكان ترك الإنكار لرضاهم «١» .

وقال القرطبي: فدل بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر، لأن من لم يتجنبهم فقد رضى فعلهم، والرضا بالكفر كفر. قال الله- تعالى- إنكم إذا مثلهم.

فكل من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء. وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية. وقد روى عن عمر بن عبد العزيز أنه أخذ قوما يشربون الخمر، فقيل له عن أحد الحاضرين: إنه صائم. فحمل عليه الأدب وقرأ عليه هذه **الآية إنكم إذا مثلهم أى** أن الرضا بالمعصية معصية. ولهذا يؤاخذ الفاعل والراضي بعقوبة العاصي حتى يهلكوا جميعا. وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر من المقارنة «٢» » .

ثم ختم- سبحانه- الآية الكريمة بالوعيد الشديد للكافرين والمنافقين فقال: إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا لأن هذين الفريقين كما اجتمعوا في الدنيا على الكفر بآيات الله والاستهزاء بها والتواصي بالشرور والآثام، فسيجمعهم الله جميعا في جهنم يوم القيامة، بسبب ما قدمت أيديهم من جرائم ومنكرات.

فأنت ترى أن الآية الكريمة تنهى المؤمنين عن مجالسة الكافرين بآيات الله والمستهزئين بها، لأن أول الشر سماع الشر، ولأن أول مراتب ضعف الإيمان أن تفتر حماسة المؤمن في الدفاع عن الحق الذي آمن به.

ومن علامات المؤمن الصادق أنه متى سمع استهزاء بتعاليم دينه فعليه إما أن ينبرى للدفاع عن هذه التعاليم بشجاعة وحماسة وقولة تدمغ الباطل وأهله وتفضح كل معتد أثيم.. وإما أن يقاطع المجالس التي لا يحترم فيها دين الله. أما السكوت عن ذلك باسم التغاضى أو التسامح أو المرونة. أو بغير ذلك من الأسماء، فهذا أول مراتب النفاق الذي يؤدى إلى خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ٣٥٢/٣

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٨٨

(٢) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٤١٨.." [١]

"هذا وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة أحكاما من أهمها ما يأتى:

١- وجوب الإعراض عن مجالسة المستهزئين بآيات الله أو برسله، وأن لا يقعد لأن في القعود إظهار عدم الكراهة، وذلك لأن التكليف عام لنا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال القرطبي: من خاض في آيات الله تركت مجالسته وهجرته، مؤمنا كان أو كافرا، وقد منع أصحابنا الدخول إلى أرض العدو ودخول كنائسهم وبيعهم، وكذلك منعوا مجالسة الكفار وأهل البدع. فقد قال بعض أهل البدع لأبى عمران النخعي: اسمع منى كلمة فأعرض عنه وقال: ولا نصف كلمة.

وروى الحاكم عن عائشة- رضى الله عنها- قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من وقر صاحب بدعة فقد أعانه على هدم الإسلام» «١» .

وقال صاحب المنار: وسبب هذا النهى أن الإقبال على الخائضين والقعود معهم أقل ما فيه أنه إقرار لهم على خوضهم وإغراء لهم بالتمادى فيه وأكبره أنه رضاء به ومشاركة فيه والمشاركة في الكفر والاستهزاء كفر ظاهر لا يقترفه باختياره إلا منافق مراء أو كافر مجاهر قال- تعالى- وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا» .

٢- جواز مجالسة الكفار مع عدم الخوض. لأنه إنما أمرنا بالإعراض في حالة الخوض، وأيضا فقد قال- تعالى- حتى يخوضوا في حديث غيره.

قال بعض العلماء: «وحتى غاية الإعراض، لأنه إعراض فيه توقيف دعوتهم زمانا أو جبته رعاية المصلحة، فإذا زال موجب ذلك عادت محاولة هدايتهم وإرشادهم إلى أصلها لأنها تمحضت للمصلحة» «٣» .

٣- استدل بهذه الآية على أن الناسي غير مكلف، وأنه إذا ذكر عاد إليه التكليف فيعفى عما ارتكبه حال نسيانه ففي الحديث الشريف «إن الله رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» . رواه الطبراني عن ثوبان مرفوعا وإسناده صحيح.

٤- قال القرطبي: قال بعضهم إن الخطاب في الآية للنبي صلى الله عليه وسلم والمقصود أمته، ذهبوا إلى

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ١٣.

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ٣/٣٥٣

(٢) تفسير المنار ج ٧ ص ٥٠٦.

(٣) تفسير التحرير والتنوير ج ٧ ص ٢٨٨ للشيخ الفاضل بن عاشور.." (١)

"وفي «السنن الأربعة» من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه: سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعذاب))، وكذا رواه ابن حبان وصححه: فكان العذاب المرسل في الدنيا على الذين ظلموا يتناول من كان معهم ولم ينكر عليهم، فكان ذلك جزاء لهم على مداهنتهم، ثم يوم القيامة يبعث كل منهم فيجازى بعمله، فأما من أمر ونهى فلا يرسل الله عليهم العذاب بل يدفع الله بهم العذاب، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ [القصص: ٥٩] ويدل على التعميم لمن لم ينه عن المنكر وإن كان لا يتعاطاه قوله: ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء: ١٤٠].

ويستفاد منه مشروعية الهرب من الظلمة؛ لأن الإقامة معهم من إلقاء النفس إلى التهلكة، وفيه تحذير وتخويف عظيم لمن سكت عن النهي، فكيف بمن داهن، فكيف بمن رضي، فكيف بمن عاون نسأل الله السلامة.

وأخرج البيهقي من طريق الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب عن عائشة رضي الله عنها مرفوعا: ((إذا ظهر الشر في الأرض أنزل الله بأسه فيهم، قيل: يا رسول الله، وفيهم أهل طاعته، قال: نعم ثم يبعثون إلى رحمة الله تعالى)).

وفي حديث زينب بنت جحش قالت: ((أنهلك وفينا الصالحون قال: ((نعم إذا كثر الخبث)) فيكون إهلاك الجميع عند ظهور المنكر والإعلان بالمعاصي، وأخرج مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعا: ((العجب أن ناسا من أمتي يؤمون هذا البيت حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم، فقلنا: يا رسول الله، إن الطريق قد يجمع الناس، فقال: نعم فيهم المستنصر والمجبور وابن السبيل، يهلكون مهلكا واحدا ويصدرون مصادر شتى يبعثهم الله على نياتهم)). ومن حديث أم سلمة رضي الله عنها مثله، ولفظه: ((فقلت: يا رسول الله، فكيف بمن كان كارها؟ قال: يخسف به معهم ولكنه يبعث يوم القيمة على نيته))، ومن حديث جابر رضي الله عنه رفعه: ((يبعث

[ج ٢٩ ص ٤٣٩]

كل عبد على ما مات عليه)).." (٢)

"قوله تعالى (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما)

أخرج ابن أبي حاتم بسنده الجيد عن أبي العالية قوله: (عذابا أليما) قال: الأليم الموجع في القرآن كله.

قوله تعالى (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين)

أخرج ابن أبي حاتم بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) قال: نهى الله تعالى المؤمنين أن يلاطفوا الكفار ويتخذوهم وليجة من دون المؤمنين إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين فيظهرون لهم ويخالفونهم في الدين.

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ٩٩/٥

(٢) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/٢٤٣٢٧

قوله تعالى (أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا)

قال الشيخ الشنقيطي: ذكر في هذه الآية الكريمة أن جميع العزة له جل وعلى وبين في موضع آخر: أن العزة التي هي له وحده أعز بها رسوله والمؤمنين، وهو قوله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) أي وذلك بإعزاز الله لهم. والعزة: الغلبة، ومنه قوله تعالى (وعزني في الخطاب) أي: غلبني في الخصام.

قوله تعالى (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم)

قال الشيخ الشنقيطي: هذا المنزل الذي أحال عليه هنا هو المذكور في سورة الأنعام في قوله تعالى (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره) وقوله هنا (فلا تقعدوا معهم) لم يبين فيه حكم ما إذا نسوا النهي حتى قعدوا معهم، ولكنه بينه في سورة الأنعام بقوله (وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) .

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسنديهما الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: قوله تعالى (أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها) ، وقوله (ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وقوله (وأقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ونحو هذا من القرآن، قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم، أنما هلك من كان قبلكم بالمراء والخصومات في دين الله.." (١)

"قوله تعالى (لكل نبأ مستقر)

أخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: (لكل نبأ مستقر) ، يقول: حقيقة.

أخرج ابن أبي حاتم بسنده الحسن عن مجاهد (لكل نبأ مستقر) ما كان في الدنيا فسوف ترونه، وما كان في الآخرة فسوف يبدو لكم.

قوله تعالى (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره)

قال الشيخ الشنقيطي: قوله تعالى (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيرة) . نهى الله تعالى نبيه – صلى الله عليه وسلم – في هذه الآية الكريمة عن مجالسة الخائضين في آياته، ولم يبين كيفية خوضهم فيها التي هي سبب منع مجالستهم، ولم يذكر حكم مجالستهم هنا، وبين ذلك كله في موضع أخر فبين أن خوضهم فيها بالكفر والاستهزاء بقوله: (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم) الآية.

ويبين أن من مجالستهم في وقت خوضهم فيها مثلهم في الإثم بقوله: (إنكم إذا مثلهم) ، وبين حكم من جالسهم ناسيا، ثم تذكر بقوله هنا (وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) كما تقدم في سورة النساء.

أخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا) وقوله (الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا) وقوله (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) وقوله (أن أقيموا الدين ولا

---

(١) الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور حكمت بشير ياسين ١٢٤/٢

تتفرقوا فيه) ونحو هذا في القرآن، قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله.." (١)

"إشارة إلى ما أنزل الله في سورة الأنعام ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ [الأنعام: ٦٨] وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: دخل في هذه الآية كل محدث في الدين وكل مبتدع إلى يوم القيامة، ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء: ١٤٠] أي: إن قعدتم عندهم وهم يخوضون ويستهزءون ورضيتم به فأنتم كفار مثلهم، وإن خاضوا في حديث غيره فلا بأس بالقعود معهم مع الكراهة، وقال الحسن: لا يجوز القعود معهم وإن خاضوا في حديث غيره، لقوله تعالى: ﴿وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ [الأنعام: ٦٨] والأكثرون على الأول. وآية الأنعام مكية وهذه مدنية والمتأخر أولى. قوله: ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ [النساء: ١٤٠]

[قوله تعالى الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح] من الله قالوا ألم نكن معكم. . . .

[١٤١] ﴿الذين يتربصون بكم﴾ [النساء: ١٤١] ينتظرون بكم الدوائر، يعني: المنافقين، ﴿فإن كان لكم فتح من الله﴾ [النساء: ١٤١] يعني: ظفر وغنيمة، ﴿قالوا﴾ [النساء: ١٤١] لكم ﴿ألم نكن معكم﴾ [النساء: ١٤١] على دينكم في الجهاد كنا معكم فاجعلوا لنا نصيبا من الغنيمة، ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ [النساء: ١٤١] يعني دولة وظهور على المسلمين، ﴿قالوا﴾ [النساء: ١٤١] يعني: المنافقين للكافرين، ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ [النساء: ١٤١] والاستحواذ: هو الاستيلاء والغلبة، قال تعالى: ﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ [المجادلة: ١٩] أي: استولى وغلب، يقول: ألم نخبركم بعورة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ونطلعكم على سرهم؟ قال المبرد: يقول المنافقون للكفار ألم نغلبكم على رأيكم ﴿ونمنعكم﴾ [النساء: ١٤١] ونصرفكم، ﴿من المؤمنين﴾ [النساء: ١٤١] أي: عن الدخول في جملتهم، وقيل: معناه ألم نستول عليكم بالنصرة لكم ونمنعكم من المؤمنين، أي ندفع عنكم صولة المؤمنين بتخذيلهم عنكم ومراسلتنا إياكم بأخبارهم وأمورهم، ومراد المنافقين بهذا الكلام إظهار المنة على الكافرين ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾ [النساء: ١٤١] يعني: بين أهل الإيمان وأهل النفاق، ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ [النساء: ١٤١] قال علي: في الآخرة، وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم: أي حجة، وقيل: ظهورا على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

[١٤٢] ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾ [النساء: ١٤٢] أي يعاملونه معاملة المخادعين وهو خادعهم، أي: مجازيهم على خداعهم وذلك أنهم يعطون نورا يوم القيامة كما للمؤمنين فيمضي المؤمنين بنورهم على الصراط، ويطفأ نور المنافقين، ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة﴾ [النساء: ١٤٢] يعني: المنافقين ﴿قاموا كسالى﴾ [النساء: ١٤٢] أي: متثاقلين لا

---

(١) الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور حكمت بشير ياسين ٢٤٨/٢

يريدون بها الله فإن رآهم أحد صلوا وإلا انصرفوا فلا يصلون، ﴿يراءون الناس﴾ [النساء: ١٤٢] أي: يفعلون ذلك مراءاة للناس لا اتباعا لأمر الله، ﴿ولا يذكرون الله إلا قليلا﴾ [النساء: ١٤٢] قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن:." [١]

"صفات المنافقين

قص الله تعالى علينا في قرآنه المجيد أخبار المنافقين وذكر صفاتهم، حتى نحذرها ولا نتشبه بهم ولا نتورط بمثل أعمالهم الشنيعة، فمن صفات المنافقين التي هي أشد ضررا على المؤمنين: موالاتهم ومناصرتهم الكفار، وتركهم ومعاداتهم المؤمنين، نبه سبحانه على فساد ذلك ليدعه من يقع في نوع منه غفلة أو جهالة أو مسامحة. وأرشد الله تعالى إلى سبب توبيخهم ونقطة ضعفهم: وهو طلب العزة والاستكثار والتقوي بغير المؤمنين، والأمر ليس كذلك، بل العزة كلها لله تعالى، يؤتيها من يشاء، وقد وعد بها المؤمنين، وجعل العاقبة للمتقين.

قال الله تعالى مبينا صفات المنافقين القبيحة:

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٧ الى ١٤١]

إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

«١» «٢» «٣» «٤» [النساء: ٤/ ١٣٧- ١٤١] .

عجيب وغريب أمر هؤلاء المنافقين، لا يحترمون أنفسهم، وكأنهم وحدهم يعيشون في هذا العالم، في سطحية وسذاجة، فهم أغرار وجهلاء بالحقيقة، يتذبذبون ويترددون بين أهل الإيمان وأهل الكفر، لا مرة واحدة، بل مرات متعددة، فتراهم

---

(١) المنعة والقوة.

(٢) ينتظرون بكم الأحداث.

(٣) نصر.

(٤) نغلبكم.." [٢]

"٥- المرتد يستتاب ثلاثة أيام وإلا قتل كفرا أخذا من قوله: ﴿ثم آمنوا ثم كفروا﴾ .

﴿بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة

---

(١) مختصر تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل عبد الله الزيد ١/ ٢١٠

(٢) التفسير الوسيط للزحيلي وهبة الزحيلي ١/ ٣٩٦

لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١) ﴾

شرح الكلمات:

﴿بشر المنافقين﴾ : البشارة: الخير الذي تتأثر به بشرة من يلقى عليه خيرا كان أو شرا. والمنافق: من يبطن الكفر ويظهر الإيمان تقية ليحفظ دمه وماله.

﴿أولياء﴾ : يوالونهم محبة ونصرة لهم على المؤمنين.

﴿العزة﴾ : الغلبة والمنعة.

﴿ويستهزأ بها﴾ : يذكونها استخفافا بها وإنكارا وجحودا لها.

﴿يخوضوا﴾ : يتكلموا في موضوع آخر من موضوعات الكلام.

﴿مثلهم﴾ : أي: في الكفر والإثم.

﴿يتربصون بكم﴾ : ينتظرون متى يحصل لكم انهزام أو إنكسار: فيعلنون عن كفرهم.

﴿نصيب﴾ : أي: من النصر وعبر عنه بالنصيب القليل لأن انتصارهم على المؤمنين نادر.." (١)

"ولكن ذكرى: أي موعظة لهم.

وذر الذين: أي اترك الكافرين.

لعباً ولهوا: كونه لعبا لأنه لا يجنون منه فائدة قط، وكونه لهوا لأنهم يتلهون به وشغلهم عن الدين الحق الذي يكملهم ويسعدهم.

أن تبسل نفس: أي تسلم فتؤخذ فتحبس في جهنم.

كل عدل: العدل هنا: الفداء.

أبسلو: حبسوا في جنهم بما كسبوا من الشرك والمعاصي.

من حميم: الحميم الماء الشديد الحرارة الذي لا يطاق.

وعذاب أليم: أي شديد الألم والإيجاع وهو عذاب النار.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث مع أولئك العادلين المكذبين في! قول الله تعالى لرسوله ﴿وإذا رأيت١ الذين يخوضون في آياتنا﴾ يستهزئون بالآيات القرآنية ويسخرون مما دلت عليه من التوحيد والعذاب للكافرين ﴿فأعرض عنهم﴾ أي فصد عنهم وانصرف ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ وإن أنساك الشيطان نهينا هذا فجلست ثم ذكرت فقم ولا تقعد مع القوم

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري أبو بكر الجزائري ٥٥٧/١

الظالمين، وقوله تعالى: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ أي وليس على المؤمنين المتقين أنت وأصحابك يا رسولنا من تبعة ولا مسئولية ولكن إذا خاضوا في الباطل فقوموا ليكون ذلك ذكرى لهم فيكفون عن الخوض في آيات الله تعالى. وهذا كان بمكة قبل قوة الإسلام، ونزل بالمدينة النهي عن الجلوس مع الكافرين والمنافقين إذا خاضوا في آيات الله ومن جلس معهم يكون مثلهم وهو أمر عظيم قال تعالى: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى والثانية.

---

١ الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأمته داخلة معه في هذا فمتى حصل لمؤمن أو مؤمنة مثل هذا تعين عليه أن يقوم احتجاجا وعدم رضا، وفي الآية دليل على أن مجالسة أهل الكبائر لا تجوز لاسيما في حال تلبسهم بالكبيرة، وهذه أقوال السلف في هذه المسألة قال ابن خويز منداد: من خاض في آيات الله تركت مجالسته وهجر مؤمنا كان أو كافرا قال القرطبي: منع أصحابنا الدخول على أرض العدو ودخول كنائسهم ومجالسة الكفار وأهل البدع وألا تعتقد مودتهم ولا يسمع كلامهم ولا مناظرتهم. قال الفضيل بن عياض من أحب صاحب بدعة أحبط الله عمله وأخرج نور الإيمان من قلبه.." (١)

"ذلك١ لعلى هدى مستقيم ... الخ"٢. ونقل القرطبي رحمه الله عن سهل بن عبد الله التستري٣ قوله: "عليكم بالاقتداء بالأثر والسنة، فإني أخاف أنه سيأتي عن قليل زمان إذا ذكر إنسان النبي صلى الله عليه وسلم والاقتداء به في جميع أحواله ذموه، ونفروا عنه، وتبرؤا منه، وأذلوه، وأهانوه ... لا يحدث أحدكم بدعة حتى يحدث له إبليس عبادة، فيتعبد بها ثم يحدث له بدعة، فإذا نطق بالبدعة ودعا الناس إليها نزع منه تلك الخدمة) ٤ وهذا غيض من فيض، فنحذر إخواننا المسلمين من خطر الابتداع ومرافقة المبتدعين وإذا ثبت لنا أن رجلا ما يدعو إلى بدعة أو يحبذها. فعلينا مجانبته، والتحذير من مجالسته، فإنه جليس سوء ونافخ كير إما أن يحرق عقيدتك وإما أن تجد منه قولا باطلا لا دليل عليه من كتاب ولا سنة، إن المروجين للبدع اليوم كثر وهم أئمة في مظاهرهم، وهيئاتهم، ولكنهم مضلون٥ في بواطنهم وأفكارهم، فانصبوا لهم موازين الكتاب والسنة، وانفوا خبث أقوالهم بصوارم الأدلة، تكونوا من الفرقة الناجية التي عضت على الكتاب والسنة بالنواجذ، وإياكم والميل لصاحب بدعة أو مجالسته فإن ذلك يعرضكم للعقوبة فالله عز وجل يقول: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ ٦وقد بينت آية النساء وهي مدنية عقوبة من فعل ذلك وخالف ما أمر الله به قال تعالى: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ ٧ فالله عز وجل ألحق من جالس هذه الطوائف بهم في الحكم، والعبرة أيها القارئ الكريم بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وهذا ما فهمه جلة من علماء المسلمين وأئمتهم منهم أحمد بن حنبل والأوزاعي وعبد الله بن المبارك حين حكموا بموجب هذه الآية وما في معناها في مجالسي أهل البدع، وأدبوهم على المعاشرة والمخالطة، وقالوا فيمن شأنه مجالسة أهل البدع: "ينهى عن مجالستهم فإن انتهى وإلا ألحق بهم، وقد نفذ هذا عمليا الخليفة

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري أبو بكر الجزائري ٧٥/٢

العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله وحكم بالحد

---

١ بين المقصر والمجسر (بين الإفراط والتفريط) .

٢ أخرجه أبو داود ٥/١٨ واستفاده القرطبي ٧/ ١٣٩.

٣ انظر شيئا من أقواله رحمه الله في الحلية١٠/١٨٩.

٤ ذكره القرطبي ١٠/ ١٨٩.

٥ انظر حديثا في هذا قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح (الجامع ٤/ ٥٠٤) .

٦ الآية ١٦٨ الأنعام.

٧ الآية ١٤٠ النساء.." (١)

"على مجالسي شربة الخمر وتلا ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ (النساء: من الآية١٤٠) قيل له: فإنه (أي المجلس) يقول: "إني أجالسهم لأبابنهم، وأرد عليهم". قال: "ينهى عن مجالستهم فإن لم ينته ألحق بهم"١. ولا ريب أن من طرق هذا الموضوع ورام البيان وقصد الاستيعاب، فإنه يجد ما ذكرناه هنا قطرة من بحر، وإنما قصدنا لفت لنظر وربما كفت الإشارة عن صريح العبارة.

قوله: ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ (الأنعام: من الآية١٥٣) .

تقدم في الوصية التاسعة هذا القول الكريم ولم يكن تكراره هنا عبثا فقد جل كلام الله عن العيب والنقص فله الكمال المطلق، لكنه لمزيد من التوكيد أعاد اللفظ تنويها بقدر تلك الوصايا، وتنبيها على عظيم شأنها عند الله عز وجل، وحثا لعباده على تدبرها والتمسك بها، فيالها من وصية حوت الخير كله فكانت واضحة الأسلوب، جلية المقصد، أنارت الطريق للسالكين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

هذا ما تيسر بحثه في هذه الآيات ونسأل الله الهدى والتقى، والنية الخالصة فهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

١ انظر ما نقله القرطبي ٧/١٣٧-١٤٢.." (٢)

"- التهكم بالمشركين:

قال تعالى: ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما﴾ (النساء: ١٣٨)، بيان سبب هذا العذاب للمنافقين بينه الله، قال تعالى: ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا﴾ (النساء: ١٣٩). إن أول مراتب النفاق أن يجلس المؤمن مجلسا يسمع فيه آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها، فيسكت ويتغاضى، يسمى ذلك تسامحا أو نسميه دهاء، أو نسميه سعة صدر وأفق وإيمانا بحرية الرأي، لا شك أن هذا نفاق، قال تعالى: ﴿وقد نزل عليكم في

---

(١) أطيب النشر في تفسير الوصايا العشر مرزوق بن هياس الزهراني ٧١ - ٧٢/٤٣

(٢) أطيب النشر في تفسير الوصايا العشر مرزوق بن هياس الزهراني ٧١ - ٧٢/٤٤

الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ (النساء: ١٤٠).

المنافقون يمسكون العصا من النصف، يلقون المسلمين بوجه ويلقون الكافرين بوجه، قال تعالى: ﴿الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ (النساء: ١٤١).

ويرسم القرآن صورة زرية ومحتقرة للمنافقين بقوله: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا * مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا﴾ (النساء: ١٤٢،١٤٣). إن الله يتوعد المنافقين بقوله: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا﴾ (النساء: ١٤٥).." [١]

"المنافقون وصفاتهم [سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٧ الى ١٤٣]

إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)

إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا (١٤٢) مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (١٤٣)." [٢]

"قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ... ﴾ (١).

وبهذا صار القرآن المرجع الديني التشريعي الوحيد، للبشرية أجمعين.

﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا﴾:

ومن يكفر بالله تبارك وتعالى، واتصافه بكل كمال وتنزهه عن كل نقص، ويكفر بملائكته الذين هم عباد مكرمون: لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ويكفر بكتبه المنزلة على رسله لهداية خلقه، ويكفر باليوم الآخر الذي يبعث فيه الخلائق للجزاء – من يفعل ذلك – فقد بعد عن الحق بعدا سحيقا، يستحق عليه العذاب الشديد، لإهداره آدميته.

﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩)

---

(١) التفسير الموضوعي ١ – جامعة المدينة جامعة المدينة العالمية ص/١٥٥

(٢) التفسير الواضح محمد محمود حجازي ١/٤٤٢

وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠)﴾.

المفردات:

﴿ازدادوا كفرا﴾: عادوا واستمروا فيه.

﴿بشر المنافقين﴾: أنذرهم.

---

(١) المائدة، من الآية: ٤٨." (١)

"والحق: أنهم ما جالسوهم إلا ليشاركوهم في الكفر والاستهزاء.

ولذا قال الله عقب ذلك:

﴿إنكم إذا مثلهم﴾: أي: مثلهم في الكفر. ولستم بمؤمنين كما تزعمون. فإن المرء بجليسه. ولذلك أشركهم الله مع الكافرين في الوعيد، فقال تعالى:

﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾:

فيعذبون فيها على اختلاف أعمالهم.

ولا شك أن عذاب النفاق أشد من عذاب الكفر، كما قال تعالى: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا﴾ (١)؛ لأنهم جمعوا بين الكفر والكيد للإسلام.

﴿الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١) إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا (١٤٢) مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (١٤٣)﴾

المفردات:

﴿يتربصون بكم﴾: ينتظرون وقوع أمر بكم.

﴿فتح من الله﴾: نصر منه.

---

(١) النساء، الآية: ١٤٥." (٢)

". إظهار الطاعة والموافقة للمشركين على دينهم قال تعالى: " إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم * ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم *

---

(١) التفسير الوسيط - مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ٩٣٩/٢

(٢) التفسير الوسيط - مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ٩٤٢/٢

فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم * ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم " (محمد، آية: ٢٥. ٢٨).

. موالاة المشركين والكافرين قال تعالى: " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين " (المائدة، آية: ٥١).

وقال تعالى: " لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء " (آل عمران، آية: ٢٨).

. الجلوس عند المشركين في مجالس شركهم من غير إنكار قال تعالى: " وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا " (النساء، آية: ١٤٠).." [١]

"القصة الرابعة– قصة موسى وهارون عليهما السلام

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٤٥ الى ٤٩]

ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين (٤٥) إلى فرعون وملائه فاستكبروا وكانوا قوما عالين (٤٦) فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون (٤٧) فكذبوهما فكانوا من المهلكين (٤٨) ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون (٤٩)

البلاغة:

عالين، المهلكين سجع لطيف.

المفردات اللغوية:

بآياتنا بالآيات التسع كاليد والعصا، وهي المذكورة في سورة الأعراف وسلطان مبين حجة بينة واضحة ملزمة للخصم، والمراد بالسلطان المبين: إما الآيات أنفسها، أي هي آيات وحجة بينة، وإما العصا لأنها كانت أم الآيات وأولاها، وقد تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها حية، وتلقفها ما أفكته السحرة، وانفلاق البحر، وانفجار العيون من الحجر، بضربها بها، وكونها حارسا، وشمعة، وشجرة خضراء مثمرة، ودلوا، ورشاء، فجعلت كأنها ليست بعض الآيات، لخصائصها ومزاياها وفضلها، فلذلك عطف عليها، كقوله تعالى: وجبريل وميكال [البقرة ٢/ ٩٨] عطفا على الملائكة، مع أنهما منهم.

ومثل وغير: يوصف بهما الاثنان والجمع، والمذكر والمؤنث، كقوله **تعالى: إنكم إذا مثلهم** [النساء ٤/ ١٤٠] ومن الأرض مثلهن [الطلاق ٦٥/ ١٢] . ويقال أيضا: هما مثلاه، وهم أمثاله، كما قال تعالى: إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم [الأعراف ٧/ ١٩٤] .

---

(١) الإيمان بالله جل جلاله علي محمد الصلابي ص/٢٦٥

فاستكبروا عن الإيمان بالله وبالآيات، والمتابعة عالين متكبرين قاهرين بني إسرائيل بالظلم أنؤمن لبشرين «١» مثلنا ثنى البشر لأنه يطلق للواحد، كقوله تعالى:

---

(١) لفظ البشر يطلق على الواحد والجمع، كما قال تعالى في إطلاقه على الواحد: فتمثل لها بشرا سويا [مريم ١٩/ ١٧] أنؤمن لبشرين [المؤمنون ٢٣/ ٤٧] . ومثال إطلاقه على الجمع قوله تعالى: فإما ترين من البشر أحدا [مريم ١٩/ ٢٦] وما هي إلا ذكرى للبشر [المدثر ٧٤/ ٣١]." (١)

"وأجازها لغيرهم»

قال الخطابي: ذو الغمر: هو الذي بينه وبين المشهود عليه عداوة ظاهرة، فترد شهادته عليه للتهمة. والقانع: هو المنقطع إلى القوم يخدمهم ويكون في حوائجهم مثل الأجير أو الوكيل ونحوه. ومعنى رد الشهادة: التهمة في جر المنفعة إلى نفسه، وكل من جر إلى نفسه بشهادته نفعا، فشهادته مردودة.

والحديث حجة على من أجاز شهادة الأب لابنه لأنه يجر به النفع، لما جبل عليه من حبه والميل إليه. وممن ترد شهادته عند مالك: البدوي على القروي،

لما روى أبو داود والدارقطني عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية» .

وأما الآية الثانية يا أيها الذين آمنوا آمنوا فالظاهر أنها نزلت في جميع المؤمنين، والمعنى: يا أيها الذين صدقوا أقيموا على تصديقكم واثبتوا عليه، وصدقوا بالقرآن وبكل كتاب أنزل على النبيين.

وقيل: إنه خطاب للمنافقين والمعنى على هذا: يا أيها الذين آمنوا في الظاهر أخلصوا لله.

وقيل: المراد المشركون والمعنى: يا أيها الذين آمنوا باللات والعزى والطاغوت آمنوا بالله، أي صدقوا بالله وبكتبه.

وقيل: نزلت فيمن آمن بمن تقدم محمدا صلى الله عليه وسلم من الأنبياء عليهم السلام.

صفات المنافقين وجزاؤهم ومواقفهم من المؤمنين

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٧ الى ١٤١]

إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩) وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره** **إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله

---

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٤٩/١٨

قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١)." (١)

"والخطاب في قوله: وقد نزل عليكم في الكتاب.. عام لجميع من أظهر الإيمان من محق ومنافق لأنه إذا أظهر الإيمان، فقد لزمه أن يمتثل أوامر كتاب الله. وكان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود، فيسخرون من القرآن.

ودل قوله تعالى: فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره- أي غير **الكفر- إنكم إذا مثلهم على** وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر لأن من لم يجتنبهم فقد رضي فعلهم، والرضا بالكفر كفر. قال الله عز **وجل: إنكم إذا مثلهم فكل** من جلس في مجلس معصية، ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكير عليهم، فينبغي أن يقوم عنهم، حتى لا يكون من أهل هذه الآية.

وإذا ثبت تجنب أصحاب المعاصي، فتجنب أهل البدع والأهواء أولى.

٨- موقف المنافقين موقف ضعيف يستدعي العجب والسخرية والطرد من الجانبين: فإنهم كانوا يطمعون في غنائم المسلمين متذرعين بأنهم مظاهرون لهم ومؤيدون جهادهم. وكذلك كانوا يطمعون في غنائم الكفار متذرعين بأنهم دافعوا عنهم وخذلوا عنهم المسلمين، حتى هابهم المسلمون.

والآية: الذين يتربصون بكم.. تدل على أن المنافقين كانوا يخرجون في الغزوات مع المسلمين، ولهذا قالوا: ألم نكن معكم؟.

وتدل على أنهم كانوا لا يعطونهم الغنيمة، ولذا طالبوها وقالوا: ألم نكن معكم؟

ويحتمل أن يريدوا بقولهم: ألم نكن معكم الامتنان على المسلمين، أي كنا نعلمكم بأخبارهم، وكنا أنصارا لكم «١» .

---

(١) تفسير القرطبي: ٥/ ٤١٩." (٢)

"وإن أنساك الشيطان أيها المسلم النهي والمنع، فجلست مع الخائضين ناسيا، فلا تقعد بعد التذكر مع القوم الظالمين أنفسهم بالتكذيب والاستهزاء.

والخطاب للرسول وكل سامع مسلم.

ويجوز وقوع النسيان على النبي بغير وسوسة الشيطان لقوله تعالى:

واذكر ربك إذا نسيت [الكهف ١٨/ ٢٤] وقد وقع النسيان من آدم عليه السلام: فنسي ولم نجد له عزما [طه ٢٠/ ١١٥] ومن موسى عليه السلام: قال: لا تؤاخذني بما نسيت [الكهف ١٨/ ٧٣] وثبت في الكتب الستة أن النبي صلى الله عليه وسلم سها في الصلاة وقال: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني» .

أما في تبليغ الوحي والدين المنزل من الله، فإن الأنبياء معصومون عن نسيان شيء مما أمرهم الله بتبليغه من حلال أو حرام لقوله تعالى: لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه

---

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٥/٣١٧

(٢) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٥/٣٢٤

[القيامة ٧٥/ ١٦- ١٩] .
وإنساء الشيطان للإنسان بعض الشيء ليس من قبيل التصرف فيه، والسلطان عليه لقوله تعالى: إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه، والذين هم به مشركون [النحل ١٦/ ٩٩- ١٠٠] .
فإن تجنبوا مجالسة الخائضين، فلا يحاسبون على خوضهم، وبرئوا من عهدتهم، وتخلصوا من إثمهم. وقال آخرون (مجاهد والسدي وابن جريج) : بل معناه: وإن جلسوا معهم، فليس عليهم من حسابهم من شيء، وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية وهي **قوله: إنكم إذا مثلهم** [٤/ ١٤٠] .." [1]
"منهج السلف في البعد عن الشبهات
كان السلف رحمهم الله يحرصون على التباعد عن الشبه، وهذا منهج قرآني، فإن الله سبحانه وتعالى قد أمر العباد بأن يبعدوا عن الذين يخوضون في آيات الله، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء:١٤٠] ، وقال جل ذكره: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾ [الأنعام:٦٨] ، والخوض في الشبهات وإيرادها هو من الخوض في آيات الله؛ ولذلك تدل هذه الآية على ما كان عليه السلف رحمهم الله من تباعد عن الشبهات، وحرص على النأي عنها.." [2]
"التحاكم إلى الطاغوت مجردا عن التصريح بالرضا، فهذا لا يكفر صاحبه إلا إذا ثبت أنه كان له مندوحة عن هذا التحاكم، وأنه لم يكن مضطرا ولا محتاجا إليه. والحق أن من يتحاكم إلى الطاغوت في غير ضرورة شرعية، لا يمكن إلا أن يكون راضيا عن هذا الشرع الطاغوتي. فرجع الأمر الثاني – عند التحقيق -إلى الأول، وتبين أن المناط الحقيقي هو الرضا والقبول.
ودليل كفر المتحاكم إلى الطاغوت قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا﴾ الآيات، وهي صريحة في أن إرادة التحاكم إلى الطاغوت إيمان بهذا الطاغوت، وكفر بالله عز وجل.
وقال تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ ، فبينت الآية أن متابعة الذين يشرعون من دون الله عز وجل شرك مناقض لمعنى كلمة: لا إله إلا الله.
وقال تعالى: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث **غيره إنكم إذا مثلهم إن** الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ ، فإذا كان هذا حال من يقعد – من غير

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٢٤٨/٧
(٢) شرح كشف الشبهات لخالد المصلح خالد المصلح ٤/١

إنكار – في مجلس يكفر فيه بآيات الله فكيف بمن يتحاكم – طائعا مختارا– إلى القوانين التي هي من أعظم المحادة لله ورسوله؟!." (١)

(١) شرح منظومة الإيمان عصام البشير المراكشي ص/١٨٦